القسم الثانى

المغرب الأقصى

الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية[1]

المغرب الأقصى أبعد أجزاء المغرب عن بلدان المشرق ، فهو نهايته الواقعة على المحيط الأطلسى غربا والبحر المتوسط شمالا ، وتحدُّه الجزائر شرقا والصحراء الكبرى جنوبا ، وسطحه فى الجملة جبلى إذ تمتد فيه سلسلتان من الجبال تتصلان جيولوجيا بجبال الألب الأوربية ، وهما تمتدان فيه من الغرب إلى الشرق ، وأولاهما شمالية ، ويتفرع منها فى الشمال الغربى فرع جبال الريف الذى يتخذ شكل قوس يحتضن الساحل الشمالى من مدينة سبتة جنوبى جبل طارق إلى مدينة مليلة غربى مصب نهر الملوية . ويمتد فرع محاذ له يسمى أطلس التل ، بينه وبين سلسلة جبال الأطلس الصحراوى هضبة وتكثر فى هذا السطح الجبلى أنهار ونهيرات وسهول . وسلسلة الجبال فى الأطلس الصحراوى شديدة الارتفاع وتتميز بكثرة المنحدرات الوعرة ، وتتفرع منها سلسلة جبال صغيرة يسميها ابن خلدون جبال درن ، وكثير من جبال الأطلس الصحراوى تكسوه الغابات وتتوجه الثلوج .

ولكى نتصور المغرب الأقصى جغرافيا ينبغى أن نعرض مناطقه ، وأول ما يلقانا منها فى الشمال الغربى منطقة الهبط ، وتنتهى شمالا على مضيق جبل طارق وشرقا على البحر المتوسط وغربا على المحيط الأطلسى ، ومن أهم مدنها سبتة وطنجة شمالا وتطوان على البحر المتوسط شرقا وأصيلا على المحيط الأطلسى غربا ومنطقة أزغار جنوبا ، ويبلغ طول الهبط نحو مائة ميل وعرضها نحو ثمانين ميلا ، وتكثر فيها المجارى والنهيرات المائية وأرضها خصبة جدا ووافرة الإنتاج ، وسهولها وجبالها مأهولة بالسكان . ولعب سكانها دورا مهما فى الدفاع عن غرناطة وإقليمها حين ظلت قرنين ونصفا تقاوم نصارى الإسبان الشماليين ، وخاصة سكان جبل ودراس البواسل ، وقد ظلوا يتداولون قصصا كثيرة فى عبارات نثرية وقصائد شعرية عن

(١) انظر فى جغرافية المغرب الأقصى كتابات أبى عبيد البكرى والإدريسى (انظر جغرافية الجزائر) وجغرافية الوطن العربى للدكتور محمد محمود الصياد وصورة الأرض لابن حوقل وملامح المغرب العربى للدكتورين محمد عبد المنعم الشرقاوى ومحمد محمود الصياد وكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

بطولات بطل شعبى من أبطالهم يسمى « هلّولا » وبطولته فى المغرب الأقصى تماثل البطولات التى تحكى فى فرنسا عن بطلهم رولان فى ملحمته المشهورة ، وحرى بنا أن تكون لنا ملحمة مماثلة عن « هلولا » . وجنوبى هذه المنطقة على المحيط منطقة أزغار ، وهى سهل خصب وتكثر بها المدن والقرى والسكان ، وتمتد على المحيط نحو ثمانين ميلا ومن مدنها القصر الكبير وميناء العرايش ، ولكثرة زروعها تموّن مدينة فاس ، ويؤلف شبابها زهرة الجيش الفاسى . وإلى الجنوب منها منطقة فاس ، وهى مدينة متحضرة من قديم أو بعبارة أدق منذ بناها إدريس مؤسس الدولة الإدريسية سنة ١٩٢ هـ/٨٠٧ م وخطت فى الحضارة خطوات واسعة منذ الدولة المرينية ، وهى تتوسط سهلا خصبا أتاح لسكان منطقتها معيشة طيبة لكثرة حقولها وبساتينها ومن مدنها مكناس وتنتج أرضها مختلف الفواكه والثمار ، ومن مدنها أيضا سَلا وهى ميناء على المحيط ونشأت بجانبها مدينة الرباط ، ومدن كل هذه المنطقة تتميز بحضارة رفيعة . وجنوبى هذه المنطقة منطقة تامسنة وهى منطقة غنية وبها كثير من المدن والقرى ، تُعَدُّ بالعشرات . وتنتهى فى الجنوب بجبال أطلس التل ، ومن أهم مدنها أنفة وخلفتها حديثا الدار البيضاء ، وكانت أنفة مزدانة بجوامع وفنادق جميلة ، وهى ميناء على المحيط فى وسط سهل كثير الزروع والحبوب . وإلى الجنوب منها منطقة دكالة ، وكان أهلها فى العصور الوسطى متأخرين لا يعرفون طرق الزراعة وغرس البساتين ومن أهم مدنها آسفى . وتليها على المحيط منطقة حاحة وتعد امتدادا لمنطقة مراكش الداخلية ، وهى منطقة وعرة مليئة بالغابات والجبال والأودية المائية الصغيرة وتزدحم بالسكان ، وأكثر مدنها القديمة أصبحت أطلالا ، وتنتهى هذه المنطقة عند الأطلس الصحراوى . وتليها إلى الجنوب على المحيط منطقة السوس آخر المناطق الغربية للمغرب الأقصى ، وتقع وراء الأطلس الصحراوى جنوبا ، ويكثر فيها النخيل ، ومن أهم مدنها أغادير عند نهاية جبال الأطلس وقرب مصب نهر السوس ، ومنها أيضا ماسة على المحيط وتيوت فى الشمال ، وأرض هذه المنطقة خصبة وتنتج كمية وافرة من الحبوب والفاكهة وخاصة من التين والعنب .

ونعود إلى أقصى الشمال على البحر المتوسط ، فنلتقى بمنطقة الريف متاخمة لمنطقة الهبط ، وتمتد شرقا نحو مائة وأربعين ميلا حتى نهر النكور وجنوبا نحو أربعين ميلا حتى الجبال التى تحاذى نهر الورغة الواقع فى منطقة فاس ، وهى منطقة مليئة بالجبال والغابات شديدة البرودة ، وبها كثير من أشجار البرتقال والتين ، ولكن القمح قليل . وليس فى الجبال سوى مدن قليلة ، وأكثر السكان فى مدن الساحل صيادون وملاحون ، وتنتج الجبال أو كثير منها الأعناب والزيتون والتين والكتان والسفرجل والليمون . وإلى الشرق على البحر المتوسط من هذه المنطقة منطقة غارت ، وتبدأ من نهر النيكور وتنتهى عند مصب نهر الملوية ، وتمتد جنوبا حتى محاذاة جبال منطقة الحوز شرقى فاس وطولها نحو خمسين ميلا فى أربعين ميلا عرضا ، وهى منطقة

شديدة الجفاف قليلة السكان وأهم مدنها مليلة على البحر المتوسط . وإلى الجنوب من إقليم غارت إقليم الحوز وهو يمتد شرقى منطقة فاس فى نحو مائة وتسعين ميلا طولا ومائة وأربعين ميلا عرضا ويشتمل على كثير من السهول والجبال الصحراوية أو جبال أطلس ، ومن أهم مدنها تازه وهى تعد ثالثة المدن فى ولاية فاس من حيث الحضارة والثقافة ، ولها أراض خصبة شديدة الاتساع ، والحياة مزدهرة فى كثير من مدن وجبال هذه المنطقة . وجنوبى الحوز منطقة تادلة ، وتشمل الإقليم من جنوبى نهر العبيد إلى نهر أم الربيع فى الشمال ، ولأهلها مهارة فى دبغ الجلود ونسج الصوف ، وأكثر السكان بالمدن والجبال فى رخاء ومن مدنها تفزة وأفزة . وغربى هذه المنطقة منطقة هسكورة وتبدأ من التلال الغربية فى دُكّالة وتمتد شرقى منطقة مراكش وتتجه إلى الجنوب ، ويعنى سكانها بصناعة الجلود لكثرة المعز بديارهم وأيضا محصول الزيت ، ومن مدنها المدينة وتاغوداست وتغطى بعض جبالها الثلوج على مدار السنة . وإلى الجنوب منها منطقة جزولة شرقى السوس وغربى منطقة الدرعة ، وتوجد بهاعدة مناجم للنحاس والحديد ، أهلت السكان لصناعة كثير من الأوعية ويزرعون الشعير وعندهم الكثير من الماشية . وإلى الشرق من هذه المنطقة منطقة الدرعة وتمتد جنوبا إلى مسافة مائتين وخمسين ميلا . أما السكان فيقيمون فى حوض نهرها وتمتد فيه حدائق النخيل . وفى الجنوب الشرقى من منطقة هسكورة منطقة سجلماسة ، وتمتد على طول نهر زيز ، وتتغلغل جنوبا إلى مسافة مائة وعشرين ميلا حتى حدود الصحراء ، وأهل مدينة سجلماسة أغنياء لتبادلهم التجارة مع بلاد السودان ، وتكثر بمنطقتها التمور .

ولعل فى كل ما قدمت ما يصور من بعض الوجوه أن جغرافية المغرب الأقصى معقدة لكثرة مناطقه واتساع أقاليمه التى تبلغ نحو خمسمائة ألف كيلو متر مربع ، وجباله فى الشمال وفى أطلس التل والأطلس عالية علوا شاهقا ، وهو علو هيأ من جهة لتكوُّن الثلج على قممها وذراها الشامخة ، كما هيأ من جهة ثانية لكثرة نزول الأمطار بها ، وهى تنزل بها منذ شهر أكتوبر وتغزر فى الشتاء. وكثرة الجبال على سطحها هيأها لأن تكثر فيها الأنهار والنهيرات والمجارى المائية، ومعظمها تجرى طوال العام ، ومن أهمها نهر الملوية ، وينبع من منطقة فاس ويجرى إلى الشمال الشرقى ويصب فى البحر المتوسط شرقى مليلة ، ونهر سبو ويجرى من الشرق إلى الغرب ويصب فى المحيط الأطلسى مخترقا منطقة فاس وحوضه يعد أغنى أحواض المغرب الأقصى وأكثرها سكانا ، ويبلغ إنتاجه أربعين فى المائة من إنتاج المغرب الأقصى ، ونهر أم الربيع وينبع من منطقة الحوز، ويتجه جنوبا ثم غربا حتى المحيط ويغذى مناطق تادلة وتامسنة ودُكّالة، ونهر تنسيفت ويتجه من الشرق إلى الغرب ويخترق منطقتى مراكش وحاحة، ونهر السوس ويتجه إلى الغرب مخترقا شمالى جزولة والسوس ويصب فى المحيط بقرب أغادير .

والمغرب الأقصى كما يعتمد على الأنهار يعتمد على الأمطار ، وعلى الرغم من كثرة الجبال

على سطحه الأجزاءُ المهيَّأة للزراعة كثيرة ، وهى أولا سهول ساحلية على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى ، والأولى محدودة المساحة وكأنها فى بعض الأنحاء أشرطة ضيقة ، والثانية أكثر اتساعا ، ويتراوح عرضها بين ثلاثين وتسعين كيلومترا . وتبعد الموانى على المحيط عن مصبات الأنهار لكثرة ما تحمل من الرواسب . وثانيا سهول نهرية وهى سهول كونتها الأنهار بكثرة ما حملت من الرواسب ، مثل سهول الأنهار المذكورة آنفا . وهى تصلح لإنتاج جميع الغلات الزراعية وغرس الأشجار وإقامة الحدائق والبساتين . وثالثا سفوح منحدرات الجبال . ورابعا تربة الأطلس التلى وبه سهول واسعة لزراعة الحبوب وغرس الأشجار . ولاختلاف الطقس بين الوديان والسهول والجبال ومنحدراتها تلقاك فى المغرب مختلف أشجار الفواكه والنُّقل ، ويكثر النخيل فى المناطق الجنوبية . والمناخ فى جملته معتدل على السواحل وأحواض الأنهار إلا ما قد يميز بعض الجبال من البرودة الشديدة حتى لتتوجها الثلوج طول العام .

٢

التاريخ[1] القديم

تاريخ المغرب الأقصى موغل فى العصور السحيقة ، وأخذ يتراءى على صفحات التاريخ مع ارتياد الفينيقيين لسواحل إفريقيا الشمالية أو بعبارة أخرى لسواحل البلاد المغربية منذ القرن التاسع قبل الميلاد وقبله وبعده للبحث عن مواقع غنية بطيبات الخيرات والسلع يُرْسون بها سفنهم ليتبادلوا مع أهلها وجوه التبادل التجارى المختلفة . وكانوا شعبًا ملاحيًّا متحضرا يحترف التجارة ، وظلوا طويلا يحاولون التعرف على المواقع الملائمة لهم فى الساحل الإفريقى الشمالى : وبمرور الزمن ومع كثرة البحث أعجبهم موقع بالقرب من مدينة تونس الحالية أقاموا فيه مدينة قرطاجة ، وسكنتها منهم جالية فينيقية كبيرة ، أقامت بها دولة ظلت قرونا طويلة ، وأخذوا يبحثون لتجارتهم عن أماكن أخرى صالحة لتبادل السلع ، واختاروا فى الجزائر بونة وجيجل وإسكيكدة وبجاية وشرشال ، ونشروا فيها جميعا حضارتهم الفينيقية ، وعلموهم غرس الأشجار وبعض شئون الزراعة والرى ، ونقلوا إليهم من موطنهم القديم فى الشام حول صور فى لبنان بعض أشجار الفاكهة والنقل . واتسعوا فى اتخاذ المواقع على سواحل البحر المتوسط الغربية لتكون مراكز لتجارتهم الواسعة ، فاتخذوا موقعا على الساحل الجنوبى الشرقى لإسبانيا سمّوه « قرطاجنة » واتخذوا موقعا مماثلا فى الجنوب الغربى لإسبانيا سموه « قادس » ونما الموقعان وأصبحا مدينتين فينيقيتين كبيرتين ، وكان طبيعيا أن يبحثوا عن مواقع مماثلة فى سواحل

(١) انظر فى التاريخ القديم للمغرب الأقصى كتاب تاريخ المغرب الكبير – الجزء الأول لمحمد على دبوز – (طبع القاهرة) وكتاب مدنية المغرب العربى للأستاذ أحمد صقر .

المغرب الأقصى ، وأعجبهم موقع غربى مصب نهر الملوية سموه « روسادير » وهو نفس موقع مليلة الحالية وهو فى صدر خليج يساعد على رسو السفن فيه ، وكأنما اختاروه للاتصال عن طريقه بسلع منطقة فاس الغنية . واختاروا فى آخر ساحل المغرب الأقصى الشمالى موقعا مطلا على المحيط الأطلسى ويطل من الشمال الشرقى على مضيق جبل طارق ، سموه « طنجة » والسهل من ورائها خصب ومتسع ووافر الغلات . وكما مدوا ذراعهم شمالا فى إسبانيا إلى « قادس » مدوه جنوبا فى المغرب الأقصى إلى أصيلا نحو سبعين ميلا من طنجة ، وهى فى نفس إقليمها الخصب . وفى كل المواقع التى أقام الفينيقيون لهم فيها مدنا بالساحل المغربى جميعه استقرت حضارتهم الفينيقية قرونا وأجيالا متعاقبة منذ القرن الثامن قبل الميلاد على الأقل وفى القرون التالية . وكانوا شعبًا عريقًا فى الحضارة لا فى شئون الملاحة البحرية وبناء السفن فحسب ، بل أيضا فى كثير من شئون الزراعة والصناعة : صناعة الزجاج الملون وغيره ، وبثوا ذلك كله بين كثيرين من سكان المغرب ، ولابد أن بثوا بينهم أبجديتهم التى وضعوها على هدى الأبجدية الهيروغليفية المصرية ، بعد أن أدخلوا فيها غير قليل من التعديل بحيث صارت أساس الأبجديات العالمية ، وتعلم بعض المغاربة أبجديتهم ولغتهم ، ومعروف أنها لغة سامية . والتقى دين الفينيقيين الوثنى بدين المغاربة الوثنى فى كل مكان ، وكان سكان المغرب الأقصى – مثل بقية سكان المغرب والفينيقيين – يعبدون الشمس والقمر ، ويعتقدون بوجود أرواح مقدسة فى بعض الأشجار والأحجار والطير والحيوان .

ولا نبالغ إذا قلنا إن الفينيقيين فى عصرهم الممتد قرونا نقلوا المغرب الأقصى وغيره من البلدان المغربية من حياة البداوة إلى حياة جديدة من التحضر، فقد تعلم المغاربة على أيديهم كثيرا من شئون التجارة وزراعة الحبوب والبقول والخضر وغَرْس بساتين الفواكه وأشجار الزيتون وتربية المواشى وصناعة السفن واستخراج المعادن من الحديد والنحاس وغيرهما وصنع الأوانى وحلىّ الزينة وحياكة الملابس والدباغة، وعرفوا منهم–فيمايظن– صناعة العطور والعقاقير .

ومن المراكز التى أسسها الفينيقيون لتجارتهم مراكز فى شمالى صقلية من أهمها بالرم ، وتبعهم اليونان – فيما بعد – وأسسوا لهم مراكز فى شرقى صقلية بمسينا وسرقوسة وقطانية ، وكان ذلك فى نشوب الحرب بالقرن السادس قبل الميلاد بين الشعبين أو الفئتين ، وظلت طويلا بينهما دون أن ترجح كفة إحداهما رجحانا نهائيا ومنذ أواسط القرن الثالث قبل الميلاد تتدخل روما وتحاول إزالة القرطاجيين الفينيقيين من صقلية ومن الساحل الإفريقى ونشبت الحرب بين الفئتين لمدة نحو مائة وعشرين عاما (٢٦٤ – ١٤٦ ق .م) ويكتب النصر أخيرا لروما وجيشها ، فيقضى على قرطاجة قضاء مبرما ، ويهدم مبانيها الشاهقة ، ويبنى بجوارها قرطاجة جديدة ، وتستولى روما على كل ما كان بيد القرطاجيين الفينيقيين من بلدان وأقاليم فى إفريقية

التونسية والبلاد المغربية ، وبذلك تبعتهم نوميديا بما تشمله من الصحارى فى غربى الجزائر وشرقى المغرب الأقصى حتى نهر الملوية وإلى الجنوب حتى سجلماسة ويقال إن قائدا رومانيا بناها وسماها سيجيللوم ماسة ، وحُرِّف الاسم مع الزمن إلى سجلماسة ، وبنى قواد آخرون مدنا فى نوميديا الجزائرية على نحو ما صورنا ذلك فى حديثنا عن تاريخها القديم .

وكما مدت روما ولاءها على المدن الجزائرية الفينيقية مدّته أيضا على مدن الفينيقيين فى المغرب الأقصى : مليلة وطنجة وأصيلا ، وكان حكامها من البربر سكانها يتخذون عاصمة لهم طنجة . وكان المغرب الأقصى شرقى نهر الملوية يسمى موريتانيا الغربية ، أما موريتانيا الشرقية فكانت تتداخل مع نوميديا . وربما كان أهم حاكم قديم لموريتانيا الغربية هو بوكوس الأول ، وإليه أصهر يوغورطة حاكم نوميديا ، ودخل يوغورطة فى حروب مع الرومان فأعانهم فى القبض عليه سنة ١٠٦ قبل الميلاد صهره بوكوس ، وخلفه ابنه بوغيد سنة ٨٠ قبل الميلاد وظل قائما عليها حتى سنة ٤٤ قبل الميلاد فخلفه ابنه بوكوس الثانى حتى سنة ٣٣ قبل الميلاد . واستولى عليها الرومان بعده ، وفى سنة ١٧ قبل الميلاد جعلوا عليها بويا الثانى صاحب نوميديا ، وخلفه عليها ابنه بطليموس حتى سنة ٤٠ للميلاد ، ثم جثم الرومان على المغرب جميعه . ونرى الرومان ينشئون فى المغرب الأقصى مدنا على ساحل البحر المتوسط مثل سبتة القريبة من جبل طارق وكانوا يسمونها «سيفيتاس» واتخذوها مقرا لحكومتهم الرومانية فى المغرب الأقصى ، فهى متحضرة من قديم ، وعمالها مهرة فى صناعة النحاس والشمعدانات ، وخارجها بساتين وحدائق بديعة . ولم يكتف الرومان بما كان على المحيط للفينيقيين من مدن مثل طنجة وأصيلا ، فقد توغلوا على ساحله إلى موقع سَلا وبنوا فيه مدينتها قرب نهر أبى الرقراق على مسافة ميلين من المحيط ، بل توغلوا أكثر من ذلك إلى إقليم تامسنة، وبنوا على ساحل المحيط مدينة أنفة مدينة الدار البيضاء الآن، وهى فى سهل خصب صالح لزراعة كل أنواع الحبوب. وجاس الرومان خلال ديار المغرب الأقصى، بدليل أننا نجدهم يتفرجون على منطقة فاس وما بها من زروع مزدهرة ، وأعجبهم بجوارها جبل زرهون الذى يمتد نحو الغرب ثلاثين ميلا ويمتد عرضه إلى عشرة أميال، وهو مغطى بأشجار الزيتون ، وقد بنوا فوق قمته مدينة وَليلى ، والأرض حولها مزدانة بمزارع وبساتين بديعة ، وكان الوالى الرومانى يقيم إما فى هذه المدينة وإما فى مدينة سبتة. وأرهق الرومان سكان المغرب الأقصى بكثير من العسف والضرائب الباهظة، وكانوا ينهبون خيرات الأرض من الحبوب والزيتون وعصيره . ولما اعتنقت روما الديانة المسيحية واتخذتها دينها الرسمى حاولت نشرها فى أرجاء إمبراطوريتها والبلاد المغربية، غير أن من اعتنقوها من المغرب الأقصى كانوا قلة شديدة فى المدن الساحلية، وأكثرهم كان من الجاليات الرومانية والأجنبية.

وظل البربر يقومون بفتن وثورات كثيرة فى أيام الرومان لكثرة مظالمهم وفداحة ما كانوا يفرضونه من الضرائب على الشعب البربرى وأبنائه ، وأخذت دولتهم تضعف منذ القرن الثالث

الميلادى وأخذت تسود الفوضى وتعم الثورات فى الإمبراطورية الرومانية والبلاد المغربية ، وتفاقم ذلك فى القرن الرابع الميلادى . وطمعت شعوب أوربا الشمالية فى اقتسام أراضى الإمبراطورية الرومانية الغربية ، وأخذت تكتسح أجزاء أوربية منها حتى إذا كانت سنة ٤٣٤ للميلاد اكتسح الوندال كل ما تملكه روما فى إفريقية التونسية والجزائر ونوميديا ورحب بهم المغاربة وأعانوهم ضد الرومان ومكنوهم من الانتصار عليهم ، لما ظنوا فيهم من وقف الظلم الرومانى ورفعه عن كواهلهم غير أنهم لم يلبثوا أن ذاقوا الأمرَّين فى عهدهم الذى امتد نحو مائة عام إلى أن قضى على جموعهم القائد البيزنطى : « بليزير » سنة ٥٣٩ للميلاد . وكانوا شعبًا حربيًا فلم يخلفوا فى المغرب علما ولا فنا ولا صناعة ولا أخلاقا ولا نظما . وخلفتهم فيه بيزنطة لنحو مائة عام أخرى ، واتسم عهدهم بالعسف والظلم كعهد الوندال والرومان . على أن الرومان حاولوا نشر المسيحية فى البلاد المغربية ونجحوا فى بعض المدن الساحلية كما مر بنا فى الجزائر وتونس ، كما نجحوا فى نشر لغتهم اللاتينية وخاصة فى المدن الساحلية ، أما بيزنطة فلم تحاول نشر لغتها ولا شيء من ثقافتها فى البلاد المغربية . وكانت تمد ذراعها على بعض المدن مثل سبتة على ساحل البحر المتوسط وربما مدته أيضا على بعض المدن على ساحل الأطلسى . وأكبر الظن أن الوندال لم يستطيعوا وضع أيديهم على المغرب الأقصى لبعده الشديد عن مراكز انتشارهم فى تونس والجزائر، ونظن ظنا أن قوط إسبانيا انتهزوا الفرصة فى أيامهم وأيام بيزنطة فاستولوا على أجزاء من ساحل البحر المتوسط ، وبنوا عليها مدينتى باديس وترغة بجانب مليلة الفينيقية التى كانت خاضعة لهم قبل الفتح العربى ، وبجانب سبتة وطنجة فى الشمال ومدن الساحل الغربى الفينيقية والرومانية مثل أصيلا – سلا – أنفة بنوا مدينة كونتى جنوبى مدينة آسفى فى منطقة دكّاله كما بنوا مدينة مرامر فى الداخل على مسافة نحو عشرين ميلا من كونتى . والقوط مثل الوانذال لم يكونوا أصحاب حضارة ينشرونها فى البلاد التى نزلوها أو بنوا لهم فيها بعض المدن .

٣

الفتح والولاة – ثورة الصفرية – بنو مدرار – الأدارسة – بعد الأدارسة والمدرارين

(أ) فتح[1] المغرب الأقصى وعصر الولاة

بدأت أولى محاولات فتح البلاد المغربية فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، إذ رأى عمرو بن العاص واليه على مصر فى أواخر سنة ٢١ للهجرة تأمينا لحدود مصر الغربية أن يتعقب الروم

(١) انظر فى فتح المغرب الأقصى : فتوح البلدان للبلاذرى وفتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم والاستقصا فى أخبار دول المغرب الأقصى والكامل لابن الأثير وتاريخ ابن خلدون والبيان المغرب لابن عذارى .

فى برقة وديار المغرب ، واستولى سريعا على برقة وزويلة عاصمة فزان سنة ٢٢ هـ/٦٤٢ م ودار العام ففتحت له طرابلس أبوابها سنة ٢٣ هـ/٦٤٣ م . وتوفى الخليفة عمر بن الخطاب وخلفه عثمان بن عفان فعزل عن مصر عمرو بن العاص ، وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، فاستأذنه فى معاودة فتح ديار المغرب ، وأمدَّه بجيش كبير كان به عدد من الصحابة ، فاقتحم به ديار المغرب سنة ٢٧ هـ/٦٤٧ م ونازل والى بيزنطة جريجوريوس فى حصن داخل الإقليم التونسى يسمى « سبطلة » وسحق جيشه سحقا ، وقُتل جريجوريوس فى ساحة المعركة ، وفتحت جميع البلاد التونسية أبوابها لابن أبى سرح ما عدا قرطاجة إذ ظلت بها حامية رومية . وتتبع إفريقية التونسية الخلافة الأموية ويتعاقب عليها الولاة ، حتى إذا وليها عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ/٦٧١ م أنشأ مدينة القيروان أى المعسكر وأتمها سنة ٥٥ هـ/٦٧٤ م واتخذها قاعدة للجيوش العربية الفاتحة للمغرب ودارًا لحكومته وتدبير شئونها ، وبعبارة أخرى اتخذها عاصمة للمغرب وبنى فيها جامعا كبيرا ودارا للحكومة وسرعان ما أصبحت مدينة كبرى ، وعُزل ، وخلفه أبو المهاجر سنة ٥٥ هـ/٦٧٤ م فصمم على فتح نوميديا فى المغرب الأوسط وما وراءها من الصحارى وظل يفتح البلدان حتى انتهى إلى موريتانيا الشرقية وتلمسان ، ولقيته قبيلة أوربة ورئيسها كسيلة ، فهزمها وأسر كسيلة واعتنق الإسلام واعتنقه معه كثيرون من قبيلته . وعُزل أبو المهاجرين سنة ٦٢ هـ/٦٨١ م وولى مكانه عقبة بن نافع ثانية ، وهو يعد الفاتح الحقيقى لديار المغرب الأقصى ونشر الإسلام فيه ، إذ قام بعمليات عسكرية واسعة النطاق ، وبدأ بالمغرب الأوسط فانتزع ما كان لا يزال بأيدى البيزنطيين من الحصون فى إقليم الزاب ، وأوغل غربا ، وأعلنتْ له قبيلة غمارة فى شمالى المغرب الأقصى بالريف والهبط ولاءها وهادنته وسالمته ، وأخضع وليلى فى منطقة فاس ، وسار إلى قبيلة مصمودة فى مناطق مراكش وحاحة وجزولة ونازلها واستسلمت . ثم سار إلى السوس آخر معاقل البربر فى المغرب الأقصى ، والنصر يواكبه حتى بلغ ماسة على المحيط ، وأدخل فرسه فيه حتى بلغ الماء تلابيب (طوق) الفرس وهتف قائلا : « اللهم إنى أشهدك أنى وصلت براية الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يُعْبَدَ رب سواك » . وكان قد أوغر صدر كسيلة فرصده فى طريق عودته ، حتى إذا سبقه الجيش فى الزاب بالجزائر وكان فى فئة قليلة حاصره ، واستشهد البطل العظيم هو ومن كانوا معه سنة ٦٤ هـ/٦٨٣ م واستولى كسيلة بجموعه على القيروان ، وتراجع زهير بن قيس خليفة عقبة عليها إلى برقة انتظارًا لمدد يأتيه ، وأتاه المدد مع توليته على المغرب سنة ٦٩ هـ/٦٨٨ م وينازل كسيلة ويهزمه ويقتل فى المعركة . ويتولى القيروان والبلاد المغربية بعده حسان بن النعمان سنة ٧١ هـ/٦٩٠ م وكان سياسيا قديرا يحسن تدبير الحكم فدوَّن دواوين للجند وللخراج وللرسائل ، وافتتح قرطاجة وطرد منها جالية الروم التى كانت تتجسس لحساب بيزنطة وبذلك أصبحت إفريقية التونسية خالصة للعرب ، وأنشأ مدينة تونس لتكون قاعدة لأسطوله ، وبنى بها دار صناعة تمد الأسطول

بما يلزمه من السفن ، ونشبت فى أيامه ثورة عنيفة لقبيلة جراوة الزناتية بجبال أوراس ، وكانت تقودها كاهنة ، فنازلها ولم يكتب له النصر ، واضطر إلى الإنسحاب إلى « سرت » انتظارًا لمدد ، وجاءه جيش جرار فهزمها وقتلت فى أثناء فرارها ، وصالحهم على أن يكون ابنها الأكبر الوالى عليهم وأن يجندوا منهم اثنى عشر ألفا ليكونوا جزءا لا يتجزأ من جيشه ، وكانت سياسة حكيمة فقد أصبح أهل المغرب رفقاء سلاح وأصبح منهم ولاة لا فرق بينهم وبين العرب فى شىء . وبذلك ملك قلوب المغاربة ، وأخذ انتشار الإسلام يتسع فى المغرب الأقصى وفى كل مكان بالديار المغربية . وخلفه على القيروان وبلاد المغرب موسى بن نصير سنة ٨٦ هـ/٧٠٥ م فوضع نصب عينيه استكمال نشر الإسلام فى ربوع المغرب الأوسط والأقصى وأرسل حملات إلى أنحاء كثيرة ومعها فقهاء يعلمون الناس قواعد الإسلام وشريعته ثم نهض على رأس حملة كبرى اكتسحت البلاد المغربية حتى أقصى الغرب شمالا فى طنجة وجنوبا فى إقليم السوس ، وخلّف فى النواحى التى لم يتم إسلامها فقهاء يعلمونهم شئون دينهم وفروضه ويحفظونهم القرآن الكريم ، وأسلم فى أيامه كثيرون من البربر وأتم التنظيم الإدارى للديار المغربية ، فولاية لبرقة هى عاصمتها ، وولاية ثانية لإفريقية التونسية وشرقى المغرب الأوسط عاصمتها القيروان ، وولاية لغربى المغرب الأوسط عاصمتها تلمسان ، وولاية لبلاد السوس فى المغرب الأقصى عاصمتها سجلماسة ، وولاية لبقية المغرب الأقصى حتى شماليّه عاصمتها طنجة، ولكل ولاية حاكمها من العرب أو البربر ، وجعل حاكم طنجة بربريا هو طارق بن زياد، وأكثر من ذلك جعله قائدًا لفتح الأندلس ، وكان أكثر جيشه من البربر ، ومعنى ذلك أنه ألغيت كل تفرقة بين العرب والبربر بحيث أصبحوا سواسية فى حكم المدن وفى قيادة الجيوش وفى الجهاد نصرة لدين الله وابتغاء نشره فى أطباق الأرض طلبا لما عند الله من الثواب. وبذلك لم يعد هناك أى فارق بين العربى والبربرى ، فهما أخوان مسلمان يعملان على إعلاء كلمة الله . ونستطيع أن نقول إن فتح العرب للمغرب الأقصى والديار المغربية تم فى القرن الأول الهجرى وكان تمامه على يد موسى بن نصير والفاتحين العظيمين اللذين سبقاه حسان بن النعمان وعقبة بن نافع ولم يجعلوه فتحا حربيا بل جعلوه فتحا عقائديا أخويا لأمة وثنية أصبحت تدين بوحدانية الله ، وأصبحت تستشعر أخوة للعرب أصحاب هذا الدين، فهى تشاركهم فى العمل تحت لوائه جهادا فى سبيله ونصرة لعقيدته وتعاليمه.

وتوفى الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ/٧١٤ م وخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك وكان قصير النظر فعزل البطلين العظيمين : موسى بن نصير وطارق بن زياد عن عملهما فى الأندلس وغير الأندلس ، وتوقف الفتح العربى فى شمال إسبانيا وجنوبى فرنسا ، وخلفه عمر بن عبد العزيز الخليفة الصالح ، فحاول أن يصلح أداة الحكم فى الدولة ، وولّى على القيروان وديار المغرب فقيها هو إسماعيل بن عبيد الله حفيد أبى المهاجر الوالى فى فترتى عقبة

وأرسل معه تسعة من الفقهاء ، وكلفهم بالعمل جميعا على نشر الدين الحنيف ، ودخله مغاربة كثيرون من كل أنحاء المغرب . وتوفى الخليفة عمر بن عبد العزيز سريعا ، وتولى الخلافة يزيد بن عبد الملك ، فأرسل إلى القيروان يزيد بن أبى مسلم صاحب شرطة الحجاج سنة ١٠٢ هـ/٧٢٠ م . ويبدأ عهد جديد فى المغرب لولاة بنى أمية ، عهد يقوم على الخسف والظلم للبربر فى جمع الضرائب والأموال ، ولم يطق البربر الصبر على سياسة هذا الوالى الجائرة فقتلوه فى السنة التالية ، وكان ذلك عبرة وعظة ليزيد بن عبد الملك فولّى عليهم بشر بن صفوان وخلفه سنة ١١٠ هـ/٧٢٨ م عبيدة بن عبد الرحمن السلمى ، ولا تؤثر لأحدهما أعمال جليلة يؤلف بها قلوب الرعية المغربية . ويتولى عبيد الله بن الحبحاب سنة ١١٤ هـ/٧٣٢ م ويذكر له إعادة بناء جامع الزيتونة الذى بناه قبله حسان بن النعمان ، وقد ساس الرعية هو وعماله سياسة متعسفة ظالمة أشد الظلم ، إذ أرهقوا البربر بضرائب فادحة ، وأبوا أن يسووا بينهم وبين العرب فى الخراج وجميع الشئون المالية ، كما تقضى بذلك شريعة الإسلام ، متعامين عن أنهم أصبحوا للعرب رفقاء سلاح وجهاد فى الأندلس وفى المغرب نفسها ، وبلغ من سفه عامل طنجة القائم على شئونها المالية أن أعلن للمغاربة هناك أنه عازم على تخميس أراضى البربر زاعما زعما كله إثم وكذب وبهتان أنهم فَيْءٌ للعرب وغنائم حرب لهم .

(ب) ثورة الصفرية

لم يتنبه حكام بنى أمية وعمالهم فى القرن الثانى الهجرى إلى أن من الخطأ بل من أكبر الخطأ هذه المعاملة الظالمة للمغاربة بعدم التسوية بينهم وبين العرب فى الشئون المالية ، مع أنهم أصبحوا رفقاء سلاح وجهاد وأسهموا معهم فى فتح الأندلس ونشر دين الله ، بل كان لهم فى ذلك النصيب الأوفر ، وكان الإسلام قد استقر فى ديارهم وأصبح لهم فيه شيوخ كثيرون يفقهون تعاليمه وما يفرضه من العدل والتسوية بين أتباعه ، لذلك انطوت نفوس كثيرين منهم على سخط شديد لحكام بنى أمية وعمالهم . وانضاف إلى ذلك أن كثيرين من أتباع فرقتى الصفرية والإباضية نزلوا المغرب فرارا من اضطهاد الأمويين ، واختار الأولون المغرب الأقصى واختار الثانون جبل نفوسة بجوار طرابلس ، ووجدت كل فئة منهما الجو مهيئا لترويج دعوتها القائلة برفع الظلم عن أبناء الأمة الإسلامية والتسوية بينهم جميعا فى الشئون المالية ، وكأنما وجد مغاربة جبل نفوسة فى الدعوة الإباضية مخلصا لهم من ظلم حكام بنى أمية وبغى عمالهم ، وأحسَّ مغاربة المغرب الأقصى فى دعوة الصفرية نفس الإحساس . وملأ نفوسهما جميعا إيمانا بدعوتيهما ما تقرران من التسوية حتى فى تولى الخلافة فلا يصح أن تقصر على قريش ، بل هى حق للمسلمين جميعا عربا وغير عرب يتولاها أكفؤهم . ولم يعد فى المغرب الأقصى شخص يسمع بدعوة الصفرية إلا ويستجيب إليها ضد من يسومونهم العذاب فى سلب أموالهم

باسم الخراج سوى ما يكلفونهم من المغارم والجبايات مما كثر معه – كما يقول ابن خلدون – غَيْظهم فى أموال البربر وجورهم عليهم ، بحيث أصبح لا مفر من ثورتهم على هؤلاء الحكام الباغين الظالمين المعطلين لتعاليم الإسلام . لذلك كان طبيعيا أن ينتشر فى المغرب الأقصى مذهب الصفرية وأن تعتنقه القبائل هناك ، تعتنقه قبيلة مضغرة وشيخها ميسرة وقبيلة مكناسة وشيخها سمكو بن واسول وقبيلة برغواطة وبعض قبائل زناتة وتغلغل فى بعض المدن فى جماعات السودان القاطنين جنوبى الصحراء وجميع أرجاء المغرب الأقصى . وأجمع دعاة الصفرية فيه على زعامة ميسرة شيخ قبيلة مضغرة ، وبويع بالإمامة ، وزحف بجموع الصفرية إلى طنجة ، فاستولى عليها وقتل عاملها عمر بن عبيد الله المرادى ، وعين عليها واليا من قبله ، واتجه بجموعه إلى السوس فقتل واليها إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب ودانت له ، وتمت له بذلك السيطرة على جميع المغرب الأقصى .

وعرف ذلك عبيد الله بن الحبحاب ، فبادر بإرسال جيش بقيادة خالد بن حبيب الفهرى فالتقى بميسرة وجيشه قرب طنجة ، ودارت بينهما معركة حامية الوطيس ، رجحت فيها كفة خالد ، فانسحب ميسرة إلى طنجة ، ولم يعجب ذلك أتباعه من الصفرية ، فنحَّوه عن قيادتهم وولوها خالد بن حميد الزناتى كما ولوه الإمامة سنة ١٢٣ هـ/٧٤٠ م وأخذ يعد جيشا للقاء خالد الفهرى ، ونصب له ولجيشه كمينا على نهر شلف شمالى تاهرت ، ودارت معركة حامية انتهت بالقضاء على جيش خالد الفهرى قضاء مبرما وكان فيه كثير من أشراف العرب فسميت معركة الأشراف لكثرة من مات فيها من حماة العرب وفرسانهم وكماتهم وأبطالهم . وغضب هشام بن عبد الملك لهذه الهزيمة الساحقة ونحَّى عبيد الله بن الحبحاب عن ولاية المغرب ، وولَّى عليه كلثوم بن عياض القشيرى ، وأعانه بابن أخيه بلج بن بشر ، وبعث معه جيشا ضخما عداده ثلاثون ألفا ، وزحف بابن أخيه وهذا الجيش إلى خالد بن حميد الصفرى بطنجة ، والتقيا جنوبيها ، ودارت معركة ضارية انهزم فيها كلثوم وتوفى ، فلجأ بلج إلى سبتة بعشرة آلاف من جنده ، وحاصره خالد بن حميد والصفرية ، واضطر إلى العبور بجيشه إلى الأندلس .

ونشبت ثورات للبربر فى جميع الديار المغربية ، وولَّى هشام بن عبد الملك عليه حنظلة بن صفوان سنة ١٢٤ هـ/٧٤١ م ، وتطاير شرر كثير من دعوة الصفرية إلى المغربين الأوسط والأدنى ، وأخذ يعتنقها كثيرون فى المغرب الأوسط بين قبائل نفزة وزناتة ، وبفاجأ حنظلة بقائدين صفريين كبيرين هما عكاشة بن محصن الفزارى وعبد الواحد بن يزيد الهوارى يحشدان جموع الصفرية فى الزاب بالجزائر لحربه ، واتفقا على أن يتخذا طريقين لمهاجمة القيروان : عكاشة من الجنوب ، وعبد الواحد من الشمال ، وعلم حنظلة بخطتهما فأسرع بلقاء عكاشة وسحق جيشه ، وعاد إلى القيروان وأخذ يستعد للقاء عبد الواحد ، ونجح فى استمالة أهل القيروان وفى مقدمتهم الفقهاء ، ووزَّع عليهم جميعا السلاح ، وبثَّ القصاص والقراء يحرضون

على الجهاد ، وبرز نساء القيروان فعقدن الألوية وأخذن معهن السلاح ، وعزمن على القتال واستبسلن للموت مع الرجال ، وحلفن لأزواجهن لئن انهزم أحد منكم إلينا موليا عن العدو لنقتلنه ، فامتلأ الجيش حماسة وحمية ، ودارت المعركة وهزمت الصفرية هزيمة ساحقة قتل منهم فيها مائة وثمانون ألفا .

وكان المغرب الأقصى حينئذ هادئا بإمامة خالد بن حميد الزناتى ، وخلفه على إمامة الصفرية وزعامتهم أبو قرة المغيلى ، ويقال إنه حضر مع عبد الواحد الهوارى معركة القيروان وفر حين تراءت له الهزيمة . ونفاجأ سنة ١٣٩ هـ/٧٥٦ م بقبيلة ورفجومة الصفرية أشد قبائل نفزة بأسا بأوراس تستولى على القيروان وتستحل المحارم وترتكب العظائم كما يقول الرقيق القيروانى إذ ربطوا دوابهم فى المسجد وهتكوا عرض بعض النساء . وكل ذلك غريب على دعوة الصفرية فهى فقط تكفر مرتكب الكبيرة وتستحل قتال المسلمين ولكنها لا تستحل ارتكاب العظائم ، ولعل ذلك ما جعل أهل المغرب الأقصى فيما بعد ينصرفون عنها وعن دعاتها بينهم كما جعل أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى زعيم الإباضية فى طرابلس وجبل نفوسة حين علم بمايرتكبون من المآثم فى القيروان ينازلهم ويقاتلهم حتى يقضى عليهم سنة ١٤١ هـ/٧٥٨ م وولّى عليها عبدالرحمن بن رستم أحد قواده . وسرعان ما يهزم والى القيروان العباسى الجديد محمد بن الأشعث أبا الخطاب المعافرى فى موقعة فاصلة، وينسحب عبدالرحمن بن رستم من القيروان إلى الزاب ويؤسس به دولته الرستمية الإباضية فى تاهرت. وعلى أثر ماحدث من هزيمة الصفرية فى القيروان نجد أبا قرة الصفرى يكوّن له إمارة مستقلة بنواحى تلمسان. وفى الوقت نفسه نجد أحد زعماء الصفرية منذ التفافهم حول ميسرة، وهو أبوالقاسم سمكو بن واسول ينشىء للصفرية دولة فى سجلماسة، ولم ينشئها فى طنجة ولا فى المناطق الساحلية والداخلية للمغرب الأقصى ممايدل على انصراف الناس فيهما عن تلك الدعوة ، وخاصة بعد ماشاع عنهم فى احتلالهم للقيروان من استحلال المحارم وارتكاب العظائم وربط دوابهم فى المساجد.

وعلم ابن الأشعث أن أبا قرة يعدّ العدة فى تلمسان لمهاجمة الزاب والقيروان ، فأرسل فى سنة ١٤٨ هـ/٧٦٥ م الأغلب بن سالم التميمى على رأس جيش لمواجهة قواته ، والتقى به وجموعه فى الزاب ، واضطر أبو قرة إلى الإنسحاب . وتولى المغرب عمرو بن حفص المهلبى سنة ١٥٠ هـ/٧٦٧ م ونازل الصفرية فى الزاب ونكّل بهم ، وخلفه ابن عمه يزيد بن حاتم المهلبى سنة ١٥٤ هـ/٧٧٠ م وكان بطلا مغوارا فقضى على الصفرية فى المغرب الأوسط (الجزائر) قضاء نهائيا ، وحاولت ورفجومة الثورة فقمع حركتها سنة ١٥٧ هـ/٧٧٤ م ويقال إنهم تفرقوا فى القبائل بعد هذه الحركة ولم يعد لهم كيان قبلىٌ مستقل . ونشعر بوضوح أنه لم يعد للصفرية شأن يذكر فى المغربين الأوسط والأقصى بعد عهد يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ – ١٧٠هـ) فإن من بقى منهم انسحب إلى سجلماسة وحكامها الصفرية من بنى مدرار .

(جـ) بنو[1] مدرار

استقر فى أذهان كثيرين من الصفرية – وخاصة صفرية مكناسة – بعد إخفاق حملتى عكاشة وعبد الواحد على القيروان وكثرة من قتل فيهما من الصفرية حتى لقد بلغوا أكثر من مائة ألف صفرى أنه ينبغى أن يبحثوا لهم عن مدينة نائية يصعب وصول الجيوش القيروانية العباسية إليها يتخذونها مأوى لهم ويعيشون فيها شبه منعزلين عن مسالك تلك الجيوش ، واختاروا سجلماسة لذلك سنة ١٤٠ هـ/٧٥٧ م لأنها تقع فى أقصى مكان بالجنوب الشرقى من المغرب الأقصى على نهر زيز والطرق المؤدية إليها شديدة الوعورة ، وتكتنفها متاهات من القفار . وكان الذى اختارها زعيم من زعماء الصفرية ممن أسهموا فى حروب ميسرة وخالد بن يزيد إمامى الصفرية ، وهو أبو القاسم سمكو بن واسول الملقب بمدرار زعيم صفرية مكناسة ، وكان من حملة العلم وارتحل فى سبيله إلى المدينة وإلى تونس ، وفيها تتلمذ على عكرمة المفسر مولى ابن عباس وتلميذه ، وكان يعتنق دعوة الصفرية فحملها عنه تلميذه سمكو ، ورجع إلى قومه فى مكناسة يبشر بها ويدعوهم إليها ، فاستجاب له كثيرون وشاركوا فى حروب ميسرة وخالد بن يزيد كما أسلفنا . وكان حصيفا ، وكان قد درس مذهب الصفرية أو عقيدتهم ، ورأى من أسسها الأخذ بالتقية وأن من حق الصفرى أن يعلن أنه مع الجماعة فى الظاهر ويبطن الدعوة الصفرية ، وكان لا يعد دار المسلمين أو دار الجماعة دار حرب ، بل يتعايش معهم ، والصفرى لذلك من حقه القعود عن الحرب وأن لا يحمل السلاح فى وجه المسلمين ، وهو ما آمن به ، وكأنه كره الحروب التى خاضها ميسرة وخالد بن يزيد ضد جيوش القيروان وأن يسلّ المسلم السيف فى وجه أخيه المسلم ، لذلك رأى أن ينحاز عن معاركهما الطاحنة إلى سجلماسة وتبعته كثرة من صفرية قومه أهل مكناسة ، وجاءته عناصر صفرية مختلفة من صنهاجة وزناتة وزنوج السودان من سكان الفيافى والصحراء بين سجلماسة وغانة ، وسرعان ما أصبحت مدينة كبيرة .

وكان سمكو الملقب بمدرار صالحًا تقيا متواضعا ، فرأى أن يكون أول إمام فى هذه الدولة سودانيا من رءوس الخوارج ، وهو عيسى بن يزيد ، وارتضته الصفرية وبايعته ، فقام بأمر سجلماسة وشق القنوات واستكثر من غرس النخيل والزروع . واتسع ثراء أهل سجلماسة لكثرة ما كانوا يتبادلونه – ويتجرون فيه – من السلع مع السودان . وظلت الصفرية – مع السنين – تنقم على عيسى بن يزيد – بعض تصرفاته ، حتى إذا كانت سنة ١٥٥ هـ/٧٧١ م

(١) انظر فى دولة بنى مدرار بسجلماسة كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب (طبع باريس) للبكرى ص ١٤٨ وما بعدها والبيان المغرب لابن عذارى (طبع بيروت) ص ٢١٥ وما بعدها وصفة المغرب للإدريسى (طبع ليدن) ص ٦٠ وفى مواضع مختلفة وأعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب (طبع الدار البيضاء) ١٣٧/٣ وما بعدها وتاريخ ابن خلدون (طبعة بولاق) ١٣٠/٦ وما بعدها .

نحته عن الإمامة ، ونصّبت مكانه أبا القاسم سمكو الملقب بمدرار حتى سنة ١٦٧ هـ/٧٨٣ م وظلت الدولة فى أسرته ، ولذلك قيل لها دولة بنى مدرار ، وقد عمل على إرساء قواعد الدولة على أساس المبدأين اللذين أشرنا إليهما : مبدأ التقية ومبدأ القعود عن الثورة على حكام الجماعة الإسلامية وعمالهم عباسيين وغير عباسيين ، وبذلك ضمن لسكان سجلماسة الصفريين أن يعيشوا معيشة هادئة آمنة لا يعكر صفوها حرب مع ولاة العباسيين ودولة بنى الأغلب التى قامت باسمهم فى القيروان . وبهذا الموقف الذى وضع فيه سمكو الملقب بمدرار سجلماسة وسكانها من الصفريين نفهم ما يقوله ابن خلدون من أن سمكو مدرارا كان يخطب فى عمله لأبى جعفر المنصور الخليفة العباسى (١٣٦-١٥٨هـ) وابنه المهدى (١٥٨-١٦٩هـ) . وتوالى أبناؤه وأحفاده من بنى مدرار يدعون فى خطبهم لخلفاء بنى العباس ، وبذلك كفوا شر حروبهم وجيوشهم .

واتخذت الصفرية فى سجلماسة ابنه إلياس إماما بعده ، وتظل تنقم عليه وجوها من سياسته وتصرفاته ، وتُجْمع أمرها فى سنة ١٩٤ هـ/٨٠٩ م على خلعه وتولية أخيه اليسع مكانه ، ويذكر البكرىّ أنه هو الذى دبَّر أمر خلع أخيه ، وكان حازما يحسن تدبير الملك ، فأعدَّ جيشًا قويا وسَّع به أطناب إمارته ، واستطاع احتلال درعة وضمَّها إلى إمارته وأخذ الخمس من مناجم الفضة فيها ومعدن الذهب ، وبنى بجانب سجلماسة مدينة شيَّد قصورها واختط مصانع بها وأقام حول سجلماسة سورا لتحصينها جعل فيه اثنى عشر بابا ، وأصهر بابنه مدرار للحاكم الرستمى عبد الوهاب (١٧١ - ٢١١ هـ) فى ابنته أروى توثيقا للعلاقة بين دولته الخارجية الصفرية والدولة الخارجية الرستمية الإباضية فى الجزائر ، وتوفى سنة ٢٠٨ هـ/٨٢٣ م فولى إمامة الصفرية بعده ابنه مدرار ، وطالت ولايته ورزق بابنين من الرستمية وقرينة لها صفرية ، وسمى كلا منهما ميمونا ، وكان يؤثر ابن الرستمية على أخيه ، وحاول أن يوليه مكانه سنة ٢٢٤ هـ/٨٣٨ م فأرغمته الصفرية على التنازل عن الإمامة لأخيه ميمون بن الصفرية ، فنفى أباه إلى بعض قرى سجلماسة حتى وفاته سنة ٢٥٣ هـ/٨٦٧ م وظل هو يلى الإمامة حتى وفاته سنة ٢٦٣ هـ/٨٧٧ م وخلفه عليها ابنه محمد حتى سنة ٢٧٠ هـ/٨٨٤م وخلفه ابنه اليسع ، وفى عهده نزل أبو عبد الله الشيعى داعية المهدى الإمام العبيدى كتامة فى الجزائر وظل فيها سنوات يبث دعوته ، ونجح فى بثها واستطاع تكوين جيش منها لمنازلة الدولة الأغلبية فى القيروان ، وشعر بأنه يوشك أن ينجز مهمته لصالح المهدى ، فأرسل إليه يستقدمه ليشارك فى الأحداث الأخيرة ، ولبَّاه المهدى واصطحب معه رفقة من رجاله سنة ٢٩٣ هـ/٩٠٥ م والتزم التخفى من عمال الدولة العباسية فى طريقه وسلك طرقا غير معهودة أدته إلى سجلماسة ، فأكرمه اليسع ، وبعد فترة ارتاب فيه ، فسجنه هو ورفقاءه . وعلم بذلك أبو عبد الله الداعية العبيدى الشيعى ، فانتظر حتى انتصر على الأغالبة سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م وزحف إلى سجلماسة لإخراج عبيد الله المهدى من السجن وردِّ حريته إليه ، وعلم اليسع بقدومه إلى سجلماسة ،

فخرج إليه بجيشه من مكناسة ودارت معركة كتب فيها النصر لأبى عبد الله الشيعى وجيشه ، وقتل اليسع فى المعركة واستولت كتامة على سجلماسة ، وخرج المهدى ورفاقه من محبسهم ، وبايعه أبو عبد الله الشيعى ، وبايعه الناس وولى على سجلماسة واليا من كتامة ، وانصرف مع داعيته إلى إفريقية التونسية .

ولم تلبث صفرية سجلماسة أن انتقضت على والى المهدى الكتامى وقتلته هو ومن معه من كتامة سنة ٢٩٨ هـ/٩١٠ م وبايعت الفتح بن ميمون بن الرستمية ، وتوفى سريعا فخلفه أخوه أحمد ، واستقام أمره وحكمه إلى أن زحفت إليه كتامة بقيادة مصالة بن حبوس سنة ٣٠٩ هـ/٩٢١ م فافتتح سجلماسة وقبض على أحمد وولاها ابن عمه المعتز ، وتوفى سنة ٣٢١ هـ/٩٣٣ م وبايعت الصفرية ابنه سمكو ، وكان لا يزال فى المهد ، فثار عليه ابن عمه محمد بن الفتح بن ميمون ، وتلقّب بالشاكر لله ، ورفض الدعوة الصفرية ، وأعلن الأخذ بمذاهب أهل السنة ، وكان عادلا منتهى العدل كما يقول ابن خلدون ، ويقال إنه دعا لنفسه بالخلافة ، ويقول ابن خلدون إنه دعا لبنى العباس ، وإنه ضرب العملة باسمه . وظل يحكم سجلماسة حكمًا عادلاً رشيدا إلى أن اكتسح جوهر الصقلى بجموعه الشيعية من كتامة وصنهاجة المغرب الأقصى ، واستولى – فيما استولى – على سجلماسة ، وأخذ حاكمها السنى محمد بن الفتح أسيرا إلى رقّادة بإفريقية التونسية ، وتوفى بها سنة ٣٥٤ هـ/٩٦٥ م . وثارت الصفرية على والى جوهر الصقلّى سريعا ، وبايعت أحد أبناء الشاكر لله ، وارتضى ذلك المعز العبيدى ، غير أن أخاله ثار عليه وقتله سنة ٣٥٢ هـ/٩٦٣ م . وأخذ نجم قبيلة مكناسة فى الأفول بينما أخذ نجم قبيلة زناتة فى التألق والسطوع. وكان أمويو الأندلس قد استطاعوا جذب مغراوة الزناتية إليهم ، وبمساعدتهم زحف حزرون بن فلفول من أمرائها إلى سجلماسة سنة ٣٦٦ هـ/٩٧٦ م وبرز له المعتز مع قومه الصفريين من مكناسة ، وقتل وهزم قومه هزيمة ساحقة لم تقم لهم بعدها فى سجلماسة قائمة ، وأقام حزرون بها دعوة الأمويين الأندلسيين ، وكانت أول دعوة أقيمت لهم فى المغرب الأقصى .

(د) الأدارسة[1]

معروف أن الحسين بن على سليل الحسن بن على بن أبى طالب ثار على العباسيين بمكة أيام الخليفة العباسى المهدى فى ذى القعدة سنة ١٦٩ هـ/٧٨٥ م وثار معه أهله وفى مقدمتهم

(١) انظر فى دولة الأدارسة كتاب المغرب للبكرى وصفة المغرب للإدريسى وروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبى زرع (طبعة الرباط) ص ١٩ وما بعدها والبيان المغرب لابن عذارى ٢٩٩/١ وما بعدها وأعلام الأعلام للسان الدين بن الخطيب ١٨٨/٣ وتاريخ ابن خلدون ١٢/٤ وما بعدها والاستقصا فى أخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى ودولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة لإسماعيل العربى (طبع بيروت) .

عماه : يحيى وإدريس ، وسرعان ما نازله جيش عباسى فى مكان على بعد ثلاثة أميال من مكة يقال له : « فخ » ودارت الدوائر على الحسين ومَنْ معه فقتل فى المعركة مع جماعة من أهل بيته ، وفر عمه يحيى إلى الدَّيْلم ، أما عمه إدريس ففر إلى مصر ، وكان على بريدها يومئذ شخص اسمه واضح ، وكان يتشيع ، فأتاه إلى مخبئه ، ووجد معه مولاه راشدًا فنصحهما أن يحملهما على البريد إلى المغرب الأقصى بعيدا عن المهدى وعيونه ، وأخذا بنصيحته ، ونزلا فى ربيع الأول سنة ١٧٢ هـ/٧٨٨م فى مدينة وليلى بجبل نزهون على إسحق بن محمد بن عبد الحميد المعتزلى شيخ قبيلة أوربة ، وعرَّفه أمره ، فأجاره ، فبايعه وبايعته معه قبيلته ، وجمع على الدعوة إليه أيضا قبائل زواغة ولواتة وغمارة ونفزة ومكناسة وكافة البرابر بالمغرب فبايعوه . ولما تمت دعوته زحف إلى جموع البربر الذين كانوا لا يزالون على دين المجوسية وإخوانهم المتهوِّدين والمتنصِّرين فدانوا له وأسلموا على يديه . وفى سنة ١٧٣ هـ/٧٨٩ م زحف إلى تلمسان ومن بها من قبائل مغراوة الزناتية وأسيرها محمد بن خزر فأعلن إليه الطاعة وبايعه هو وقبيلته مغراوة فأمَّنه وأمَّن سائر زناتة وبنى مسجدا بتلمسان ونظم شئونها ورجع إلى عاصمته « وَليلى » ولم يلبث أن توفى سنة ١٧٥ هـ/٧٩١ م ويقال إن الرشيد أرسل إليه شخصا أظهر له الولاء ، فقربه منه ، وانتهز فرصة فدسَّ إليه السم وكان فيه حتفه .

وكانت زوج إدريس حاملا فاتفق أنصاره على انتظار وضعها ، وأنجبت ولدا سمته باسم أبيه إدريس فقام على تربيته خير قيام مولاه راشد ، وتوفى راشد سنة ١٨٦ هـ/٨٠٢ م فجعلوا مكانه فى الوصاية عليه ولإشرافه على تربيته يزيد بن إلياس ، حتى إذا بلغ الصبى الحادية عشرة بايعوه فى جامع وَليلى ، وشبّ ودان له المغرب الأقصى واستوزر مصعب بن عيسى الأزدى وأخذ يستكثر فى بطانته من العرب حتى بلغوا نحو خمسمائة وبهم عظم سلطانه . وقتل إسحق بن محمد بن عبد الحميد كبير أوربة لما علم من اتصاله بخصومه الأغالبة حكام تونس وشرقى الجزائر . ورأى أن مدينة وليلى تضيق بحاشيته وأنصاره ، فصمم على بناء مدينة تسعهم ، وكلف باختيار موضعها بضعة من المهندسين ، وأشاروا عليه بموضع على مقربة من عاصمته ، فأخذ توًّا فى بناء مدينته : فاس سنة ١٩٢ هـ/٨٠٧ م وتصادف أن كان فقهاء قرطبة حينئذ ثائرين على الحكم الربضى لانهماكه فى ملذاته وفى اللهو والملاهى فاجتمع أهل العلم والورع من الفقهاء وحصَروه سنة ١٩٠ هـ/٨٠٥ م وقاتلهم فتغلب عليهم وهدم دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس والإسكندرية . ولا ندرى هل لحقوا بفاس فى أول بناء إدريس الثانى لها أو فى أثناء بنائها ، إذ نراه يتمم شطرا منها سنة ١٩٢ ويسمَّى العُدْوَة الأندلسية ، إما لأن الأندلسيين ساعدوا فى بنائه وسكنوه أو لأنهم سكنوه فحسب . وفى العام التالى بنى شطرا ثانيا مقابلا للشطر الأول وسُمِّى عدوة القرويين أى المغاربة ، وجعل فيه مسكنه وإدارة حكومته ، وسُمِّى الشطران جميعا باسم فاس وظل يفصل بينهما طريق طويلا . وغزا إدريس الثانى قبيلة مصمودة

ودانت لطاعته واستولى على أغمات سنة ١٩٧ هـ/٨١٢ م ثم غزا تلمسان وجدد مسجدها ومنبره وأقام بها ثلاث سنوات يدبر شئونها ، ومحا منها دعوة الصفرية ، واقتطع غرب الجزائر حتى نهر شلف عن دعوة الأغالبة والعباسيين ، ولم يستطع الأغالبة منازلة الأدارسة بعد هذا التاريخ وتوفى سنة ٢١٣ هـ/٨٢٨ م .

وخلف إدريس الثانى ابنه محمد بعهد منه ، فرأى تقسيم مملكة أبيه بينه وبين إخوته واختص نفسه بفاس وأعمالها ، وأعطى القاسم إقليم الريف والهبط بما فيه من سبتة وتطوان وطنجة ، وأعطى عمر بلاد صنهاجة وغمارة ، وداود هوارة وتازة ومكناس ، وعبد الله أغمات وبلاد المصامدة والسوس ، ويحيى أصيلا والعرائش وبلاد ورغة ، وحمزة وليلى وأعمالها ، وعيسى أزمور وتامسنة ، وأبقى تلمسان لأولاد سليمان بن عبد الله أخى جده إدريس . وخرج عيسى على أخيه محمد وطلب من القاسم حربه فامتنع وطلب ذلك من عمر فهزمه وأخذ ما فى يده وطلب إليه محمد حرب أخيهما القاسم لامتناعه عن حرب عيسى فحاربه وأخذ ما فى يده ، وبذلك اتسعت ولايته فشملت إقليم الريف والهبط وتامسنة وهو جد المحمودين الإدريسيين المتملكين لقرطبة فى أوائل القرن الخامس بالأندلس ، وتوفى سنة ٢٢٠ هـ/٨٣٤ م ولم يلبث الأمير محمد أن توفى سنة ٢٢١ هـ/٨٣٥ م وخلفه ابنه على فى التاسعة من عمره ، فقامت على تربيته الحاشية وظل حتى سنة ٢٣٤ هـ/٨٤٨ م وكانت أيامه أيام رخاء . وعهد لأخيه يحيى فاتسع سلطانه وعظمت فاس فى العمران وبُنى بها كثير من الفنادق والحمامات ورحل إليها الناس من البلاد ، وهاجرت إليها سيدة ثرية فاضلة من القيروان من قبيلة هوارة – هى أم البنين الفهرية – ومعها أموال كثيرة أفادتها من ذويها ، واعتزمت إنفاقها فى وجوه الخير ، فاختطت سنة ٢٤٥ هـ/٨٥٩ م المسجد الجامع المشهور بعدوة القرويين وهو المسمى باسم جامع القرويين ، وتحول فيما بعد إلى اليوم جامعة كبرى فى فاس كجامعة الأزهر فى القاهرة ، ويذكر لأحمد بن سعيد اليفرنى أنه بنى مئذنته على رأس قرن من اختطاطه . وولى بعد يحيى ابنه يحيى المسمى باسمه فأساء السيرة وكثر عبثه ، فثارت عليه العامة ، واضطر إلى الانسحاب إلى العدوة الأندلسية ، وبعد ليلتين من نزوله بها وافاه أجله ، وبذلك انقطع الملك فى الدولة من ذرية محمد بن إدريس الثانى .

وثارت الصفرية بجبال مديونة ودخلت عدوة الأندلس بفاس وقاومتها عدوة القرويين بقيادة يحيى بن القاسم بن إدريس وهزمتها وأخرجتها منها ، وتطورت الظروف فقام بالأمر فى فاس يحيى بن إدريس ابن عمر ، فملك جميع أعمال الأدارسة فى المغرب ، وخُطب له فى سائرها ، وفيه يقول ابن خلدون : « كان أعلى بنى إدريس ملكا وأعظمهم سلطانا ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه فى السلطان والدولة » . وكانت الدعوة العبيدية قد نجحت واستطاعت

تقويض الدولة الأغلبية ، واستولى على صولجان الحكم فى طرابلس وتونس والجزائر عبيد الله المهدى وطمح إلى ملك المغرب الأقصى ، فعقد لمصالة بن حبوس كبير مكناسة على رأس جيش ضخم لمنازلة حكامه سنة ٣٠٥ هـ/٩١٧ م ونازل مصالة يحيى بن إدريس ، وارتضى إعلانه الطاعة للمهدى وخلْع نفسه وإنفاذ البيعة فأبقى له مصالحه فى فاس وعقد له عمله عليها وحدها دون بقية بلاد المغرب ، وعقد مصالة لابن عمه موسى بن أبى العافية أمير مكناسة يومئذ على بقية المغرب الأقصى ، وعاد مصالة إلى المغرب سنة ٣٠٩ هـ/٩٢١ م فأغراه ابن أبى العافية بيحيى فاستصفى أمواله ، وأجلى الأدارسة إلى الريف فنزلوا مدينة البصرة واختطوا بها حصن النسر سنة ٣١٧ هـ/٩٢٩ م . وبذلك انتهت دولة الأدارسة فى فاس وانتهى معهم سلطان أوربة . وتجدد لهم ملك فى سبتة وأصيلا وإقليم أو منطقة الهبط ، وكانوا يختارون شخصا يقدمونه عليهم مثل قنون بن محمد بن القاسم بن إدريس ، وتوفى سنة ٣٣٧ هـ/٩٤٨ م فاتفقوا على تقديم أبى العيش أحمد بن قنون وكان يخطب لعبد الرحمن الناصر الأموى ، وارتأى أن يخرج إلى الأندلس مجاهدا سنة ٣٤٦ هـ/٩٥٧ م واستخلف أخاه الحسن بن قنون واتصلت مشايعته للأمويين الأندلسيين إلى أن غزا المغرب بلقين ، فدخل فى دعوة العبيديين مما جعل المستنصر الأموى يعدُّ جيشا لحربه ، ونازله فى عهد هشام المؤيد الأموى جيش كثيف من الأندلس اضطره إلى طلب الأمان سنة ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م . وبذلك انتهت دولة الأدارسة فى إقليم الهبط كما انتهت فى فاس .

وأما سليمان أخو إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى فإنه نزل تلمسان وتملكها من زناتة ودانت له وتركها له إدريس الثانى ، وتملك أنحاء من المغرب الأوسط ، وورث ملكه ابنه محمد واقتسمه أبناؤه ، وظلوا يتوارثون تلمسان وأرشكول وجراوة وتنس واستشعر بعضهم الولاء لبنى أمية ، وأخيرا ضاع ما بيدهم ، جزء أخذه ابن أبى العافية وجزء استولى عليه أولياء الدعوة العبيدية .

وقبل أن نترك الدولة الإدريسية لابد أن نشير إلى أنها أول دولة أُسست فى المغرب الأقصى ، وكانت دولة إسلامية عربية ، وقد أسهمت بقوة فى نشر الإسلام السنى فى المغرب الأقصى وتلمسان وتطهيرهما من الصفرية والرافضة وعنيت بتحفيظ القرآن الكريم وتفسيره ورواية الحديث النبوى وتفقيه الناس أمور دينهم ، وأخذت تتكون فى مساجد المدن حلقات القراء والمفسرين والمحدثين والفقهاء وعنى علماؤها بتعليم المغاربة العربية وأصبح فى المغرب مؤدبون ومعلمون مختلفون . وكانت الدولة عربية وفتحت أبوابها لشخصيات عربية كثيرة جاءتها من القيروان ومن المشرق ، حتى قالوا إنه كان فى بطانة إدريس الثانى – كما أسلفنا – خمسمائة عربى . وأخذوا يتكاثرون مع الزمن ، ولما ثار كثيرون من الفقهاء وأهل العلم والورع بقرطبة

على الحكم الربضى – كما أسلفنا – سنة ١٩٠ للهجرة وقاتلهم وانتصر عليهم ، هدم دورهم ومساجدهم ، فلحق كثيرون منهم بفاس ، وكل ذلك أسرع بعروبة المغرب الأقصى .

(هـ) فاس[١] وسجلماسة[٢] بعد الأدارسة والمدواريين

انتهى حكم الأدارسة فى فاس سنة ٣٠٩ هـ/٩٢١ م وتطورت بها ظروف مختلفة وجعلها العبيديون لموسى بن أبى العافية كبير مكناسة ، فظل مواليا لهم حتى سنة ٣٢٢ هـ/٩٣٤ م إذ رأى أن يعلن ولاءه للخليفة الأموى بقرطبة عبد الرحمن الناصر . ودانت فاس بالطاعة للعبيديين سنة ٣٣٣هـ/٩٤٥م وعادت إلى الناصر سنة ٣٤١ هـ/٩٥٣ م فولّى عليها محمد بن الخير المغراوى ، واستدار العام فرأى أن يرحل إلى الأندلس للجهاد واستخلف عليها ابن عمه أحمد بن سعيد ، وهو الذى شاد مئذنة جامع القرويين بفاس سنة ٣٤٤ هـ/٩٥٥ م وافتتحها جوهر الصقلى باسم المعز العبيدى سنة ٣٤٩ هـ/٩٦٠ م وظلت الدعوة العبيدية قائمة له فيها حتى سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٣ م إذ أرسل الحكم المستنصر الخليفة الأموى فى قرطبة قائده غالبا إلى المغرب فدخل مدينة فاس وأعاد فيها الخطبة للأمويين . وفى سنة ٣٦٩ هـ/٩٧٩ م عادت للعبيديين ، ولم تلبث أن عادت للأمويين سنة ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م وولى عليها المنصور بن أبى عامر زيرى بن عطية الخزرى المغراوى الزناتى وجعلها سنة ٣٧٧ هـ/٩٨٨ م دار ملكه ، فعلا قدره وارتفع شأنه ، وملك مدينة تلمسان وبسط سلطانه على المغرب من السوس الأقصى إلى الزاب فى الجزائر ، وأسكن قبيلته أنحاء فاس وبالقرب منها ورفع عن أحوازها بنى يفرن سنة ٣٨٢ هـ/٩٩٢ م فثاروا عليه وهزمهم وأسكنهم مدينة سَلا على المحيط ، وابتنى سنة ٣٨٤ هـ/٩٩٤ م مدينة وجدة . وفسدت العلاقات بينه وبين المنصور بن أبى عامر ، ونازله ودارت الدوائر على جيشه ، فأرسل إليه جيشا ثانيا بقيادة المظفر ، وتغلب المظفر عليه . وفى سنة ٣٩٣ هـ/١٠٠٢ م أصبح المظفر حاجبا للمؤيد هشام بعد أبيه المنصور بن أبى عامر فكتب للمعز بن زيرى بالولاية على فاس وسائر أعمال المغرب ، وظل المعز واليا للأمويين على فاس والمغرب حتى سنة ٤٢٢ هـ/١٠٣٠ م . وكانت الخلافة الأموية قد سقطت فى قرطبة فاستقل المعز بن زيرى بالمغرب وفاس حتى وفاته سنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م وعاشت فاس أيامه فى رخاء ، وكان ممدّحا يقدر الشعر والشعراء فقصدوه من مملكته ومن الأندلس . وخلفه ابنه دوناس إلى وفاته سنة ٤٥٢ هـ/١٠٦٠ م وفى عهده ازدهرت الحياة فى فاس ونما بها العمران وأصبحت مدينة واحدة بعد أن كانت عدوتين متقابلتين وكثر فيها بناء المساجد والحمامات والفنادق .

---

(١) انظر فاس فى هذه الحقبة بكتاب البيان المغرب لابن عذارى ٢٩٩/١ وما بعدها والأعلام لابن الخطيب ١٥٣/٣ وما بعدها وروض القرطاس ص ٨٣ وما بعدها .

(٢) راجع فى هذه الحقبة لسجلماسة كتاب الأعلام لابن الخطيب ١٥٠/٣ .

وخلفه ابنه فتوح ، وفى أيامه ظهرت لمتونة فى أطراف البلاد بقيادة عبد الله بن ياسين ، وخافها فترك مدينة فاس عاصمته لمعنصر بن حماد المغراوى سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م وافتتحها يوسف بن تاشفين سلما ، وعاد معنصر فتغلب عليها وخلفه ابنه تميم ، وزحف إليها يوسف بن تاشفين وافتتحها نهائيا سنة ٤٦٢ هـ/١٠٦٩ م .

وأما سجلماسة فإن جوهرًا الصقلى حين افتتحها ولّى عليها مبادر بن زيرى إلى أن توفى فى سنة ٣٥٧ هـ/٩٦٧ م فتولاها ابنه يصليتن الزناتى ، واستطاع الأمويون فى قرطبة أن يجذبوا إليهم قبيلة مغراوة وكبيرها حزرون بن فلفول ، فزحف إليها باسمهم سنة ٣٦٦ هـ/٩٧٦ م واستولى عليها وأقام بها الدعوة لهم ، وعقد له المنصور بن أبى عامر حاجب الخليفة الأموى المؤيد ومدبّر دولته عليها وعلى جميع أعمالها هى ومدينة درعة ، وظلت فى أسرته المغراوية ، وتملكها ابنه مسعود سنة ٤٠٠ هـ/١٠٠٩ م وغلب على جميع أعمالها هى ودرعة حتى توفى سنة ٤١٣ هـ/١٠٢٢ م وخلفه ابنه محمد لمدة قصيرة إذ توفى سنة ٤١٧ هـ/١٠٢٦ م ووليها بعده ابنه مسعود . وكان أمر لمتونة وشيخها الكبير عبد الله بن ياسين قد شاع فى البلاد ودانت له جميع الصحراء وبلاد السودان فكتب إليه فقهاء سجلماسة أن يغزوها ليرفع عنها العسف والجور ويطهرها مما بها من المنكرات ، ولبّاهم والتقى بمسعود وجموعه وهزم وقتل فى المعركة سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م ودانت سجلماسة ودرعة للشيخ ابن ياسين بالولاء والطاعة ، فجعل عليها عاملا من لمتونة وانصرف إلى الصحراء .

٤

المرابطون – الموحدون – بنومرين

(أ) المرابطون[1]

المرابطون صنهاجيون بدو كانوا يتنقلون وراء أنعامهم فى الرمال الصحراوية المترامية بين جنوبى المغرب الأقصى وقبائل إفريقية المدارية السوداء حتى السنغال وغيرها من بلاد السودان ونفس كلمة السنغال خير شاهد على ذلك إذ هى تحريف لكلمة صنهاجة على لسان البرتغاليين ، حين وصلوا إلى سواحلها فسموها Senhagal ثم أصبحت Senagalوظلوا دهورًا منتبذين العمران يعيشون على الأنعام وألبانها ولحومها ، واتخذوا اللثام على وجوههم شعارًا لهم بين

(١) انظر فى دولة المرابطين روض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ص ١١٩ وما بعدها وابن عذارى فى الثالث (طبع باريس) والرابع طبع بيروت وأعمال الاعلام لابن الخطيب ٣/٢٢٥ وتاريخ ابن خلدون ٦/١٨١ وما بعدها والاستقصا فى أخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى وتاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ليوسف إشباخ ترجمة محمد عبد الله عنان . وقيام دولة المرابطين للدكتور حسن محمود (طبع القاهرة) وكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان .

الأمم ، وكثروا فى منطقتهم وتعددت قبائلهم ومنها كدالة ومسوفة ولمطة وجزولة ولمتونة وهى أهمها جميعا . وكان دينهم فى جاهليتهم المجوسية مثل سائر البربر ، وأخذوا يدخلون فى دين الله متأخرين فى القرنين الثانى والثالث للهجرة ، وتحمسوا له ، وجاهدوا فى سبيله أمم السودان ودوّخوهم وحملوهم على اعتناقه فدانت به كثرتهم ، وأدّى الجزية منهم من لم يعتنقه . وكان لهم – بسبب اتساع منطقتهم – ملك ضخم توارثه ملوكهم ، وكان ملكهم فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى يحيى بن إبراهيم الكدالى ، وكان على شىء من التقوى فتجهز لأداء فريضة الحج سنة ٤٢٧ هـ/١٠٣٥ م وفى عودته منه لقى بالقيروان أبا عمران الفاسى شيخ المذهب المالكى ، فاستمع إلى دروسه ، ولزمه فترة فأعجب به الشيخ وسأله عن موطنه ، فقال له إن الجهل فاش فى الناس هناك وحبذا لو أرسلت معنا تلميذا لك يفقههم فى الدين ، فعرض الشيخ رغبته على تلاميذه فلم يقبل أحد منهم الذهاب معه لتلك الغاية ، فكتب له رسالة إلى تلميذ له فى سجلماسة هو وجاج بن زلو اللمطى لعله يقبل تلك المهمة ،فانتدب له وجاج تلميذا تقيا نابها من تلاميذه هو عبد الله بن ياسين الجزولى ، وما إن نزل فى قبائل صنهاجة المتبدية حتى أعجبوا به ، والتفوا حوله أول الأمر ، وعادوا فأنكروا عليه ما نهاهم عنه من بعض المحرمات ، وشعر باليأس فصمم على أن يتركهم وشأنهم ويقصر نفسه على النسك وعبادة ربه . وأشار عليه يحيى بن عمر أحد رؤساء لمتونة أن يتنسّك معه فى جزيرة قرب مصب نهر السنغال ، ونزلها معه وأقام فيها رباطا ، وتسامع بنسكه الناس فأخذ يفد عليه كثيرون ممن فى قلوبهم مثقال حبة من إيمان لينسكوا معه فى رباطه بتلك الجزيرة ، فلما بلغت عدّتهم ألفا قال لهم : « اخرجوا فأنتم المرابطون » أى المجاهدون فى سبيل الحق وحَمْل كافة الناس عليه ، ولذلك سموا بهذا الاسم : المرابطون ، وغلب على تسميتهم بالملثمين ، وبحق ظلت هذه الدولة – طوال عهدها – دولة رباط وجهاد فى سبيل الله .

وخرج عبد الله بن ياسين معهم ومع يحيى بن عمر اللمتونى ، وأخذ يُعِدّ العدة للجهاد فى سبيل الله ، وجاءته من صنهاجة البدوية قبائل كثيرة انضمت إلى دعوته ، وظل زعيمها الدينى بينما كان يحيى بن عمر زعيمها الحربى واتجه شمالا فاستولى – كما مر بنا – على درعة وسجلماسة وإقليمها سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م وأصلح من أحوال هذه المنطقة وغيرَّ ما بها من المنكرات وأسقط عن الناس المغارم والمكوس . وكان استيلاؤه على هذه المنطقة حطما للحصار الشمالى الذى كان مضروبا على قبائل صنهاجة البدوية أو الصحراوية ، وعاد إلى الصحراء وتوغل فى الجنوب فهاجم أهل السودان الغربى فى حوض السنغال وانتصر عليهم ، وكان ذلك حطما للحصار الجنوبى الذى كان مضروبا على صنهاجة الصحراوية ، فوصلوا إلى شعوب إفريقيا السوداء وأخذوا ينشرون فيها الدين الحنيف . ولم يلبث يحيى بن عمر أن توفى فى نفس السنة ، فخلفه أخوه أبو بكر أحد كبار رجال العالم الإسلام المجاهدين فى سبيل الله ، وبدأ

فندب المرابطين للجهاد فى بلاد المغرب الأقصى فغزا بلاد منطقة السوس سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م واستدار العام ففتح من بلدانها ماسة على المحيط وتارودنت على نهر السوس ومحا أبو بكر منها دعوة الروافض وصعد إلى الشمال فاستولى على أغمات ، وحَمَّس أنصاره من المرابطين لجهاد برغواطة الفاسقة ، وكانت مواطنها فى ساحل المحيط فى سلا بإقليم فاس وآنفة وآزمور فى تامسنه وآسفى فى إقليم دكالة ، وكانوا صفرية ، وكان كبيرهم طريف بن صبيح من قواد ميسرة الصفرى ، ويقال إنه تنبأ ، وتوالى أبناؤه يتنبَّؤون ويشرِّعون لقومهم الشرائع ، وقاومهم الأدارسة والعبيديون والأمويون ، ولكن أحدا منهم لم يقض عليهم قضاء مبرما حتى نازلهم أبو بكر بن عمر بجموعه من المرابطين فى وقائع سحقهم فيها سحقًا ، واستشهد عبد الله بن ياسين فى بعض تلك الوقائع سنة ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م ومازال أبو بكر يواقعهم حتى استأصل شأفتهم كما يقول ابن خلدون ومحاهم من الأرض محوا . وبلغه خلاف عنيف بين قبيلته ومسوفة فى موطنهم بالصحراء ، فخشى مغبة ذلك وارتحل إليهم سنة ٤٥٣ هـ/١٠٦١ م ليصلح ذات بينهم ، واستعمل على المغرب الأقصى ابن عمه يوسف بن تاشفين . ومن ذلك الحين انقسمت حركة المرابطين العظيمة قسمين : قسم جنوبى يجاهد فى إفريقية المدارية بقيادة أبى بكر بن عمر وخلفائه من بعده ، واستطاع هذا المجاهد العظيم الاستيلاء من بلاد السودان على ٩٠ مرحلة فى رواية وعلى مسيرة ثلاثة أشهر فى بلدانها وأراضيها برواية أخرى . ومازال يجاهدهم هذا البطل المقدام حتى استشهد فى إحدى غزواته سنة ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م بعد أن ضرب أروع الأمثلة فى نشر الإسلام والجهاد فى سبيله . وأما القسم الشمالى من حركة المرابطين فكان بقيادة يوسف بن تاشفين وقد شمل ما استولى عليه المرابطون – قبل يوسف – وما سيستولون عليه بقيادته من المغرب الأقصى وغير المغرب الأقصى من مثل تلمسان والأندلس .

وكان يوسف بن تاشفين بطلا شجاعًا حازمًا مدبرًا لملكه على خير وجه ، مجاهدا فى سبيل الله طوال حكمه ابتغاء الثواب من ربه ، وكان بحق من كبار الشخصيات الإسلامية المؤسسة للدول والمدن ، ولم يكد يستدير العام بعد توليه الحكم حتى رأى أن يبتنى فى السهل الواسع شمالى أغمات وجنوبى تهرتنسيفت مدينة لتكون حاضرة لحكمه . وسرعان ما أخذ فى بنائها سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م وهى مدينة مراكش ، وقد شُيِّدت وفق مخططات رسمتها طائفة من مهرة المهندسين وقامت على بنائها طائفة من العمال الحاذقين كما بنى بها المسجد الجامع وإدارة الحكم ، وسرعان ما تكاثرت بها الجوامع والمدارس والفنادق والحمامات ، وأصبحت إحدى مدن العالم الإسلامى الكبرى . وفى نفس السنة جنَّد يوسف الأجناد حتى اكتمل له ما يزيد عن مئة ألف فارس من صنهاجة وغيرها من قبائل المغرب الأقصى ، وقصد مدينة فاس فحارب القبائل حولها وانتصر عليها وافتتحها الفتح الأول ، ومضى يهزم القبائل ويفتح البلاد ، وفى سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٧ م استولى على بلاد غمارة فى منطقة الريف إلى

طنجة ، وفتح مدينة فاس الفتح الثانى سنة ٤٦٢ هـ/١٠٦٩ م وعاد إليها فى السنة التالية فافتتحها عنوة وافتتح حصون نهر ملوية ، وأخذ كثير من البلدان يفتح له أبوابه دون حرب ، وفى سنة ٤٦٧ هـ/١٠٧٤ م فرَّق عماله على بلاد المغرب وفى سنة ٤٧٠ هـ/١٠٧٧ م استولى على طنجة ، وفى سنة ٤٧٢ أرسل قائده مزدلى إلى تلمسان فاستولى عليها ، وفى سنة ٤٧٣ هـ/١٠٨٠ م ضرب السكة أو العملة باسمه ، وفى السنة التالية فتح مدينة وجدة وتنس ووهران ومدينة الجزائر وجميع أعمال نهر شلف ، وبذلك ضم إلى المغرب الأقصى الشطر الغربى من الجزائر ، وفى سنة ٤٧٧ هـ/١٠٨٤ م فتح مدينة سبتة . وبذلك وحَّد المغرب الأقصى جميعه جنوبا حتى الصحراء الكبرى وغربا حتى المحيط وشمالا حتى البحر المتوسط ، ولم يكفه الاستيلاء على حدوده الشرقية غربى نهر الملوية حتى مدينة وجدة ، فقد مدَّه شرقا واستولى على شطر كبير من الجزائر كما أسلفنا . وكان واسع الأفق مؤمنا بأن العالم الإسلامى ينبغى أن يتوحَّد تحت راية واحدة هى راية الخليفة العباسى ببغداد ولذلك كتب إليه معلنا دخوله فى طاعته ، وكتب إليه الخليفة مرحبا ومباركا له فى مملكته ، واكتفى يوسف بأن لقب نفسه بلقب أمير المسلمين . ومما يدل على حسن إدارته وسياسته أنه كان يختار الولاة على ولايات مملكته الواسعة من خيرة رجال قبيلته الصنهاجية المعروفين بالأمانة والعدالة والنزاهة ، وضمَّ إلى كل وال فقيها أو أكثر ليكون مستشاره فى أحكامه بحيث تتمشى مع الشريعة الإسلامية ، ورفع عن كاهل الرعية المكوس والمغارم التى كان يتقاضاها منهم حكامهم السابقون .

وكانت الأندلس – فى القرن الخامس الهجرى – قد أصبحت أندلسات وإمارات متعددة وأخذت تتنافس وتتحارب فى هذا العهد الذى سمى عهد أمراء الطوائف ، ونشط أعداؤهم النصارى الإسبان فى الشمال للانقضاض عليهم ، وأخذوا يؤدون إليهم – قهرا – إتاوات ومغارم شتى ، وخاصة لألفونس السادس ملك ليون وقشتالة ، واستطاع سنة ٤٧٨ هـ/١٠٨٥م أن يلتقم طليطلة أكبر إماراتهم دون حرب ، مع مساعدة أميرها القادر بن ذى النون على أخذ بلنسية . وشعر المعتمد أمير إشبيلية والمتوكل أمير بطليوس بهذا الخطر الداهم وكذلك غيرهما من الأمراء ، فاستصرخوا البطل المغوار يوسف بن تاشفين أن ينجدهم ضد ألفونس السادس قبل أن يبتلعهم كما ابتلع طليطلة ، وأرسلوا إليه – مستغيثين – نفرا من قضاة المدن الكبرى ، فأطلعوه على جلية الأمر ، فثارت حميته للإسلام والمسلمين فى الأندلس ، كما ثارت حمية قومه المرابطين المجاهدين الذين نذروا أنفسهم للجهاد فى سبيل الله ودينه الحنيف ، وأعد سريعا جيشا جرارا لمنازلة نصارى إسبانيا وأعد له أسطولا ضخما عَبَر الزقاق سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م وأخلى له المعتمد صاحب إشبيلية مدينة الجزيرة الخضراء لتكون رباطا لجيشه ، واتجه لحرب عدو الله فى طليطلة وانضم إليه المعتمد والمتوكل أمير بطليوس وعبدالله بن بلقين أمير غرناطة بجيوشهم ، وعلم ألفونس بمقدمه وأنه منازله فاستغاث بملوك النصارى فى إسبانيا وفرنسا

وإيطاليا وبالبابا في روما وجاءته حشود من الفرسان ،والتقت الفئتان في موضع يُدْعَى الزلاَّقة شمالي بطليوس ، ودارت معركة حامية الوطيس مُزِّق فيها جيش ألفونس شر ممزَّق ، ويقال إنه كان مائة وثمانين ألف فارس ومئتي ألف راجل ، فنكَّل جيش يوسف بن تاشفين بهذا الجيش وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وفرَّ ألفونس على وجهه إلى طليطلة في شرذمة قليلة من الفرسان مثخنا بالجراح . وبلغت يوسف وفاة ابن له ، فاضطر إلى العودة إلى مراكش بعد هذا النصر المبين ، ولو أنه تابع بعده زحفه إلى طليطلة لاستولى عليها . وفي سنة ٤٨١ هـ/١٠٨٨ م أخذ ألفونس يغير على إمارة المعتمد بن عباد عن طريق حصن لبيط ، واستغاث بابن تاشفين ، فاجتاز الزقاق إليه وكتب إلى من سواه من أمراء الطوائف ليلتقوا للجهاد ضد ألفونس ، ولم يلبِّه سوى أمير مرسية وأسرَّها في نفسه ، وانتصر أمير المسلمين وعاد إلى عاصمته مراكش . ودبَّ الخلاف والشقاق بين أمراء الطوائف ومدّوا أيديهم إلى ألفونس يدفعون له المغارم ويطلبون منه العون وخاصة عبد الله بن زيرى أمير غرناطة فعَبَر يوسف الزقاق إلى الأندلس للمرة الثالثة ، وفيها خلع عبد الله بن زيرى وأسرته عن غرناطة وأرسل بهم إلى مراكش . وترك وراءه صهره سير بن أبي بكر ليخلع أمراء الطوائف جميعا ومن أبى قاتله أو أخذه أسيرا ، وقاتله المتوكل أمير بطليوس وقتله ، ونازله المعتمد أمير إشبيلية وأسره ونفاه مع أسرته إلى أغمات . واستولى المرابطون على المرية وفر ابن صمادح إلى إفريقية كما استولوا على دانية وشاطبة وبلنسية سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢ م وبذلك دانت لهم الأندلس ماعدا سرقسطة فإن ابن تاشفين – بنظره الثاقب – رأى أن تظل مع أمرائها من بني هود ، لتكون ثغرا حربيا حاجزا بين نصارى الشمال والأندلس . وفي سنة ٤٩٠ هـ/١٠٩٦ م وقيل بل في سنة ٤٩٦ هـ/١١٠٢ م عبر ابن تاشفين إلى الأندلس مرة رابعة لأخذ البيعة لابنه علي . وفي سنة ٥٠٠ هـ/١١٠٦ م توفي البطل العظيم يوسف بن تاشفين وبويع لابنه علي بمراكش .

وكان علي مجاهدا كبيرا مثل أبيه وفي سنة ٥٠١ هـ/١١٠٧ م وجَّه أخاه تميما الوالي على غرناطة بجيش إلى إقليش شرقي طليطلة ، ولقيه ألفونس وهزمه تميم هزيمة منكرة ، قُتل فيها ابنه الوحيد ولي عهده ، ومات بعد الموقعة بعشرين يوما متحسرًا على هزيمته وفقد ابنه ، واستولى تميم على حصن إقليش وشَنْتبريَّة . وفي سنة ٥٠٣ هـ/١١٠٩ م عبر علي بن يوسف إلى الأندلس بجيش كثيف هاجم به طُلَيْطلة وفتح من أحوازها سبعة وعشرين حصنا وفتح مجريط ووادي الحجارة . وفي السنة التالية فتح سير بن أبي بكر مدن شريش وبطليوس وبرتغال ويابرة وأشبونه وجميع بلاد الغرب . وفي سنة ٥٠٧ هـ/١١١٣ م توفي سير بن أبي بكر بإشبيلية وخلفه عليها محمد بن فاطمة حتى سنة ٥١٠ هـ . وفي السنة التالية ٥٠٨ هـ/١١١٤ م توفي القائد مزدلي غازيا ببلاد النصارى . وفي سنة ٥٠٩ هـ/١١١٥ م تملك المرابطون جزائر البليار : ميورقة وأختيها . وأخطأ علي بن يوسف فأخذ سرقسطة من حماتها بني هود ، وسرعان

ما وقعت فريسة للنصارى سنة ٥١٢ هـ/١١١٨ م . وفى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة عبر على بن يوسف إلى الأندلس ، ودوَّخ بلاد الغرب وفتح شنتمريَّة . وفى سنة ٥١٩ هـ/١١٢٥ م استدعى المعاهدون من نصارى غرناطة ألفونس الأول ملك أراجون للاستيلاء على مدينتهم ، فزحف إلى الجنوب ، وعلم المرابطون فردوه على أعقابه . وأجْلَوْا عن غرناطة كل من كانوا سببا فى استدعائه من النصارى إلى مدينة سَلا على المحيط فى المغرب وبالمثل إلى مكناسة . وفى سنة ٥٢٠ هـ/١١٢٧ م هاجم تاشفين بن على النصارى وفتح ثلاثين حصنا فى الغرب . وفى سنة ٥٢٨ هـ/١١٣٤ م وجَّه على بن يوسف جيشا كثيفا بقيادة على بن غانية والى بلنسية ومرسية شرقى الأندلس إلى مدينة إفراغة شرقى سرقسطة ، فلقى جيشا لألفونس الأول ملك أراجون فنازله وهزمه هزيمة منكرة . وفى سنة ٥٣٣ هـ/١١٣٨ م أخذ البيعة بمراكش لابنه تاشفين ، وتوفى على سنة ٥٣٧ هـ/١١٤٢ م .

وخلف تاشفين أباه عليا ، ولم يلبث الموحدون أن نازلوه سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٤ م ودارت عليه الدوائر وتوفى برمضان من نفس السنة . وكانت دولة المرابطين دولة عظيمة عملت على نشر الإسلام فى السودان الغربى بالسنغال وغير السنغال ، وقضت على الصفرية والنحل الضالة نحلة البجلية من السوس ونحلة برغواطة المارقة فى إقليم تامسنا وجعلت الإسلام فى المغرب الأقصى كله سنيا ، ووحدته بحدوده المعروف بها إلى اليوم ، وصانت الأندلس من الضياع ، فقد كانت سفينة توشك على الغرق ، فأنقذتها وردتها إلى مواصلة الحياة الأدبية والفلسفية والعلمية لأربعة قرون تالية . وقد شملت دولتهم – على اتساع أرجائها – عدالة وأمن لم يحظ بهما قطر فى أزمنتهم ، إذ كانت تمتد من ممالك النصارى فى شمال إسبانيا إلى السنغال فى الجنوب ، ولا مكس ولا مغرم ولا معونة فى بادية أو حاضرة إلا ما كان من الزكاة والعشر مما فرضه الإسلام ، والأسعار فى غاية الرخص ، والناس فى دعة ورخاء ورفاهية إلى أن ثار على الدولة مهدى الموحدين واستولى خليفته عبد المؤمن على صولجان الحكم من المرابطين .

(ب) الموحدون[1]

أنشأ هذه الدولة بالمغرب الأقصى محمد بن تومرت فقيه من هرغة إحدى بطون مصمودة ، وهى إحدى القبائل الأربع الكبرى التى كانت تعيش فى مناطق هذا المغرب ، وهى غمارة

(١) انظر فى الموحدين كتاب المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة (طبع دار الغرب الإسلامى) والمعجب للمراكشى (طبع القاهرة) والجزء الثانى من البيان المغرب (طبع باريس) وروض القرطاس لابن أبى زرع وتاريخ ابن خلدون ٦/٢٢٥ وما بعدها وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى (طبع القاهرة) والاستقصا فى أخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى وعصر المرابطين والموحدين ليوسف إشباخ ترجمة عنان ومعالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس .

وكانت تنتشر فى منطقة ، الهبط والريف ، وزناتة وكانت تنتشر فى كثير من المناطق وخاصة حول حوض نهر ملوية من منبعه إلى مصبه ، ومن فروعها مغراوة التى قضت على الأدارسة وبنى مدرار ، وصنهاجة فى مناطق مختلفة ، ومعها صنهاجة الملثمون أصحاب دولة المرابطين ، ثم مصمودة وكانت تنزل فى السفح الجنوبى لجبال الأطلس وسهوله ، وهى الجبال المسماة جبل درن ، وكانت تنتشر من آسفى فى منطقة دكالة إلى حاحه على ساحل المحيط ومراكش والسوس وجزولة . وكانت تطمح إلى الملك كما ملكت قبلها صنهاجة وبعض فروع زناتة مثل بنى مدرار فى سجلماسة . ومن فروع مصمودة هرغة وهنتانة وتينملل ودكالة وهيلانة وغيرهم حتى ليصبحون معظم سكان المغرب الأقصى .

وولد لهذه القبيلة الكبرى محمد بن تومرت الهرغى حول سنة ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ م ونشأ كما ينشأ لداته فحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يختلف إلى حلقات العلماء فى بلدته ثم فى مراكش حتى إذا بلغ نحو العشرين من عمره رحل إلى المشرق على رأس المائة الخامسة ، كما يقول ابن خلدون ، ومرَّ بالأندلس ودخل قرطبة وهى دار علم ، ورحل إلى الإسكندرية وحجَّ ودخل العراق ولقى جملة من العلماء . وكانت عقيدة الإمامية الاثنى عشرية شائعة فى بغداد ، فدرسها وعرف أنها تقوم على الإمامية أو فكرة إمامة أحد أحفاد على عن طريق الوصية المتسلسلة إليه ، وأن المسلم لا يكون مسلما حقا إلا إذا فوَّض أمره للإمام وبذل نفسه فى سبيله ، فرأى أن يكون ذلك ركنا أساسيا فى دعوته ، فهو إمام ، وهو يتصف بالصفات القدسية التى يتصف بها الإمام عند فرقة الإمامية الشيعية . ولكن كيف تكون إمامته والإمامة خاصة بالبيت النبوى ؟ فأكد أنه علوى فاطمى وذكر له سلسلة نسب تصله بسليمان بن عبد الله أخى إدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة ، وكان قد ترك لأخيه سليمان وذريته تلمسان .

ولم يأخذ محمد بن تومرت عن الإمامية عقيدة الإمام الفاطمى أو العلوى وحدها ، بل أخذ معها فرعيها من المهدية والعصمة ، أما المهدية فيريدون بها الإمام الذى ينقذ العالم من الشرور والآثام ، فلقب نفسه بالمهدى أى الإمام الذى اختاره الله لتخليص العالم مما فيه من الموبقات والمعاصى ، وأما العصمة فيراد بها أن الأئمة معصومون عن الخطأ وعن ارتكاب أى إثم أو اقتراف أى ذنب ؛ مع الإيمان بأن الله أضفى عليهم صفات روحية قدسية ، وهى صفات تجعل طاعتهم فريضة على كل مسلم وأن عقيدته لا تتكامل إلا إذا فوَّض أمره إلى الإمام وبذل نفسه فى سبيله . ولكل ذلك سمى نفسه – وسماه أتباعه – الإمام المهدى المعصوم . كلمات ثلاث ولكنها كلمات فى غاية الخطورة ، فهو الشخص الذى اختاره الله لعباده ليكون حاكمهم دينا ودنيا : حاكم مهدى ينقذ الناس من الظلم والمآثم ، وكلمته لا ترد فهو معصوم ولا يجرى على لسانه إلا الحق ، والحق وحده . وألف ابن تومرت في هذه الصفات التى خلعها على نفسه مستمدا لها من الإمامية الشيعية كتابا فى الإمامية افتتحه بقوله : « أعز ما يطلب » .

وبجانب هذه الأسس الثلاثة وهى أنه إمام مهدى معصوم يأخذ عن الفاطميين لعقيدته أساسا رابعا هو تنظيم دولته بحيث يكون على رئاستها إمام وتتبعه طبقتان : طبقة الصحابة وهم عشرة مستشارون وطبقة الأنصار وهم خمسون وبجانب هاتين الطبقتين الطلبة وهم دعاتهم وكانوا يتعلمون أسس العقيدة ونشرها فى القبائل . ودرس وهو فى بغداد – مذهبى المعتزلة والأشعرية ، وعرف الأصول الخمسة التى يدين بها المعتزلة ، وهى التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، وأن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأعجبه المبدأ الأول وهو التوحيد ، وهو يعنى عند المعتزلة تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ، فهو ليس بجسم ولا عرض ولا جوهر ولا يحصره المكان ولا الزمان ، وكل آية فى القرآن الكريم يفهم منها مشابهة الله للمخلوقات مثل : (يد الله فوق أيديهم) تؤوَّل ، فاليد فى الآية معناها القدرة ، وبالمثل الآيات الأخرى المماثلة . والأشعرية يلتقون مع المعتزلة فى هذا المبدأ وهو تنزيه الله عن التشبيه وكل ما يتعلق بالجسمية والتجسيد ، ومع أن ابن خلدون يقول إنه أخذ بمذاهب الأشعرية فى كافة العقائد ، وألف فى العقائد على رأيهم رسالته المرشدة فى التوحيد ، مع ذلك نرى أنه ربما صرح باسم الأشعرية لأنه كان لهم شعبية بالمغرب كله لعصره وقبل عصره . وإنما دعانا إلى الزعم بأن ابن تومرت أخذ فكرة أو مبدأ التوحيد وما يتصل به من تنزيه الله عن مشابهة المخلوقات عن المعتزلة أنه استخدمها بنفس المعنى للدلالة على أتباعه ، فهم موحدون أى يؤمنون بأن الله لا يشبه المخلوقات بوجه من الوجوه وينفون عنه التجسيد بكل صوره . وكان يتهم المرابطين وشيوخهم بالقول على الذات العلية بالتجسيم وأنهم لذلك كافرون مارقون عن الدين ويجب نقض طاعتهم وقتالهم ، ومعاذ الله أن يكون المرابطون كفارا أو مجسمة وقد أدوا للإسلام خدمات كبرى إذ قضوا فى منتصف القرن الخامس الهجرى على مجوس برغواطة فى إقليم تامسنا بالمغرب الأقصى واستنجد بهم أمراء الطوائف فى الأندلس ضد غارات الإسبان عليهم فعبروا إليهم وهزموا الإسبان هزيمة ساحقة فى موقعة الزلاّقه وكان لهم جيش فى موريتانيا نشر الإسلام بقوة فى غرب إفريقيا ووسطها ، وبفضلهم تحولت غانة بلدا إسلاميا إلى اليوم ، وظلم ما قاله ابن تومرت عنهم من أنهم كفار مجسمة وكل ما هناك أن فقهاءهم كانوا سلفيين يتركون التأويل للآيات التى قد يفيد ظاهرها التشبيه على الله مع تنزيهه ونفى التجسيد عنه ، وبذلك يتبين أن ابن تومرت لم يسم أتباعه باسم الموحدين عفوا بلا قصد مما جعل مؤرخا يقول : « كان لقب الموحدين الذى أطلقه ابن تومرت على أتباعه غير ذى معنى لأن كل المسلمين موحدون ، ولم يكن المرابطون أقل توحيدا من الموحدين » . فهى كلمة – كما رأينا – تؤدى معنى واضحا عنده وعند أتباعه . وفى رأيى أن الذى وصل ابن تومرت بمذهب المعتزلة هم الإمامية لأنهم كانوا موصولين بهم من قديم ، وأحكم هذا الاتصال فى القرن الخامس الهجرى الطبرسى المتوفى سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٧ م وقد فسح فيه –كما ذكرت فى الحديث عن التفسير

فى القسم الخاص بالعراق فى هذه السلسلة – للتأثر بالمعتزلة فى نفى التشبيه عن الذات العلية . ومبدأ ثان من مبادىء المعتزلة الخمسة أخذ به ابن تومرت وجعله جزءًا لا يتجزأ من دعوته ، وهو مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو ما ينبغى على كل مسلم أن يصدر عنه بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، وإلا فبقلبه ، وهو أضعف الإيمان ، وجعل ابن تومرت ذلك شعارًا للدعوة . ويقول صاحب المعجب إنه أخذ عن المعتزلة القول بأن صفات الذات العلية من مثل قدير سميع عليم هى عين الذات الإلهية ، وقال الأشعرية إنها زائدة على الذات .

ويعود ابن تومرت إلى المغرب وينزل طرابلس ويحاول أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويلقى مقاومة ، ويتركها إلى بجاية ، ويلقى نفس المقاومة ، ويزداد أتباعه ويلتقى بعبد المؤمن بن على الكومى من قبيلة كومية ، ويقال إنها زناتية ويقال بل مصمودية ، وصحبه إلى تلمسان ، والتف حوله كثيرون . وسار موكبه إلى فاس والمغرب الأقصى ، ونراه يظن أن أدوات الموسيقى منكر ، فيأمر أتباعه بتحطيمها . وينزل مكناسة ويلقى بها مقاومة فيتركها إلى مراكش ويلتقى فى المسجد بأمير المسلمين على بن يوسف ويعظه . وأخذ ينكر على الفقهاء أخذهم بالظاهر فى تفسير الآيات التى قد يفهم منها التجسيد قائلين إن علم ذلك عند الله مع تنزيهه ونفى التشبيه عنه ، وهو قول أهل السنة ورماهم بالكفر كما رماهم بالجمود لتمسكهم بمذهب مالك وفروعه ، وكأن ذلك كان تمهيدا لتأخذ هذه الدعوة بمذهب داود الظاهرى الذى يأخذ بالكتاب والسنة فحسب ، وناظره الفقهاء وانتصر عليهم ، ولحق بأغمات ثم بقبيلة هنتانة المصمودية وشيخها أبى حفص ، ونزل على قبيلته هرغة سنة ٥١٥ هـ/١١٢١ م وبنى بها رباطا للعبادة ، وانثالت عليه القبائل وخاصة من مصمودة ، وانتقل إلى جبل تينملل جنوبى منطقة مراكش ، وأخذ ينظم أتباعه فى طبقات ، فأول طبقة إيت عشرة أو أهل عشرة وهم صحابته كصحابة الرسول ، وتليهم طبقة الأنصار إيت خمسين أو أهل خمسين . وكان يسمى حفظة المذهب وفقهاءه الطلبة أى الدعاة ويسمى أهل دعوته الموحدين بالمعنى الذى أوضحناه . وأعدَّ جيشا عداده ٤٠,٠٠٠ مقاتل من الموحدين وجعل عليه عبد المؤمن بن على ، ولقيتهم جيوش المرابطين فهزموهم ، وتبعوهم إلى بحيرة بمراكش ، ودفعوهم إليها وأثخنوا فيهم قتلا وسبيا وسميت هذه المعركة معركة البحيرة . ولم يلبث المهدى أن توفى بعدها بأربعة أشهر سنة ٥٢٢ هـ/١١٢٨ م ، وكتم عبد المؤمن وأصحابه موته ثلاث سنوات يموِّهون بمرضه حتى استحكم أمرهم ، فأظهروا للناس موته وعهده لعبد المؤمن بن على بخلافته .

وأجمع أصحاب ابن تومرت العشرة وأنصاره الخمسين والدعاة أو الطلبة وكافة الموحدين على البيعة لعبد المؤمن بن على بمدينة تينملل سنة ٥٢٤ هـ/١١٢٩ م باسم خليفة ابن تومرت ، ولم يلبث أن أبعد فى الغزوات فى منطقة تادلة ، واستولى سنة ٥٢٦ هـ/١١٣١ م على درعة ،

وتسابق الناس فى المغرب الأقصى إلى دعوته وانتقض البربر فى سائر أنحاء المغرب على المرابطين . ويتحاشى عبد المؤمن مقابلتهم فى مراكش بعد هزيمة البحيرة المشهورة المارة ، ويقوم منذ سنة ٥٣٤ هـ/١١٣٩ م إلى سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م بحملة كبرى يخترق فيها ممر تازا إلى تلمسان ويستولى على شطر كبير من المغرب الأوسط . وكان تاشفين بن على بن يوسف يحاذيه ولا ينازله ، وفى هذه الأثناء توفى أبوه على بن يوسف وولى الخلافة تاشفين ، وهاجم عبد المؤمن سبتة وامتنعت عليه ، وكان القاضى عياض هو الذى دافع عنها بقوة ، ولذلك سخط عليه الموحدون ، وظل عبد المؤمن يتابع تاشفين حتى حصره فى مدينة وهران بالجزائر وبها توفى سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٥ م وبموته سقطت وهران ، وأخذت مدن المرابطين تسقط فى حجر الموحدين مع ما أبدى المرابطون فيها من بسالة عظيمة ، وخاصة مدينتى فاس ومراكش . وقد ظل عبد المؤمن محاصرا لمراكش تسعة أشهر وهى تقاوم بزعامة أميرها إسحق بن على بن يوسف وطال عليها الحصار وأجهد أهلها الجوع فاستسلموا فى شوال سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م ولم يبق الموحدون على أحد من المرابطين وقتلوا إسحق بن على بن يوسف ، وانمحى – كما يقول ابن خلدون – أثر المرابطين من البلاد واستولى عليها الموحدون كما استولوا على تلمسان وعلى شطر كبير من المغرب الأوسط . ولن يقف ملك عبد المؤمن فى بلاد المغرب عند هذا الحد ، إذ كان قد حدث منذ أواسط القرن الخامس أن اكتسحت أمواج الهلالية وبنى سليم طرابلس وإفريقية التونسية وشطرًا كبيرًا من المغرب ، وأعدت لظهور ما يشبه أمراء الطوائف فى إفريقية التونسية مثل بنى خراسان فى تونس وبنى جبارة فى سوسة وبنى جامع فى قابس وبنى الرند فى قفصة . وكان بنو حماد فى بجاية ، وكان المعز بن باديس وابنه تميم انحازا إلى المهدية على البحر المتوسط بين سوسة وصفاقس ، وحمل ملوك صقلية النورمانديون بأساطيلهم على سواحل طرابلس واستولوا عليها كما استولوا على جزيرة جربة المقابلة لقابس ، وسرعان ما استولوا فى سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م على المهدية وكثير من مدن إفريقية التونسية الشرقية مثل قابس وصفاقس والمنستير وسوسة ، وعلم عبد المؤمن ذلك كله فصمم على أن يجمع ديار المغرب كلها فى قبضة واحدة ، حتى لا تسول لملوك صقلية نفوسهم الاستيلاء عليها ، فخرج من مراكش سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨ م فى جيش جرار استولى به على بجاية عاصمة بنى حماد وخلعهم عن إمارتها واستسلمت له إمارات الطوائف الصغرى فى إفريقية التونسية ، واستولى من النورمان على كل ما كان بأيديهم من مدن الساحل فى طرابلس وإفريقية التونسية ، وبذلك تحققت على يده وحدة المغرب السياسية من طرابلس إلى المحيط .

وبمجرد أن توفى تاشفين بن على بن يوسف وانتقل صولجان الحكم فى المغرب الأقصى إلى الموحدين اختلّت أحوال الأندلس ، بل لعلها اختلت من قبل ذلك فى عهد على بن يوسف منذ شُغل المرابطون عن الأندلس بحرب الموحدين ، فاستولى النصارى على كثير من الثغور

المجاورة لبلدانهم . ورأى بعض أعيان البلاد فى الأندلس إخراج بلدانهم من ولاة المرابطين وإعلان استقلالهم بها ، وبذلك بدا فى الأندلس ما يمكن أن نسميه عصر الطوائف الثانى ، وفى سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م استولى صاحب برشلونة : ريموند على طرطوشة وجميع قلاعها وعلى لاردة وإفراغة ، واتفق أهل بلنسية ومرسية وشرقى الأندلس على تولية عبد الله بن عياض وخلفه محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ، ودانت له جيان وولى عليها صهره إبراهيم بن همشك ، وظل ابن مردنيش يقاوم الموحدين إلى أن توفى سنة ٥٦٨ هـ/١١٧٢ م ودخلت بلاده فى طاعة الموحدين وبالمثل جيان وابن همشك . وكان الموحدون يرسلون جنودهم منذ سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م إلى الأندلس واهتموا بالغرب فيها ، فدانت لهم إشبيلية وغرناطة . وكان ألفونس السابع قد استولى على المرية سنة ٥٥٢ هـ/١١٥٧ م فنازله عثمان بن عبد المؤمن والى إشبيلية ، وحاول ألفونس الدفاع بكل ما يستطيع ، ولم يغنه دفاعه ولا جنوده فقد هزم هزيمة ساحقة توفى على أثرها ، وهو ثانى ملك نصرانى يقضى عليه المسلمون بعد قضائهم على جده ألفونس السادس بعد هزيمته فى أقليش وقتل ابنه فى معركتها الطاحنة . وعبر عبد المؤمن إلى الأندلس ، ونزل بجبل طارق وسماه جبل الفتح وبنى به مدينة ، ووفد عليه وجوه الأندلس من مالقة وغرناطة وقرطبة وإشبيلية للبيعة سنة ٥٥٦ هـ/١١٦١ م وقدم له الشعراء مدائح رائعة وتوفى سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٣ م . وبحق استطاع إنشاء أكبر دولة عربية فى عصره إذ امتدت من المحيط الأطلسى إلى أنحاء طرابلس فى إفريقيا ومن ديار النصارى فى الأندلس إلى درعة والسوس فى المغرب الأقصى .

وخلفه ابنه يوسف وكان مثقفا ثقافة واسعة ، ثقفها فى أثناء ولايته لأبيه على الأندلس واتخاذه إشبيلية عاصمة له هناك ، وكان مثل أبيه وإمامه ابن تومرت ثائرا على كتب المذاهب الفقهية وما بها من كثرة الفروع والعلل مؤمنا بمذهب أهل الظاهر الذين يرجعون فى فقههم إلى الكتاب والسنة فحسب كما هو معروف عن داود الظاهرى فى المشرق وابن حزم فى الأندلس . ومرَّ بنا أن من مبادئهم التوحيد وسموا به أنفسهم الموحدين أى الجماعة التى تنفى مشابهة الذات العلية للمخلوقين نفيا باتا ، ومبدأ ثالث هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما مر بنا ، مع الإيمان بأن ابن تومرت كان إماما مهديا معصوما . ومع ذلك كله يزعم بعض المؤرخين المعاصرين أن دعوة الموحدين لم تقم على أساس مذهب دينى أو سياسى واضح لأنه غابت عنهم معرفة المبادىء التى قامت عليها هذه الدعوة .

وانتهت فى عهد يوسف فتنة ابن مردنيش وكذلك فتنة ابن همشك ودانت له الأندلس شرقا وغربا . وكان ألفونس إنريك Alfonso Enrique ويسميه مؤرخو العرب ابن الريق وهو صاحب قلمرية شمالى نهر تاجه بالقرب من المحيط ، استولى على أشبونة وشنترين وقصر

أبى دانس منذ سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م وعبر يوسف إلى الأندلس فى سنتى ٥٦٦ هـ/١١٧٠ م و ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م لمجاهدته ومجاهدة النصارى واستولى على بعض الحصون .

وتوفى يوسف سنة ٥٨٠ وخلفه ابنه يعقوب ، وفى عهده بلغت ثورة الموحدين على أصحاب المذاهب الأربعة فى المشرق وكتبهم ذروتها إذ كان قصده محو مذهب مالك من المغرب وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث . وكان الأيوبيون قد أرسلوا قراقوش لإحداث قلاقل فى طرابلس وتونس علهما يتبعان مصر ويعينانها فى حروبها مع الصليبيين ، وفى الوقت نفسه نزل إفريقية التونسية بعض بنى غانيَّة (أمهم من غانة) ولاة المرابطين على جزائر البليار لمحاولة تأليب أهلها وثورتهم على الموحدين ، واستطاع يعقوب القضاء على هذه القلاقل والفتن بحملة كبيرة اتجه بها إلى تلك الديار سنة ٥٨٣ وأتمَّ القضاء عليها نهائيا الولاة بعده . ووضع نصب عينيه الاستعانة بالهلاليين وغيرهم من الأعراب فى إعداد جيش ضخم لمنازلة نصارى الإسبان من جهة ، وليفيد فى جيشه من بسالتهم المشهورة وليبعد عيثهم وغاراتهم عن المغرب من جهة ثانية . وتوفى ابن الرنق ملك البرتغال سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م وخلفه ابنه : سانشو فتمكن سنة ٥٨٥ هـ/١١٨٩ م بمساعدة صليبيين هولنديين وإنجليز من الاستيلاء على مدينة شلب ، فاستردها يعقوب سنة ٥٨٧ هـ/١١٩١ م واستولى على عدد من الحصون ، وأخذ يعدُّ لمعركة كبرى ، واستنفر العرب الهلالية والمغاربة وأهل الأندلس ، وسمع بذلك ألفونس الثامن صاحب قشتالة ، فاستعان بالبابا وملوك أوربا وحشد جموعه النصرانية فى سهل حول حصن يسمى الأرَك بين قرطبة وطليطلة ومزَّقهم جيش المسلمين كل ممزق ، ولاذ ألفونس الثامن بالفرار نحو طليطلة مع عدد من فرسانه ، ولو أن يعقوب تبعه إلى طليطلة لاستولى عليها ، ولكنه صنع ما صنعه يوسف بن تاشفين بغد موقعة الزلاقة ، إذ اكتفى بعقد معاهدة بينه وبين ألفونس بعدم الاعتداء لمدة عشر سنوات . ومما يؤثر له أنه أصلح مسجد إشبيلية وبنى مئذنته المعروفة باسم الخيرالدا . وتوفى سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م .

وتولى بعده ابنه عبد الله الناصر وشغله أمر بنى غانية ، واستولى على جزائر البليار سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٣ م وتتابعت هزائمهم فى طرابلس والمهدية وتونس وعند تبسة فى إقليم الزاب ، وانسحب من بقى منهم إلى الصحراء . وبينما كان الناصر مشغولا بالقضاء على بنى غانية كان ألفونس الثامن يعد لمعركة فاصلة بينه وبين الموحدين وأعانه البابا وملوك النصارى وجاءه عبَّاد الصليب سيولا وراء سيول ، والتقى النصارى بجيش الموحدين عند حصن العقاب إلى الجنوب الشرقى من حصن الأرك سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م ، ودارت الدوائر على الموحدين . وتوفى الناصر بعد الموقعة بشهور قليلة ، وكان ذلك إيذانا بانهيار الجبهة الإسلامية فى الأندلس . وخلف الناصر ابنه يوسف الذى تلقب بالمستنصر ، وثار عليه أهله وذوو رحمه فى الأندلس والمغرب

واضطرمت فى الأسرة منافسات وحروب أهلية إلى أن قضى المرينيون على دولة الموحدين سنة ٦٦٨هـ/١٢٧٠م وفقدت فى أثناء ذلك مدن الأندلس حراسها وحماتها، فبين سنة ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٦ م وسنة ٦٤٦ هـ/١٢٤٩ م سقطت فى حجور نصارى الإسبان مدن الأندلس الكبرى : قرطبة وبلنسية ودانية وشاطبة وإشبيلية عروس الأندلس، وسقطت مرسية سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م .

(جـ) بنو[1] مرين

بنو مرين قبيلة بربرية زناتية كانت تستوطن المغرب الأوسط ودفعها العرب الهلاليون غربا فاستقرت فى حوض مُلُوية حتى منابعه وحوض نهر زيز شمالى سجلماسة ، وكانوا موالين للموحدين وأسهمت منهم طائفة كبيرة بقيادة أميرها « محيو » فى موقعة الأرَك المشهورة ، وقدَّمه المنصور الموحدى على جميع المتطوعين من زناتة للاشتراك فى المعركة ، وأصابته فى الموقعة جراحة مات منها شهيدا . وخلفه على الإمارة فى قومه المرينيين ابنه عبد الحق ، وكان يطمح أن تصبح لقبيلته دولة مثل دولة لمتونة الصنهاجية أو دولة المرابطين ودولة هرغة المصمودية : دولة الموحدين . ودخل بجموعه لعهد المستنصر فى وادى تازا وشرقى وادى سبو ، وواقعه الموحدون سنة ٦١٣ هـ/١٢١٦ م وهزمهم ، وتوفى فخلفه ابنه عثمان وأخضع بنى رياح الهلالية وتوفى فخلفه أخوه محمد ونازله الموحدون فى مكناسة فهزمهم ، وتوفى سنة ٦٤٣ هـ/١٢٤٩ م وتلاه أبو يحيى بن عبد الحق أخوه ، وهو المحقق لأمانى بنى مرين فى تأسيس دولة لهم بالمغرب الأقصى ، إذ ناصب الموحدين العداء ، واستولى منهم على مكناسة ، وهى أول قاعدة ملكها بنو مرين ، وقصد إلى مدينة فاس فبايعه أهلها طواعية راضين ، وعادوا فنقضوا بيعتهم ، وتحداه يَغْمْراسَن أمير بنى عبد الواد ، والتقيا ، وانتصر بنو مرين ، وعاد ابن عبد الحق سريعا إلى فاس ، فطلب أهلها منه الأمان وأعطوه العهود فقبل منهم وصفح عنهم ، ورحل إلى سلا ونازل جيشا للموحدين وهزمه واستولى عليها ، ونازل جيشا لبنى عبد الواد فى طريقه إلى درعة وهزمه ، ودخل أهل درعة فى طاعته ، وعاد إلى عاصمته فاس ، وتوفى سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ويعد – بحق – المؤسس لدولة المرينيين فى المغرب الأقصى .

وولى إمارة المرينيين بعده أخوه يعقوب بن عبد الحق وكان مجاهدا كبيرا يرى فرضا عليه أن يجاهد نصارى الإسبان ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وبدأ جهاده لهم على رأس قوة مرينية

(١) انظر فى دولة بنى مرين روضة النسرين فى أخبار دولة بنى مرين لابن الأحمر (طبع الرباط) والذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية (نشر ابن أبى شنب) والسادس من تاريخ ابن خلدون والمسند الصحيح الحسن فى مآثر ومحاسن مولانا أبى الحسن لابن مرزوق الخطيب التلمسانى (طبع الجزائر) وزهرة الآس فى بناء مدينة فاس لأبى الحسن الجزنائى (طبع الجزائر) وروض القرطاس لابن أبى زرع والاستقصا لأخبار دولة المغرب الأقصى للسلاوى .

سنة ٦٦٤ هـ/١٢٦٦ م وفى سنة ٦٦٨ هـ/١٢٦٩ م افتتح مدينة مراكش عاصمة الموحدين ، وبذلك قضى نهائيا على دولتهم ، وبسطت الدولة المرينية سلطانها على المغرب الأقصى جميعه جنوبيه وشماليه حتى سبتة وطنجة . وابتهج الفقهاء بالدولة الجديدة ، لأنها خلصتهم من إجبارهم على مدارسة المذهب الظاهرى ورفضهم لمذهب مالك فقيه المدينة والحجاز الذى كان يعتنقه الفقهاء فى المغرب منذ حياة صاحبه فى القرن الثانى . وقد عادوا إليه وإلى مدارسة كتابه الموطأ ومدوَّنة سحنون التى أملاها عليه عبد الرحمن بن القاسم تلميذ مالك وكتاب التهذيب للبراذعى الصقلى والنوادر والزيادات لابن أبى زيد القيروانى وغير ذلك من كتب الفقه المالكى ومطولاته التى كان يجمع منها يعقوب الموحدى الأحمال ويحرقها يريد محو مذهب مالك وإزالته من المغرب . وسرعان ما عاد إليه المغرب جميعه بعد انتهاء عصر الموحدين وابتداء عصر المرينيين ، وتنادى الفقهاء بأن عقيدة ابن تومرت إنما هى انشقاق على الجماعة ، وبذلك كان فقهاء المذهب المالكى من العوامل فى تثبيت حكم المرينيين وعلى رأسهم يعقوب بن عبد الحق . ومنذ عهده بل قبله تلتحم الحروب بين بنى مرين وبنى عبد الواد وستظل تلتحم على مر السنين ، وكانت بين يعقوب ويغمراسن سلطان بنى عبد الواد واقعة بأسفى قرب وَجْدة فى الشمال سنة ٦٧٠ هـ/١٢٧٢ م انتصر فيها يعقوب وحاصر تلمسان ثلاثة أشهر ثم رفع الحصار وعاد إلى فاس ، وفى سنة ٦٧٢ هاجم سجلماسة واستخدم فى حصارها البارود لأول مرة فى المغرب الأقصى وأذعنت له ، وفى سنة ٦٧٤ هـ/١٢٧٦ م بنى مدينة فاس الجديدة على مسافة ميل غربى المدينة القديمة إلى الجنوب قليلا ، ويمر بين سوريهما ذراع من النهر يتجه نحو الشمال وعليه تقع الطواحين ، والذراع الثانى للنهر يتفرَّع فرعين يمر أحدهما بين فاس القديمة وفاس الجديدة ويتابع الفرع الثانى سيره وسط المزارع ، وجعلها مقر الحكومة الجديدة ، وسماها يعقوب المدينة البيضاء ولكن الشعب سمَّاها باسم فاس الجديدة ، وجعلها ثلاثة أقسام ، قسم فيه قصوره وقصور أسرته ومعه حدائقه وبنى فيه جامعا بديعا ، وقسم ثان به قصور قواده وشخصيات دولته ، وقسم ثالث خاص بسكنى الحرس مع جوامع وحمامات ، وبنى فى عدوة القرويين بفاس مدرسة كبيرة ، وبنى مارستانا وزوايا ، وبنى بجوار القصر الملكى دارسَكّ العملة واختط سوقا للمدينة ونظمه تنظيما حسنا وجعل لدكاكين الصاغة أمينا يدمغ كل ما يُصْنَعُ من فضة أو ذهب فى فاس بمنقاش ، وكأن أهل فاس عرفوا – منذ هذا التاريخ على الأقل – نظام الدمغة . وتجهز يعقوب فى سنة ٦٧٧ هـ/١٢٧٩ م لعبوره الثانى للزقاق على رأس جيش مرينى لجهاد النصارى فى إسبانيا وأبلى بلاء حسنا وعادَ إلى عاصمته فاس . وفى سنة ٦٨٠ هـ/١٢٨٢ م نازل يغمراسن فى ملعب الخيل بأحواز تلمسان وهزمه وعاد إلى فاس . ولم يلبث أن أخذ يستعد لجوازه الثالث إلى الأندلس سنة ٦٨١ هـ/١٢٨٣ م ليجاهد نصارى الإسبان واستولى على بعض حصونهم . وفى سنة ٦٨٥ عبر الزقاق للجهاد مع صفوة مستبسلة

من بنى مرين وأحرز نصرا مجيدا على نونيو جونذالث دى لارا nuno gonzsalez de lara جنوبى قرطبة فى ربيع الثانى سنة ٦٨٥ هـ/سبتمبر سنة ١٢٨٦ م . وتوفى بأوبته فى الجزيرة الخضراء . وكل ما استولى عليه من الحصون والبلاد كان يتركه لبنى الأحمر أصحاب غرناطة، فهو لم يجاهد لغنيمة إنما كان يجاهد لنصرة المسلمين ضد أعداء الإسلام نصارى الإسبان، وظل ذلك مبدأ ثابتا لحكام بنى مرين فى جهادهم لأولئك النصارى، فهم لايبغون بجهادهم غنما. إنما يبغون الدفاع عن الإسلام ضد خصومه إرضاء لله ورسوله. وتلك منة ليعقوب وخلفائه المرينيين .

وخلف يعقوب – بعهد منه – ابنه يوسف ، وسار سيرته فى الجهاد فعبر الزقاق إلى الأندلس مرارا ، كما سار سيرته فى العدل الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه ، ونازل عثمان سلطان تلمسان مرارا ، وفى سنة ٦٩٨ هـ/١٢٩٩ م حاصرها وظل محاصرا لها ثماني سنوات ، وفى سنة ٧٠٠ هـ/١٣٠١ م أسس أمامها مدينة المنصورة لمعسكره ، وشاد بها قصره وبنى بجواره جامعا عظيما ومنارة على رأسها تفاحات من ذهب ، وبنى الناس حول قصره المنازل والقصور ، وغرسوا البساتين وأجروا المياه وأداروا على المدينة سورا ، وبنيت بها حمامات وفنادق ومارستان ، حتى إذا عادت لبنى عبد الواد هدموها وخربوها وطمسوا معالمها ، وتوفى عثمان بن يغمراسن سنة ٧٠٣ هـ/١٣٠٤ م حزنا وكمدا ، وتوفى ابنه أبو زيان مثله كمدا سنة ٧٠٧ هـ/١٣٠٨ م . ولم يلبث أن توفى يوسف بن يعقوب ، ففك المرينيون الحصار عن تلمسان ، ولابد أن نذكر أن المرينيين حين حاصروا تلمسان استولوا على كل ما كان بيدها من مدن فى المغرب الأوسط بل ربما أضافوا إليها مدنا جديدة ، فقد استولوا على وجدة ووهران ومستغانم وتنس ومليانة وشرشال والمدية وبجاية . وبعد يوسف رغب فى الاستيلاء على صولجان الحكم أخوه أبو يحيى وابنه أبو سالم وحفيده أبو ثابت عامر ، وأرسل عامر إلى بنى عبد الواد أن يؤيدوه نظير رد ممالكهم عليهم فى المغرب الأوسط فأيدوه ، وتم له الأمر ، ووفى لهم بالعهد ، وخلفه عثمان بن يعقوب فأغار على تلمسان سنة ٧١٤هـ/١٣١٥م .

وتوفى عثمان سنة ٧٣١ هـ/١٣٣١ م وخلفه ابنه أبو الحسن على ، ويفكر فى الاستيلاء على تلمسان ويستولى على ندرومة ويحاصر وجدة سنة ٧٣٥ هـ/١٣٣٥ م ويستولى على وهران وتنس ومدينة الجزائر ومليانة سنة ٧٣٦ هـ/١٣٣٦ م ويحاصر تلمسان ، ويعيد بناء المنصورة لسكناه وسكنى جيوشه . ويفتح تلمسان سنة ٧٣٧ ويأخذ بنى عبد الواد وأهلها بالرفق ويأخذ فى الاستيلاء على مدن الجزائر ، ويدخل بجاية ويضع عن أهلها ربع المغرم وتذعن قسنطينة لطاعته ، ويقدم إلى تونس ومعه حشد من العلماء الأجلاء اجتمعوا له من المغرب الأقصى والمدن التى نزلها ، وظل بها من سنة ٧٤٨ هـ/١٣٤٨ م إلى سنة ٧٥٠ هـ/١٣٥٠ م . وفى شهر محرم سنة ٧٤٩ للهجرة هزم العرب أبا الحسن على القيروان هزيمة شديدة وربما كان من أسبابها

أنه كان فى جيشه بنو عبد الواد ومغراوة وتوجين ، وجميعهم سلب منهم ديارهم ، فعملوا على هزيمته وانتصار العرب . وشاع فى المغرب الأقصى خبر بموته . فدعا ابنه أبو عنان لنفسه وبايعه الناس . وفى شهر شوال من سنة ٧٥٠ أبحر فى أسطول ضخم إلى الجزائر ، وتحطم أسطوله بساحل زواوة فى الجزائر ولم ينج إلا نفر قليل منهم ، وغرق من كان معه من العلماء مفخرة المغرب الأقصى والجزائر . ولم يتنازل ابنه أبو عنان له عن الملك بعد أن تحقق من حياته خشية أن يحرمه من ولاية عهده ، وشُغل الابن بأبيه حتى توفى سنة ٧٥٢ هـ/١٣٥٢ م وتم له الأمر . وزحف إلى تلمسان سنة ٧٥٣ هـ/١٣٥٣ م وكان يليها عثمان الثانى وأبو ثابت فاستولى عليها وقتل عثمان وفرَّ أخوه أبو ثابت إلى شلف فأرسل إليه أحد قواده فاستولى على معسكره بكل ما كان فيه ، وفرَّ أبو ثابت ثانيا وقتل فى فراره ، واستولى أبو عنان على كثير من مدن الجزائر بما فيها بجاية وقسنطينة .

وتوفى أبو عنان سنة ٧٥٨ هـ/١٣٥٧ م وهو آخر حكام بنى مرين العظام ، وبويع لابنه أبى بكر السعيد وكان طفلا فظل فى الحكم سنة ، وخلفه عمه إبراهيم لمدة سنتين . وطبيعى وقد اضطربت الأمور أن تعود تلمسان لأهلها بنى عبد الواد ، ويتولى أخوه لمدة سنة ، ويتولى بعده سلاطين ضعاف ، واختلت الأحوال وظلت الدولة تزداد اختلالا بتولى أناس غير أكفاء ، وازدادت الفتن الداخلية وظلت الحروب مشتعلة بين بنى مرين وبنى عبد الواد وكثيرا ما تغلب الوزراء على الحكم فقدموا له الصبية والضعاف من ذرية عبد الحق ليخلو لهم الجو . وأخذ بعض الحكام فى سجلماسة ومراكش وأطراف الدولة يحاولون الاستقلال عنها . وتفقد الدولة المرينية المغرب الأوسط وتعود إلى حدودها الأولى ، ففيم كان كل هذا الصراع بين المرينيين والتلمسانيين وحكامهم من بنى عبد الواد . ولو فكر هؤلاء الحكام المسلمون فى الأمر ومصلحة الأمة لأغمدوا السيف ولم يسلّوه على إخوانهم ، وإنما يسلونه على عدوهم من نصارى الإسبان الذين ينازلون المسلمين فى الأندلس نزالا ضاريا . ومن الحق أن بنى مرين أدوا دورا عظيما فى الدفاع عن غرناطة . فقد ظلوا حتى أيامها الأخيرة يخوضون معها أو منفردين معارك طاحنة بذلوا فيها كل ما يستطيعون غير طامعين فى غنم أو أى كسب مادى . ولا نمضى طويلا فى القرن التاسع الهجرى حتى نشعر بضعف المرينيين فقد استولى البرتغاليون منهم على سبتة سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥ م إذ تحولت الحرب المقدسة إلى أرض المغرب . واستولى البرتغاليون على الدار البيضاء أو آنفه سنة ٨٧٤ وعلى طنجة ومدينتى أصيلا والعرائش سنة ٨٧٦ هـ /١٤٧١ م . وخرجت عن طاعة الدولة مراكش ومنطقة الريف فى الشمال وسجلماسة ودرعة والسوس فى الجنوب ، ولابد أن نذكر أنه إذا كانت الدولة المرينية ضعفت وتخاذلت إزاء هذا الاحتلال البرتغالى الواسع لموانى المغرب على الرقاق والمحيط فإنه كان هناك من الشباب العربى دائما من يستبسلون فى مقاومتهم وينزلون بهم خسائر فادحة فى الأرواح، من مثل

أبي الحسن[1] على المنذرى، وكان قد قام بأعمال بطولية فى حروب غرناطة مع النصارى ، وعز عليه أن لاتجد مدن سبتة والقصر الصغير وطنجة من يدافع عنها ضد أعدائهم ، فانسحب إلى تطوان جنوبى سبتة على البحر المتوسط . وأخذ فى تحصينها واجتمع له ثلاثمائة فارس ، وأخذ بهذه الكتيبة الصغيرة يغزو منطقة المدن الثلاث السابقة ويأسر كثيرين من نصارى البرتغاليين وينهك قواهم فى أشغال التحصينات . ويقول الحسن الوزان فى حديثه عن تطوان إنه زارها ورأى بها ثلاثة آلاف من عبيد النصارى ويقول إنهم كانوا يلبسون جميعا سترة من الصوف وينامون ليلا مقيدين بالأصفاد فى سراديب تحت الأرض . ومثله شاب[2] إدريسى ذهب إلى غرناطة وانخرط لفترة من الزمن فى خدمة الغرناطيين حتى أصبح محاربا مجربا ، وعاد ليستقر فى جبل بنى حسن بالقرب من مدينة تطوان ، واجتمع إليه عدد من الفرسان ، وأخذ ينازل البرتغاليين فى المنطقة ويفتك بهم ، ويقول الحسن الوزان فى حديثه عن جبل بنى حسن إن البرتغاليين يعرفونه جيدا ويعرفون بطولته ويسمونه باسمه على بن راش (راشد) وهو الشريف الإدريسى على بن موسى بن الرشيد . ولابد أنه كان لشبان مغاربة أعمال كثيرة كأعمال الإدريسى والمنذرى غير أن المؤرخين قلما يثبتونها . ومرَّ بنا الحديث عن بهلول وبطولاته العظيمة فى عصر الموحدين . وتبلغ الدولة المرينية غاية الضعف فيتولى الأمر الوطاسيون وهم فرع من بنى مرين ولم يكن بيدهم شيء من السلطان الحقيقى. وكان أولهم محمدا الشيخ منذ سنة ٨٧٦ هـ/ ١٤٧٢ م حتى سنة ٩١٠ هـ/١٥٠٤ م وخلفه ابنه محمد البرتغالى حتى سنة ٩٣١ هـ/١٥٢٤ م فأخوه بوحسون لمدة سنة فأحمد بن محمد البرتغالى حتى سنة ٩٥٦ هـ/١٥٤٩ م . وكان الكابوس البرتغالى يزداد فى عهدهم جثوما على ساحل المحيط ، وقد استولوا على ماسة فى منطقة السوس سنة ٨٩٤ هـ/١٤٨٩ م وأختها أغادير فى منطقة السوس أيضا سنة ٩١١ هـ/١٥٠٥ م وعلى آسفى فى منطقة دكالة سنة ٩١٤ هـ/١٥٠٨ م وعلى آزمور سنة ٩١٩ وكانوا ينشئون فى كل مدينة حصونا للدفاع عنها ويقيمون فى كل مدينة حاكمًا عسكريا ، وكانوا كثيرا ما يغيرون على البلاد وراء الساحل فى الداخل وينهبون خيراتها . ولابد أن نذكر أن الوطاسيين لم يقفوا مكتوفى الأيدى إزاء هذا السيل البرتغالى فقد أبلو فى جهادهم بقدر ما استطاعو ولكن قدرتهم كانت محدودة ، إذ خرجت مراكش وأكثر أجزاء المغرب الأقصى عن نفوذهم ، وشغلتهم واستنفدت كثيرًا من طاقتهم الفتن الداخلية الكثيرة ، حتى لم يعد لهم حول ولا قوة ، ولذلك كان طبيعيا أن تسقط فاس فى أيدى الأشراف السعديين سنة ٩٥٦ هـ/١٥٥٠ م وسلطانها – فى الواقع – انتهى قبل ذلك بسنوات طويلة .

---

(١) انظره فى كتاب وصف إفريقيا فى مدينة تطوان ص ٣٢٠.

(٢) راجعه فى نفس المصدر فى بنى حسن ص ٣٢٣ .

٥

السعديون – الطرق الصوفية – العلويون

(أ) السعديون[١]

السعديون ثانى دولة عربية علوية تقوم فى المغرب الأقصى بعد دولة الأدارسة ، وكانوا ينتسبون إلى محمد النفس الزكية سليل الحسن بن على بن أبى طالب . وكان السبب فى قيام هذه الدولة أن البرتغاليين أخذوا منذ أوائل القرن التاسع الهجرى المقابل للخامس عشر الميلادى يكثرون من حملاتهم على سواحل المغرب الأقصى فى الشمال على الزقاق وفى الغرب على المحيط الأطلسى واستولوا على كثير من الموانى المغربية خلال هذا القرن ، وتمادوا يستولون على مدن فى القرن العاشر الهجرى كما أسلفنا ، وكانوا كلما استولوا على ميناء ازداد غضب الشعب وازدادت حميته اضطراما لمقاومة البرتغاليين وإخراجهم من أرض الوطن الغالى . وآلم الشعب دائما أن لا يجد عند الوطاسيين قوة يستطيعون بها إنقاذ البلاد ، وظل يبحث عمن يقوده لحرب البرتغاليين وإخراجهم من أرض الوطن ، وأخيرا عثروا على بغيتهم فى شخص من أصل حسنى شريف كان يقيم مع أسرته بالقرب من تارودنت على نهر السوس يسمى أبا عبد الله محمدا فأخذ الناس يبايعونه مستبشرين بنسبه الشريف . وحين تمت له البيعة تلقب بلقب القائم بأمر الله ، ونهض توًّا لجهاد البرتغاليين ونودى به سلطانا فى منطقة السوس سنة ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م وأخذ فى محاربة البرتغاليين ورافقه النصر عليهم مرارا وتوفى سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م وخلفه ابنه أحمد الأعرج ، وتابع سياسة أبيه فى جهاد البرتغاليين واسترد منهم أغادير وماسة وسواحل السوس جميعها ، ودخل مراكش سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م وبايعه المسيطرون عليها من قبيلة هنتانة المصمودية واتخذها عاصمة ولم تكد طلائع جيشه ترى فى آسفى وآزمور بمنطقة دكالة حتى أخلاهما له البرتغاليون خوفا من القتل والسبى وفروا على وجوههم لا يلوون كما أخلوا مدينة أصيلا لضغط أهل منطقة الهبط عليهم ، وتوفى سنة ٩٤٦هـ/١٥٣٩م وخلفه أخوه محمد المهدى وطرد البرتغاليين من آسفى وآزمور بعد عودتهم إليهما واستولى على مكناس ثم على فاس سنة ٩٥٢ إذ حاصرها ودخلها واعتقل الوطاسيين وأرسل بهم إلى ترودنت فى السوس ، غير أن

---

(١) انظر فى دولة السعديين كتاب المغرب فى عهد الدولة السعدية لعبد الكريم كريِّم وكتاب تاريخ الدولة السعدية لمجهول تحقيق كولان طبع الرباط ومناهل الصفا فى أخبار الملوك الشرفا للفشتالى (تحقيق عبد الله كنون) والمغرب عبر التاريخ لإبراهيم حركات (طبع بيروت) وتاريخ الأسرة السعدية للأفرانى والمتقى المقصور على مآثر الخليفة أبى العباس المنصور لأحمد بن القاضى (تحقيق محمد رزوق) طبع الرباط ، ولابن القاضى أيضا جذوة الاقتباس (طبع الرباط) وكتاب نشر المثانى لأهل القرن الحادى عشر والثانى (تحقيق محمد حجى وأحمد التوفيق) (طبع دار الغرب) والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى .

واحدا منهم هو بوحسون كان قد لجأ إلى الترك فى الجزائر واستعان بهم فى الاستيلاء عى مدينة فاس فأعانوه واستولى عليها ونودى به سلطانا ، فحاصره محمد المهدى واستولى منه على فاس وقتله . وأدّى صنيع بوحسون بمحمد المهدى إلى تخلصه من الوطاسيين جميعا فى ترودنت وبذلك أصبح المغرب الأقصى جميعه خالصا له . وكان فقيها وعلى معرفة بالأدب ، وكان واسع الأفق فأحسن تدبير الدولة ونظم شئونها ، وجعل لها موارد من الضرائب على الزراعة والصناعات تُعين حكامها السعديين على مقاومة البرتغاليين ، وهو بذلك يعد المؤسس الحقيقى لدولة السعديين . ويقول خصومهم إن هذا اللقب دليل على أنهم ليسوا شرفاء من البيت النبوى ، إنما هم من بنى سعد بن بكر القبيلة القيسية التى شرفت بحليمة السعدية مرضعة الرسول ﷺ ، والصحيح أنهم علويون من سلالة الحسن بن على بن أبى طالب ، أما تلقيبهم بلقب السعديين فتعبير من المغاربة معاصريهم بأنهم سعدوا بهم ، كما يقول مؤرخهم الفشتالى فى كتابه مناهل الصفا ، وأى سعد كان ينتظره المغرب فى القرن العاشر الهجرى أكبر من سعده بهم فى تطهيرهم لسواحله من البرتغاليين ما عداه طنجة فى الشمال . وخلف محمدا المهدى ابنه عبد الله الملقب بالغالب بالله ، وظل يدافع البرتغاليين من جهة والترك فى الجزائر من جهة ثانية ، وكانت أيامه أيام أمن ورخاء كثر فيها البنيان والعمران وتوفى سنة ٩٨٢ هـ/١٥٧٤ م . وتولى بعده ابنه محمد الملقب بالمتوكل ، وكان لأبيه أخوان تغرَّبا فى الجزائر لدى الترك العثمانيين مدة ، وهما عبد الملك وأحمد ، وصمَّما أن لا يتنازلا عن صولجان الحكم والملك لابن أخيهما ، وكان عبد الملك شخصية نابهة ، وكان يحسن الإيطالية والإسبانية ، وسافر إلى الآستانة ، وأخذ يلح فى أن يرسل الترك معه جيشا للاستيلاء على فاس من يد ابن أخيه وعاد إلى الجزائر ، فأمده واليها بكتيبة من الجيش التركى استعان بها على استرجاع فاس ، وبمجرد دخوله فيها فرَّ ابن أخيه المتوكل وبايعه الناس وتلقب بالمعتصم سنة ٩٨٤ هـ/١٥٧٧ م .

وكان عبد الملك المعتصم يحسن تدبير الملك ، فنظم أمور الدولة ولم يلبث أن نظَّم الجيش على طريقة الجيش التركى وما يتَّبع فيه من أساليب ، أما ابن أخيه محمد الذى لُقِّب بالمتوكل فإنه حاول عبثا أن يشاغب عمه فى منطقة السوس ، ولما أعياه ذلك لجأ إلى طنجة ، ولقى بها ملك البرتغال سباستيان ، فوضع يده فى يده معاهدا له على حرب عمه عبد الملك ، وانتهز الفرصة ملك البرتغال وجهز جيشًا قاده بنفسه ، يقال إن عدده بلغ ثمانين ألفا ، وانضمَّ إليه محمد المتوكل مع من أغواهم ، ونزل البرتغاليون فى ميناء أصيلا ، ورأى عبدالملك أن يطاولهم حتى يتوغلوا فى داخل البلاد ، وتغلغلوا إلى الجنوب حتى وصلوا إلى وادى المخازن بقرب مدينة القصر الكبير ، وتركهم حتى إذا عبروا جسر الوادى أمر بهدمه ، ثم لقيهم فى جمادى الأولى سنة ٩٨٦ هـ/١٥٧٨ م ودارت معركة حاسمة سحق فيها الجيش البرتغالى سحقا ذريعا وقُتل ملكه سباستيان ونصيره محمد المتوكل . وأثناء المعركة توفى عبد الملك المعتصم وفاة طبيعية

لأنه كان مريضا وصمم على أن يحضر المعركة، وكان أخوه أحمد هو الذى يدبِّرها، وكتم خبر وفاة أخيه عن الناس حتى لايعكر عليهم فرحتهم بهذه المعركة الفاصلة : معركة وادى المخازن التى أعطت البرتغاليين درسا أن لايفكروا مرة ثانية فى إنزال جيش لهم بالمغرب الأقصى، وأخذوا ينسحبون من المواقع التى استولوا عليها بشواطىء المحيط وأحيانا كانوا يتركونها لجارتهم إسبانيا .

وتولى بعده أخوه أحمد الذى اكتسب لنفسه فخرَ النصر المجيد فى معركة وادى المخازن ، إذ كان هو الذى أدارها ، وبايعه الناس مبتهجين به وتلقب بالمنصور ، وكان حاكمًا عظيمًا كبير الهمة بصيرا بشئون السياسة ، ومن أعماله إنشاء ما أسماه الديوان وهو مجلس شورى ينعقد كل يوم أربعاء من الأسبوع – ويضم بعض رجال الدولة وبعض الشخصيات – للنظر فى الشئون السياسية والمصالح العامة ، وأعاد تنظيم الجيش تنظيمًا جديدًا جامعًا فيه بين النظام المغربى والنظام التركى ، وكانت بعض أقاليم الصحراء فى الجنوب قد خرجت عن طاعته ، وخاصة إقليمى تُوَات وتيكورارين فأرسل إليهما جيشًا قويًا أعادهما إلى طاعته . وكانت مملكته تتاخم فى الجنوب أقطار السودان فانتشر فيها الحديث عنه ، ودخل ملك بُرْنو فى طاعته مما جعله يطمح للاستيلاء على السودان الغربى جميعه فأرسل إليه جيشًا ضخمًا فى نهاية القرن العاشر الهجرى واستطاع الاستيلاء عليه ، وبذلك امتد نفوذه جنوبا إلى أقاليم سودانية لم يصل إليها نفوذ المغرب فى أى عصر قبله . ووضع يده على منابع الثروة الضخمة فى هذه البلاد ، حتى كان الذهب يُجبَى إليه منها بالأحمال ولذلك لقب بالمنصور الذهبى ، ويقال إن عدد من كانوا يضربون السكة أو العملة الذهبية فى عهده بلغ ألفا وأربعمائة . وهذا الغنى الطائل للدولة وتجارها وأهلها هيأ لها ازدهارا فى الحضارة وما يتصل بها من الصناعات وضروب الحياة ، وكثر حينئذ إنشاء القصور ومن أهمها قصر المنصور الذى سماه باسم البديع ، وقد استغرق بناؤه ثمانى سنوات ، وأنفق عليه أموالا طائلة . وتوفى سنة ١٠١٢ هـ/١٦٠٣ م .

وبعد وفاة المنصور تنازع أولاده الثلاثة : زيدان وأبو فارس ومحمد الملقب بالمأمون ، ونودى بزيدان سلطانا فى فاس وبأبى فارس سلطانا فى مراكش ، وتحاربا وانتصر أبو فارس ، غير أن أهل فاس فضلوا الخضوع للمأمون ، فنودى به سلطانا سنة ١٠١٣ هـ/١٦٠٤ م واغتيل أبو فارس ، وحدثت طامة كبرى بتنازل المأمون للإسبان عن مدينة العرائش على ساحل المحيط جنوبى منطقة الهبط سنة ١٠١٨ هـ/١٦١٠ م وبذلك عادت الاستعانة بالعدو الأجنبى ، ونشبت فتن واضطرابات ، ونودى بالابن الثالث للمنصور : زيدان سلطانا ، وظلت الاضطرابات وتوفى سنة ١٠٣٨ هـ/١٦٢٨ م وتنازع الملك أولاده الثلاثة عبد الملك والوليد ومحمد شيخ وتوفى الأخير سنة ١٠٦٥ هـ/١٦٥٤ م . وبوفاته ينتهى حكم هذه الأسرة ، وهو فى الواقع قد انتهى منذ تسليم المأمون ميناء العرائش للإسبان ، إذ اتسع نفوذ الطرق الصوفية وأصبحت هى التى

تدير الحكم فى أكثر أجزاء المغرب الأقصى .

(ب) الطرق[1] الصوفية

أخذت الطرق الصوفية تكثر فى المغرب الأقصى منذ القرن الثامن الهجرى ، مثله فى ذلك مثل بقية البلاد المغربية ، وأخذت تكثر معها الزوايا ، وعادة يكون بها ضريح لمؤسسها الصوفى أو لصوفى كبير ومصلّى ومساكن لبعض العلماء والطلاب الغرباء ، وكان أهل اليسار يقفون على هذه الزوايا أوقافا كثيرة ، وتتلى فيها الأوراد وتقام الأذكار ، وقد تنعقد فيها بعض الدروس ، فتكون دارا للتعليم والوعظ والنسك . ولما فسدت الحياة السياسية فى أواخر عهد الدولة المرينية وَضُعف الحكام عن مواجهة أعداء الوطن البرتغاليين فى القرن التاسع الهجرى أخذ أهل المغرب الأقصى يلوذون ببعض أصحاب هذه الطرق آملين أن يجدوا عندهم الحمية للذود عن دار الإسلام وإنقاذ الوطن من هذا البلاء المستطير ، والتفَّ كثيرون منهم حول صوفى شاذلى صالح هو الشيخ محمد بن سليمان الجزولى صاحب كتاب دلائل الخيرات المتوفى سنة ٨٧٠ هـ/١٤٦٥ م متوسمين فيه أن يستجيب لهم ، واستجاب ، وتقدم مع جموع كثيرة من مريديه الصوفية وغيرهم يتصدى للبرتغاليين وينازلهم منازلة ضارية . وبذلك حوَّل الصوفية من جماعة تعيش للنسك وحده إلى جماعة مجاهدة فى سبيل الله تجاهد أعداء الدين والوطن من البرتغاليين النصارى ، وانتصر عليهم بمن آزروه من الصوفية وغيرهم مرارا ، غير أن خائنا اغتاله ، ليقف جهاده . ولم تلبث الدولة السعدية أن قامت واستطاع حكامها البواسل أن يستردوا كل ما أخذه البرتغاليون واستولوا عليه من موانى المحيط الأطلسى ومدنه كما أسلفنا وقد نازلوهم فى معركة وادى المخازن كما مر بنا ولم تلبث المعركة أن استحالت إلى ما يشبه مذبحة كبرى للبرتغاليين ، فرُدُّوا إلى صوابهم ولم يعد يمر بخاطرهم أن يستولوا على أى ميناء مغربى على المحيط ، بعد أن كادوا يستولون على الساحل جميعه بمدنه وموانيه . وخاب الأمل فى أبناء المنصور الثلاثة كما مر بنا فقد تنازعوا على العرش ، وتنازل أحدهم – وهو المأمون – لإسبانيا عن مدينة العرائش جنوبى منطقة الحبط ولم يلبث الإسبان أن أسسوا لهم فى العام التالى بالقرب من مصب نهر سبو فى المحيط مدينة سميت المعمورة واسمها الآن المهدية وتنازل لهم البرتغاليون عن سبتة وطنجة فى الشمال وكذلك عن الجديدة فى منطقة دكالة وأزمّور . وشقّ ذلك على المغاربة . ولاذوا – من جديد – بالمتصوفة يأملون أن يرفع أحدهم لواء الجهاد للعدو الإسبانى فينضووا تحت لوائه ، واتسعت الفتن واتسع اضطراب الأمور ،وطمح كثيرون – حتى بين المتصوفة أصحاب الزوايا – أن يأخذوا بلادا أو أجزاء واسعة من الدولة التى توشك على

(١) انظر فى الطرق الصوفية ونشاطها السياسى ما كتبه الدكتور محمد حجى عن الزاوية الدلائية ودورها الدينى والعلمى والسياسى (طبع الدار البيضاء) والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسخاوى ونشر الثانى لأهل القرن الحادى عشر والثانى للقادرى تحقيق محمد حجى وأحمد التوفيق (طبع دار الغرب) .

الاحتضار . ونكتفى بالحديث عن أحدهم وهو الشيخ محمد بن أبى بكر الدلائى مؤسس الزاوية الدلائية بتادلة سنة ٩٧٤ هـ/١٥٦٧ م وقد اتسعت حتى شملت مبانى كثيرة ، وتكاثر بها العلماء المدرسون والطلاب ، وقد ثار الشيخ محمد الحاج على الدولة السعدية فى جبال الأطلس الوسطى سنة ١٠٤٢ هـ/١٦٣٣ م وتبعه كثيرون من البربر واستولى على سلا سنة ١٠٤٥ هـ/١٦٣٦ م وزحف إلى مكناس وفاس سنة ١٠٥٠ هـ/١٦٤١ م وتملكهما وأقام الدولة الدلائية ، وقاومه محمد بن الشريف رأس الدولة التالية ، وستتم فيها الحديث عنه ، وعلى شاكلته صوفية من زوايا أخرى ثاروا على السعديين . وخير منهم جميعا وأعظم الشيخ الصوفى المجاهد البطل أبو عبد الله محمد العياشى الذى لجأ إليه أهل منطقة الهبط ، فتصدّى للإسبان حتى خلّص منهم مدينة العرائش ، كما خلّص منهم مدينة آزمّور فى جنوبى تامسنة وخلّص منهم الجديدة سنة ١٠٤٩ هـ/١٦٣٩ م ، ومع هذه الأعمال المجيدة امتدت إليه يد آثمة سنة ١٠٥١ هـ/١٦٤٢ م فقتلت البطل المنعدم النظير . ومن أهم رجاله وأعوانه الخضر غيلان الذى أرسله إلى منطقة الهبط لجهاد أعداء الله ، واستطاع الاستيلاء على مدينة القصر الكبير سنة ١٠٦٣هـ/١٦٥٢م .

(جـ) العلويون[1]

هذه ثالث دولة علوية فى المغرب الأقصى بعد دولتى الأدارسة والسعديين ، ومؤسسوها مثل مؤسسى هاتين الدولتين من سلالة الحسن بن على بن أبى طالب ، وكانت أسرتهم تعيش من قديم فى منطقة سجلماسة ، وكان أهل المنطقة يرحبون بهم ويوسعون لهم فى العيش معهم لنسبهم الشريف . وعندما ثار أبو الحسن (بوحسون) السملالى فى مناطق الصحراء الجنوبية بالمغرب الأقصى واستولى على سجلماسة ودرعة والسوس أذعن له بالطاعة أبرز أفراد الأسرة حينئذ الشريف ابن على ولم يلبث ابنه محمد أن رفض هذه الطاعة ، وحاربه السملالى فأسره وظل فى أسره حتى افتكّه ابنه محمد المسمى باسمه . وعاد الأب فى سنة ١٠٥٠ هـ/١٦٤٠ م إلى حرب السملالى واستطاع هزيمته فى سجلماسة وتعقبه فى درعة وإقليم السوس حتى قضى على شره وشغبه . ولم يلبث الأب محمد بن الشريف أن هاجم محمدًا الحاج رئيس زاوية الدلاء ورجاله ، وكان مستوليا على فاس ومكناس وحوض نهر سبو ، واستطاع محمد الحاج هزيمته سنة ١٠٥٦ هـ/١٦٤٦ م وعقد بينهما صلح على أن تكون منطقة الصحراء (سجلماسة ودرعة) إلى جبل بنى عياش لمحمد بن الشريف ، وما يقع إلى الشمال من ذلك إلى حوض نهر أم الربيع إلى الغرب يكون لزاوية الدلاء ورئيسها محمد الحاج الدلائى . وحاول محمد بن الشريف

---

(١) انظر فى العلويين أو الدولة العلوية الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة لابن زيدان ونزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى للأفرانى وتاريخ الدولة العلوية بالمغرب لكرول وكولان (طبع باريس) ونشر المثانى لأهل القرن الحادى عشر والثانى ، والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى .

الاستيلاء على تلمسان ، وسرعان مارده الأتراك العثمانيون حكام الجزائر . وتوفى سنة ١٠٦٩ هـ/١٦٥٩ م وخلفه ابنه محمد ، وحدث شقاق بينه وبين أخيه الرشيد ، وتحاربا وتوفى محمد فى أثناء الحرب ، فخلص الأمر للرشيد وتمت بيعته سنة ١٠٧٥ هـ/١٦٦٥ م وكان قد تولى لابيه وأخيه على مكناس فاتخذها عاصمته واستولى على سجلماسة ، ولم يلبث أن استولى على فاس ومنطقتها فى سنة ١٠٧٦ هـ/١٦٦٦ م من يد محمد الحاج رئيس الزاوية الدلائية وحلفائه من أعراب الأثبج ، وفتح منطقى الحبط ونودى به سلطانا على المغرب جميعه فى السنة التالية . وصمم على هدم الزاوية الدلائية فى منطقة فازاز شرقى ممر تازا ودخلتها جنوده سنة ١٠٧٨ هـ/١٦٦٧ م وهدموها ولم يبقوا منها باقية ، واستسلم له محمد بن الحاج الدلائى فأرسل به مع أسرته إلى فاس حيث عاشوا فى رعايته ، وتلطف مع شيوخ الزاوية فأرسل بهم إلى معاهد فاس وغيرها ليزاولوا نشاطهم العلمى . واستولى سنة ١٠٧٩ هـ/١٦٦٨ م على مراكش من يد أعراب الشبانات ، ولم يلبث أن فتح مدينة ترودنت وبقية مدن السوس ، وأذعن بالطاعة له أعراب المغرب الأقصى جميعهم من الحلالية فى الشرق وقبائل حسان والمعقل فى منطقة درعة ، وأعلنت منطقة الريف فى الشمال طاعتها له ، ماعدا مليلة وسبتة اللتين كانتا قد استولى عليهما الإسبان ، وماعدا طنجة التى انتقلت إلى الإنجليز وبذلك أعاد الرشيد إلى المغرب الأقصى وحدته ، وهو يعد المؤسس الحقيقى لتلك الدولة العلوية .

وتوفى الرشيد سنة ١٠٨٢ هـ/١٦٧٢ م وخلفه أخوه إسماعيل وهو من أعظم سلاطين العلويين وطال حكمه نحو سبعة وخمسين عاما حتى سنة ١١٣٩ هـ/١٧٢٧ م وكانت سنوات رخاء وخير وبركة للمغرب الأقصى ، وقد مدَّ حدوده شرقى نهر المُلوية حتى مدينة وجدة ، وثبتت تلك الحدود إلى اليوم ، كما مدَّ حدوده جنوبا متوغلا فى بلاد السودان الغربى . وكوَّن للمغرب الأقصى جيشا ضخما من البربر والأعراب والسود وكان يأتى بهم من فتوحه فى السودان الغربى وحوض النِّيجر ، واتخذ لهم معسكرا يدربونَ فيه تدريبا عسكريا متقنا وبلغوا فى حياته مائة وخمسين ألفا ، ووزعهم على القلاع بجميع أنحاء المغرب الأقصى للحراسة وأمن الطرق . وعاشت البلاد لعهده فى رخاء وطمأنينة وأمان وسخت الأرض بالخيرات . وأخذ إسماعيل يستكمل عدته لمنازلة الأجانب المحتلين لشواطىء المغرب الأقصى فى الشمال والغرب ، وكانت كاترينا وارثة عرش البرتغال قدمت مدينة طنجة صداقا إلى زوجها شارل الثانى ملك إنجلترا سنة ١٠٧٢ هـ/١٦٦١ م فانتقلت طنجة من أيدى الإسبان إلى أيدى الإنجليز ، واستطاع طرد الإنجليز منها سنة ١٠٩٥ هـ/١٦٨٤ م كما استطاع طرد الإسبان من المعمورة (المهدية) شمالى مدينة سلا ، حتى إذا كانت سنة ١١٠١ هـ/١٦٨٩ م طردهم من مدينة العرائش ، وكان قد خلصها منهم العياشى ، وعادوا فاستولوا عليها ، ودق الشعب فى المغرب الأقصى الطبول ابتهاجا بعودتها ، إذ كان قد أعلن من أجلها الحداد ، واتخذ لذلك شعارا أن يلبس

أحذية سوداء فلما استردَّها إسماعيل نزعوا تلك الأحذية من أقدامهم وعادوا إلى لبس نعالهم الصفراء المغربية . وفى سنة ١١٠٤ هـ/١٦٩٢ م طرد إسماعيل الإسبان من مدينتى أصيلا والعرائش ، وبذلك استرد للمغرب الأقصى ساحل المحيط جميعه وصدقت فراسة المغاربة للالتفاف حول أسرة علوية شريفة لإنقاذ المغرب الأقصى مما دهاه من كوارث مفجعة . وحاول السلطان إسماعيل فتح سبتة ومليلة وحاصر سبتة طويلا يريد أخذها من يد الإسبان ولكنهم ثبتوا فيها يعاونهم أسطولهم فى البحر وقربها من ديارهم .

وتوفى – كما أسلفنا – سنة ١١٣٩ هـ/١٧٢٧ م وتلاه عهد اضطرابات وفتن لتنازع أبنائه على الحكم وتدخل الجيش وأخذ يختل الأمن وينتشر الفساد وتشيع الفوضى وتسوء حالة البلاد الاقتصادية واستمر ذلك نحو ثلاثين عاما إلى أن أنقذ البلاد حفيد للسلطان إسماعيل ، هو محمد بن عبدالله الذى خلف أباه سنة ١١٧١ هـ/١٧٥٧ م وكان قد أظهر فى عهد أبيه قدرة سياسية حين عينه حاكما لمنطقتى مراكش وآسفى فى دكالة ، ثم عينه قائدا فنظم الجيش وأقرَّ الأمن فى السوس ، وتابع بعد استيلائه على صولجان الحكم نشر الأمن فى ربوع البلاد ، وتجوَّل فيها متفقدا لشئونها وحصَّن المدن الكبرى والثغور وشيَّد بهما الأبراج والحصون وزوَّدهما بالمدافع والقوات العسكرية لحفظ الأمن والنظام فى أنحاء البلاد ، وعنى بالأسطول فأمدَّه بكل ما يلزمه من عتاد حربى ، وأضاف إليه طائفة من السفن ، وأمر أن يواصل البحارة والجنود فيه تدريبات ومناورات منتظمة على المتوسط والزقاق والمحيط . وكان البرتغاليون قد نزلوا فى ميناء الجديدة (المعمورة) شمالى سلا سنة ١١٨٢ هـ/١٧٦٩ م فطردهم منها وابتنى ميناء الصويرة فى منطقة حاحة غربى مراكش . ووثق علاقات دولته بالدولة العثمانية وتبادل معها الهدايا تأكيدا للمودة .

وتوفى سنة ١٢٠٤ هـ/١٧٨٩ م وعادت البلاد إلى الاضطراب والفوضى فى عهد ابنه اليزيد ولم يلبث أن توفى سنة ١٢٠٦هـ/١٧٩٢م وتولاها أخوه سليمان لنحو ثلاثين عاما ، ومُنى فى أوائل عهده بحروب متصلة بينه وبين أخويه هشام ومسلمة ، وخرج منها بعد طول عناء ، ليظل بقية أيامه ينازل بربر الأطلس التلى أو الأطلس المتوسط ،وولى بعده ابن أخيه عبد الرحمن بن هشام حتى سنة ١٢٧٦ هـ/١٨٥٩ م وشغل بثورات داخلية واحتل تلمسان حين احتلت فرنسا الجزائر ، وهزم فى موقعة إيسلى . وخلفه ابنه محمد حتى سنة ١٢٩٠ هـ/١٨٧٤ م وقضى على ثورة الجيلالى الزرهونى واحتلت إسبانيا تطوان ثم انسحبت منها بمقتضى معاهدة . وتلاه ابنه الحسن وهو من أهم سلاطين الدولة العلوية وقد نشر الأمن فى ربوع البلاد ، وأخذ يفتحها على الغرب فأرسل البعوث إلى أوربا وأخذ يرقى بالبلاد حضاريا وفكريا ، وعهده الزاهر يعد – فى رأينا – افتتاح العصر الحديث فى المغرب الأقصى .

الفصل الثانى

المجتمع المغربى

١

عناصر السكان

البربر هم العنصر الأصيل الذى عاشت قبائله وبطونه وعشائره – منذ آماد سحيقه – فى المغرب وسواحله وسهوله وجباله وهضابه ووديانه من برقة إلى المحيط الأطلسى واختلف مؤرخو العرب ونسابة البربر فى الأصل الذى انحدروا منه اختلافات شتى استقصاها ابن خلدون فى الجزء السادس[1] من تاريخه ، فقيل إنهم ساميون من ولد عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام ، وقيل بل من ولد إبراهيم عليه السلام ، وقيل هم ساميون حقا ولكنهم عرب يمنيون من ولد النعمان بن حمير بن سبأ ، وقيل من لخم وجذام وقيل بل هم مضربون من ولد بر بن قيس بن عيلان ، وقيل إنهم حاميون من مصراييم بن حام ، وقيل : بل من مازيغ بن كنعان بن حام . وكما اختلف المؤرخون والنسابة فى أصلهم اختلفوا فى موطنهم الأصلى وهجرتهم منه ، هل هو الجزيرة العربية أو اليمن أو الشام أو فلسطين ، واختلفوا فيمن أخرجهم منه ، قيل أخرجهم داود – بوحى نزل عليه – إلى ديار المغرب ، وقيل خرجوا بعد قتل داود لجالوت فارّين إلى إفريقيا ، وحاولوا النزول بمصر فمنعهم القبط فاتجهوا إلى برقة وما وراءها وانساحوا فى المغرب إلى المحيط ، وقيل بل الذى أخرجهم من الشام إلى إفريقيا يوشع بن نون ، وقيل : بل إفريقش أحد ملوك التبابعة اليمنيين ، وقيل إنه ارتحل معهم فى هجرتهم إلى المغرب حيان يمنيان : كنامة وصنهاجة . ويعلق ابن خلدون على كل هذه الأقوال وما يماثلها بقوله[1] : « إنها تكاد تكون من أحاديث الخرافة ، إذ مثل هذه الأمة (الضخمة) المشتملة على أمم وعوالم ملأت جانبا من الأرض لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر محصور (مثل الشام) . والبربر معروفون فى بلادهم وأقاليمهم متميزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام فما الذى يحوجنا إلى التعلق بهذه الترهات فى شأن أوليتهم » . وابن خلدون محق فى عدّ كل تلك الأقاويل من باب الخرافة سواء فى ارتحال البربر من الشام أو غيرها إلى ديار المغرب أو فى محاولة التعرف على الأصل الذى نشأت منه وتناسلت ذريتهم . والذى يؤكده المنطق والواقع أن البربر نشأوا بالمغرب وليسوا منقولين إليه من آسيا ، وليسوا ساميين إنما هم إفريقيون حاميون مما جعل

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ٨٩/٦ وما بعدها .

ابن خلدون يقول : « والحق الذى لا ينبغى التعويل على غيره فى شأن البربر أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح .. وأن اسم أبيهم مازيغ بن كنعان » . ويقول ابن خلدون إن إفريقش – فيما يقال – هو الذى سماهم بالبربر لما سمع رطانتهم واختلاط أصواتهم . وأولى من ذلك ما يقال من أن الكلمة ترجع إلى أصل لاتينى هو Barbarus وهو عند الرومان من لا يُفْهَمُ كلامه ، وربما وجدوا الكلمة على لسان المغاربة أنفسهم فأخذوها عنهم ، إذ سموا بها أنفسهم وشعوبهم ، أماالقول بأن العرب هم الذين سموا بها الشعوب المغربية لعدم فهمهم لغتهم وأن من ذلك قولهم بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة فبعيد الاحتمال .

ويقول ابن خلدون إن شعوب البربر ترجع إلى مجموعتين ضخمتين هما شعوب البرانس وشعوب مادغيس الأبتر أو البُتر ، وتجمع شعوب البرانس عند النسابين عشرة شعوب أو قبائل كبرى هى مصمودة ، وصنهاجة ، وأوربة ، وعجيسة ، وكتامة ، وإزداجة ، وأوريغة ، ولمطة ، وهسكورة ، وجزولة . والقبائل التى اشتهرت منها بسكنى المغرب الأقصى هى مصمودة وكانت تسكن أربع مناطق هى : حاحة – السوس – مراكش – جزولة ، ومن بطونها غمارة وكانت تسكن منطقتى الريف والهبط وبرغواطة وكانت تسكن منطقتى تامسنة ودكالة . وصنهاجة ، ويقال إنها ثلث البربر وموطنها المغرب الأقصى والصحراء وراءه إلى السودان الغربى ، ومن بطونها لمتونة ومنها عشيرة يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، ومن بطونها أيضا بنو مزغنة منشئو مدينة الجزائر . وشعوب لمطة وهسكورة وجزولة كانت مواطنها جميعا المغرب الأقصى ، وكان للشعوب الأخرى بعض بطون فى المغرب مثل هوارة من أوريغة . أما شعوب البتر فأربعة : نفوسة فى طرابلس ، وإداسة وتختلط بطونها بهوارة ، وضريسة ، ولوا . ومن البطون الكبرى لهذه الشعوب من سكان المغرب الأقصى ورفجومة بأوراس ومضغرة ويسكُنون ما بين فاس وتلمسان ، ومكناسة على نهر ملوية من سجلماسة إلى مصبِّه ، ومغراوة فى فاس وسجلماسة وهى فرع من زناتة وكانت تسكن المغرب الأوسط وشطرا من المغرب الأقصى ومن بطونها يفرن وواسين ومنها بنومرين حكام المغرب الأقصى .

وظل البربر بعيدين عن الأمم القديمة لا يتصلون بهم أى اتصال حتى نزل بديارهم الفينيقيون فى القرن التاسع قبل الميلاد – وربما قبله أو بعده – وكانوا شعبًا ملاحيًّا يحترف التجارة ، وأخذوا يبحثون فى سواحل البلاد المغربية عن مواضع صالحة لرسوِّ سفنهم كى يتبادلوا السلع مع أهلها ونزلوا قرطاجة فى تونس ، وأخذوا يبحثون عن مواطن أخرى على طول الساحل فى الجزائر ثم فى المغرب الأقصى على البحر المتوسط والمحيط وأنشأوا عليهما مدنا فينيقية هى مليلة على المتوسط وطنجة وأصيلا على المحيط ، ولابد أن أثَّروا بحضارتهم الفينيقية فى تلك المدن وأنحائها المختلفة فى أثناء القرون المتصلة التى خالطوا فيها السكان المغاربة ، ولابد أن عرف المغاربة كثيرا من طرقهم فى الزراعة والصناعة وخاصة فى التعدين ، كما عرفوا أبجديتهم ولغتهم

وربما أتقنها منهم كثيرون . وتنشب منذ أواسط القرن الثالث قبل الميلاد حتى أواسط القرن الثانى حروب بين قرطاجة عاصمة الفينيقيين وروما ويكتب النصر لروما ، وتؤول إليها ديار المغرب بما فيها من المدن الفينيقية ، وتصبح مليلة وطنجة وأصيلا تابعة لهم ، وينشئون على ساحل البحر المتوسط بقرب الزقاق مدينة سَبْتة وتوغلوا على المحيط ، وأنشأوا لهم موقعا أو مدينة هى سَلا ، ومدينة ثانية أو موقعا هو أنفه (الدار البيضاء) ويتوغلون فى الداخل وينشئون مدينة وَليلى . وظلوا فى المغرب نحو ستة قرون إلا قليلا ، وطبيعى أن يؤثروا فيه بحضارتهم الرومانية وخاصة فى المدن التى كان لهم فيها جاليات ولما اعتنقوا الدين المسيحى حاولوا نشره فى البلاد المغربية وخاصة الساحلية . غير أن من دخلوا فيه من البربر – وخاصة فى المغرب الأقصى – كانوا قلة ، فقد ظلت جماهير المغرب وثنية . واكتسح الوندال ما ملكته روما من البلدان المغربية ، وكانوا شعبًا حربيا غير متحضر فلم يتركوا فيها أثرا ، وخلفهم البيزنطيون ، ولم يحاولوا نشر شىء من ثقافتهم ولا حضارتهم فى البلاد المغربية .

والعرب هم العنصر الثانى فى المغرب الأقصى بعد البربر ، وقد جاءوا إلى المغرب فى خلافتى عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان لا طلبا للاستيلاء على ما فيه من طيبات الأرض وثمارها وإنما طلبا لنشر دين الله حتى لا يعبد فى الأرض إله سواه وحتى تعم تعاليمه الداعية إلى العدل والمساواة بين الناس ، وأخذ ولاة القرن الأول الهجرى أنفسهم بتطبيق هذه التعاليم ، مما جعل المغاربة يدخلون فى الدين الحنيف أفواجا . حتى إذا تكاثر المسلمون منهم فى عهد واليهم حسان بن النعمان كوَّن منهم كتيبة عدادها اثنا عشر ألفا وولَّى على قبيلة جراوة فى الجزائر واليا منها . وهو رمز لما كان يأخذ به ولاة القرن الأول الهجرى فى المغرب من المساواة بين العرب والبربر فى الجهاد والحكم . ويتسع ذلك فى عهد خلفه موسى بن نصير ، إذ يولِّى على طنجة واليا بربريا هو طارق بن زياد ، ويعهد إليه بفتح الأندلس ، فيغزوها على رأس حملة أكثر جنودها من البربر ، ويلحق به على رأس حملة ثانية فيكمل الفتح معه . ويتقاسم شرف هذا الفتح عربى هو موسى بن نصير وبربرى هو طارق بن زياد ، وجيش مؤلف من العرب والبربر . وبذلك لم يعد فى ديار المغرب أى فارق بين عربى وبربرى ، غير أننا لا نكاد نمضى فى القرن الثانى الهجرى حتى تنكب البلاد العربية بخلفاء أمويين لا يحسنون تدبير الملك فيولون على ديار المغرب ولاة جبارين يظلمون أهلها فى الخراج وغير الخراج غير واعين لتعاليم الإسلام فى المساواة والعدالة بين المسلمين ، ويبلغ السفه والعته بوالى طنجة أن يصرِّح بأنه عازم على تخميس أراضى البربر زاعما زعما مخطئا أنها غنائم حرب . وتنادى كثيرون من المغاربة كيف الخلاص من هذا الظلم الفادح ، وسرعان ما أخذ دعاة الخوارج من الصفرية والإباضية يوضحون لهم أن الخلاص الحقيقى إنما هو فى اعتناق دعوتهما التى تسوِّى بين المسلمين فى جميع الحقوق . واعتنق مذهب الصفرية فى المغرب الأقصى كثيرون وكوَّنوا جيشا استولى على

طنجة وقتل واليها ، ونازلته جيوش الدولة الأموية مرارا ، وكان النصر حليفه ، ومرَّ بنا – فى الفصل الماضى – أن قائدين صفريين هاجما القيروان سنة ١٢٤ هـ/٧٤١ م وباءا بهزيمة ساحقة . وفى سنة ١٣٨ هـ/٧٥٥ م هاجمت ورفجومة القيروان واستباحتها وخلَّصها منها أبو الخطاب عبد الأعلى إمام الإباضية فى طرابلس . وتدور الأعوام وتنشأ الدولة الإدريسية ، وتأخذ فى القضاء على الصفرية فى شمالى المغرب الأقصى وينسحبون إلى سجلماسة ودولة بنى مدرار . وأخذ إدريس الثانى (١٧٥ – ٢١٣ هـ) يستكثر من العرب فى حاشيته حتى بلغوا خمسمائة . وهى أول دولة عربية إسلامية تنشأ فى المغرب الأقصى وقد عملت على تحفيظ القرآن الكريم ونشر حلقات القراء والمحدثين والمفسرين والفقهاء فى جميع مدنها والعناية بتعليم المغاربة العربية . وجاءها كثيرون من فقهاء تونس والمشرق ولاذ بها أربعمائة أسرة من أسر الأندلس الفقهية ، وجُعلت عاصمتهاعدوتين : عدوة للمغاربة سمتها عدوة القرويين وعدوة للأندلسيين . ونمضى إلى منتصف القرن الخامس الهجرى وتحدث الهجرة الأعرابية الكبرى لبنى هلال وبنى سليم إلى ديار المغرب ، ويقال إنهم كانوانحو نصف مليون من الأعراب ، ويقال بل كانوا مليونا أو يزيدون ،ولم يكونوا طلاب حكم وملك ، ولذلك لم يقيموا لهم دولة فى المغرب ، إنما كانوا طلاب مواطن يقيمون فيها ، وانساحوا كسيلٍ عَرِم فىبرقة وطرابلس وإفريقية التونسية والجزائر ، وكأنما وجدوا فى كل ذلك ما يغنيهم عن الانسياح فى المغرب الأقصى واكتساحه .ولا يمضى على هذا الطوفان للهلاليين وبنى سليم نحو قرن حتى يستنجد أهل طرابلس وإفريقية التونسية بعبد المؤمن بن على سلطان الموحدين لاستيلاء النورمانديِّين بأساطيلهم على سواحل طرابلس وجزيرة جربة وميناء المهدية وغيرها من موانى إفريقية التونسية ورأى واجبا عليه أن ينقذ تلك البلدان وخرج بجيش ضخم إليهم وأخذ يستولى به على مدن الجزائر . وعلم وهو ببجاية أن القبائل الهلالية ، وهى الأثبج وزغبة ورياح وقرة تتجمع مع صنهاجة لحربه ، وأرسل إليها جيشا نازلها ثلاثة أيام وانتصر عليها فى اليوم الرابع وفر الأعراب تاركين وراءهم الأهل والمال ، فأمر بنقل النساء والأولاد إلى مراكش والعناية بهم . ولما أتم رحلته واسترد طرابلس والمهدية وغيرها من موانى إفريقية التونسية وعاد إلى عاصمته مراكش أمر أن يكتب إلى سادة بنى هلال أن نساءهم وأولادهم فى الحفظ والصيانة ، فوفدوا عليه وأكرمهم وردَّ عليهم نساءهم وأولادهم وأسبغ عليهم أموالا وافرة ، ونقل منهم إلى المغرب الأقصى ألفا من كل قبيلة بأسرهم ، ولما عزم على زيارة الأندلس سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٣ م دعا عرب بجاية إلى العبور معه للأندلس للجهاد برسالة تلتهب حماسة ختمها بأبيات من نظمه استهلها بقوله :

أقيموا إلى العَلْيـاء هُوجَ الرَّواحلِ وقودوا إلى الهيجـاء جُرْدَ الصَّواهلِ

واستجاب له جمع ضخم كما يقول صاحب المعجب[1] فأنزل طائفة بنواحى قرطبة وطائفة بنواحى إشبيلية ، وأقاموا هنالك . وفى سنة ٥٧٧ هـ/١١٨٢ م وفَد على الخليفة بعده ابنه يوسف حشدٌ كبير من قبيلة رياح وضعوا أنفسهم تحت تصرُّفه وعبر كثيرون منهم معه إلى الأندلس . ولما خرج ابنه يعقوب المنصور لاسترجاع قفصة وقابس واستعادهما خرجت عليه فى هذه الأثناء بقايا من قبائل رياح الهلاليه وأخواتها من قبائل جُشَم والأثبج ، فردهم إلى طاعته ، ولاذوا بدعوته ، فأمر بنقلهم إلى المغرب الأقصى لكفِّ عدوانهم عن المغرب الأوسط ، وصدعوا لأمره ، فأنزل بنى رياح فى مناطق الهبط وأزغار وفاس مما يلى سواحل طنجة إلى سلا ، وأنزل بنى جشم فى تامسنة وما وراءها من الأراضى ، وأنزل الأثبج فى منطقتى دكّالة وتادلة . ويبدو أن بطون بعض هذه القبائل تحركت من منازلها بعد عصر الموحدين إلى منازل جديدة استقرت فيها إذ يذكر الحسن[2] الوزان فى القرن العاشر الهجرى أن بعض فروع رياح سكنوا منطقة دكالة وضواحى مينائها آسفى على المحيط وأن فروعا أخرى سكنت منطقة حاحة وسهولها ، كما يذكر أن فرع المنتفق من أثبج تحول شمالا وسكن أزغار ، وأن فرع صبيح منها تحرك جنوبا وسكن السهول الواقعة بين سلا ومكناس . ويقول إن يعقوب فتح لعامة العرب نوميديا أى الصحراء فى جنوبى الجزائر متداخلة مع شطر من الصحراء فى المغرب الأقصى ، ولعل ذلك ما جعل بعض بطون القبائل العربية أو الأعرابية فى نوميديا ينزح إلى موريتانيا الشرقية ويتغلغل إلى وادى ملوية شمالا ووادى أو نهر درعة جنوبا . ومن أهم هذه القبائل المعقل ، يقول ابن خلدون : « هذا القبيل لهذا العهد (فى القرن الثامن الهجرى) من أوفر قبائل العرب ، ومواطنهم بقفار المغرب الأقصى وينتهون إلى البحر المحيط من الغرب » وبطونهم كثيرة ، وتستولى على ملوية كلها إلى سجلماسة ، وتصعد إلى ممر تازا وأنحاء تادله وتلال مكناسة ، واستولت على السوس الأقصى وانتجعت فى الرمال إلى مواطن الملثمين[3] ، ونلتقى بسليم قرب وادى درعة ، وتشتغل بالتجارة[4] وتذهب مع سلعها فى قوافل إلى تمبكتو ، وأهلها أثرياء ولهم أملاك وأراض زراعية كثيرة فى درعة . وكل القبائل التى ذكرناها أخذت بطونها تمتزج بأهل المغرب الأقصى بحيث أصبح عربيا دينا ولغة .

والعنصر الثالث فى المغرب الأقصى هو الأندلسيون الذين أخذوا فى الهجرة إليه منذ عهد الحكم الربضى فى أواخر القرن الثانى الهجرى وأوائل الثالث إذ أوقع بفقهاء قرطبة وقعة الربض المشهورة وأمر بطردهم من الأندلس ، وكانوا مع من اشتركوا معهم فى الوقعة ألوفا ، وذهب

(١) انظر فى استنفار عبدالمؤمن للأعراب المعجب ص ٢٩٤ وانظر فى استنفار يوسف ويعقوب لهم وإسكان يعقوب لقبائلهم المغرب الأقصى ابن خلدون ٢٠/٦، ٢١، ٢٤.

(٢) انظر كتابه وصف إفريقيا ص ٥٦ وما بعدها .

(٣) راجع ابن خلدون ٥٨/٦ .

(٤) وصف إفريقيا ص ٦٢ .

كثيرون منهم إلى الإسكندرية ثم تركوها إلى جزيرة كريت وانتزعوها من أيدى البيزنطيين وأنشأوا فيها دولة إسلامية سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م ظلت بها أكثر من قرن إلى أن استعادها البيزنطيون سنة ٣٥٠ هـ/٩٦١ م وحشدٌ كبير اتجه إلى فاس فى المغرب الأقصى وكان إدريس الثانى بينيها فجعلها عدوتين : عُدْوة للمغاربة وعُدْوة للأندلسيين ، ويقال إنه نزلها منهم أربعمائة أسرة سوى من نزلوا فى بلاد المغرب الأقصى الأخرى . ونمضى إلى القرن السابع الهجرى فنسقط – كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع – قرطبة وبلنسية ودانية وإشبيلية فى حجر الإسبان ، ثم تسقط مرسية ، وتهاجر منها جميعا إلى المغرب الأقصى أفواج من الأندلسيين باحثة لها عن موطن جديد فى فاس وفى غير فاس ، ويرحب بهم المغاربة ويفسحون لهم فى أسباب العيش . وأخذت هذه الهجرة الأندلسية تتسع بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ/١٤٩٢ م وخروج العرب من الجزيرة الأندلسية فإن كثيرين منهم نزلوا المغرب الأقصى واتخذوه وطنا ثانيا لهم ، حتى إذا اتخذ فيليب الثالث ملك إسبانيا سنة ١٠١٨ هـ/١٦٠٩ م قرارا بطرد كل المسلمين من إسبانيا التجأت منهم أفواج كثيرة إلى المغرب الأقصى متخذة منه شاطىء نجاة ، ورحب بهم المغاربة كما رحبوا – من قديم – بمن نزل بينهم لعهد الحكم الربضى ثم لعهد سقوط المدن الكبرى فى القرن السابع الهجرى ، ثم لعهد سقوط غرناطة . ودائما كان الحضريون من الأندلسيين فقهاء وعلماء وأصحاب صناعات ينزلون المدن ويستقرون فيها وكان الفلاحون والزراع منهم ينزلون سهول المغرب الأقصى ووديانه وتلاله ، وارتقوا فيه بطرق الرى والزراعة والغرس التى ألفوها فى الأندلس سواء فى السهول والوديان أو فى التلال أو فى مرتفعات الجبال، واختار كثيرون منهم – منذ سقوط غرناطة – منطقتى الريف والهبط فى الشمال . وتحول غير قليلين منهم إلى قراصنة يغيرون على سفن إسبانيا وشواطئها والسفن الأوربية انتقاما من إخراجهم كرها من وطنهم الأندلسى . وكانت هذه الأفواج الأندلسية أكثر حضارة وثقافة من المغاربة ، فأفادوا منهم حضاريا وثقافيا فوائد كثيرة بجانب الفوائد المادية والاقتصادية من الحرف والصناعات وأساليب الزراعة ، وبمرور الزمن اندمجوا فى الشعب المغربى اندماجا تاما.

والعنصر الرابع اليهود وكان أول نزول لهم فى المغرب بالقرن الثالث ق .م على عهد الفينيقيين وكثر نزولهم فيه بعد تحطيم القيصر تيتوس لمعبد بيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد ويبدو أنهم اختلطوا بالبربر إذ حاولوا نشر دينهم فيهم واعتنقه بعض البربر ، ولابد أن دخل منهم كثيرون المغرب الأقصى فى أثناء المدّ الفينيقى والرومانى ، وظلوا بالمغرب بعد الفتح الإسلامى ناعمين بما يعطيه الإسلام لأهل الذمة : اليهود والنصارى من الحرية فى إقامة شعائرهم مع المعاملة الحسنة ، وربما نزح إليهم فى العهود الإسلامية يهود من فلسطين ، حتى إذا سقطت غرناطة أخذينزح إلى المغرب عامة والمغرب الأقصى خاصة يهود كثيرون ممن كان يضطهدهم نصارى الإسبان كما اضطهدوا المسلمين ، وشملهم قرارفيليب الثالث المار ذكره بطردهم من إسبانيا مثل

المسلمين ،ولاحقوهم بأنواع من التعذيب الشديد ، فالتجأ كثيرون منهم إلى المغرب الأقصى وانتشروا فى مدنه وقراه من تخوم البحر المتوسط والمحيط إلى تخوم الصحراء . وفى كتاب وصف إفريقيا وحديث الحسن الوزان فيه عن المدن ما يصور مدى انتشارهم بعد سقوط غرناطة إذ يذكر أن فى مدينة بادس على البحر المتوسط شارع طويل يسكنه اليهود يباع فيه الخمر ، ويقول الوزان إن لهم فى منطقة حاحةبمدينة تدنست مائة بيت يهودى وبمدينة آيت دوَّاد كثير من الصناع اليهود يمارسون الحدادة وصنع الأحذية والصباغة والصياغة ، وفىدرعة وسجلماسة كثير من صناعهم وتجارهم . ويقول الوزان لهم فى تازه خمسمائة بيت ويعنون بصناعة الخمور من كروم البساتين فيها والمزارع . ويبدو أنهم كانوا كثيرين فى فاس منذ القرن الثامن الهجرى ، إذ يذكر الحسن الوزان فى حديثه عن فاس أنهم كانوا يسكنون فى فاس القديمة ونقلهم السلطان المرينى أبو سعيد عثمان الذى تولى الدولة بين سنتى ٨٠١هـ/١٣٩٨م و ٨٢٥هـ/١٤٢١م إلى مدينة فاس الجديدة التى بناها مؤسس دولة بنى مرين سنة ٦٧٤ هـ/١٢٧٦ م وهم يشغلون فيها – كما يقول – شارعا طويلا جدا وعريضا للغاية حيث تقع دكاكينهم وكنائسهم أو معابدهم ، ويذكر أن عددهم تزايد زيادة كبيرة حتى لم يعد من الممكن معرفة عددهم ، كما يذكر أن معظم الصاغة منهم . وإذا كان الوزان يلاحظ ازديادهم المفرط فى زمنه لأوائل القرن العاشر الهجرى بعد سقوط غرناطة فلابد أن أعدادهم فى فاس والمغرب الأقصى تضاعفت بعد طرد فيليب الثالث لهم من إسبانيا فى القرن الحادى عشر الهجرى ونراهم – منذ الدولة المرينية – يحاولون أن يكون لهم شىء من النفوذ عند بعض حكامها ، وبلغوا من ذلك أن اتخذ آخر سلاطينها عبد الحق وزيرا منهم يسمى هرون ثارت عليه العامة ومعهم الفقهاء والخطباء ، وعادوا فى الدولة السعدية يتصلون بحكامها ، ونجحوا فى أن تتخذ منهم سفراء إلى أوربا وبعض من يمثلونها فى الصفقات التجارية الكبرى . ولابد أن نذكر أن المغاربة لم يلتحموا بهذا العنصر أى التحام ، فقد كان عنصرا دخيلا عليهم لغة ودينا ويقول الوزان فى حديثه عنهم بفاس إنهم كانوا محتقرين من كل الناس .

أما النصارى فلم يكونوا يوما عنصرا من عناصر السكان فى المغرب الأقصى إذ كانوا دائما وافدين عليه ، وفدوا أيام الدولتين الرومانية والبيزنطية ، ويبدو أنه كانت لهم جاليات فى مدينة سبتة وغيرها ، يدل على ذلك من بعض الوجوه قول الوزان فى حديثه عن فاس : « نجد بعض أسماء الأعياد التى اعتاد النصارى الاحتفال بها والتى لا يزال الناس يعملون بها اليوم (فى زمنه) ولا يدرى أحدشيئا عن سبب التمسك بهذه الأعياد ، ففى كل مدينة مغربية يُحْتَفل ببعض الأعياد والعادات التى خلفها النصارى منذ الزمن الذى كانوا يحكمون فيه إفريقيا ، يريد زمن الدولتين الرومانية والبيزنطية .ويدخل المغرب الأقصى فى الإسلام ويجلو عنه نصارى الدولتين إلا قليلا . ونمضى إلى عصر الموحدين فيذكر الحسن الوزان فىحديثه عن مراكش أن

المنصور الموحدى بنى فى القصبة قصرا للحرس من الرماة النصارى ، وكان عددهم عادة خمسمائة ، وكانوا يسيرون أمام موكب الخليفة حين ينتقل من مكان إلى مكان . وبعد خروج العرب من الأندلس نقل الإسبان والبرتغاليون الحرب الصليبية إلى سواحل البحر المتوسط والمحيط ، وكانوا يظلون فيها – كما أسفلنا – سنوات تطول أو تقصر ، ثم يغادرونها قسرا أو جبرا ، وقد يستولون منهم على مئات يستخدمونهم عبيدا أو رقيقا ويكلفونهم بمختلف الأعمال من أبنية وتحصينات وغير تحصينات على نحو ما مرَّ بنا من صنيع بطل تطوان فى ثلاثة آلاف أسير منهم كان ينهكهم فى أعمل التحصينات . وأخذ كثيرون من المسلمين المنفيين عن الأندلس بعد سقوط غرناطة وقرار فيليب الثالث المار يشتغلون بالقرصنة فى عرض البحر المتوسط وعلى سواحل إسبانيا انتقاما من ملوكها وكانوا يجلبون كثيرا من رقيق النصارى فى قرصنتهم ويستحيلون عبيدا ، وكان كثير منهم يسلم ، فينتهى رقه ويستحيل مسلما مواطنا .

٢

المعيشة

مر بنا فى الحديث عن جغرافية المغرب الأقصى أن أراضيه خصبة ، ومن قديم كان أهله يعيشون على الزراعة ورعى الأنعام ، وإذا أخذنا نسير فيه من الشمال إلى الغرب على المحيط وبدأنا بمنطقة الحبط وجدناها وافرة الإنتاج من الحبوب ومختلف الثمار من الفواكه وخاصة البرتقال والكرز . وتليها منطقة أزغار ، وبها كثير من الحبوب والأقوات ، ويزرع بها القطن ، وبها كثير من الماشية والخيل والغزلان وأنواع ممتازة من الفواكه . وتجاورها منطقة فاس ، ويقول الحسن الوزان بحديثه عنها : فى القسم الجنوبى من المدينة كثير من الحدائق المليئة بأشجار مثمرة متنوعة وممتازة مثل أشجار البرتقال والليمون والأترج والزهور الجميلة من بينها الياسمين والورود والرتم الذى استورده الأندلسيون من أوربا . وتحفل البساتين بقصور جميلة وبرك ماء وحنفيات ، وتحاط البرك بالياسمين وبالورود وبأشجار البرتقال ، وعندما يمر الإنسان فى فصل الربيع بجوار هذه الرياض يشم أعطر شذى ينبعث من كل جانب ، ولا يكاد يشبع نظر الإنسان من متعة جمالها وملاحتها ، وتشبه كل روضة من هذه الرياض جنة أرضية . وكان من عادة الوجهاء الإقامة فيها ابتداء من مطلع شهر نيسان (أبريل) حتى آخر أيلول (سبتمبر) . ويقول الوزان عن زروعها فى الشمال والشرق والجنوب : بها مزارع جميلة مليئة بالأشجار المثمرة من كل صنف ، وتخترق هذه المزارع بعض تفرعات النهر ، ولكثرة الأشجار يخيَّل للناظر إليها من بعد أنها غابة حقيقية ، وتنتج منها الثمار بوفرة ، وثمارها من نوع جيد ، ويقدر ما يباع فى اليوم بكل موسم خمسمائة حمل من الثمار فيما عدا العنب الذى لا يدخل فى هذا

الرقم . وإلى الغرب من فاس أرض واسعة عرضها خمسة عشر ميلا وطولها ثلاثون تكثر فيها العيون والجداول وهى خاصة بالجامع الكبير (جامع القرويين) ويزرع فيها الكتان والبطيخ والقرع والخيار والجزر واللفت والقنبيط وسوى ذلك من الخضر ، وتنتج هذه الأرض مقادير كبيرة ، وحتى لتقدر كمية إنتاجها بخمسة عشر ألف حمل فى الصيف ومثلها فى الشتاء . وتوجد فى حضيض الجبال أشجار الزيتون والفواكه والأعناب وهى شديدة الحلاوة . ومن مدن منطقة فاس مكناس ، ويقول عنها الوزان إنها تقع فى سهل بديع وعلى مسافة ثلاثة أميال منها مزارع أشجار عديدة ثمارها ممتازة ولاسيما السفرجل وثماره فخمة جدا وزكية الرائحة ، وكذلك ثمار الرمان التى تبدو عجيبة فى حجمها ونوعهالأنها تخلو تماما من البذور ، والخوخ الأبيض والأخضر إنتاجهماغزير جدا ، ويُجْنَى العنَّاب بمقادير وفيرة ، ويوجد الكثير من التين وعنب التكعيبات ، وتجنى مقادير كبيرة من المشمش والخوخ ومقادير لا تحصى من الزيتون ، والأراضى المحيطة بالمدينة خصبة جدا ، وتنتج كمية كبيرة من الكتان . وتنمو ببعض الأنحاء أشجار التوت وينتفع بها لتغذية دود القز . وأراضى منطقة تامسنة صالحة لزراعة كل أنواع الحبوب والبقول ، وبها كثير من البساتين . وتنتج الكثير من العنب والكرز والشمام ويزرع بها القطن بمقادير وفيرة ، وينمو بها نوع من البلوط ثماره حلوة . ومنطقة دكالة كمنطقة تامسنة خصبة ، وتنتج كميات وافرة من القمح والعسل والزيتون وبعض الفواكه مثل التين وبها كثير من الأبقار . وبجوارها منطقة حاحة ، وتنتج القمح والذرة البيضاء والشعير ، ويكثر فيها التين والدراق ، وإنتاج العسل بها وافر جدا ، وبها الكثير من المعز وقليل من الضأن والبقر والخيل . وتليها إلى الداخل منطقة مراكش وسط سهل خصب ، وكان فى المدينة (عاصمة المرابطين والموحدين) بستان جميل واسع جدا ملىء بكل أنواع الأشجار والزهور ، كما يقول الوزان ، وكان به حوض ماء مربع من المرمر فى وسطه عمود يحمل أسدًا من رخام منحوتا نحتا دقيقا يتدفق من فمه ماء صاف غزير ، وفى كل زاوية من زوايا الحوض الأربع فهد من رخام أبيض منقوش ببقع خضراء مستديرة . وبالقرب من البستان كانت توجد حديقة للحيوان تضم العديد من الحيوانات الوحشية كالزرافات والفيلة والأسود والتيوس الجبلية . وكان للأسود خاصة حديقة حيوان منفصلة عن بقية الحيوانات الأخرى . ومنطقة هذه المدينة تكتظ بالكثير من المياه والأنهار والعيون ، ولذلك تنتج القمح والحبوب بمقادير وافرة وتكتظ بالبساتين وثمارها كالعنب والتين والتفاح والكمثرى ، وبها كثرة من المعز والأنعام ، ويزرع بها الكتان والقنب ، وينمو فى سفوح الجبال السفرجل وأشجار الزيتون والجوز ، وجنوبى حاحة على المحيط منطقة السوس ، ويكثر فى أنحائها إنتاج القمح والشعير وقصب السكر كما يكثر النخيل والتمر والتين والعنب ، كما تكثر النيلة . والماشية – وخاصة فى بعض الأنحاء – وافرة جدا وبالتالى يكثر فيها الصوف . ونصعد إلى الشمال على البحر المتوسط فى أقصى الشرق إقليم غارت وتكثر فيه

الكروم والعسل والمعز والأغنام ، ولذلك يكثر فيه الصوف ، كما تكثر فى بعض الأنحاء – مثل أزغار على المحيط – أشجار التوت وما يتغذى عليها من دود القز . وبجوار منطقة غارت إلى الغرب منطقة الريف على البحر المتوسط وتكثر فيها الفواكه وخاصة البرتقال والعنب والسفرجل والليمون ، كما يكثر العسل وأشجار الزيتون . وجنوبى غارت منطقة الحوز وتنتج القمح والشعير والذرة وكميات وافرة من الكروم والدراق والتين والسفرجل المعطر والليمون وأيضا من الكتان والقنب ، وتكثر أشجار التوت فى بعض المناطق ويتغذى عليها دود القز ، وبها كثير من الماشية وخاصة المعز والخيول والبغال . وجنوبى الحوز منطقة تادلة وتكثر بها بساتين الكروم والتين وأشجار الجوز والزيتون الباسقة ، وتتكاثر فيها الأنعام والماشية والأغنام ولذلك إنتاج الصوف فيها وافر جدا وسفوح الجبال جيدة لرعى الماشية وإنتاج الشعير . وشرقى منطقة مراكش منطقة هسكورة وتكثر بها أشجار النخيل والزيتون والجوز والنيلة وبساتين الفاكهة الجيدة : مشمش وغير مشمش وخاصة الكروم وتنتج عنبا أحمر كبير الحجم كبيض الدجاج ، ويكثر فيها العسل ، ومن عسلها نوع أبيض كاللبن وهو ممتاز ونوع أصفر كالذهب ، كما يكثر فيها الزيت وطعمه طيب . ويكثر الغنم والمعز ، ويقول الوزان : لبعض أغنيائهم مائة ألف رأس من الغنم والمعز ، ويبيعون صوفها ويتركون للرعاة الحليب والجبن . وشرقى السوس منطقة جزولة وتنتج كميات وافرة من الشعير وبها مراع واسعة هيأت لوفرة من الماشية والأنعام والأغنام . وإلى الجنوب الشرقى منها منطقة درعة ، وشماليها على نهر زيز سجلماسة ، والمنطقتان تهتمان بتربية المعز والأغنام وتنتجان كميات وافرة من التمر لكثرة ما بهما من النخيل ، وللتمر فيهما أنواع كثيرة فاخرة ، وكانت تنمو بهما الكروم والدراق .

ومن وجوه العيش والكسب فى المغرب الصيد على سواحل البحر المتوسط والمحيط والأنهار ، ولا يكاد الوزان يترك مدينة كبرى أو صغرى على البحر المتوسط إلا يذكر أن بها صيادين أو أن أهلها جميعا صيادون ، من ذلك ما يذكره عن أهل ميناء بادس من أن صياديها يحرصون على أن يحصلوا على كميات كبيرة من السردين وأسماك أخرى ، وعادة يحتاجون لمساعدة بعض الأشخاص لهم فى سحب الشباك ، ويتركون لهم وللأشخاص الذين يوجدون هناك قسما طيبا من السمك الذى يصيدونه . ويقول عن أهل مدينة صغيرة تسمى تاغسّة إنهم صيادون وملاّحون . ولابد أن كان كثير من سكان الريف والهبط يحترفون القرصنة زمن ازدهارها فى المغرب الأقصى بالقرون التاسع والعاشر والحادى عشر ، وكانت كثرة القراصنة من الأندلسيين الذين اضطهدهم ملوك الإسبان واضطروهم إلى الخروج من موطنهم فى الأندلس . وضعفت القرصنة بعد ذلك وظل صيد السمك غالبا على منطقة الريف ، وكان يزاوله بعض السكان على المحيط ، كما كانوا يزاولونه فى بعض الأنهار والبحيرات ، وأهم نهر كانوا ينزلون للصيد فيه نهر أم الربيع عند مصبه قرب مدينة آزمّوز بمنطقة دكالة ، وكان يكثر فى مياهه نوع من السمك

يسمى – كما يقول الوزان – الألوز وكان موسم صيده يبدأ فى تشرين الأول (أكتوبر) وينتهى فى أواخر نيسان (أبريل) ويقول الوزان إنه كان يحوى من الدهن أكثر مما يحوى من اللحم . أما البحيرات فنمثل لها ببحيرة كانت بمنطقة دكّالة أيضا فى حضن الجبل الأخضر ، وكانت تحوى كمية كبيرة من الأسماك مثل سمك الحنكليس ، وسمك الشبوط وأسماكا أخرى ، وكلها ممتازة للغاية ، ويقول الوزان إن أحدًا لم يكن يصيد بها وإن السلطان محمد بن محمد البرتغالى توقف بجوارها ثمانية أيام وأمر بالصيد فيها . وكما كانوا يجليون صيد البحر كانوا يجلبون صيد البر بواسطة الأشراك ، وخاصة فى منطقة درعة حيث كانوا يصيدون الحيوانات الوحشية مثل النعام والوعول ويسمونها اللمت والبقر الوحشى ويسمونه ودّان .

ومنذ القدم يعنى المغرب الأقصى بالصناعات اليدوية كالحدادة والنجارة واستخراج المعادن وتصنيعها وبخاصة الحديد ، وتنتشر مناجمه فى مناطق كثيرة ، وبخاصة فى منطقة غارت بالشمال ، فالوزان يقول إن مليلة كانت تنتج كمية كبيرة من الحديد ، وإن فى جميع الجبال المجاورة لجبل مدينة آمجّاو مناجم حديد ، ويسكن المشتغلون بشئون هذه المناجم كثيرا من الدساكر والقرى فى المنطقة ، ويقول عن جبل بنى سعيد : تستخرج من الأرض كمية كبيرة من الحديد ، ولكل رئيس من رؤساء المشتغلين بالمنجم وشئونه بيته بجوار المنجم ومصنعه الذى يصفّى فيه الحديد ، وينقل الحديد إلى فاس على شكل سبائك ، وما لا يمكن بيعه يستخدم لصناعة أدوات من نوع الفئوس والمناجل والبلطات التى يقطع بها الخشب . وفى منطقة الحوز بجبل بنى يستيتن عدة مناجم حديد على سفحه ، ويصنع الحديد ، وتعمل منه سبائك تُحْذَى بها الخيل ، ونفس السبائك تستعمل نقودا ، ويجنى هؤلاء الجبليون من هذا الحديد دخلا كبيرا لأنهم يبيعون منه كمية كبيرة . ولكثرة الحديد فى المنطقة استطاع سكان جبل بنى يازغة صنع ما يشبه « تلفريك » للعبور من ضفة نهر إلى أخرى ، وسنصفه فى موضع آخر . وفى منطقة جزولة عدة مناجم للحديد والنحاس ويصنعون من النحاس أوعية عديدة يحملونها إلى مختلف الأنحاء . ويكثر صناع آنية النحاس بأفران فى منطقة درعة لأنها من السلع التى يحملونها إلى السودان ، وفيها عمال مهرة جدا فى الصناعات كصنع الشمعدانات والصحاف والمحابر والأشياء الأخرى ، وجميعها تباع كما لو كانت من فضة . ونعود إلى منطقة الحوز ففى بلدة مزدغة تربة صلصالية يصنعون منها عددا لا يحصى من الأوانى الخزفية ويبيعونها فى فاس . وبسهل سهب المرجة الذى يبلغ حوالى ثلاثين ميلا عرضا وأربعين ميلا طولا بين جبال الأطلس المحاطة بغابات ضخمة ينتج الفحامون هناك مائة حمل من الفحم ، ونلتقى بمثل هذا الفحم فى مدينة العرائش . وفى قصر المزاليق بسجلماسة منجم للرصاص وآخر للإثمد (الكحل) وتلقانا فى مدن كثيرة صناعة الشمع لكثرة إنتاج العسل فى غير بلدة ، ومعاصر الزيت لكثرة أشجار الزيتون فى معظم أنحاء البلاد ، وبالمثل دباغة الجلود ، وتوجد أشجار النيلة فى أماكن مختلفة

وخاصة السوس وهسكورة ، وكان يصنع الصابون فى بلدان متعددة وخاصة فى منطقة الريف ، وفى أماكن مختلفة وخاصة فى منطقة الحبط خشب البقص فى جبل بنى واغرافت وتصنع منه الأمشاط فى فاس وسلا . وفى بعض المناطق تكثر أشجار التوت لتغذية دود القز ، كما فى مكناس وأزغار بمنطقة الحوز ، ويجمع منه الحرير . وفى منطقة الريف يشيع تمليح السردين إعدادًا لبيعه ، كما يشيع فيها وفى المغرب قطع الأشجار الضخمة وإعدادها للتصدير أعمدة وألواحا ، وبجانب ذلك يشيع صنع القوارب والطرّادات فى هذه المنطقة ومنطقتى الحبط وأزغار وكان لهما فى ميناء بادس دار صناعة . وفى كل مدينة نجد الإسكافيين أو الحذائين والدباغين والسراجين .

وفى مدن كثيرة تنسج الملابس ، ينسجها عادة النساء ، وحيث تكثر زراعة القطن تكثر الأقمشة القطنية كما فى أزغار وتامسنة وسلا ، وحيث تكثر الأغنام والمعز يكثر الصوف كما فى منطقة السوس ، وتشتهر بنسيج نوع ناعم من الصوف كالجوخ وبالأقمشة الصوفية . وأيضا حيث تكثر زراعة الكتان تكثر الأقمشة الكتانية كما فى السوس أيضا ، وبالمثل تجنى منطقة الحوز من الكتان كمية كبيرة ، ولذلك يحيك السكان – وخاصة فى جبل مغسَّة الأقمشة الكتانية ، ويحصلون من أغنامهم فى جبل بنى يازغة على صوف شديد النعومة تصنع منه نساؤهم أقمشة كالحرير ، وبمدينتى تفزة وأفزة من منطقة تادلة أغنام مماثلة ، ونساؤهما ماهرات – كما يقول الوزان – فى شغل الصوف ، ويصنَعْن منه برانس وخِمارات جميلة جدا ، وبذلك يربحن من المال أكثر من رجالهن إلى حد ما . وبالمثل بمنطقة هسكورة كمية كبيرة من الأغنام وتصنع من صوفها أقمشة جميلة جدا . ولكى نتصور مدى نشاط صناعة النسيج فى المغرب الأقصى أسوق ما ذكره الحسن الوزان عنها فى فاس ، فقد ذكر أن بها مائة وعشرين مؤسسة للنساجين وهذه المؤسسات أو المصانع أبنية كبيرة كل منها مؤلف من عدة أدوار مع قاعات فسيحة كقاعات القصور ، وتحوى كل قاعة عددا كبيرا من عمال نسج الكتان والقنب . وتلك هى الصناعة الرئيسية فى فاس ويقال إنها تكفل العمل لعشرين ألف عامل .. ومن جهة أخرى كان يوجد مائة وخمسون مصنعا لقصَّارى (مبيِّضى) الخيوط ، ويقوم معظمها قرب النهر لبلّ الخيوط ودَقّها . وتتجهز هذه المصانع بالكثير من المراجل والخوابى المبنية لغلى الخيوط ولحاجات مهنية أخرى . والقنب هو الذى يتخذ منه الحبال . ولابد أن كانت هناك مصانع أخرى لنسج الأقمشة القطنية والصوفية والحريرية إلا إذا كانت تضمنتها المصانع السابقة .

ومنذ القرن الثانى الهجرى تُبْنَى فى المغرب الأقصى المنشآت العمرانية التى لا تقتصر على بناء مفرد ، أو أبنية محدودة ، بل تتجاوز ذلك إلى بناء مدن بمساجدها وقصورها وحماماتها وفنادقها ومارستاناتها وأسواقها ، فقد بنى إدريس الثانى مدينة فاس أو بعبارة أدق ابتدأ بناءها

سنة ١٩٢ وجعلها عدوتين أو شطرين : شطرا على الحافة الشرقية للنهر وشطرا إلى الغرب منه ، ويفيض الحسن الوزان فى وصف جمال بيوتها وزينة حجارتها بالفسيفساء وطلاء سقوفها بطلاء لازوردى وذهبى وما فى الطوابق من شرفات كثيرة الزخرف ، ويسترسل فى الحديث عن دهاليزها وما بها من أعمدة رخام ودعائم مقوسة وسقوف مزينة بنقوش متنوعة الألوان ، ويتحدث عن مساجدها التى تبلغ ٦٠٠ مسجد وجامعها الكبير المسمى جامع القرويين وكان يوقد فيه كل ليلة ستمائة مصباح ، وكانت تلقى فيه الدروس على الطلاب ، وبذلك تحول – مثل الأزهر – إلى جامعة ضخمة . ويبسط القول فى المدارس والمعاهد والمارستانات والحمامات والفنادق بفاس وسوقها الضخم وصناعه ودكاكينه ، ويطوف بنا فى أرجاء فاس القديمة وأختها الجديدة التى بناها بجوارها أول السلاطين المرينيين يعقوب بن عبد الحق ، وكيف استدار من حول المدينتين سور جعلهما مدينة واحدة . وقد بنى ابن هذا السلطان مدينة البصرة على مسافة ٨٠ ميلا من فاس إلى الشمال الغربى وعلى مسافة ١٥ ميلا جنوبى مدينة القصر الكبير فى منطقة أزغار وكان الأدارسة – فى أثناء حكمهم – يتخذونها مقرهم الصيفى . ونمضى إلى زمن المرابطين فيؤسس يوسف بن تاشفين أمير المسلمين مدينة مراكش الكبرى وهى مثل فاس تعد من المدن الرئيسية فى العالم ، شيَّدها يوسف وفق مخططات وضعها مهندسون مهرة ، وكان لها أربعة وعشرون بابا وجدار سور غاية فى الجمال والمناعة كما يقول الوزان . ويصف جامعها الكبير وتزيين يعقوب المنصور الموحدى له بأعمدة جلبها من إسبانيا ، ويطيل فى وصف منارته التى شيدها له يعقوب ، وقد باعت زوجته حُلِيَّها الذهبية الخاصة والفضية وما تملك من أحجار كريمة وما قدمه لها يعقوب عند زواجه منها لصنع ثلاث تفاحات ذهبية توضع فوق قمة المنارة زينة لها ، ويطيل الوزان فى وصف قصبة مراكش . ويذكر أن الخليفة يعقوب المنصور بنى فيها اثنا عشر قصرا متقنة البنيان والزخرفة لحرسه وحاشيته ولحفظ السلاح ولأبنائه ولتعليمهم ، وكان بجانب هذه القصور – كما مر بنا – بستان وحديقة حيوان . وبنى يعقوب المنصور أيضا ثلاثة مدن ، هى القصر الكبير والقصر الصغير فى منطقة أزغار ومدينة الرباط العاصمة الحالية للمغرب الأقصى . وبناء هذه المدن وما دخل عليها من إضافات كان يستلزم آلافا من العمال والمهندسين والبناءين والحدادين والنجارين والزواقين المزينين للمبانى بالفسيفساء وبأعمدة الرخام والدعائم المقوسة والخشب المزخرف بالنقوش والأصباغ والألوان البديعة .

وهذه الأعمال المعمارية الضخمة وما استلزمت من صناعات وصناع وما سبقها مما اقتبسته عن الحسن الوزان من الصناعات اليدوية التى كانت منبثة فى أرجاء المغرب الأقصى والصيد والإنتاج الزراعى المتنوع الوافر ، كل ذلك أعدَّ لتجارة نشيطة واسعة منذ القدم ، فقد كان الفينيقيون يتبادلون سلعهم مع المغرب الأقصى فى المدن التى أنشأوها على سواحله الشمالية والغربية ، وخلفهم الرومان يصنعون نفس الصنيع ، وربما عبرت قوافل تجارهما إلى السودان .

واستمر المغرب الأقصى يتبادل سلعه مع شعوب البحر المتوسط فى العصور الإسلامية ، وكانت سفن البنادقة والجنويين ماتنى ذاهبة إلى موانى البحر المتوسط آتية منه محملة بحبوب المغرب الأقصى وبالجلود وبالشمع وبخيوط الصوف ، كما كانت تحمل كثيرا من الأخشاب المعدة للتصدير بين أعمدة وألواح . وكثيرا ما كانت سفن البنادقة والجنويين تعبر الزقاق إلى موانى المغرب الأقصى على المحيط لتتبادل مع أهلها السلع ، وكان الجنويون والبنادقة جميعا يأتون بأقمشة ومنتوجات أوربية مختلفة ويأخذون بدلها عن طريق المقايضة سلع المغرب الأقصى من القمح والشمع والجلود والصوف وغير ذلك . ويقول الحسن الوزان عن مدينة سَلا على المحيط « إن الكثير من التجار الجنويين يقصدونها ويعقدون فيها صفقات مهمة ولهؤلاء التجار مستودعاتهم فى كل من فاس وسَلا ، وكانوا يُبْقون مع هذه المستودعات بعض أصحابها أو بعض مندوبى شركاتها لجمع ما يريدون من المحاصيل ، ويذكر الوزان أن جنويا ثريا من تجار جنوة مكث مع أسرته فى فاس ثلاثين سنة حتى توفى . ولابد أن كان للجنويين والبنادقة مستودعات مماثلة فى موانى المحيط والبحر المتوسط ، وقد انضم إليهم بعد خروج العرب من الأندلس البرتغاليون والإنجليز والفلمنك وخاصة فى الموانى التى احتلها الأولون . وثلاث مناطق كانت تتجر مع السودان ، هى السوس وكانت تحمل إلى أهله الأقمشة الصوفية والكتانية والسكر الذى كانت تنتجه ، ودرعة وكانت تحمل إليهم أوانى النحاس من أفران والتمور وبعض الأقمشة ، وسجلماسة وكانت تحمل إليهم التمور والأقمشة المختلفة والزيت والمفاتيح والأقفال وتعود قوافلها محملة بالتبر والعاج وريش النعام والرقيق . وكان تلك التجارة مع السودان تعود على تجار هذه المناطق الثلاث ، بثراء طائل . وكان إنتاج المناطق يختلف من منطقة إلى أخرى ، فتمور سجلماسة مثلا تقايض بالقمح وأوانى النحاس وفى منطقة جزولة تقايض أوعية النحاس بالأقمشة والتوابل والخيول ، وبالمثل جلود التيران والشمع بجبل بنى زكار ، وكان لكل بلد سوق ، ونسوق أسماء الدكاكين فى سوق فاس .. لنتعرف من خلالها على ألوان التجارات ، وهى تتوالى عند الوزان على هذا النمط : ثلاثون دكانا للمكتبات ، مائة وخمسون لباعة الأحذية ثم باعة الأوانى النحاسية ، خمسون دكانا لباعة الفواكه ، وبعدهم باعة الشمع وباعة الخيطان ، وعشرون دكانا لباعة الزهور ، وباعة الحليب ، وثلاثون دكانا لباعة القطن ، .فدكاكين الأشياء المصنوعة من القنَّب : الحبال والخيوط وأرسان الخيل فصناع النطاقات الجلدية المطرزة بالحرير ، فصناع أغمدة السيوف والسكاكين فباعة الأوانى الخزفية ذات الألوان الجميلة ولها مائة دكان فباعة الملح فباعة اللجامات والأعنَّة والسروج ولهم ثمانون دكانا فحظيرة يباع فيها الجزر واللفت فباعة الفول الأخضر ، فدكاكين لبيع اللحم المفروم ، فسوق العشابين للقنبيط وأنواع الخضر الأخرى وبه أربعون دكانا ، فباعة الزلابية ، فباعة اللحم المقلى والسمك المقلى ، فباعة الزيت والسمن والعسل والجبن والزيتون ، فالأطعمة المحفوظة ، فأربعون دكانا للجزارين وتُذْبَحُ

الحيوانات فى مسلخ خاص ويفحصها المحتسب ويصنع لسعرها نشرة يُباع اللحم بموجبها . وبعد الجزارين سوق الأقمشة الصوفية الغليظة ولها مائة دكان ، فشاحذو الأسلحة من سيوف وخناجر . فصيادو الأسماك من نهر فاس ونهر سبو القريب منها ، وهى ممتازة ، فصناع أقفاص الدجاج ولا تترك طليقة بل تحبس فى أقفاص حرصا على النظافة ، فباعة الصابون فباعة الدقيق فباعة القش فباعة خيوط الكتان ، ولصناعة الدلاء الجلدية أربعة عشر دكانا ، فصناع التروس والمجنّات ، فصناع سروج الخيل واللجامات ، فالحدادون الذين يعدون كسوة الخيل فصناع السروج . وبجانب هذه السوق سوق أخرى للتجار فى مدينة صغيرة بها اثنا عشر بابا وهى خمسة عشر حيًّا ، حيّان للإسكافيين أو الحذائين ، وحيان لتجار الأقمشة الحريرية وحىّ لباعة النطاقات النسائية ، وحيان لباعة الأقمشة الصوفية ، وثلاثة أحياء للخياطين وحيان لباعة الأقمشة الكتانية والأقمشة النسائية ، وحى لما يوضع على حواشى البرانس وأزرارها المضفورة من زخرفة وزينة . وإلى الشمال سوق العطارين والصيادلة وبه نحو مائة وخمسين دكانا ، ودكاكين العطارين غاية فى الزينة ، ويقول الحسن الوزان : لا أعتقد أن فى العالم كله سوق عطارين تماثل هذه السوق . وإلى جانبها دكاكين باعة الإبر ولهم خمسون دكانا ثم دكاكين الطحّانين والصبّانين فباعة الأقمشة القطنية ، فباعة الطيور الصالحة للأكل والعصافير المغرّدة فباعة القباقيب التى تلبس حين تكون الطرق موحلة ، فصناع السهام ، فخمسون دكانا لباعة المكانس ، فباعة صوف الخراف ، فصناع القفاف وقيود الخيل ، فصناع النحاس ودكاكينهم ، فباعة المكاييل وآلات الحلج والبرادة ، وباعة المحاريث والدواليب وعرائش العربات ، فسوق الصباغين . وهذا كله لخصته من وصف الحسن الوزان لسوق فاس بكتابه وصف إفريقيا لأدل على ما كان بالمغرب الأقصى من سلع لا تكاد تحصى وفّرتها له أرضه الطيبة ، مما أتاح له فى التجارة من قديم نشاطا تجاريا واسعًا داخليا وخارجيًّا .

٣

الثراء – الرَّفه – الموسيقى – المرأة

(أ) الثراء

كان المغرب الأقصى كثير الخيرات والطيبات من الرزق ، فكثر فيه الأثرياء من الأفراد والأقاليم ، وأما الأفراد فنستطيع أن نمثل لهم بمثالين ذكرهما الحسن الوزان ، أولهما وجيه رآه فى مدينة تاكوليت بإقليم حاحة كانت منزلته كمنزلة رئيس وزارة ، وكان يملك موارد ضخمة ، وكان ينفقها على الناس ليكسب ودهم ويظل أثيرا لديهم ، وكان كريما ينفق الكثير – كما يقول الوزان – من الصدقات ، ويساعد أهل بلدته بماله لقضاء حاجاتهم ، ولم يكن فى بلدته إنسان

واحد لا يحبه ولا ينزله منزلة والده . والثانى فى مدينة تاغوداست بمنطقة هسكورة وكان بها عدد من الشخصيات النبيلة ، ربما كان أنبلهم أميرها ، وهو – كما يقول الوزان – وجيه أعمى سخى سخاء كبيرا ، وكان لديه أكثر من مائة ألف رأس من الغنم والمعز ، يستمد منها دخلا كبيرًا من شعرها وصوفها ، ويترك للرعاة الحليب والجبن ، ويقدمون له قدرا من السمن .

وبجوار ثراء الأفراد كانت هناك مدن وأقاليم أو مناطق ثرية ثراء طائلا ، أما المدن فنستطيع أن نميز بينها مدن الموانى ، إذ كان تجارها يثرون من تجاراتهم وحتى المدن التى كانت تقترب منها أو تجاورها كان ينالها نصيب من هذا الثراء مثل مدينة تاكوليت المذكورة آنفا فقد كانت تجاور ميناء آفور بمصب نهر التانسفت بقرب المحيط فعاد ذلك على أهلها بثراء كبير . وقد لا تكون للبلدة ميناء ولكن أهلها يزاولون التجارة مثل هادكيس جنوبى تاكوليت بنحو ثمانية أميال ، فإن أهلها كانوا تجارا ولذلك كانوا على غير قليل من الثراء ، ويقول الوزان كان لديهم خيول حسان وكانوا يتأنقون كل التأنق فى ملابسهم . وما بالك بكبار التجار وأصحاب المصانع الضخمة فى فاس عروس المغرب الأقصى وعاصمة الأدارسة والمرينيين ، وبدون ريب كان الأغنياء الموسرون فيها يعدون بالعشرات ، وذكر الوزان أنه كان بها مارستان جميل فى الداخل والخارج ، وكان بها بعض غرف مخصصة للمجانين المخبولين ، وكان بها مائة حمام جيدة البنيان ، وللنساء حماماتهن الخاصة ، أما الحمامات المشتركة فتخصص فيها ساعات للرجال وساعات للنساء ، وحينما يغسل خدم الحمام شخصا يستلقى على ظهره أو بطنه ويقومون بتدليكه بنوع من المراهم منشطة وأحيانا بأدوات مثل كيس صوفى ينزع الأدران . وكان بفاس مائتا فندق يقول الوزان إنها كانت فخمة للغاية ويتألف الفندق من ثلاثة طوابق ، وبعضها فسيح جدا إذ يحوى مائة وعشرين غرفة أو أكثر ، وتتجهز جميعا ببرك ماء وكل ما يلزمها ، ويقول الوزان إنه لم ير فى إيطاليا أبنية تماثلها إلا فى قصر الكردينال فى دَيْر الحضر بروما ، ويقول إن أبواب الغرف كلها تُطلُّ على ممشى ، ويشيد بالقصور التى بناها يعقوب بن عبد الحق مؤسس الدولة المرينية ، وليست قصورا بل مدينة أضافها إلى فاس كما مرَّ بنا فى حديثنا عن المرينيين فى الفصل الماضى ، وقد أنفق سلطانها المرينى أبو عنان على إنشاء معهد – كما يذكر الوزان – أربعمائة وثمانين ألف دينار ، مما يدل على ثراء واسع كانت تتمتع به الدولة المرينية . ومثل فاس مدينة مراكش عاصمة المرابطين والموحدين والدولة السعدية ، ويتحدث الوزان عن جامعها ، ومازينه به المنصور الموحدى صاحب موقعة الأرك من أعمدة جلبها من إسبانيا ومن منارة كانت إحدى عجائب الدنيا وبنى بالقصبة اثنى عشر قصرا ، ويقول إن إمبراطوريته من ماسة فى السوس إلى طرابلس يحتاج اختراقها طولا إلى تسعين يوما وعرضا إلى خمسة عشر يوما ، ولم تكن الدولة فى عهد المنصور السعدى تقل إثراء عنها فى عهد المنصور الموحدى فقد توسع فى فتح بلاد السودان الغربى وكان الذهب يُجبَى إليه منها بالأحمال ، مما جعل العمال

فى دارسكته يتزايدون ، حتى قيل إنه كان فيها ١٤٠٠ عامل بيد كل عامل مطرقة لضرب الدنانير الذهبية ، ولذلك لُقّب بالمنصور الذهبى .

ويتوقف الوزان مرارا ليحدثنا عن ثراء المناطق فى المغرب الأقصى ، من ذلك ما يقوله عن منطقة بولوان فى منطقة دكّالة من أنه كان يسكنها عديد من النبلاء الكرام . وقد بنوا عمارة فيها غرف عديدة على نفقتهم لتكون دار ضيافة فاخرة ، وأرضهم خصبة وتنتج مقادير وافرة من القمح وعندهم ماشية لا عداد لها ، إذ لدى كل فرد منهم نحو مائة زوج من الأبقار ويحصد الفرد العادى مائة حمل من القمح ومنهم من يحصد منه ثلاثة آلاف حمل . ومثل منطقة دكالة فى ثرائها منطقة هسكورة بأغنامها وما يُصْنع منها من الأقمشة الصوفية الجميلة ومن الجلود المغربية وبها كثرة من محصول الزيت وتعنى بصناعة سروج الخيل . ويشمل الثراء كثيرا من نواحى منطقة تادلة ، وتشتهر مدينتا تفزة وأفزة بصنع البرانس وهى نوع من العباءات أو الثياب تنسج قطعة واحدة مع قلنسوتها ويسلك فى العنق ويترك من أمام مفتوحا ، ولا يخاط منه إلا ما يقابل الصدر . ومنطقة فاس غنية جدا لوفرة حبوبها وثمارها وماشيتها . وبالمثل منطقة مكناس لثمارها العجيبة من سفرجل زكىّ الرائحة ورمان يخلو من البذور وعنّاب بديع مع وجود مختلف الثمار من الخوخ والمشمش والعنب والتين ، ومنطقة الهبط غنية لكثرة موانيها التجارية ، ولكثرة ما تنتجه كورها من الحبوب والثمار . وتتميز ثلاث مناطق هى : السوس وسجلماسة ودرعة بتجاراتها الواسعة مع السودان الغربى ، وتجار السوس يحملون إليه ما ينتجون من السكر والتمور وما يصنعون من الجوخ وأقمشة الكتان ، ويحمل تجار سجلماسة تمورهم والأقمشة القطنية والصوفية والمنتجات المغربية ، ويحمل إليهم تجار درعة تمورهم الفاخرة والمنتجات المغربية وما يصنعون من أوانى النحاس ، ويعودون جميعا محملين بالعاج والذهب وريش النعام والرقيق ، ويدرّ ذلك على تجار هذه المناطق ثراء واسعا .

(ب) الرّفه

هذا الثراء الطائل لبعض مدن المغرب الأقصى ومناطقها ودولها وبعض أفرادها من التجار وغير التجار يجرّ بطبيعته إلى غير قليل من الرفه . ومن يرجع إلى الحسن الوزان فى حديثه عن ملابس سكان فاس ويريد أعيانها ونبلاءها يجده يقول إنهم أناس محترمون يلبسون فى الشتاء ثيابا من جوخ أوربية المنشأ ، ويتألف ما يلبسون من سترة (جاكيت) ضيقة ملتصقة بالجسم لها نصف أكمام ، تمرَّر من فوق القميص ، ويلبسون فوق تلك السترة ثوبا عريضا مخاطا من الأمام (لعله المعروف عند المغاربة بالقشابية ، وهى ثوب له أكمام يسلك فى العنق ويخاط من أمام ولا يترك منه إلا فتحة العنق) ويصنعون فوق هذا الثوب البرنس الذى وصفناه منذ قليل ، وقلنا إنه ينسج قطعة واحدة مع قلنسوته ولا تغطى الأذنين ، ويلفون فوق تلك القلنسوة عمامة

من قماش تُطْوَى مرتين حول الرأس وتمر من تحت اللحية ، ويلبسون سروالا من كتان ، ويضعون فى أقدامهم خُفًّا عندما يمتطون جيادهم شتاء . ويقول الوزان إن عامة الشعب يلبسون سترة وبُرْنُسًا بدون الثوب (القشابية) الذى تكلمنا عنه .وربما كان أدق من ذلك ما ذكره فى بلدان مغربية أخرى من أن أهلها يلبسون كساء من صوف غير مخيط يشتمل به الرجال والنساء على نحو ما نرى عند قدماء المصريين . يقول الوزان : « وللنساء هندامٌ حسن جدا ، ويلبسن فى الشتاء ثيابا عريضة الأكمام مخيطة من الأمام كأثواب الرجال ، ويلبسن فى الصيف قميصا يطوِّقنه بزنار ، وعندمايخرجن من بيوتهن يلبسن سراويل طويلة تغطى كل أرجلهن وخِمارا يغطى الرأس وسائر الجسم ، ويتغطَّى الوجه بقطعة قماش كتانى ، ويضعن فى آذانهن حلقات ذهبية كبيرة مرصَّعة بحجارة كريمة بديعة جدا ، ويضعن أساور ذهبية فى معاصمهن . أما النساء من غير الشريفات فيلبسن أساور من فضة ويضعن مثلها فى أرجلهن . ودائما يشير الوزان فى البلدان المختلفة بأن المرأة كانت تتزين بحلى فضية ، وكأنها كانت هى الحلى الشعبية الشائعة ، ومرَّ بنا فى الحديث عن سوق فاس ما كان به من دكاكين كثيرة لبيع الأقمشة الصوفية والكتانية والحريرية النسائية وما كان هناك من دكاكين لبيع النطاقات النسائية وكل فنون الزخرف من الزينة لملابسهن وكل أنواع العطارة والروائح الفائحة .

ويتحدث الحسن الوزان عن الغذاء فيقول إن عامة الشعب تتناول اللحم مرتين فى الأسبوع أما الأعيان والأغنياء فيتناولونه مرتين فى اليوم حسب شهيتهم . ولهم ثلاث وجبات يومية : وجبة الصباح وتتكون من خبز وحِساء من دقيق القمح وبعض الفواكه ، ووجبة الظهيرة وتتألف من خبز وجبن وزيتون وسلطة ، ووجبة المساء وتتألف من بعض الأطعمة ومن اللحم المسلوق ، والكسكسى وهم يواظبون عليه فى العشاء ، وقد يأكلونه فى الغداء ، وهو عجينة تحول إلى حبيبات ، وتطبخ بالبخار وعند نضجها تسقى بالسمن وبمواد مغلية مع اللحم .

وكان لابد للمرفهين فى المغرب الأقصى من لعب يقطعون بها أوقاتهم ، وقد اختاروا لعبتى الشطرنج والنرد يتسلَّون بهما ، ومعروف أن لعبة الشطرنج تمثل صورة الحرب ، فهى حرب بين جبهتين وفى كل جبهة ملك ووزير وبعض القواد وبياذق أو عسكر وطبية للدفاع عنها ، وتحاول كل جبهة التغلب على مقابلتها ، ويكتب النصر لإحداهما كما فى الحرب تماما . أما النرد فتدل خطوطه الأربعة والعشرون على عدد ساعات اليوم ونصف الخطوط تدل على عدد شهور السنة ، وحجارته السود والبيض هى الليالى والأيام ، وتدل قطعتا الزهر على حظوظ الناس فى دنياهم . وأنشأ ملوك فاس وسلاطينها لأهلها مسرحا لصراع الأسود ، وكان يصيدهم للسلطان فنَّاصو جبل زرهون . وكان المسرح ساحة واسعة يصطف حولها أهل فاس للفرجة ، وكانت تُصَفّ فى الساحة عدة صناديق كبيرة يتسع داخل كل منها لرجل يقف فيه ويتحرك بسهولة ، ولكل صندوق باب صغير ويجلس فيه رجل مسلح ، وعندئذ يطلق الأسد – كما يقول الوزان –

حرًّا فى الساحة ، ويقوم أحد الرجال بفتح صندوقه وينطلق إليه الأسد حين يراه ، حتى إذا دنا منه أغلق الباب ، وكل رجل يصنع نفس الصنيع مثله ، حتى يغضب الأسد بل حتى يمتلىء غضبا ويَشْتد به غضبه وثورته ، وحينئذ يدخل ثور إلى الساحة ، وتنشب بينه وبين الأسد معركة دامية شديدة العنف ، والجمهور يهرِّج ويصفق ، وإذا قتل الثور الأسد انتهى المشهد المسرحى عند ذلك ، وإذا قتل الأسد الثور يخرج إليه الرجال المسلحون من صناديقهم لمبارزته ، وهم عادة اثنا عشر رجلا ، ومع كل رجل حربة تنتهى بنصل من حديد طوله ذراع ونصف ، وإذا بدا تفوُّقهم على الأسد واضحا نقص السلطان عددهم ، وإذا بدا أن الأسد يتفوق على الرجال عمد السلطان ومن معه إلى تسديد سهام إليه من أعلى شرفاتهم خشية أن يفتك بأحد المصارعين ، فيموت . وبذلك تنتهى اللعبة بين تصفيق الجماهير وما يتصل به من هرجٍ ومرج ، ويمنح السلطان جائزة لكل مصارع : عشرة دنانير وكسوة جديدة .

(جـ) الموسيقى[1]

أول زمن للنهضة الموسيقية فى المغرب الأقصى كان زمن الدولة السعدية ، إذ لا نلتقى بأخبار عن الموسيقى وأصحابها قبل هذا الزمن فى القرن العاشر الهجرى المقابل للسادس عشر الميلادى ، ومن المعروف أنه كان بالأندلس نهضة موسيقية مبكرة ، غير أنها ظلت بعيدة عن المغرب الأقصى وظل لا يعرف عنها شيئا إلا حين نزل بعض أهله هناك واستمعوا إليها ، وكأنما انتظر المغرب الأقصى حتى اكتسحه الأندلسيون وهاجروا إليه هجرتهم الكبرى بعد سقوط غرناطة بأخرة من القرن التاسع الهجرى واتسعت هذه الهجرة – كما مر بنا – فى عهد فيليب الثالث لأوائل القرن الحادى عشر الهجرى ، على أن النهضة الموسيقية أخذت تزدهر منذ عهد السلطان عبد الله الوطاسى المرينى الملقب بالغالب (٩٦٤ – ٩٨١ هـ/ ١٥٥٧ – ١٥٧٤ م) إذ نجد الموسيقيين المغاربة يحافظون على إيقاعات الموسيقى الأندلسية بكل نوبها أو قطعها الموسيقية الكبيرة العشر ، وهى رمل الماية –الماية – رصد الذيل – الأصبهان – الرصد – غريبة الحسين – الحجاز الكبير – الحجاز الشرقى – عراق العجم – العشاق . ويتألق حينئذ اسم موسيقار كبير هو الحاج على البطلة من أهل فاس وحاشية السلطان عبد الله الوطاسى ، ويقال إنه أضاف إلى النوبات الكبيرة النوبة الحادية عشرة المسماة بالاستهلال ، وبذلك أصبحت إحدى عشرة ، وتبدأ النوبة بمقدمة موسيقية للجوقة يليها افتتاح على إحدى الآلات لرئيس الجوقة ثم توشية موسيقية للجوقة ، ثم تبدأ أنغام ميازين النوبة ، ولكل نوبة خمسة ميازين أوأقسام، وهى

(١) انظر كتاب الموسيقى الأندلسية المغربية للأستاذ عبد العزيز بن عبد الجليل (نشر المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت) وراجع كناش الحائك لمحمد بن الحسين الحائك (طبعة مصورة لورثة الحاج عبد السلام الرقيراق . طنجة ١٩٨١ م) .

البسيط والقائم والبطائحي والقدام والدرج. وتتخلل هذه الميازين بعض الإنشادات ينشدها موسيقار منفرد، وخاصة في الموسيقى المصاحبة لقصائد المولد النبوي وهي فيها تكون من رقيق أشعار المتصوفة مثل الششتري، وفي غيرها تشيد بإيقاعات الميزان المسماة بالطبوع وأحيانا تكون عزلا. والغرض من هذه الإنشادات الترويح عن المستمعين. والطبوع مفردها طبع وتقابل في الموسيقى الأندلسية المغربية كلمة مقام المعروفة في موسيقى المشرق العربي، ومنها مفرد وهو العشاق والحسين والحصار والزيركند والأصبهان والمزموم والرمل والرصد والعجم والمجنب، ومنها ممزوج، وهو عراق العرب وعراق العجم والحجاز المشرقي والصيكة أو سلم الرست.

وحاول الموسيقيون المغاربة منذ عهد الوطاسيين المرينيين تكملة النوب كما رأينا عند الموسيقار الحاج على البطلة بإضافته نوبة الاستهلال المغربية الجديدة. ومنذ زمنه أضاف المغاربة إلى الميازين – وكانت أربعة – ميزانا جديدا هو الدرج نشأ عن الغناء الشعبي المردد في حلقات الذكر بالزوايا. وأضافوا إلى ذلك بعض الآلات الموسيقية، من ذلك الآلات النحاسية في بعض الجوق العسكرية بالموكب السلطاني. واستمرت الآلات الوترية وفي مقدمتها العود والقانون، والآلات النقرية وفي مقدمتها الدف والرق وأضيفت إليهما الدربوكة المغربية، والآلات النفخ وفي مقدمتها الناي والمزامير. والفضل الأول في تسجيل هذه الموسيقى الأندلسية المغربية يرجع إلى محمد بن الحسين الحائك الذي أثارته الحمية لما يخشى على تلك الموسيقى من الضياع لألحانها وأنغامها فانبرى سنة ١٢١٤ هـ/١٨٠٠ م لتأليفه فيها « كناش الحائك » مسجلا فيه نوبات تلك الموسيقى البالغة بنوبة الحاج على البطلة إحدى عشرة نوبة والميازين الخمسة التي تتألف منها أجزاء النوبة، وطبوع هذه الميازين أو مقاماتها النغمية، ويذكر مع كل طبع أو مقام شواهد من عدة موشحات أندلسية ومغربية، وبذلك حافظت هذه الموسيقى على تلك الموشحات أو بعبارة أدق حافظ عليها الحائك، وبذلك كان عمله في كناشه مزدوجا فقد رسم فيه النظام الدقيق للموسيقى الأندلسية المغربية وحماه من الضياع كما أثبت فيه طائفة كبيرة من نصوص غنائية للموشحات الأندلسية والمغربية.

(د) المرأة[1]

كانت المرأة المغربية تحظى بشعور كريم بكرامتها، كما كانت تحظى بغير قليل من الحرية، وهي حرية قلما حظيت بها أختها في المشرق، وكان لذلك أثره في الحياة السياسية والثقافية، ومن أوائل ما يلقانا من ذلك ما ذكرناه عن أم البنين الفهرية التونسية وتبرعها العظيم لبناء جامع

(١) انظر في المرأة المغربية مواضع مختلفة في الجزء الأول من كتاب النبوغ المغربي في الأدب العربي للأستاذ عبد الله كنون، والقسم الثاني من السفر الثامن من كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لمحمد بن عبد الملك المراكشي (طبع الرباط).

القرويين بفاس الذى سرعان ما تحول إلى جامعة كبرى بفاس إلى اليوم . وكانت زوجة يوسف بن تاشفين سيدة حصيفة وكانت تدبر معه دفّة السياسة والحكم ، وكان رأيها دائما صائبا وانتفع بها فى حياتها فى تثبيت حكمه وملكه . وكانت لا تقل عنها حصافة وشعورا بالعزة زينب بنت إبراهيم بن تافلويت زوجة تميم بن يوسف بن تاشفين حاكم غرناطة والأندلس ، وكانت تجيز الشعراء ، ولابن خفاجة الشاعر الأندلسى فيها قصيدة طنانة ، ولها أعمال برٍّ كثيرة . وعلى شاكلتهما تميمة بنت سيد المرابطين يوسف بن تاشفين كانت من أهل الخير والصدقات . ومن فضلياتهن حواء بنت أخى يوسف بن تاشفين ، زوجة سير بن أبى بكر الذى ظل واليا على إشبيلية سبعا وعشرين سنة حتى سنة ٥٠٧ وكانت تقيم فى قصرها ندوة أسبوعية تحاضر فيها شعراء إشبيلية وتنقد بعض أشعارهم ، وتسبغ عليهم جوائز وعطايا كثيرة ، وللأعمى التطيلى فى مدحها قصيدة بديعة مذكورة بترجمته فى كتابنا عن الأندلس . ومن السيدات الفضليات فى عهد الموحدين زينب بنت يوسف بن عبد المؤمن سلطان الموحدين زوجة ابن عمها أبى زيد بن أبى حفص تتلمذت فى علم الكلام لأبى عبد الله بن إبراهيم الأصولى وكانت عالمة نابهة الشأن . ومنهن من سيدات الشعب خيرونة الأشعرية ولها فضل فى نشر المذهب الأشعرى بين نساء مراكش ، ومنهن فى علم الحديث مريم بنت أبى الحسن صاحب المدرسة بسبتة ، ومن المتصوفات – وهن كثيرات – منية بنت ميمون الدكالية ، ومن الأديبات من بيت الحكام الموحدين رُمَيْلة ، ومن سيدات الشعب أمة العزيز بنت أبى محمد بن الحسن الفاسية وحفصة بنت القاضى أبى حفص بن عمر وأم النساء بنت التاجر الفاسى وكانت أديبة شاعرة . ومن السيدات الفضليات النابغات زمن المرينيين فى العلوم الدينية الفقيهة أم هانىء بنت محمد العبدوسى والفقيهة أم البنين جدة الشيخ زروق ورحمة بنت الجنّان والدة الشيخ ابن غازى وغيرهن كثيرات فى الفقه والحديث النبوى ، ومن الأديبات أم الحسن بنت أحمد الطنجالى وصفية العزفية من بيت العزفيين وصبح زوجة أحمد بن شعيب الجزنائى ، واشتهرت فى الطب عائشة بنت الجيار السبتية . وبذلك لم يعد الطب خاصا بنساء بنى زهر كما كان الشأن فى عصر الموحدين ، فقد انتقلت معرفته والحذق فيه إلى النساء المغربيات فى العصر المرينى . ويذكر الوزان الذى زار منطقة درعة فى عصر الوطاسيين المرينيين نحو سنة ٩٢٠ هـ/١٥١٤ م أن نساءها يتعلمن ويقمن بدور معلمات المدارس للفتيات والفتيان . وحرى بنا أن نذكر فى عهد الوطاسيين السيدة عائشة بنت على ابن راشد مختطّ مدينة شفشاون لتحصين ناحيتها من نصارى سبتة ، وقد تزوجت حاكم مدينة تطوان وتوفىً فحكمت تطوان بعده وضبطتها خير ضبط وتصدَّت لنصارى سبتة بذكاء ودهاء وحسن سياسة وأعجب بشجاعتها السلطان أحمد الوطاسى فاقترن بها سنة ٩٤٨ هـ/١٥٤١ م .

ونلتقى فى عصر السعديين بسيدات فضليات كثيرات ، منهن سحابة الرحمانية السفيرة

إلى الآستانة ببشرى فتح تونس للدولة العثمانية طالبة جزاء حمل تلك البشارة مساعدة ابنها عبد الملك بكتيبة عثمانية من الجزائر فى استعادة ملك والده وأجابتها الدولة العثمانية ، واستولى على صولجان الملك . وأبدت أخته مريم بسالة عظيمة فى قيادتها بقصبة مراكش لثلاثة آلاف جندى من الرماة تحقق بهم النصر لأخيها عبد الملك . واشتهرت مسعودة الوزكيتية والدة المنصور الذهبى بأعمال خيرية كثيرة ، ومن منشآتها الخالدة بمراكش المسجد الجامع بباب دُكالة ، واشتهرت بالعلم والتقوى عائشة بنت أحمد بن عمران والدة ابن عسكر المؤرخ المعروف . ومن السيدات الفضليات فى عهد السعديين العريفة بنت خجوّ ولها فضل فى تعليم الأسرة السعدية الصورة الحضارية للملابس والطعام والتعامل مع النساء إذ كانوا قد جاءوا إلى فاس من البدو . ومن السيدات الفضليات فى عصر العلويين السيدة خناثة بنت بكار زوجة السلطان إسماعيل ، وكانت فقيهة عالمة وأديبة بارعة ، وكانت حصيفة تحسن إبداء الرأى وعرضه ، وكانت نعم الوزير لزوجها تشير عليه دائما بالرأى الصائب ، وحجت وأكثرت فى حجها من الصدقات وأعمال البر والخير ، توفيت سنة ١١٥٩ هـ/١٧٤٦ م . ومن السيدات الفقيهات العالمات زوجة المختار الكنتى المتوفاة سنة ١٢٢٤ هـ/١٨١٠ م وكانت تدرس للنساء مختصر خليل بن إسحق المصرى فى الفقه المالكى بينما كان زوجها المختار بن أبى بكر الكنتى يدرسه للرجال ، وترجم لهما فى كتاب واحد ابنهما محمد ، وسمى كتابه : الطارفة والتالدة فى مناقب الشيخ الوالد والشيخة الوالدة . ويذكر الأستاذ عبد الله كنون أنه كان هناك دائما معلمات فى مجال التعليم الأولى يعلمن البنات والأولاد الصغار الكتابة والقراءة والقرآن الكريم ومبادىء العلوم الضرورية ، ولم يكن يخلوحى فى المدن من دار فقيهة تنهض بهذا التعليم مما يدل على الدور العظيم الذى كانت تقوم به المرأة المغربية فى تعليم النَّشء ونشر المعرفة .

٤

المالكية – الصفرية – المعتزلة – الظاهرية

(أ) المالكية

كان المغرب الأقصى يقتدى بإفريقية التونسية طوال القرون الإسلامية الثلاثة الأولى ، إذ كانت تعتبر الرائد للمغرب جميعه ، وكان علماؤها فى القرن الهجرى الثانى يرحلون فى كل عام لأداء فريضة الحج ، وكانت المدينة حتى زمن مالك تُعَد دار الفقه ، وكان مالك نفسه إماما كبيرا من أئمته ، يلقى فيه دروسه ويؤلف فيه كتابه الموطأ ، فكان علماء إفريقية يقصدونه لأخذ الفقه عنه وأخذ كتابه الموطأ ، وخلفه تلاميذه المصريون – وفى مقدمتهم عبد الرحمن

ابن القاسم – فكان الطلاب يرحلون إليه ويتلمذون عليه كما رحلوا وتتلمذوا على أئمة الفقه المالكى بعده فى مصر . فكان ذلك سبب ازدهار المذهب المالكى فى إفريقية التونسية ، وكان كتاب الموطأ قد حُمل إليها فكان يدرس فيها ويدرس معه كتاب فى المذهب لتلميذه عبد الرحمن بن القاسم الذى فرَّع فيه فروعا كثيرة . سماه المدونة وحملها عنه سحنون إلى تلاميذه فى موطنه ونسبت إليه باسم مدوَّنة سحنون . وأخذ التلامذة من تونس إلى المحيط الأطلسى يقدمون إلى القيروان للتلمذة على سحنون وأضرابه من حملة الفقه المالكى بعد وفاته سنة ٢٤٠ هـ/٨٥٤ م . وكانوا يعودون إلى مواطنهم فى المغرب الأقصى فيدرسون للطلاب المذهب المالكى ويشيعونه بين الناس فى بلدانهم ، وأظن ظنا أن إدريس منشىء الدولة الإدريسية ومَنْ خلفه من أبنائه وأحفاده كانوا يدفعون رعاياهم فى المغرب الأقصى بفاس وغير فاس إلى التفقه بمذهب مالك دون غيره من المذاهب لموقفه المعروف مع محمد النفس الزكية حين أعلن بمكة الثورة على المنصور ، إذ أفتى الناس بالتحلل من بيعة الخليفة المنصور ومبايعة النفس الزكية محمد بن عبد الله سليل الحسن بن على بن أبى طالب سنة ١٤٥ هـ/٧٦٢ م وفى السنة التالية بعد القضاء على ثورة النفس الزكية استدعى جعفر بن سليمان والى المدينة مالكا وجرَّده من ثيابه ، وضربه بالسياط عقابا على فتواه . وفرَّ عقب إخفاق ثورة النفس الزكية عمه إدريس إلى المغرب الأقصى واستطاع تأسيس الدولة الإدريسية ، فكان طبيعيا أن يرعى لمالك الفقيه الكبير فتواه لابن أخيه ، وأن يدفع الناس والعلماء والطلاب إلى التفقه بمذهبه ، مما جعل المذهب المالكى يشيع هناك بقوة منذ القرن الثالث الهجرى .

ونحن لا نصل إلى القرن الرابع الهجرى حتى يصبح للمغرب الأقصى أعلامه فى الفقه المالكى الذى يدرسونه فى المدن وفى القبائل المختلفة ، ومنهم أبو هرون البصرى الذى أدخل كتاب ابن المواز الفقيه المالكى المصرى إلى المغرب الأقصى لأول مرة وأيوب بن محمد فقيه المصامدة وأبى القاسم بن محرز فقيه الملثمين وعثمان بن مالك فقيه فاس ، وله تعليق على مدونة سحنون ، ودراس بن إسماعيل الفاسى تلميذ أبى بكر بن اللباد شيخ فقهاء المالكية بالقيروان فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، وله رحلة إلى المشرق حمل فيها من الإسكندرية كتاب ابن المواز ، وعبد الرحيم الكتامى تلميذ فقيه القيروان فى النصف الثانى من القرن الرابع : ابن أبى زيد وأخذ عنه كتابيه : النوادر والمختصر . وينشط المغرب الأقصى فى دارسة الفقه المالكى لعهد المرابطين ، وكانوا يعينون فقيها مالكيا مع كل والٍ لملاءمة الأحكام فى عهده للشرع . وسنعود للحديث عن نشاط الفقه المالكى لهذا العهد فى الفصل المقبل ، ويضعف هذا النشاط فى عصر الموحدين لعنايتهم بنشر المذهب الظاهرى ، وسنخص هذه العناية بحديث فى غير هذا الموضع ، ويعود إلى المذهب المالكى نشاطه وازدهاره فى العصور التالية حتى العصر الحديث .

(ب) الصفرية[1]

معروف أنه تولى المغرب من طرابلس إلى المحيط فى القرن الأول الهجرى ولاة عظام طبقوا فيه تعاليم الإسلام القاضية بالمساواة بين العرب وغيرهم من الشعوب التى دخلت فى الإسلام ، وقد رأينا حسان بن النعمان (٧١ هـ/ ٦٩٠ م - ٨٦ هـ/ ٧٠٥ م) بعد انتصاره الحاسم على الكاهنة يُدْخل من قومها فى جيشه كتيبة من اثنى عشر ألف رجل تجاهد مع العرب فى سبيل الله ، وليس ذلك فحسب ، فإنه ولّى أكبر أبناء الكاهنة على قومه فى جبل أوراس وبذلك ملك قلوب المغاربة ودانوا له بالطاعة حتى المحيط ، وخلفه موسى بن نصير (٨٦ هـ/ ٧٠٥ م - ٩٦ هـ/ ٧١٤ م) فوضع التنظيم الإدارى للمغرب وجعله خمس ولايات وخامستها هى المغرب الأقصى ماعدا السوس وجعل عليها واليا بربريا هو طارق بن زياد وعاصمتها طنجة ، فلم يعد هناك فارق بين أن يكون الوالى لأى ولاية عربيا أو بربريا مغربيا ، وكلفه بأن يفتح إيبريا ، فأعدَّ جيشا أكثره من البربر نحو اثنى عشر ألف جندى ، وفتح الله له الجزء الجنوبى من إيبيريا ولحقه موسى بن نصير وأتما الفتوح معا . ومعنى ذلك أنه تم فى عهد موسى بن نصير رفع جميع الفوارق بين العرب والبربر ، فقد أصبحوا جميعا متساوين فى حكم الولايات وقيادة الجيوش والجهاد فى سبيل الله ، وبذلك لم يصبح فتح الديار المغربية من برقة إلى المحيط فتحا حربيا ابتغاء المكاسب الدنيوية ، بل أصبح فتحا عقائديا لنشر الدين الحنيف وما ينبغى أن يستشعره أتباعه عربا وغير عرب من الأخوة فى إعلاء كلمة الله .

ومُنيت الأمة الإسلامية بعد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز بخلفاء أمويين منذ السنة الأولى فى القرن الثانى الهجرى ليسوا فى مستوى أمانة الحكم التى ينبغى أن يتحملوها ، فقد ولى الخلافة يزيد بن عبد الملك ، وسرعان ما ولّى على المغرب يزيد بن أبى مسلم صاحب شرطة الحجاج فتعسف مع البربر فى جمع الضرائب ناسيا أن البربر أصبحوا رفقاء سلاح مع العرب ، فقتلوه . وتوالى فى عهد أخيه هشام بن عبد الملك (١٠٥هـ/٧٢٣م - ١٢٥ هـ/ ٧٤٢م) ولاة ليسوا فى مستوى المهمة ، كان آخر المتعسفين منهم عبيد الله بن الحبحاب فأرهق المغاربة هو وعماله بالضرائب وبلغ من سفه عامله على طنجة أن أعلن أنه عازم على تخميس أراضى المغرب الأقصى أى أخذ خمسها للدولة . وبينما صَبْرُ المغاربة يكاد ينفد إذا بدعاة مذهبى الصفرية والإباضية ينتشرون بينهم يدعونهم إلى الدخول فى عقيدتهم التى تناقض عقيدة حكام بنى أمية وترى فى استيلائهم على الخلافة عدوانا على الأمة ، إذ ينبغى أن يكون اختيار الخليفة متحررا من كل قيد فلا يقصر على قريش ، بل يتولاها أشد الناس خوفا من الله وأكثرهم طاعة له وأحرصهم على الاستمساك بالدين وطاعة الله واتباع أحكام الإسلام ، ولو كان

(١) انظر فى مذهب الصفرية الملل والنحل للشهرستانى.

بربريا بل لو كان عبدا حبشيا . وأخذوا يحضونهم على كفاح بنى أمية وعمالهم ووصفوهم بالفسق والمعصية ، واستجاب جبل نفوسة فى طرابلس للإباضية ، بينما استجاب المغرب الأقصى للصفرية وكانوا أكثر تطرفا من الإباضية إذ كانوا يكفرون مرتكب الكبيرة ويوجبون قتله ، وعدّوا دار المسلمين دار حرب واستحلوا دماءهم وأموالهم وقتل نسائهم وذراريهم . ومرّ بنا حديث عن ثورتهم فى شمالى المغرب الأقصى بقيادة ميسرة رئيس مضغرة ثم خالد بن حميد الزناتى وانتصارهم على جيوش عبيد الله بن الحبحاب والوالى الأموى بعده كلثوم بن عياض القشيرى ، ثم ما كان من انتصار الوالى الأموى حنظلة بن صفوان على جيشين صفريين ، وأخيرا انتصار أبى الخطاب عبد الأعلى إمام الإباضية على قبيلة ورفجومة الصفرية حين استولت على القيروان ونكلت بأهلها ، وفى أثناء ذلك ينسحب سمكو بن واسول إلى سجلماسة وينشىء بها دولة صفرية كما مر بنا . ويبدو أن بقية المغرب الأقصى أخذت تنفر من عقيدة الصفرية ، وساعدت دولة الأدارسة الناس هناك فى القضاء عليها بتلك الأنحاء .

(جـ) المعتزلة[1]

كان واصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال فى البصرة من أكبر الوعاظ فى عصره إن لم يكن أكبرهم ، وقد جعل للاعتزال أسسا خمسة ظلت قائمة فيه بعده ، وهى الوحدانية صفة ثابتة لله ، بحيث لا يشبه المخلوقات بأى صورة فليس كمثله شىء ، وما جاء فى القرآن الكريم والحديث النبوى مما قد يفيد تشبيها يجب تأويله ، مثل (يد الله فوق أيديهم) فمعناها قدرة الله فوق قدرتهم ، ثم هو واحد فصفاته مثل السميع ، البصير هى نفس ذاته . وأساس ثان أو مبدأ ثان هو العدل على الله ، ولذلك ينبغى أن يكفل لعباده ما هو أصلح لهم تحقيقا لسعادتهم . وأساس ثالث هو إنفاذ وعده للمؤمنين بأن لهم الثواب والنعيم المقيم والوعيد للكفار الآثمين بالعقاب وعذاب النار ، وأساس رابع هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إذ لا يحل لمسلم أن يسكت على جرم أو إثم ، وواجب عليه أن يأمر بكل ما هو خير . وأساس خامس هو أن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين منزلتى الإيمان والكفر ، واختلفت فى ذلك الجماعة الإسلامية اختلافا كبيرا ، فكانت المرجئة تعده مؤمنا وأهل السنة يعدونه مؤمنا فاسقا والخوارج : الصفرية والأزارقة يعدونه كافرا إذ يرون العمل جزءا لا يتجزأ من الإيمان ، أما واصل فكان يجعله فى منزلة وسطى بين الإيمان والكفر . وكان ماينى يخطب فى شباب البصرة واعظا ومؤيدا آراءه بالحجج والأدلة العقلية ، وفُتن به الشباب وأصبح له بينهم أتباع وأنصار كثيرون امتلأوا حماسة لدعوته الاعتزالية ، فرأى أن يتخذ منهم نفرا يتميز باللسن والفصاحة والخطابة والوعظ كما يتميز بالقدرة الجدلية على الدعوة للمبادىء الاعتزالية ، وفرّقهم

(١) انظر فى المعتزلة الملل والنحل للشهرستانى ص ٣١ وطبقات المعتزلة بتحقيق الأستاذ فؤاد سيد ص ٦٧ ، وكتابنا العصر العباسى الأول ص ١٣٤ وفضل الاعتزال ١١٠ ، ٢٢٧ ، ٢٣٧ .

على بلدان مختلفة من العالم الإسلامى ، وإلى ذلك يشير تلميذه صفوان الأنصارى فى مدحه له قائلا :

له خَلْفَ شعبِ الصِّين في كل ثُغْرَةٍ ... إلى سوسها الأقصى وخلفَ البرابرِ
رجالٌ دعاةٌ لا يَفُلُّ عزيمَهم ... تهكُّمُ جبارٍ ولا كيدُ ماكرِ
وأوتادُ أرضِ الله فى كل بلدةٍ ... وموضعُ فُتْياها وعلمِ التشاجر

فهو قد أرسل دعاته الذين يفحمون خصومهم بالبراهين السديدة ويَغْلبون عليهم كلما ناظروهم أو جادلوهم ويقول إن منهم دعاة تغلغلوا فى بلاد البربر إلى منطقة السوس . وفى كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة أن واصلا أنفذ إلى المغرب تلميذه عبد الله بن الحارث فتبعه الخلق ، وفيه أن المعتزلة حاربت مع إبراهيم بن عبد الله أخى النفس الزكية حين ثار على أبى جعفر المنصور وأن بشيرا الرحال المعتزلى قتل معه فى موقعة باخمرا سنة ١٤٥ هـ وأن أبناءه لحقوا بالمغرب وغلبوا على مدن فيه أظهروا فيها دعوة الاعتزال . وفى الكتاب نفسه أن للمعتزلة فى بلد تدعى البيضاء مائة ألف يحملون السلاح يُعْرَفون بالواصلية ، وفيه أيضا أنهم كثيرون فى طنجة ، وأن رئيسهم هناك إسحق بن محمود بن عبد الحميد هو الذى أيد إدريس بن عبد الله مؤسس الدولة الإدريسية حين ورد عليه وأنه أدخله فى الاعتزال وكأن الدولة كانت دولة معتزلة ، وأظن فى ذلك ضربا من المبالغة وكانوا كثيرين فى بلاد إدريس الثانى ، ولعله كان يعطف عليهم لنصرة أسلافهم لإبراهيم بن عبد الله أخى النفس الزكية ، ونجد ابنه محمدا يبنى جنوبى مدينة القصر الكبير مدينة يسميها البصرة ، ولعله بناها لهم ذكرى لمدينة أستاذهم واصل بن عطاء ومرَّ بنا فى الجزائر حديث مماثل عن المعتزلة ، ولم يفكروا هنا ولا هناك فى دولة أو ما يشبه الدولة .

(د) الظاهرية[1]

الظاهرية أو أصحاب المذهب الظاهرى ينسبون إلى أبى سليمان داود بن على بن خلف الأصبهانى الظاهرى المتوفى سنة ٢٧٠ للهجرة وكان فى أول أمره فقيها شافعيا يتعصب لمذهب الإمام الشافعى تعصبا شديدا ، ثم استقل عنه وأسس له مذهبا سمى مذهب أهل الظاهر ، وهو مذهب أساسه إنكار القياس فى الفقه ومسائل التشريع ، لأن القياس عقلى والدين إلهى ولا يحتكم فى الإلهى أو ما هو إلهى إلى العقل أو ما هو عقلى ، ويكفى لبيان الأحكام التشريعية ما فى القرآن الكريم والحديث النبوى من عموم ، وتأسيسا على ذلك ينبغى الوقوف عند ظاهر الكتاب

(١) انظر النصوص الواردة فى المعيار للونشريسى (طبعة حجرية بفاس) ٣٦١/٢ وروض القرطاس لابن أبى زرع ١٩٥ والمعجب للمراكشى (طبعة القاهرة) ص ٣٥٤ وما بعدها ووفيات الأعيان لابن خلكان : ترجمة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن .

والسنة وإغلاق الأبواب أمام القياس وجميع الآراء التى تُبْنَى عليه . وكُتِبَ لهذا المذهب أن يتحمس له عقل أندلسى هو عقل على بن أحمد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ/١٠٦٣ م وكان قد بدأ حياته الفقهية بدراسة مذهب مالك ثم تركه إلى مذهب الإمام الشافعى ثم آثر على مذهبيهما مذهب داود الظاهرى ، ولابن حزم فى الاحتجاج له ضد الأحناف والشافعية كتاب الإبطال للأصول الخمسة التى يأخذون بها ، وهى القياس والرأى والاستحسان والتقليد والتعليل ، فكل ذلك يجب إبطاله والاكتفاء بالكتاب والسنة .

وقد ازدهر هذا المذهب الظاهرى فى عصر دولة الموحدين ، إذ كانت تتخذه مذهبا فقهيا لها من دون المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة لمالك وأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل ، وحاول الأستاذ عبد الله كنون فى الجزء الأول من كتابه : « النبوغ المغربى فى الأدب العربى » الاستدلال بأن خلفاءهم أو حكامهم كانوا يدعون إلى الاجتهاد كأنه بذلك يريد نفى اعتناقهم لعقيدة الظاهرية ، ولا نستطيع أن نبطل شهادات القدماء الكثيرة بأن الموحدين كانوا ظاهرية ، من ذلك أن الونشريسى فى كتابه المعيار نعت ابن تومرت بأنه ظاهرى وأن ابن أبى زرع فى روض القرطاس فى سنة خمسين وخمسمائة يقول إن عبد المؤمن أمر بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة كتب الحديث أى أنه أمر بتحريق كتب المذاهب الفقهية الأربعة والاكتفاء بكتب الحديث ومعها القرآن طبعا وهى نفس نظرية المذهب الظاهرى ، وفى المعجب يقول الحافظ أبو بكر بن الجد : « لما دخلت على أمير المؤمنين أبى يعقوب (يوسف) أول دخلة دخلت عليه وجدت بين يديه كتاب ابن يونس (فى الفقه المالكى) فقال لى : يا أبا بكر أنا أنظر فى هذه الآراء المتشعبة التى أُحْدثت فى دين الله ، أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا فأى هذه الأقوال هو الحق ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك ، فقال لى – وقطع كلامى : يا أبا بكر : ليس إلا هذا وأشار إلى المصحف أو هذا وأشار إلى كتاب سنن أبى داود وكان عن يمينه ، أو السيف » . ويذكر صاحب المعجب أن ابنه يعقوب المنصور أمر بحرق كتب المذاهب الأربعة لمالك وأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل بعد أن يجرَّد ما فيها من حديث رسول الله ﷺ والقرآن ففُعل ذلك ، فأحرق منها جملة فى سائر البلاد كمدوَّنة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبى زيد ومختصره وكتاب التهذيب للبراذعى وواضحة ابن حبيب وماجانس هذه الكتب ونحا نحوها . ولقد شاهدت – أنا يومئذ بمدينة فاس – يؤتى منها الأحمال فتوضع وتطلق فيها النار » ويعلق صاحب المعجب على ذلك بقوله : « كان قصده فى الجملة نحو مذهب مالك من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث » ويقول ابن خلكان : « إنه أمر

برفض فروع الفقه كما أمر الفقهاء بأن لا يفتوا إلا بالكتاب والسنة النبوية ولا يقلدوا أحدا من الأئمة المجتهدين القدماء بل تكون أحكامهم بما يؤدى إليه اجتهادهم » . ولعل فى ذلك كله ما يثبت ثبوتا قاطعا أن دولة الموحدين كانت تعمل على نشر المذهب الظاهرى وتأمر العلماء برفض ماعداه من المذاهب ، وبحق يقول عبد الرحمن الفاسى فى كتابه بيوتات فاس : « إن ملوك الموحدين قد تحلوا بالمذهب المعروف لهم من إنكار الرأى فى الفروع الفقهية والعمل شرعا على محض الظاهرية ، وجرَوْا على ذلك سنين بطول إيالتهم (حكمهم) إلى أن انقرضوا ، أولهم فى ذلك مهديهم (ابن تومرت) أول ملوكهم» . وبمجرد أن انتهت دولة الموحدين عاد المذهب المالكى فى المغرب الأقصى إلى النشاط والازدهار حتى اليوم .

٥

الزهاد – المتصوفة

(أ) الزهاد

المسلمون من قديم – يستشعرون الزهد فى حطام الدنيا ومتاعها الفانى أملا فى السعادة بالدار الآخرة يوم القيامة ، يوم يحاسب كل امرىء على ما قدمت يداه ، فإن كان عمله صالحا وازدرى الدنيا وأقبل فيها على الزهد والتقشف كان جزاؤه من ثواب الله موفورا وسعد فى آخرته السعادة الكبرى . وكان ذلك شعار الصحابة فى الفتوح ، فهم لا يفتحون البلاد طلبا للمغانم وإنما لإعلاء دين الله ، ودائما نسمع بينهم عن كثير من الأتقياء ، فالآخرة هى التى تهمهم ، ولم يكونوا زاهدين زهدا متطرفا ينسيهم الدنيا والعمل فيها ، بل كان غالبا زهدا معتدلا يعتد بالمصالح الدنيوية مع الاتجاه إلى الله ، مما جعلهم ينفقون أموالهم فى أعمال البر وعَوْن الفقراء . ونجد هذا الزهد شائعا فى العالم الإسلامى . وقليلا قليلا أخذ أناس يستشعرون الزهد الخالص ، ويعيشون له منقطعين لعبادة ربهم ، ويمكن أن نجد أمثلة منهم فى جبال المغرب الأقصى الكثيرة حيث يعيشون على ما بها من ماء وثمار . وكان بين فقهاء المدن وأهلها أيضا كثيرون من هؤلاء الصلحاء الزهاد ، ونضرب مثلا لهم القاضى ابن محسود[1] الحوارى وكان من قضاة العدل وأئمة الفضل زاهدا فى الدنيا مقبلا على الله تعالى على قدم التجريد ، ولما مات لم يترك غير سجادة مصلاه وقَعْب يتوضأ فيه ومصحفه الذى كان يتلو فيه كتاب الله . ونضرب مثلا ثانيا بالتاجر محمد بن إبراهيم المهدوى الفاسى الزاهد صاحب كتاب الهداية الذى أقام بجامع القرويين أربعين سنة لم تفته فيها صلاة جماعة ، وكان يملك أربعين ألف

(١) انظر فيه وفيمن يليه من الزهاد القرطاس لابن أبى زرع ص ١١٧ ، ١٧٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠–٢٧٢ وفى هامش القرطاس مع ابن محسود وأبى جبل وابن حرزهم وعثمان السلالجى ويسكر . ومن مراجع تراجمهم التشوف وجذوة الاقتباس وسلوة الأنفاس .

دينار أنفقها كلها فى سبيل الخير ، وأصابت أهلَ مدينته : فاس مجاعة وكان عنده ألف وَسْق (حمل بعير) من تمر فباعه كله للمحتاجين الضعاف بوثائق وأخرهم بالثمن إلى أجل ، فلمّا حل الأجل استدعاهم إلى منزله ، فرمى بالوثائق جميعا فى الماء ، وقال لهم : أنتم منها الآن فى حِلٍّ ، فإنى ما بعت لكم ولا أعطيتكم إلا مال الله تعالى . وينتعش الزهد فى عصر المرابطين ، ونشعر إزاء كثيرين من زهاد هذا العصر أنهم كانوا مقدمات لانتشار نزعة التصوف فى المغرب الأقصى مثل أبى جبل المتوفى سنة ٥٠٣ هـ/ ١١١٠ م وكان كثير السياحة فى الأرض . ويتكاثر الزهاد فى عصر الموحدين مثل ابن حرزهم المتوفى سنة ٥٥٩ هـ وأبى عبد الله السلالجى الأصولى المتوفى سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٨ م ومثل يسكر الغفجومى المتوفى سنة ٥٩٨ وكان ورعا فاضلا ومثل أبى عبد الله المعروف بابن تخميست المتوفى سنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م وكان كثير الورع شديد الانقباض عن الناس . ويكتظ كتاب التشوف إلى معرفة رجال التصوف لابن الزيات يوسف بن يحيى المتوفى سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م بكثيرين من الزهاد ، ألفه سنة ٦١٧ هـ/١٢٢٠ م وهو يشتمل على مائتين وسبع وسبعين ترجمة أكثرهم من أهل مراكش ، غير أنه لم يترك بلدا فى المغرب الأقصى إلا ذكر منها رجالا ، ويسميهم فى مقدمته صلحاء ، وهم فى جمهورهم زهاد ونساك المغرب الأقصى حتى زمنه . وحرى بنا أن نذكر أن الشعراء أخذوا يفردون للزهد بابا فى دواوينهم على نحو ما نجد عند أبى الربيع الموحدى . وكما يقفنا كتاب التشوف على الزهاد فى عصر الموحدين نجد عبد الحق بن إسماعيل يؤلف فى العهد المرينى بأخرة من القرن السابع كتابا عن صلحاء أو زهاد الريف ، وفى الجزء الثانى من كتاب الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى للأستاذ محمد بن تاويت تحليل له ، وهو يرمز إلى اطراد الزهد فى عصر المرينيين ، وظل مطردا فى عصر السعديين ويذكر الأستاذ كنون منهم الحبطى الطنجى عبد الله بن محمد المتوفى سنة ٩٦٣ هـ/١٥٥٦ م وينقل عن الدوحة أنه كان آية من آيات الله تعالى فى الزهد واتباع السنة والانزواء عن الدنيا وتعليم العلم ، ومثله ابن خجو المتوفى سنة ٩٥٦هـ/١٥٤٩م ويظل للزهد رجاله المشهورون فى عصر العلويين .

(ب) المتصوفة

من قديم أخذ كثيرون من زهاد الأمة وأتقيائها يبالغون فى نسكهم فارضين على أنفسهم تلاوة القرآن وذكر الله وتسبيحه ، كما فرضوا على أنفسهم المبالغة فى التوكل على الله والثقة به ، ثقة تملأ النفس طمأنينة . ومع مرور الزمن أخذ كثيرون من هؤلاء الواثقين المتوكلين يهملون أمور الدنيا ومعاشهم ، فهم لا يهتمون بكسب القوت ، لأن السعى له يفضى إلى فقدان التوكل والثقة فى الله ، ومع الزمن أخذوا ينبذون طيبات الدنيا ومباهجها مرددين قول الرسول ﷺ : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا (جائعة) وتروح بطانا (ممتلئة) » . وأخذ هذا التعمق فى التوكل والثقة بالله يتحول تدريجا إلى نزعة التصوف ،

ويقال إن مؤسسها هو الحارث بن أسد المحاسبى البغدادى المتوفى سنة ٢٤٣ هـ/٨٥٧ م ويقال بل مؤسسها الذى أودع فيها فكرة الحب الإلهى ذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م . ولم يلبث أن ظهر الحلاج فى مطلع القرن الرابع الهجرى وظهر معه التصوف الفلسفى وكل ما يتصل به من أفكار الحلول والاتحاد مع الله ، وتظل أفكاره تشيع بين المتصوفة وتكون سببا فى القطيعة بين الفقهاء والمتصوفة إذ يرمونهم بالكفر إلى أن ظهر القشيرى والغزالى فى القرن الخامس الهجرى ، وأصلحا ما بين الفئتين ، وانقسم التصوف منذ هذا التاريخ إلى تصوف فلسفى به إشعاعات من أفكار الحلاج ، وتصوف سنى أخذت تتكون فيه وتشيع طرق صوفية سنية مثل طريقة عبد القادر الجيلانى وأحمد الرفاعى . وأخذت الأندلس تتأثر بالتصوف على نحو ما هو معروف عن ابن مسرة ، وبعده عند ابن برجان وابن العريف ، ثم عند الشوذى وابن عربى وابن سبعين والششترى على ما نحو ما أوضحنا ذلك فى كتابنا عن الأندلس . أما المغرب الأقصى فإنما شاع فيه التصوف السنى وما يمثله من مثل طريقة أبى الحسن الشاذلى .

وأول ذكر لمتصوفة المغرب نجده عند بعض من ترجموا لنساكه ، وكان جمهورهم – فى رأيى – نساكا يقصرون حياتهم على النسك والعبادة ، ومنهم كما جاء فى كتاب النبوغ المغربى ابن حرزهم على بن إسماعيل المذكور بين الزهاد . وقد تعلم على يديه أبو مدين الصوفى المشهور وقرأ عليه كتاب الرعاية للمحاسبى . ونظن أنه كان عابدا ناسكا فحسب ، إذ يقول مترجمو أبى مدين أنه أخذ التصوف عن أبى عبد الله الدقاق الصوفى لا عنه . ومنهم أبو العباس السبتى المتوفى سنة ٦٠١ هـ/١٢٠٤ م ، وكان لا يترك لنفسه شيئا إلا قدر ما يقوته هو وأسرته فى يومه والباقى يتصدق به ، وكان ناسكا وِرْده القرآن يتلوه آناء الليل وأطراف النهار ، وكان بارًّا باليتامى والمساكين . وهى حياة زاهد فى رأيى لا صوفى . ومثله عبد السلام بن مشيش الحسنى وكان تقيا صالحا عالما ، وسأله سائل عن أوراد يعمل بها ظانا أن له وردا مثل الصوفية ، فقال مستنكرا أرسول أنا ؟ الفرائض مشهورة ، والمحرمات معلومة ، فكن للفرائض حافظا وللمعاصى رافضا واحفظ نفسك من ابتغاء الدنيا وحب النساء وحب الجاه وإيثار الشهوات واقنع بما قسم الله لك ، وهى إجابة زاهد لا صوفى ، وإن كان قد درس على يديه الشاذلى صاحب الطريقة الصوفية المشهورة . ومثله أبو الحسن المسفِّر معاصره وإن كان قد ذكر ابن عربى أنه لقيه فى كتابه « محاضرات الأبرار » لأن مجرد لقاء ابن عربى له لا يدل حتما على أنه صوفى ، إنما هو ناسك . وربما كان الصوفى الحقيقى فى عصر الموحدين يلنور بن ميمون أبو يعزى[1] المتوفى سنة ٥٧٢ هـ/١١٧٦ م عن مائة وثلاثين سنة ، أمضى منها عشرين سنة سائحا فى الجبال بمنطقة مراكش ، ثم رحل إلى ساحل المحيط فأقام به ثمانى عشرة سنة لا يأكل إلا من نبات

(١) انظر فى أبى يعزى روض القرطاس ص ٢٦٧ وجذوة الاقتباس لابن القاضى ص ٣٥٤ .

الأرض . وإنما نرجح أنه كان صوفيا لأن مترجمي أبي مدين الصوفي المشهور يقولون إنه سلك الطريقة الصوفية على شيخ المشايخ أبي يعزى إلى أن وصل وحقق وأدرك ، ومن الصوفيين المشهورين في عصر المرينيين الشيخ زرّوق[1] المتوفى سنة ٨٦٩ هـ/١٤٦٤ م وله نحو عشرين مؤلفا في التصوف منها قواعد التصوف وعدة المريد وعلى شاكلته أحمد الصومعي في عصر السعديين وله في أبي يعزى كتاب بعنوان : المعزا في مناقب الشيخ أبي يعزى وعدة مؤلفات أخرى في التصوف .

ونحن لا نصل إلى القرن التاسع الهجرى في التصوف حتى يصيبه في المغرب الأقصى ما أصابه في البلاد الإسلامية الأخرى من كثرة المدَّعين الجهلاء له ، وزعمهم أنه لا يحتاج إلى دراسة إذ تكفي فيه المعرفة الروحية الربانية ، وتخلى كثيرون منهم عن فروض الإسلام ونوافله ، فحسبهم العبارات والشعائر التي يأخذونها عن شيوخهم ، وأباحوا لأنفسهم كل المتع مقيمين لأنفسهم حفلات ذكر يتواجدون فيها وقد يشقّون ثيابهم ويمزقونها بتأثير ما يسمعون من أغان على الذكر تصور الوجد الملتاع . وكان الناس يكبرونهم إذ يزعمون لهم أن بينهم القطب الذى اختاره الله ، كما يزعمون أن بينهم أربعين واصلين مثله يسمونهم الأوتاد ، وإذا مات القطب حل أحد الأوتاد محله . ومما زاد في خروج الصوفية عن الجادَّة وتجاوزهم لحدود الشرع انتشار مذهب الملامتيَّة[2] الإيراني بينهم وهو مذهب كان معتنقوه يصنعون كل ما يوجب اللوم لهم مما يعد محرما ومخجلا لأقصى درجة ، إذ يرون أن يشتهروا بين الناس أنهم لا يؤدون شعائر الدين وفروضه ، وإن أدوها فعلا ، كما يريدون أن يقنعوهم بأنهم لا يتمسكون بنواهيه ، حتى يذمهم الناس أشنع ذم ، وحتى يحتقروهم إلى أقصى حد ، وهم بذلك ملامتية أي أهل الملامة ، تأخذ بهم من كل وجه ، ولذلك حاربت الدولة العثمانية هذه الجماعة بالجزائر في عهد الدولة السعدية أشد حرب حتى كادوا يقضون عليها . وللمنصور الذهبي رسالة إلى السلطان مرادخان العثماني يهنئه بالقضاء على تلك الفئة ، وحاربها هو في المغرب الأقصى ومن خلفوه من السعديين ولكن يظهر أنهم لم يستطيعوا القضاء عليها قضاء مبرما .

على كل حال كان انتشار مذهب الملامتية في المغرب الأقصى من أسباب انحراف التصوف والصوفية ، مما جعل كثيرين من العلماء يذمون ما آل إليه من تخطي الشريعة والخلق الحميد ، ويدعون إلى محاربة البدع التي شاعت فيه ، ويدعو إلى ذلك بعض الصوفية والنساك المتمسكين بأوامر الدين ونواهيه مثل الهبطي الطنجي المار ذكره فإن له ألفية بناها على النصح والإرشاد وحمل فيها حملة شديدة على متصوفة عصره وما يرتكبون من المنكرات .

---

(١) راجع في الشيخ زروق كتاب النبوغ المغربي ص٢١٧ ، ٢٢٨ .

(٢) انظر في الملامتية كتاب الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى ٣/٦٩٠ وما بعدها وراجع تاريخ الأدب العربي في إيران بالجزء الخامس من هذه السلسلة ص٥١٧ .

الفصل الثالث

الثقافة

١

الحركة العلمية

(أ) فاتحون ناشرون للإسلام ومعلمون

مرَّ بنا – فى الحديث عن الثقافة بالجزائر – أن فتوح العرب للمغرب حوَّلته بعد قرن واحد إلى شعب عربى ، وقد نزل الفينقيون دياره وظلوا به نحو ستة قرون أو تزيد ، ولم يستطيعوا تحويله إلى لغتهم وحضارتهم ، وبالمثل ظل به الرومان ستة قرون أخرى – وخلفهم البيزنطيون نحو قرن – ولم يستطيعوا أن يحولوه إلى لغتهم ودينهم المسيحى وحضارتهم . وكأنما كانت هناك معجزة هيأت للمغرب – مهما اختلفت أقطاره وتباينت – هذا التحول إلى العرب والعروبة ، وليست المعجزة إلا أن العرب الفاتحين لم يكونوا يبتغون النهب والسلب لخيرات الأرض المفتوحة ، إنما كانوا يبتغون نشر الدين الحنيف ، مما جعل جماهيرهم تستحيل إلى معلمين يحفِّظون المغاربة بعض آيات القرآن الكريم وسوره وبعض مبادىء العربية وبعض تعاليم الإسلام . ومن تمام هذه المعجزة أن المغاربة وجدوا هذا الدين السمح يسوِّى بين حملته الفاتحين وبين الشعوب المفتوحة ، فلا سيد ولا مسود ولا استنزاف لخيرات البلاد ، والجميع عربا وبربرا متساوون فى الحقوق والواجبات فأخذوا يدخلون فيه أفواجا : فوجا وراء فوج .

وكان هذا الدين الحنيف يدعو بقوة إلى العلم والتعليم ، ومعروف أن أول ما أنزل منه على الرسول ﷺ : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من عَلَق ، اقرأ وربُّك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم﴾ فالدعوة إلى العلم والتعليم تقترن بأول ما نزل من الذكر الحكيم . ويشيد القرآن بالعلم والعلماء مرارا فى مثل : ﴿وقل ربِّ زدنى علمًا﴾ ومثل : ﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ . ولذلك لا نعجب إذا رأينا الفاتحين فى الأقطار المغربية يتحولون إلى معلمين للشعوب البربرية ، يعلمونها مبادىء الإسلام والعربية ، ويتجرد منهم كثيرون للجلوس فى غرف ملحقة بالمساجد أو فى المساجد نفسها لتعليم القرآن وسموها الكتاتيب ، وكانوا يلقون عليهم فيها بعض الأحاديث النبوية وبعض الأشعار .

وأخذ كثيرون يتجردون لإلقاء المواعظ فى المساجد وتفسير بعض السور والآيات الكريمة وذكر بعض الأحاديث النبوية مع شىء من التعليق عليها وبعض الأحكام الفقهية . وبذلك نشأ

التعليم فى الأقطار المغربية – مثل بقية الأقطار العربية – معتمدا على الكتاتيب لتعليم الناشئة وعلى المساجد ليتلقى فيه من يكبرونهم دروسًا فى التفسير والحديث والفقه والعربية ، وتمضى هاتان الصورتان من التعليم ، حتى إذا كنا فى القرن الخامس أخذت تنضم إلى الكتاتيب والمساجد مؤسسة جديدة هى المدارس والمعاهد ، ويتنافس معلموها أو شيوخها وشيوخ المساجد ، مما أثرى الحركة العلمية ،حتى إذا كنا فى القرن الثامن الهجرى أخذت تظهر مؤسسة ينافس شيوخها شيوخ المدارس والمساجد ، وهى مؤسسة الزوايا ، وحرى أن نخص كل دار من هذه الدور العلمية بكلمة .

(ب) دور العلم : الكتاتيب – المساجد – المدارس – الزوايا – المكتبات

الكتاتيب

انتشرت الكتاتيب – منذ القرن الأول الهجرى – فى كل بلد وقرية كبيرة أو صغيرة فى الوديان وعلى سفوح الجبال ، ويقول ابن خلدون بمقدمته فى الفصل الخاص بتعليم الناشئة فى الكتاتيب « إن هذاالتعليم شعار من شعائر الدين أخذ به المسلمون ودرجوا عليه فى جميع أمصارهم ، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده عن طريق آيات القرآن وبعض متون الأحاديث ، وصار القرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات » . ثم يقول :« إن مذهب أهل المغرب (الأقصى) الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذ الناشئة فى أثناء دراسته برسم ألفاظه ، ويقول إنهم لا يخلطون ذلك بتعليم شىء من حديث أو فقه أو شعر حتى تجاوز الناشئة حد البلوغ إلى الشبيبة (الشباب) ، بخلاف أهل إفريقية التونسية فإنهم يخلطون فى تعليمهم للناشئة القرآن بالحديث فى الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها .

فالكتاتيب فى المغرب الأقصى إذن لم تكن تعنى بشىء سوى تحفيظ القرآن وتعليم رسم الآيات وما يتصل بذلك من الخط ، ويقول الحسن الوزان فى حديثه عن الكتاتيب بفاس إن بها مائتى كتّاب ، ويشتمل كل كتاب على قاعة كبيرة مع درجات تستخدم كمقاعد للأطفال ، والمعلم يعلمهم القراءة والكتابة لا فى كتاب معين ، وإنما يستعين بألواح خشب كبيرة تكتب عليها الناشئة ما تحفظه من الآيات . ويختم الناشىء القرآن فى نحو سبع سنوات ، ويعلمه المعلم الخط ، وحينما يصل إلى إجادة جزء لا بأس به من القرآن يقدّم أبوه هدية لمعلمه ، وحينما يختمه يصنع أبوه وليمة فاخرة لكل زملائه فى الكتّاب ، ويقدم لمعلمه كسوة جديدة . ويقول الوزان إن للناشئة – مثل طلاب المعاهد – يومين فى الأسبوع للراحة لا يختلفون فيهما إلى الكتاتيب .

ويذكر الأستاذ كنون – كما أشرنا إلى ذلك فى غير هذا الموضع – أن المرأة المغربية هى التى كانت تقوم فى ميدان التعليم الأولى بتعليم الناشئة ذكورا وإناثا ، وأنه لم يكن يخلو حَىّ من دار معلمة وتسمى فقيهة ، ويذكر الحسن الوزان عن مدينة فى إقليم توميديا أن النساء فيها هن اللائى يعلمن الأولاد ذكورا وإناثا حتى سن الثالثة عشرة ، ويبدو أن ذلك كان سنة متبعة فى المغرب الأقصى جميعه من قديم .

المساجد

كانت الناشئة حين تنجز حفظها للقرآن الكريم تتجه إلى حلقات الشيوخ فى المساجد لتتلقَّى ما يُلْقى بها من تفسير للذكر الحكيم ورواية للحديث النبوى وتعاليم للشريعة ودراسات للعربية وتاريخ للرسول والأمة العربية . وكان القائمون على الدروس فى هذه الموضوعات يختلفون ، فمنهم من يعطى مبادىء فى هذه الدراسات ، ومنهم من يعطى دروسا متعمقة لمن ثقفوا المبادىء واستوعبوها وخاصة فى الجوامع الكبيرة بكل بلدة . وكانت هذه الجوامع تعد مراكز الإشعاع الفكرى فى كل مكان ، ونلتقى بها فى كل بلدان المغرب الأقصى الكبرى مثل سبتة وطنجة وأصيلا وتازه وسجلماسة . ويذكر الحسن الوزان أن فى فاس ستمائة مسجد منها خمسون كبيرة جميلة البنيان مزدانه بالأعمدة والفسيفساء والخشب المنقوش مع تبليطها بالرخام أو ما يشبهه من الميورقى .

ويفصِّل الحسن الوزان الحديث عن جامع القرويين بفاس الذى بُنى فى عهد الدولة الإدريسية سنة ٢٤٥ هـ/٨٦٠ م ويُعَدّ أقدم جامعة علمية فى العالم العربى . وعلى نحو ما أحدث الأزهر فى القاهرة من نهضة علمية فى مختلف العصور كذلك أحدث جامع القرويين نهضة مماثلة لا فى فاس وحدها بل فى المغرب الأقصى جميعه . ويذكر الوزان أن محيط هذا الجامع يبلغ ميلا ونصفا وأن له واحدا وثلاثين بابا كبيرا عاليا ومنارته عالية جدا ويوقد فيه كل ليلة ستمائة سراج ، وعلى طول الجدران كراسى من مختلف الأنواع ، يلقى منها طائفة من الأساتذة على الشعب محاضرات روحية فى أمور دينه وشريعته . وكانت تبدأ هذه المحاضرات بعد صلاة الصبح وتنتهى بعد شروق الشمس بساعة . وقد ألف الدكتور عبد الهادى التازى عن هذا الجامع موسوعة كبيرة تحدث فيها بالتفصيل عن جوانبه المعمارية والثقافية ومكانته فى العلم والفكر المغربيين فى مختلف الأزمنه . وعلى نحو ما ذكر الحسن الوزان من تفصيلات عن جامع القرويين دوَّن تفصيلات مماثلة عن جامع على بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين بمراكش وقد هدمه عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين وشيَّد مكانه جامعا آملا أن يشيع عليه اسمه محل اسم على بن يوسف ولكن الناس ظلوا يسمونه باسمه القديم ، وبنى عبد المؤمن جامعا بجوار قصبة مراكش ، وقد اعتنى به حفيده يعقوب وزينه بأعمدة جلبها من الأندلس ، وشيَّد له منارة فى منتهى

الروعة كمنارة الخيرالدا التى شيدها فى جامع إشبيلية ،وترى زوجته بعد أن شيَّدها أن تبيع حليها الذهبية الخاصة وما تملك من أحجار كريمة وكل ما قدمه لها زوجها عند اقترانه بها ، وتأمر – كما ذكرنا فى غير هذا الموضع – أن يصنع بثمنها جميعا ثلاث تفاحات ذهبية تعلو قمة المنارة ليكتمل رونقها . وطبيعى أن تزدهر الدراسات الدينية واللغوية بهذين الجامعين فى عصر الموحدين وبعدهم وأن ينافسا جامع القرويين فى الحركة العلمية ، وتنافسه معهما الجوامع الكبرى فى سجلماسة وتارودنت ومكناس وتازة وسبتة وطنجة وأصيلا وسَلا . وكانت لهذه الجوامع أوقاف تدرُّ عليها ما يفى بالنفقة على شيوخها وتلاميذها .

المدارس

معروف أن أول من أشاع نظام المدارس فى المشرق نظام الملك وزير السلطان السلجوقى ألب أرسلان (٤٥٥ – ٤٦٥ هـ) إذ شيدَّ طائفة منها فى بلدان مختلفة بالعراق وإيران ، ووقف على كل مدرسة أوقافًا كثيرة تفى بنفقات أساتذتها وطلابها ومكتباتها وعيَّن فى كل مدرسة أساتذة فى مختلف العلوم الدينية واللغوية والرياضية وكانت كل مدرسة من هذه المدارس تسمى بالنظامية ، وأشهرها نظامية بغداد ، وقد زارها ابن بطوطة سنة ٧٢٧ ووصف ما بها من الحياة العلمية . وطارت شهرة هذه المدارس النظامية فى العالم الإسلامى منذ تأسيسها ، ونرى يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين الحصيف (٤٥٣ – ٥٠٠ هـ) يؤسس بمدينة فاس مدرسة عُرفت – كما يقول الأستاذ كنون فى النبوغ المغربى – باسم مدرسة الصابرين .

ونظن ظنا أنه لابد أن شَيدَّ مدرسة ثانية فى عاصمته مراكش .فإذا تحولنا إلى عصر الموحدين وجدنا الأستاذ المنونى يذكر فى كتابه : « حضارة الموحدين » : أن عبد المؤمن مؤسس الدولة أسس فى مراكش مدارس ، منها مدرسة لإعداد الموظفين فى الدولة ، ومدرسة خاصة بتعليم أمراء الموحدين ، وأسَّس مدرسة بالرباط لتعليم فن الملاحة ، وعُنى حفيده يعقوب الموحدى بتأسيس المدارس لا فى المغرب الأقصى فحسب ، بل أيضا فى إفريقية التونسية والأندلس . ويتحدث الحسن الوزان عن مدرسة شيِّدت فى عهد الموحدين – ولعلها شيدت فى عهد يعقوب – بقصبة مراكش ويقول إنها أشبه بمؤسسة ، إذ يلحق بها مساكن للطلاب ، وفى رأيى أنه كان بها مساكن أيضا للأساتذة . ويقول إنها تشتمل على ثلاثين غرفة وفى الطابق الأرضى قاعة كانت تُلْقَى فيها الدروس فى الماضى ، وكان التلميذ فى هذه المدرسة يُعْفَى من المصاريف ، ويُعْطى كسوة ، وكان الأساتذة يتقاضون راتبًا شهريا فيها بين مائة ومائتى دينار حسب طبيعة الدروس التى يقومون بها . ويذكر أن مبنى المدرسة كان مزينا بالفسيفساء البديعة وزخارف متنوعة . ويقول الوزان إنه كان بها فى الماضى عدد كبير من الطلاب ، وقلوّا الآن أى فى القرن العاشر الهجرى قلة شديدة ، ويقول فى القصبة قصر مزخرف كان مدرسة لأبناء الخليفة

وأبناء أسرته . وبأخرة من عهد هذه الدولة نجد المحدث الكبير أبا الحسن الشارى السبتى المتوفى فى سنة ٦٤٩ يشيد مدرسة بسبتة ويقف عليها من خيار أملاكه وعقاراته ما يفى بالإنفاق عليها ، ويلحق بها مكتبة نفيسة .

واتسع تشييد المدارس وتأسيسها فى عهد الدولة المرينية ، ويقول ابن مرزوق فى كتابه عن السلطان أبى الحسن المرينى المسمى بالمسند الصحيح أن السلطان عثمان أبا سعيد والد أبى الحسن أنشأ بفاس مدرستى العطارين والمدينة البيضاء الملحقة بفاس وأن أبا الحسن ابنه أنشأ مدرسة الصهريج فى الشطر الأندلسى ومدرسة داخل جامع القرويين فى الشطر المقابل وتعرف باسم مدرسة مصباح أول أساتذتها ، وأنشأ مدرسة ثالثة فى الوادى كما أنشأ فى كل بلد من بلدان المغرب الأقصى وما تبعه من بلدان المغرب الأوسط (الجزائر) مدرسة : فى مكناس وتازة وسبتة وأنفة وأزمّور وأسفى وأغمات ومراكش ووقف عليها أوقافًا كثيرة وألحق بها مكتبات نفيسة . ويقول الحسن الوزان بأخرة من عهد المرينيين إن فى فاس وحدها إحدى عشرة مدرسة ، وقد تحوى المدرسة مائة غرفة أو أكثر ، ولجميع الأساتذة رواتب ممتازة ، ويذكر أن بمكناس ثلاث مدارس وكذلك بتازة ، ويذكر طريقة التعليم فى تلك المدارس لعهده ، فيقول إن الأستاذ يكلف تلميذا فى بدء الدرس بقراءة النص ، ثم يأخذ فى تفسيره وبيان دلالات كلمه مضيفا إليه بعض آرائه مع بيان ما يوجَّه إلى النص من اعتراضات ، ويتحاور الطلاب ويتناقشون فى معانى النص ودلالاته ، ويشترك الأستاذ معهم فى المناقشة والحوار .

وواضح أنه لم ينته العصرالمرينى إلا وكان المغرب الأقصى فى أواخر هذا العصر قداكتظ بالمدارس وبما تخرّج من شباب العلماء فى كل فن وعلم ، ولعل هذا ما جعل المؤرخين لا يعنون بالحديث عما أنشأ السعديون والعلويون فيما بعد من مدارس إذ كانت سُنَّة أوفريضة متبعة .

الزوايا

لم يكن المغرب الأقصى يعرف الزوايا المتعلقة بالمتصوفة والنساك قبل القرن السابع الهجرى إذ كان يطلق عليها اسم أربطة جمع رباط مثل رباط عبدالله بن ياسين الذى تنسك فيه مع بعض رفاقه كما مرَّ فى حديثنا عن قيام دولة المرابطين . وربما كانت أول زاوية عرفها المغرب الأقصى زاوية أبى محمد صالح التى أقيمت فى منتصف القرن السابع الهجرى بمدينة آسفى على المحيط : ويقال بل كانت تسمى رباطا وأن الزوايا إنما أخذت تعرف بالمغرب الأقصى فى القرن الثامن الهجرى على نحو ما يذكر ذلك ابن مرزوق فى كتابه عن السلطان المرينى أبى الحسن وإنشائه الزوايا ، ومع ذلك لم يذكر له زاوية أنشأها ، وذكر زاوية أبى زكريا يحيى بن عمر بسلا .

وفى كتاب الشعر الدلائى للسيد عبد الجواد السقاط زاوية أسست بدرعة فى القرن الثامن

الهجرى باسم زاوية سيد الناس محمد ﷺ . وأخذت الزوايا تتكاثر فى المغرب الأقصى منذ القرن العاشر الهجرى حينما ضعفت الدولة المرينية وأخذ البرتغاليون والإسبان يستولون على أطراف المغرب الأقصى على المحيط والبحر المتوسط وكأنما المغاربة يئسوا من الدولة وحكامها ، فأخذوا يلتفون حول شيوخ المتصوفة آملين أن يجدوا بينهم من يصلح أحوال البلاد ومن يحسن قيادتهم ضد أعدائها الخاسئين ، وأسهموا بقوة فى بناء الزوايا بكل بلدة ، وكانت الزاوية تضم الشيخ ومريديه ، وأخذت سريعا لا تقتصر على مكان للعبادة بل أصبحت أشبه بمسجد وتضم إليها مبانى لسكنى شيخها أو شيوخها ومريديهم . وأيضا فإنها لم تعد مكانا للنسك فحسب بل أصبحت مكانا للتعليم ومدرسة يتخرج فيها كثيرون ، وكانت تلقى بها خطب حماسية لإلهاب حمية الشباب فى مقاومة الأعداء المحتلين للديار والانقضاض عليهم والعصف بهم حتى لا تبقى منهم باقية ، ومرَّ بنا مدى جهاد هذه الزوايا وأصحابها فى طرد المحتلين والتنكيل بهم ، وطبيعى أن يُعَدّ فى كل زاوية طعام لمن بها ولقصَّادها . وعدَّ الأستاذ عبد الجواد السقاط فى مقدماته للزاوية الدلائية أربعين زاوية منتشرة فى بلدان المغرب الأقصى وصحاريه ، وفى رأينا أنها تزيد عن ذلك كثيرا . وتحول بعضها إلى ما يشبه مؤسسة كبيرة ، بل مدينة تامة على نحو ما يلقانا فى الزاوية الدلائية وقد أفرد الأستاذ السقاط مجلدًا كبيرًا للحديث عن الحركة الشعرية بها وقدم لها بمقدمة عن تاريخها والجوانب الثقافية إذ كانت تدرس فيها العلوم الدينية واللغوية وعلوم الأوائل وكأنها جامعة صغرى مما يدل بوضوح على إسهام الزوايا بالمغرب الأقصى فى الحركة العلمية بجانب العناية بالأدب والشعر .

المكتبات

لا ريب فى أن المكتبات تعد أعظم المؤسسات العلمية ، إذ تحمل التراث العلمى والأدبى جميعه للأمة وتفتح أبوابها يوميًّا وتقدم كنوزها لطلاب العلم والأدب وشيوخهما ، ولن أستطيع تصوير أهميتها فى سطور معدودة ومعروف أنه كان بكل جامع فى كل بلد مكتبة ، وقد أحصى الدكتور محمد حجى فى كتابه : الحركة الفكرية فى المغرب لعهد السعديين اثنتى عشرة مكتبة عامة بفاس منها اثنتان إحداهما مكتبة القرويين المليئة بالنفائس والكنوز من مثل تاريخ ابن خلدون بخطه ، وعدَّ بمراكش أربع مكتبات وبزاوية الدلاء مكتبة وبالمثل فى بعض المدن الكبرى . وعدَّ من المكتبات الخاصة خمس عشرة مكتبة ، منها مكتبة آل المغرديس بفاس استعان بها فقيه الجزائر الكبير أحمد بن يحيى الونشريسى المتوفى سنة ٩١٤ فى تأليف موسوعته الفقهية الكبرى : « المعيار » المنشورة فى ستة مجلدات . وكان قد أورثهم جدهم فى القرن الرابع الهجرى بكار بن عيسى الغرديسى شرفًا عظيما إذ كان أول من حمل صحيح البخارى إلى المغرب الأقصى وعنه حمله كثيرون .

(جـ) نمو الحركة العلمية

تأخذ الحركة العلمية بالنمو فى المغرب الأقصى منذ قامت الدولة الإدريسية ، فإنه نزل بفاس فى عهد إدريس الثانى كثيرون من أهل الأندلس الذين قادوا الثورة ضد الحكم الربضى ويقال إنهم كانوا نحو أربعمائة أسرة وكان بينهم كثيرون من الفقهاء ، إذ كانوا هم أصل تلك الثورة ، وشغلوا شطرا من فاس سمى بالعدوة الأندلسية ، وسرعان ما أخذ فقهاء الجامع يلقون فيه دروسهم منذ أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث للهجرة ،حتى إذا كنا فى منتصف هذا القرن وبنت السيدة الجليلة فاطمة أم البنين الفهريَّة جامع القرويين فى عدوة فاس المغربية المقابلة أخذ شيوخ الجامعين يتنافسون فى تعليم الشباب الفاسى ، ويظل لهذا النشاط العلمى آثاره فى المغرب الأقصى بعد القضاء على الدولة الإدريسية بفاس فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، ويعود هذا النشاط بقوة فى عهد المرابطين الذين قاموا لإنقاذ المغرب الأقصى مما كان فيه من فئات ضالة كبقايا الصفرية فى سجلماسة وبعض الأنحاء وكالمعتزلة فى البصرة والشمال الغربى وكالبرغواطية فى تامسنة وكالبجلية الشيعية الروافض فى تردنت بالسوس وبذلك وحَّدوا المغرب الأقصى وأخذوا يردونه إلى أحضان السنة باعثين فيه حركة علمية ناشطة ، وما إن توافى سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م وحتى ينزل أمير المرابطين يوسف بن تاشفين على رأس جيش ديارَ الأندلس ويهزم ألفونس أمير قشتالة ونصارى الإسبان وأوربا معه هزيمة ساحقة فى الزلاقة ، ويضم الأندلس إلى دولته المغربية . ومن حينئذ تنمو الحركة العلمية فى المغرب الأقصى نموا واسعًا ، إذ أخذت تلتحم تدريجا بالحركة العلمية الأندلسية ، فقد أخذ علماء الأندلس يفدون عليه ، كما أخذ طلابه وعلماؤه يفدون على الأندلس ، وكان يوسف بن تاشفين بعيد النظر ، فعمل على جلب علماء الأندلس إلى عاصمته مراكش حتى ليقول صاحب المعجب : « انقطع إليه من جزيرة الأندلس من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه على (٥٠١ هـ/ ١١٠٨ م – ٥٣٧ هـ/ ١١٤٣م) من أعيان الكتَّاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار » وفى موضع آخر يقول : « لم يزل أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصرف عنايته إلى ذلك ، حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك » .

ومنذ هذا التاريخ يصبح المغرب الأقصى والأندلس دار علم وأدب واحدة ، وكثير من العلماء والأدباء فى القطرين قضوا شطرا من حياتهم فى وطنهم والشطر الآخر فى الوطن الثانى . وتنبه إلى ذلك مؤلفو كتب التراجم كما سنرى عما قليل . ويتحول الحكم إلى الموحدين ، ويقول صاحب المعجب عن عبد المؤمن المؤسس الحقيقى لدولتهم : « كان مؤثرا لأهل العلم محبا لهم محسنا إليهم يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده والجوار بحضرته ، ويجرى عليهم

الأرزاق الواسعة ، ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم » . واتخذ – حسب تعليمات أستاذه ابن تومرت – عشرة مع خمسين من الأشياخ بينهم رؤساء القبائل وطائفة كبيرة من الدعاة كانوا يسمون باسم الطلبة ، وكانوا يعدُّون للدعوة إعدادًا علميا . ويقول صاحب المعجب عن ابنه يوسف سلطان الموحدين إنه كان يحفظ أحد الصحيحين – الشك منه كما يقول – إما البخارى وإما مسلم .. مع ذكر جمل من الفقه ، وكان له مشاركة فى علم الأدب واتساع فى حفظ اللغة وتبحر فى علم النحو ، وتعلم الفلسفة وجمع كثيرا من أجزائها وكتبها واجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر الأموى ، ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ويبحث عن العلماء ، وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب ، وكان ممن صحبه من العلماء المتقنين أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين ، ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار وينبِّهه عليهم ويحضه على إكرامهم ، وهو الذى نبهه على أبى الوليد بن رشد » . وفى أيام ابنه يعقوب بلغت دعوة الموحدين ضد أصحاب المذاهب الأربعة الذروة إذ أمر بإحراق كتب الفروع عامة سواء للمالكية أو الحنفية أو الشافعية أو الحنبلية ، وكان قصده محو مذهب مالك وحَمْل الناس على الظاهر من القرآن والحديث ، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده ، وأمر المحدثين بجمع أحاديث من كتب الصحاح الستة وسُنَن البزار وأبى شيبة والدارقطنى والبيهقى فى الصلاة وما يتعلق بها ، وكان يمليه بنفسه على الطلبة ويأخذهم بحفظه . ولابد أن نذكر ما أسلفناه من أنه تم فى عهد الموحدين الامتزاج العلمى والأدبى بين القطرين المغربى والأندلسى حتى لنرى كتاب التراجم الأندلسيين حين يؤلفون كتابا يمزجون فيه بين علماء القطرين إذ يجعلونه لهما جميعا على نحو ما يلاحظ فى كتاب الصلة لابن بشكوال المتوفى سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م وكانت عناية المرينيين بالعلم وأهل الأدب لا تقل عن عناية الموحدين ومر بنا ما حكاه ابن مرزوق والوزان عن عنايتهم بتشييد المدارس وفرض الرواتب فيها للأساتذة والإنفاق على الطلاب وكسوتهم ، ويطيل الوزان الوصف لمعهد بناه السلطان المرينى أبو عنان (٧٤٩هـ/١٣٤٩ م – ٧٥٨ هـ/ ١٣٥٨م) ويذكر أن فيه ثلاثة أروقة مسقوفة تتحلى بجمال لا يتصوره عقل ، والأعمدةمنمقة بألوان متباينة والقناطر بين الأعمدة مكسوة بالفسيفساءوبالذهب الصافى وباللازورد ، والسقف من خشب مجزع ، ويختم وصفه الطويل للمدرسة بأن نفقاتها ارتفعت إلى أربعمائةوثمانين ألف دينار .

ومنذ أوائل هذه الدولة يشعر المغاربة بتعمق أثرهم والأندلسيين الذين هاجروا إليهم بعد سقوط مدنهم الكبرى فىحجر الإسبان إخوة تجمعهم أواصر كثيرة ، بل لقد كان هذا الشعوريتعمقهم منذ عصر دولة المرابطين غير أنه ازداد عمقا بكثرة من هاجر إليهم من إخوانهم الأندلسيين فى القرن السابع الهجرى ، وهو ما جعل المغربى من أمثال محمد بن عبد الملك

المراكشي حين يؤلف كتابه الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة يجعله قسمة بين الأندلسيين والمغاربة ، وللأندلسيين الشطر الأكبر . وأخذت تتسع الهجرة من الأندلس ، حتى إذا كانت سنة ٨٩٧ هـ وسقطت غرناطة بدأت هجرة أندلسية كبرى إلى مدن المغرب الأقصى . وتلتها الهجرة أيام فيليب الثالث حين أمر سنة ١٠١٨ هـ/١٦٠٩ م بطرد الموريسكيين من جزيرة الأندلس . وكان لهذه الهجرات الأندلسية الجماعية في أواخر أيام المرينيين وزمن السعديين أثر بعيد في نمو الحركة العلمية بالمغرب الأقصى ، ولذلك نرى خطأ كبيرا في قياس المغرب الأقصى على بلدان الدولة العثمانية في المشرق العربي وخمود الحركة العلمية بتلك البلدان لأن فوارق كانت تفرق بين المغرب الأقصى وبينها ، أهمها ما ظل ينزله من جموع الأندلسيين بعد سقوط غرناطة على مدى سنوات طويلة متعاقبة . وينوه ابن القاضي في كتابه عن المنصور الذهبي السعدي (٩٨٦ هـ/ ١٥٧٨ م – ١٠١٢ هـ/ ١٦٠٣ م) بشغفه الشديد بالعلوم على اختلافها ورعايته للعلماء والأدباء . وينوّه الأستاذ عبدالله كنون في الجزء الأول من كتابه النبوغ المغربي بالخلفاء العلويين : الرشيد (١٠٧٥ هـ/ ١٦٦٤ م – ١٠٨٤ هـ/ ١٦٧٢ م) وإسماعيل (١٠٨٢ هـ/ ١٦٧٢ م – ١١٣٩ هـ/ ١٧٢٧ م) ومحمد بن عبد الله (١١٧١ هـ/ ١٧٥٧ م – ١٢٠٤ هـ/ ١٧٨٩ م) ونهضتهم العلمية بالمغرب الأقصى . وفي كل ما قدمناه ما يدل – بوضوح – على أن الحركة العلمية المغربية كانت دائما بأعين الحكام المغاربة ، فهم يتعهدونها ويقدمون لها كل ما يستطيعون من عون مادي ومعنوي .

٢

علوم الأوائل

ليس بين أيدينا معلومات واضحة عن علوم الأوائل ونشاط علماء المغرب الأقصى فيها زمن المرابطين إلا ما ذكر من أن بعض الأطباء الأندلسيين نزلوا مراكش لرعاية يوسف بن تاشفين وابنه على رعاية طبية ، ومنهم أبو العلاء[1] بن عبد الملك بن زهر ، وله في الطب تصانيف متعددة وقد أمر السلطان علي بن يوسف حين توفي سنة ٥٢٥ هـ/١١٣٠ م بجمع كتبه الطبية ونسخها في السنة التالية لوفاته ، ومن أهمها كتاب التذكرة ونشره جبريل كولان بالعربية والفرنسية في باريس سنة ١٩١١ للميلاد ، ونظن ظنا أن بعض المغاربة تتلمذ عليه حين نزوله في مراكش وربما تبعه إلى بلدته إشبيلية ليكمل تعلمه عليه .

ولا يلبث الموحدون أن يستولوا من المرابطين على صولجان الحكم وتزدهر علوم الأوائل

(١) انظر فيه كتابنا عن الأندلس ص ٧٩ .

فى عهدهم ، مما يدل على أن المغاربة كانوا قد أخذوا يدرسونها منذ عهد المرابطين ، وقاد حركة ازدهار هذه العلوم فى المغرب الأقصى يوسف[1] بن عبد المؤمن الموحدى (٥٥٨هـ/١١٦٢م – ٥٨٠هـ/ ١١٨٥ م) ، إذ تعلم الفلسفة منذ أن كان حاكما لإشبيلية فى عهد أبيه عبد المؤمن ، واصطفى لنفسه حينذاك طبيبه الفيلسوف أبا بكر بن طفيل واصطحبه معه إلى مراكش حين استولى على صولجان الحكم ، وكان لا يكاد يفارقه ، ورغبَّه فى جمع كتب الفلسفة فاجتمع له منها – كما يقول صاحب المعجب – ما يقرب مما جمعه الخليفة الأموى المستنصر (٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م – ٣٦٥ هـ/ ٩٧٥ م) فى الأندلس ، وكانت مكتبته تعد أغنى مكتبة فى زمنه تحوى كتب الفلسفة . وكما كان ابن طفيل يجلب إليه الكتب الفلسفية وما يتصل بها من علوم الأوائل كان يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار وينبِّه عليهم – كما يقول صاحب المعجب – ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم ، وله فى الفلسفة والطب والفلك كتب مختلفة . وشكا إليه يوسف قلق عبارات أرسطو فى كتبه وحاجتها إلى الشرح والتلخيص وسأله أن يقوم بذلك فاعتذر بعلو سنه ، وأشار عليه أن يطلب ذلك من ابن رشد– وكان قاضى إشبيلية حينذاك – فاستدعاه وطلب إليه أن ينهض بهذا العمل ، فنهض به على خير صورة ممكنة ، إذ وضع شروحا مطولة ومتوسطة ومختصرة لكثير من مؤلفات أرسطو .

وكل هذه الشروح تُرْجمت إلى اللاتينية وترجمت معها مؤلفاته الفلسفية مثل تهافت التهافت الذى ردّ فيه على تهافت الفلاسفة للغزالى ، والكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة ، وفصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال .وأخذت كتبه تدرس فىالجامعات الأوربية منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، ولولاها لما فهم الغرب فلسفة أرسطو بالإضافة إلى ما كان لمؤلفيه الأخيرين من أثر عميق فى حركة التحرر الدينى الأوربى . وهى يَدٌ لابن رشد لا على الفكر الأوربى وحده بل على الفكر العالمى جميعه .

وكل آثار ابن رشد وابن طفيل وغيرهما من فلاسفة الأندلس مثل ابن باجة أستاذ ابن طفيل أحدثت فى المغرب الأقصى نهضة علمية فىمختلف علوم الأوائل وخاصة فى الرياضيات التى شغف بها المغاربة ،وفى مقدمتهم عبدالله بن محمد بن حجاج المشهور باسم ابن الياسمين[2] المتوفى سنة ٦٠١ هـ/١٢٠٥ م وله منظومة فى الجبر والمقابلة وأخرى فى أعمال الجذور ، وكان يعاصره على بن محمد بن فَرَجون القيسى القرطبى نزيل فاس المتوفى مثله سنة ٦٠١ وله كتاب[3] لباب اللباب فى بيان مسائل الحساب . وتدل القصور المختلفة التى بناها المنصور

(١) انظر فى يوسف وأخباره مع ابن طفيل وابن رشد المعجب فى مواضع متفرقة (راجع الفهرس) .

(٢) انظر حضارة الموحدين للمنونى ص ٧٤ .

(٣) راجع الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ٣٧٥/٥ .

يعقوب الموحدى فى قصبة مراكش والمسجد الذى بدأه جده عبد المؤمن وأضاف إليه زينات وإضافات وعُمُدٍ وغير عمد ومأذنته البديعة على أنه كان بمدينة مراكش حينئذ كثير من المهندسين المواطنين والمجلوبين من الأندلس المستوطنين فيها ، ومما أحدثوه فى المسجدالكبير مقصورة يجلس فيها الخليفة وحواشيه يوم الجمعة وكانت ميكانيكية مثبتة بعجلات فى أسفلها ولها ست أذرع وتمتد بفواصل متحركة[1] .

ومن كبار الرياضيين الفلكيين حينئذ أبو على الحسن المراكشىمؤلف كتاب المبادىء والغايات فى علم الميقات ويذكر صاحب كشف الظنون أنه أعظم ما ألف فى هذا الفن ، وينقل عنه الأستاذعبد الله كنون أن أبا على المراكشى رتب هذا الكتاب على أربعةفنون هى الحسابيات فى نحو ثمانين فصلا ، ووضع آلات الإسطرلاب ولها سبعة أقسام ، وللعمل بها خمسة عشر فصلا ، والدربة عليها فىأربعة أبواب أو فصول[2] .

ونمضى إلى عصر المرينيين ونلتقى فى علم الفرائض أو المواريث – وكانوا يلحقونه بالرياضيات – بإبراهيم بن أبى بكر التلمسانى نزيل سبتة الذى مر بنا فى الجزائر وله فى الفرائض أرجوزة سميت التلمسانية شرحت فى سبتة وغير سبتة مرارا ، ولابن الشاط المتوفىسنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م « غنية الرائض فى علم الفرائض » . ونلتقىبمفخرة المغرب فى الرياضيات ابن البناء[3] أبى العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدى المراكشى المولود بمراكش سنة ٦٥٣ هـ/١٢٥٦ م والمتوفى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م وقدبلغ الغاية فى مختلف العلوم الدينية واللغوية والبلاغية وبرع إلى الغاية فى العلوم الفلسفية ولاسيما فى الرياضيات والفلك ،وله فى الحساب والجبر التلخيص فى أعمال الحساب وعليه يعتمد الطلاب فى جامع أو جامعة القرويين بفاس إلى اليوم ، وشرحه بكتاب سماه رفع الحجاب . وطارت شهرته فى حياته وقصده الطلاب من كل فج ،وتخرج رياضيون ماهرون على يديه مغاربة وجزائريون مثل الآبلىمحمد بن إبراهيم التلمسانى ، المتوفى سنة ٧٥٧ هـ/١٣٥٦ م . ولابن البناء فى الفلك كتاب اشتهر فى عصره وبعد عصره سماه اليسارة فىتعديل السيارة وله المدخل إلى علم النجوم . ويلمع اسم اللجائىالفاسى عبد[4] الرحمن بن أبى الربيع المتوفى سنة ٧٧٣ هـ/١٣٧٢ م فى الرياضيات والهيئة أو الفلك وقد ابتكرإسطرلابا يلصق فى جدار ، والماء يدير شبكته على الصفيحة بحيث يعرف منه مدى ارتفاع الشمس وما مضى من النهار كما يعرف مدى ارتفاع أى كوكب ليلا .

---

(١) انظر المنونى ص ٧٦ ، ٨٠ .

(٢) راجع الجزء الأول من النبوغ المغربىلكنون ص ١٦٦ .

(٣) لابن البناء ترجمات كثيرة فى الكتب السالفة مثل جذوة الاقتباس ونيل الابتهاج ودرةالحجال وأزهار الرياض . وانظر فى مؤلفاته النبوغ المغربى ٢٣١/١ .

(٤) انظره فى الدرة لابن القاضى ٨٢/٣ والجذوة ٤٠٢/٢ وكنون ٢٢٤/١ .

ويلقانا بعده عبد[1] الرحمن الجادرى المتوفى سنة ٨٣٩ هـ/١٤٣٥ م مؤقت جامع القرويين بفاس ، وله روضة الأزهار فى علم الليل والنهار ، وكتاب ثان جمع فيه بين العمل بآلة الإسطرلاب وبالصفيحة الشكازية وبربع الدائرة وطريقة العمل بالحساب والجداول . ومن علماء الهندسة فى العصر المرينى ابن لبون التجيبى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ/١٣٥٠ م وله كتاب الإكسير فى الأشكال الهندسية .

وكان الخليفة المنصور الذهبى السعدى مكبًّا على كتاب إقليدس يحل أشكاله ، ولأحمد بن القاضى المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ/١٦١٦ م شرح باسم فتح الخبير بحسن التدبير لفك رموز الإكسير لابن لبون السالف[2] . وللبعقيلى[3] أبى زيد عبد الرحمن الجزولى المتوفى سنة ١٠٠٦ هـ/١٥٩٧ م شروح فلكية على اليسارة فى تعديل السيارة لابن البناء وروضة الأزهار للجاردى وهو الذى أحدث الساعة الرخامية بجامع تارودنت . ولمحمد[4] بن قاسم بن القاضى المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ/١٦٣٠ م كتاب البرق الوامض فى الحساب والفرائض . وأهم الرياضيين فى عصر العلويين الرودانى محمد بن سليمان المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ/١٦٨٣ م وله إسطرلاب مبتكر مكون من كرتين ، وفى كتاب النبوغ المغربى وصف[5] مفصل له . ولعل فى كل ما قدمت ما يدل على أن المغرب الأقصى ظل ناشطا فى الدراسات الرياضية والفلكية والهندسية طوال الحقب الماضية .

وطبيعى أن ينشط المغرب الأقصى فى الطب والصيدلة لضرورتهما فى العناية بحياة الناس ، ومرَّ بنا أن أبا العلاء[6] بن زهر الطبيب كان طبيبا ليوسف بن تاشفين وخليفته من بعده ابنه على ، مما يؤكد نزوله فى مراكش لرعايتهما الصحية ، ونزلها بعده ابنه عبد الملك الذى كان طبيبا للمرابطين ثم للموحدين إذ توفى سنة ٥٥٧ هـ/١١٦٢ م وهو أهم طبيب عربى كلينيكى أو عملى بعد الرازى .

واتخذ الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الموحدى الفيلسوف ابن طفيل طبيبا بينما اتخذ ابنه يعقوب أبا بكر بن زهر طبيبه الخاص ، وكانت أخته أم عمرو طبيبة ماهرة وكانت تعنى صحيا بزوجة يعقوب ونساء الأسرة الموحدية ، وكان ابنه عبد الله طبيب الناصر بن يعقوب الموحدى . وأحصى الأستاذ المنونى فى كتابه « حضارة الموحدين » نحو عشرين[7] طبيبا وصيدليا أندلسيا

(١) انظر مظاهر الثقافة المغربية للدكتور ابن شقرون ص٢٢٠.

(٢) راجع الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين ١٥٧/١ .

(٣) نفس المصدر ١٥٨/١ وانظر النبوغ المغربى للأستاذ عبد الله كنون ٢٦٤/١ .

(٤) النبوغ ٢٧٠/١ .

(٥) انظر وصف هذا الإسطرلاب عند الأستاذ كنون ٢٩٤/١ .

(٦) انظر فى أطباء أسرة بنى زهر كتابنا عن الأندلس ص ٧٩ .

(٧) راجع حضارة الموحدين للأستاذ المنونى ص ٨٨ وما بعدها .

نزلوا مراكش لخدمة الخلفاء الموحدين . ويذكر بالمثل الأطباء المغاربة الذين أتقنوا الطب والصيدلة فى عصر الموحدين ، ومنهم يحيى بن محمد السلوى المتوفى سنة ٥٦٣ هـ/١١٦٧ م ، والشريف الإدريسى المتوفى حوالى سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٤ م وله كتاب فى الصيدلة أو مفردات الأدوية، وأحمد بن عبد الملك الجذامى الناشىء بسبتة والمتوفى بمراكش سنة ٦٥٠ هـ/١٢٥٣ م. وقد أفاض المراكشى فى كتابه المعجب فى وصف البيمارستان الذى شيَّده المنصور ، ويقول إنه أجرى عليه ثلاثين دينارًا كل يوم للإنفاق ، وإنه كان به قسم للصيدلة وعمل الأشربة والأدهان والأكحال ، ويذكر أن يعقوب كان يعود مرضى المارستان كل أسبوع بعد صلاة الجمعة . ويبدو أن أبا إسحق إبراهيم الدانى البجائى كان أول رئيس للبيمارستان كما يفهم من ترجمة ابن أبى أصيبعة له فى كتابه طبقات الأطباء وأن رياسته ظلت فى بيته فترة .

ويذكر الدكتور شقرون فى كتابه مظاهر الثقافة المغربية ستة[1] من الأطباء المشهورين فى العصر المرينى ربما كان أهمهم أبو العباس أحمد بن شعيب الفاسى الذى اشتهر بتعمقه فى الفلسفة والرياضيات وعلوم الأوائل ، وكان طبيبا فى البلاط المرينى زمن السلطان أبى سعيد عثمان وابنه أبى الحسن وقد اصطحبه معه حين غزا تونس ، وبها توفى بالطاعون سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٩ م وكان طبيبا بارعا كما كان شاعرا بارعا . ومن أكبر الدلالة على كثرة الأطباء فى العصر المرينى أن نجد مؤلفا مجهولا لكتاب « بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة فى الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب » الذى نشره الأستاذ محمد بن تاويت فى العدد التاسع من مجلة تطوان يذكر سبعة من الأطباء بمدينة سبتة ، بينهم طبيبة بارعة هى عائشة[2] بنت الجيار ، ويقول :

« قد كان بسبتة فى هذه الطبقة جماعة من الأطباء والشجَّارين – يريد الصيادلة العشَّابين – سوى من ذكرناه لم يبلغوا فى العلم والمكانة مبلغ هؤلاء (السبعة) تركت ذكرهم » ، وإذا كان هذا العدد من الأطباء بإحدى مدن المغرب الأقصى فما بالنا بمن كان بفاس من الأطباء والصيادلة ، ولابد أن كانوا كثيرين ، إذ يذكر الحسن الوزان أنه كان بفاس فى الداخل أو فى داخلها مارستانات بديعة وعدة مارستانات أخرى خارج أبوابها ، وعلى الأقل كان يحتاج كل مارستان إلى صيدلى وطبيب إن لم يكن يحتاج إلى عدد من الأطباء والصيادلة .

ويعرض الدكتور محمد حجى مؤلفات[3] الأطباء والصيادلة ، ويبدأ بالوزير الغسانى المتوفى سنة ١٠١٩ هـ/١٦١٠ م ومما يذكر له حديقة الأزهار فى شرح ماهية العشب والعقار وهو

(١) مظاهر الثقافة المغربية : دراسة فى الأدب المغربى فى العصر المرينى ص ٢٢٧ .

(٢) النبوغ المغربى ١/٢٢٥ .

(٣) الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين ١/١٦٠ وما بعدها .

معجم صيدلى نباتى ، ويذكر للطبيب عبد الغنى بن مسعود الزمورى كتابا فى الطب بعنوان : القول المفيد فى علاج الحصى بقول سديد ، وكتابا فى الصيدلة بعنوان خواصّ النباتات ، شرحَ فيه الأدوية باللسان اليونانى والسريانى والفارسى والعجمى ، كما يذكر للطبيب أبى الغول الفشتالى أرجوزة طبية فى ألف بيت وأربعمائة وعشرة ، ويذكر أيضا للطبيب على بن إبراهيم أرجوزة فى علاج العيون وأدوائها وأخرى فى الأعشاب وخواصها فى شفاء الأمراض .

ونبغ فىعصر العلويين غير صيدلى وطبيب ، منهم عبد[1] القادر بن شقرون المتوفى بعد سنة ١١٤٠ هـ/١٧٢٨م وله فى الصيدلة مؤلفات متعددة سوى منظومة سميت بالشقرونية فى ٧٠٠ بيت فى الأغذية والأدوية ، ومنهم عبد[2] الوهاب أدرّاق المتوفى سنة ١١٥٩ هـ/١٧٤٦ م وهو من أسرة فاسية اشتغلت بالطب ، وإليه انتهت رياسة الطب فى زمنه ، وله مؤلفات ومنظومات طبية مختلفة ، ومنهم عبد[3] الله بن عزوز المراكشى المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ/١٧٨٩ م وله فى الصيدلة كتاب باسم كشف الرموز فىالأعشاب الطبية وكتاب فى الطب باسم ذهاب الكسوف . ولعل فى كل ما ذكرت ما يصور – بوضوح – عناية المغاربة ببحوث الطب والصيدلة طوال العصور السالفة .

ويلحق بعلوم الأوائل علم المنطق الذى يعرف به الصحيح من الفاسد فى التعاريف والبراهين والأقيسة ، وهو يشترك فى العلوم كلها ، فليس هناك علم لا يأخذ منه بحظ . والمنطق علم يونانى الأصل وضعه أرسطو ورتب فصوله وقضاياه ترتيبا محكما ، ونقله العرب منذ القرن الثانى الهجرى وتداوله علماؤهم وأقطارهم ، وأصبح يدرس فى جوامعها الكبيرة أو جامعاتها ، حتى إذا نشأت المدارس فى القرن الخامس الهجرى أخذت تتدارسه ويضع فيه أفضل الدين الخونجى المتوفى سنة ٦٤٨ هـ/١٢٥١ م كتابا موجزا باسم الجمل وتطير شهرته فى العالم العربى بجميع أقطاره شرقا وغربا ويأخذ علماء المغرب – كعلماء المشرق – فى مدارسته وشرحه لطلابهم . وممن عرفوا بدراسة المنطق بأخرة من عصر الموحدين ، وربما لحق عصر المرينيين ، عبد[4] الله بن محمد الأغماتى من أهل أغمات من المغرب الأقصى من علماء القرن السابع الهجرى ، وينعته الغبرينى بأنه المنطقى النحوى ويقول عنه : كان أعلم الناس بكتاب سيبويه ومقاصده ، وله تحصيل لعلم المنطق .

ونلتقى فى أوائل عهد المرينيين بمحمد[5] بن على بن يحيى المدعو بالشريف قاضى الجماعة

(١) النبوغ المغربى ٢٩٩/١ والحياة الأدبية بالمغرب فى عهد الدولة العلوية للدكتور الأخضر ص ٢٠٧ .
(٢) النبوغ المغربى ٣٠٠/١ والأخضر ص ٢٣٩ .
(٣) الأخضر ص ٣٦٦ .
(٤) انظر الأغماتى فى عنوان الدراية للغبرينى ص ٢٢٣ .
(٥) الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام ٢٨١/٤ وانظره فى بغية الوعاة للسيوطى .

بها المتوفى بمراكش سنة ٦٨٢ واشتهر بأنه كانت له مشاركة فى علوم الأصول والكلام والمنطق والحساب ، وتتردد هذه الشهرة فى ترجمة كثيرين بالعصر المرينى . ويذكر الدكتور محمد[١] حجى فى العصر السعدى لعبد العزيز المكناسى المتوفى حوالى سنة ٩٨٠ هـ/١٥٧٢ م أرجوزة فى المنطق فى مائة وستة عشر بيتا وأرجوزة أخرى لعبد الرحمن البعقيلى المار ذكره ، ولعلهما أرادا مضاهاة عبد الرحمن الأخضرى الجزائرى المتوفى سنة ٩٥٣ هـ/١٥٤٦ م فى أرجوزته المنطقية المسماة باسم السلم وقد نالت شهرة واسعة فى العالم العربى ووضعت لها شروح كثيرة ، ويذكر الدكتور حجى لمحمد بن عبد الله الهبطى مباحث الكلية والجزئية .

ويعرض الأستاذ عبدالله كنون طائفة[٢] كبيرة من المنظومات والشروح والحواشى والدراسات المنطقية فى عصر العلويين ، نذكر منها أرجوزتى القادرية لعبد السلام القادرى المتوفى سنة ١١١٠ هـ/ ١٦٩٩ م والخريدة لحمدون بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/ ١٨١٧ م . وشَرَح سلم الأخضرى الجزائرى اليوسى المتوفى سنة ١١٠٢ هـ/ ١٦٩١ م وشَرح السلم أيضا بنانى . ومن الحواشى حاشية على شرح سعيد قدورة الجزائرى لسلم الأخضرى لابن منصور الشفشاوى المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/ ١٨١٧ م وحاشية أخرى له على شرح البنانى للسلم . وكل ما تقدم دليل على أن المغرب الأقصى ظل يعنى بعلوم الأوائل من طب وغير طب على مر السنين .

٣

علوم اللغة والنحو والعروض والبلاغة

أخذ المغرب الأقصى يُعْنَى بعلوم اللغة والنحو منذ القرن الخامس الهجرى ، بل ربما بدأت العناية بهما منذ قيام الدولة الإدريسية وَبَعْثها بفاس والمغرب الأقصى عامة حركة علمية قوامها العلوم الدينية وما يتبعها من علوم اللغة والنحو ومدارسة ما ألف فيهما مما هيَّأ لنشوء طائفة مبكرة من الكتاب والشعراء . ولاشك أن لمعلمى الكتاتيب ومقرئى القرآن فضلا كبيرًا فى هذا الجانب إذ كانوا يأخذون الناشئة بتعلم العربية ومعرفة بعض الألفاظ القرآنية ودلالاتها اللغوية وكذلك ألفاظ بعض ما يلقون عليهم من الأشعار . ولا نغلو إذا قلنا إن قراء الذكر الحكيم كانوا دائما لغويين ونحاة ونرمز إلى ذلك فى عصر المرابطين بمروان بن عبد الملك بن سَمَجون المتوفى بطنجة سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م فقد ذكر عنه ابن عبد الملك المراكشى أنه تصدَّر قديما لإقراء القرآن ،وكان مقرئًا مجودا ذا حظ من الشعر يذهب فيه إلى التقعير[٣] وكان لغويا يستظهر الغريب فى أشعاره إلى حد التعمق اللغوى البعيد .

---

(١) راجع حجى ١٥٩/١ .

(٢) النبوغ المغربى ٣١٤/١ .

(٣) الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ٣٧٢/٢/٨ .

ونمضى فى عصر الموحدين ونلتقى بمحمد[1] بن أحمد بن هشام المشهور باسم ابن هشام اللخمى مستوطن سبتة المتوفى سنة ٥٧٧ هـ/١١٨١ م وكتابه فى لحن العوام الذى سماه « المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان » كتاب نفيس ، حققه الدكتور خورسيه بيريث لاثار تحقيقا علميا قيما وطبعه معهد التعاون مع العالم العربى بالمجلس الأعلى للأبحاث العلمية فى مدريد . ومن قوله فى مقدمته : « أول ما يجب على طالب اللغة تصحيح الألفاظ العربية المستعملة التى حرَّفتها العامة عن موضعها وتكلمت بها على غير ما تكلمت بها العرب فى ناديها ومجتمعها » وبدأ الكتاب بمراجعة الزبيدى الأندلسى فى كتابه لحن عامة زمانه وتخطئته لها فى ألفاظ للعرب فيها لغتان وبين ما وقع فيه من السهو والغلط ، وذكر بعده أوهام ابن مكى الصقلى فى كتاب تثقيف اللسان . ثم عقد بابا لما جاء فيه عند العرب لغتان أو أكثر ، واستعملت منهما العامة لغة ضعيفة ، وربما عدلت إلى اللحن . وأتبعه بباب لما تلحن فيه العامة ولا دليل عليه من لسان العرب وبباب لما جاء لشيئين أو لأشياء فقصروه على واحد وبباب لما تمثلت به العامة محرفا فى صيغته عن صيغته الأصلية عند الشعراء . والكتاب فى نحو ٤٣٠ صفحة رجع فيها مؤلفه إلى أبيات شعرية وأراجيز شغلت قوافيها فى فهارسه خمس عشرة صفحة من امرىء القيس إلى الشريف الرضى فى آخر القرن الرابع الهجرى . ولا يشك قارؤه فى أن المؤلف رجع فى هذه الدراسة إلى أمهات الكتب اللغوية ، وقد وضع لها المحقق فهرسا تضمن نحو خمسين كتابا كما وضع فهرسًا لمن ذكر فى الكتاب من اللغويين حتى ليبلغون فيه نحو تسعين . ولابن هشام اللخمى بجانب هذا العمل اللغوى القيم كتاب ما وقع فى أبيات كتاب سيبويه وشرحها للأعلم من الوهم والخلل ، وله شرح فصيح ثعلب وهو كتاب لغوى ملىء بالألفاظ الغريبة ، وله أيضا شرح مقصورة ابن دريد ، وهما من مراجعه فى كتابه عن لحن العامة . ويلقانا بعده من اللغويين فى عصر الموحدين أبو ذر مصعب[2] بن محمد بن مسعود الخشنى الجيَّانى الأصل المستوطن لفاس وكان عالما لا يبارى فى اللغة ونحويا أديبا وكفاه شرفًا شرحه لغريب السيرة النبوية العطرة ، وعليه اعتمد كل من نشرها فى العصر الحديث . ومن لغوى هذا العصر محمد[3] بن عيسى بن أصبغ المشهور باسم أبى عبد الله بن المناصف المتوفى بمراكش خطيبا بجامع بنى عبد المؤمن لسنة ٦٢٠ هـ/١٢٢٣ م وكان فقيها نظارًا جانحا إلى الاجتهاد مائلا إلى القول بمذهب الشافعى مناظرا عليه ، وكان حافظا للغات مليئًا من الآداب شاعرًا مجيدًا مرجِّزا مطبوعا ، وله أرجوزتان لغويتان : « المذهبة فى نظم الصفات من الحِلَى والشيات » وهى أرجوزة ألفية نظمها بمراكش ، وتلاها بأجوزة ثانية سماها المعقبة لكتاب المذهبة فى الأنعام والظباء وحمر الوحش والنعام وما يتعلق

---

(١) انظر فى ابن هشام اللخمى التكملة ٣٧٠ وبغية الوعاة ٤٨/١ .

(٢) انظر ترجمته فى التكملة : ٧٠٠ وجذوة الإقتباس ٦٣٦ .

(٣) انظر فى ابن المناصف ابن عبد الملك المراكشى ٣٤٥/٢/٨ .

بها » . ومن لغويى عصر الموحدين يوسف[1] بن موسى الهوارى المتوفى بمراكش سنة ٦٤٩ هـ/١٢٥٢ م وفيه يقول ابن عبد الملك إنه كان ماهرا فى علوم اللسان أدبا ولغة ونحوا ويذكر له أبياتا فى ترتيب حروف معجم العين للخليل وأبياتا أخرى فى ترتيب حروف الصحاح للجوهرى .

ونمضى إلى العصر المرينى ونلتقى بالشاعر مالك[2] بن المرحل المتوفى سنة ٦٩٩ هـ/١٣٠٠ م ونظمه لغريب القرآن الكريم ولفصيح ثعلب ،ولا نلبث أن نلتقى بأبى القاسم محمد بن أحمد الشريف الحسنى المتوفى سنة ٧٦٠ هـ/١٣٥٩ م وله شرح على مقصورة حازم القرطاجنى سماه : « رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة » وهو منشور ، ونلتقى بأبى زيد المكودى الفاسى المتوفى سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م وله البسط والتعريف فى علم التصريف ونظم المعرَّب من الألفاظ وشرح كتاب المقصور والممدود لابن مالك . وأخذت منذ العصر المرينى تؤلف كتب مختلفة فى غريب الحديث مثل « تحفة الناظر فى غريب الحديث » للرعينى الفاسى ، ومثل شرح غريب الموطأ لمالك وصحيح البخارى وكتاب الشهاب لابن منصور المغراوى السجلماسى . وتتكاثر الشروح والحواشى فى العصر السعدى للقصائد النبوية مثل البردة والهمزية للبوصيرى ومقصورة المكودى فى المديح النبوى ولبعض كتب اللغة مثل الصحاح للجوهرى ولبعض القصائد المشهورة مثل لامية العرب ولامية العجم وبعض الدواوين وخاصة ديوان المتنبى ، وشُرحت لامية الأفعال لابن مالك والشافية لابن الحاجب . وتظل هذه الاتجاهات فى التأليف اللغوى طوال عصر العلويين ، ويؤلف ابن زاكور[3] المتوفى سنة ١١٢٠ هـ/١٧٠٨ م شرحًا على حماسة أبى تمام باسم عنوان النفاسة فى شرح الحماسة وشرحا على قلائد العقيان للفتح بن خاقان باسم مقياس الفوائد فى شرح ما خفى من القلائد ، وشرحا على لامية العرب باسم تفريج الكرب بشرح لامية العرب ، ويؤلف محمد بن الطيب الشرقى المتوفى سنة ١١٧٠ هـ/١٧٥٦ م شرحا على كتاب المزهر للسيوطى باسم المسفر عن خبايا المزهر ، وحاشية على القاموس المحيط للفيروزابادى باسم إضاءة الراموس حاشية على القاموس وشرح على لامية الأفعال وضوء القابوس فى زوائد الصحاح على القاموس وحاشية على درة الغواص للحريرى ويعدِّد الأستاذ عبد الله كنون شروحا وحواشى أخرى فى اللغة لكثيرين[4] .

وكان النشاط فى النحو لا يقل عن النشاط فى اللغة إن لم يزد عليه زيادة كبيرة ، وأول نحوى كبير نلتقى به فى عصر المرابطين الحسن[5] بن على بن طريف المتوفَّى سنة ٥٠١ هـ/١١٠٧ م

(١) راجع فى يوسف ابن عبد الملك المراكشى بالجزء الأول ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٣٠ .

(٢) انظر فى أعمال مالك والشريف الحسنى والمكودى والرعينى والمغراوى النبوغ المغربى فى مواضع متفرقة ٨/٢/٤٣٧ .

(٣) انظر النبوغ المغربى ١/٣٢٣ .

(٤) راجع النبوغ المغربى ١/٣١٥ .

(٥) النبوغ المغربى ١/١٠٠ .

ظلّ يدرس النحو طوال عمره بسبتة ،وهو أستاذ القاضى عياض وغيره من علمائها فى عصر المرابطين ، ونلتقى بعده بعلى[1] بن محمد الجذامى المالقى الذى سكن سبتة واستوطنها إلى وفاته سنة ٥٣٠ هـ/١١٣٥ م وكان يقرىء بها الذكر الحكيم لطلابه ويدرس لهم قواعد العربية ، ومثله أحمد[2] بن الحطيئة الفاسى المتوفى زمن الموحدين سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م إذ كان مقرئا للذكر الحكيم كما كان نحويا . ولا نبالغ إذا قلنا إن جميع المقرئين يعدون نحاة ، إذ كانوا يحفّظون الصبيان ويقفونهم على حدود العربية كى ينطقوا بآى الذكر الحكيم نطقا سليما .

ولا يلبث أن يظهر فى المغرب الأقصى نحوى مهم هو عيسى[3] الجزولى المتوفى سنة ٦٠٧ هـ/١٢١٠ م وهو خريج ابن برى العالم النحوى اللغوى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢ هـ/١١٨٦ م فقد حج ومرّ بالقاهرة وأعجب فيها بمحاضرات ابن برى فى النحو وكان يدرس للطلاب كتاب الجمل للزجاجى ويناقش مسائل النحو فيه وقضاياه وانتظم الجزولى بين طلابه ، وسأله عن مسائل نحوية فأجابه عليها ، وأثبت كل ما دار فى محاضراته وكل ما أدلى به ابن برى من أفكار أو بعبارة أدق أثبت ما أدلى به فى « مقدمة » عاد بها إلى بلده وأخذ يدرسها للطلاب فى المغرب والأندلس ، ويعرّف به ابن عبد الملك فى الذيل والتكملة بقوله : جالب الكراسة المشهورة فى العربية عن أبى محمد بن برى نحويّ الديار المصرية قدم عليه ولازمه ، ومن كلام ابن برى المذكور على الجمل « للزجاجى » كتب ذلك التأليف المنسوب عند كثير من الناس إلى جالبه أبى موسى الجزولى باسم « الجزولية » ، ويقول القطفى إنه كان إذا سئل هل هى من تأليفك أجاب : لا ، لأنها فى واقع الأمر من تأليف ابن برى الذى كان يلقيه على طلابه فى محاضراته ودروسه ، ويقول القفطى أيضا : فيها كلام غامض وعقود لطيفة وإشارات إلى أصول صناعة النحو غريبة . وفى هذا كله ما يدل على أن المقدمة إنما هى محاضرات لابن برى ، وعلى عادة التلامذة حين يكتبون ما يسمعونه من أساتذتهم فى المحاضرة ويتركون بعض قطع منها وبعض عبارات حدث ذلك نفسه فى المقدمة التى حملها الجزولى عن أستاذه ابن برى ، ولو كان مؤلفا لها لخلت مما فى بعض عباراتها من غموض وما فيها من رموز وإشارات . على أن فى ذلك ما يدل بوضوح على أن عيسى الجزولى كان تلميذا بارا لأستاذه ابن برى ،فرأى أن يحتفظ فى المقدمة بنصوص كلامه ولا يضيف إليها شيئا ، فبدت فيها بوضوح هذه العيوب التى ذكرها القفطى . ومهما يكن فإنها هدية من مصر عن طريق ابن برى للمغرب الأقصى وقد عنى بها وشرحها كثيرون فى المغرب والأندلس وفى مقدمتهم الشلوبينى الأندلسى . وينزل المغرب الأقصى ابن خروف إمام النحو الأندلسى المشهور ، ويترك

(١) انظر ابن عبد الملك المراكشى ٥/٢٨١ . المدارس النحوية ص ٣٠٠ والذيل والتكملة لابن عبد الملك ٨/٢/٥٤٧ .

(٢) راجعه فى إنباه الرواة فى طبقات النحاة ١/٣٩ .

(٣) انظر الجزولى فى إنباه الرواة ٢/٣٧٨ وكتابنا

فيه تلامذة حملوا عنه كتاب سيبويه وشرحه له ،منهم ابن رحمون عبد الرحمن بن محمد المصمودى ، وكان من عِلْية شيوخ سبتة ، توفى سنة ٦٤٨ هـ/١٢٥١ م ومنهم محمد بن يحيى العبدرى الفاسى المتوفى شهيدا بجبل الفتح سنة ٦٥١ هـ/١٢٥٤ م .

ونلتقى فى أوائل عصر المرينيين بمحمد[١] بن الحسن الفهرى المعروف بابن المحلى وكلمة المحلى فى المغرب الأقصى تعنى – كما يقول ابن عبد الملك المراكشى – أنَّ أباه كان قوالا يغنى فى المحافل والأسواق . وكان محمد من تلاميذ ابن خروف وله تقييدات على كتاب سيبويه توفى سنة ٦٦١ هـ/١٢٦١ م . وما تلبث فاس أن تخرج إماما نحويا مهما هو ابن آجروم[٢] محمد بن محمد بن داود الصنهاجى المتوفى بفاس سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م وآجروم كلمة بربرية معناها الفقير الصوفى . وليس بين أيدينا شىء واضح عن نشأته وشيوخه ، ويقال إنه لقى أبا حيان النحوى الأندلسى بمصر وأخذ عنه فى طريقه إلى الحج . وقد طارت شهرته فى العالم العربى بمتن أو مختصر فى تعليم النحو للناشئة ، ويقال إنه وضعه لابنه أبى عبد الله ، وظلت طويلا الجوامع الكبرى والمدارس تفتتح تعليم النحو بهذا المختصر الذى يجمع المعالم الأساسية للنحو فيما لا يزيد عن خمس وعشرين صفحة بقطع الكف وكان الأزهر – إلى عهد قريب – يجعله أول ما يدرس لطلابه فى علم النحو إلمامه بقواعد النحو فى ترتيب بديع ، ويقول السيوطى فى ترجمته له بكتابه بغية الوعاة : إنه كان على مذهب الكوفيين فى النحو لأنه عبَّر عن الجر تسيم الرفع والنصب بالخفض ، كما عبرَّ الكوفيون وقال مثلهم فعل الأمر مجزوم لا مبنىّ كما يقول البصريون ، وذكر بين الأسماء الجازمة « كيفما » وهى لا تجزم فى رأى البصريين . وأولى من رأى السيوطى أن يقال إنه بغدادى مثل الزجاجى وأبى على الفارسى يختار من آراء المدرستين البصرية والكوفية ما يراه الأدق والأوفق ، فقد قال مع البصريين إن المنصوب بعد كان خبر لا حال كما يقول الكوفيون ، وقال فى التوابع البدل لا الترجمة ولا التبيين كما يقول الكوفيون ، وقال المنادى فى مثل يازيد مبنى على الضم لا معرب بغير تنوين كما يقول الكوفيون . ومن طريف تيسيراته للنحو أنه قال إن المضارع بعد كى ولامها ولام الجحود وحتى والفاء والواو منصوب بهذه الأدوات لا بأن مضمرة بعدها ، وبذلك أخذت فى وجوه تيسير النحو التى قدمتها إلى مجمع اللغة العربية وأقرَّها .ولم يهتم بمتن الأجرومية العالم العربى وحده فقد اهتم بها العالم الغربى أيضا ، فطبعها المستشرقون مرارا وترجموها إلى لغاتهم : اللاتينية والإنجليزية والفرنسية وكانت أولى طبعاتها عندهم فى روما سنة ١٥٩٢ للميلاد . ولابن العددى معاصر ابن آجروم فى قواعد العربية كتاب الكليات النحوية ، وكان ابن[٢] هانىء اللخمى السبتى معاصرهما المتوفى سنة ٧٣٣ هـ/١٣٣٣ م من أئمة العربية ، وكان يدرس النحو للطلاب ، ومن

(١) الذيل والتكملة ٥٢٠/٢/٨ .

(٢) انظره فى النبوغ المغربى ٢٢٠/١ .

مؤلفاته النحوية شرح كتاب التسهيل لابن مالك . ولأبي القاسم الشريف الحسني السبتي المار ذكره بين اللغويين شرح أيضا على التسهيل ، وكان يدرس لطلابه ألفية ابن مالك .

ومن كبار النحاة في عصر السعديين أحمد[1] بن قاسم القدومي المتوفى سنة ٩٩٢ هـ/١٥٨٤ م أستاذ الخليفة المنصور الذهبي السعدي ووُصف بأنه نحوي زمانه غير مدافع وقال ابن القاضي إليه انتهت رياسة النحو في عصره ، وله حاشية على شرح الألفية للمرادي في أربعة أجزاء . ومن أهم النحاة بعده قاسم[2] بن محمد بن القاضي المكناسي المتوفى سنة ١٠٢٢ هـ/١٦١٣ م وله شرح على ألفية ابن مالك انتفع به طلبته وشرح آخر على الأجرومية انتفعوا أيضا به ، وله أبيات في الأفعال التي على حرف واحد يعلمها طلابه ، منها قوله في الفعلين : في وعى[3] :

إني أقـول لمـن تزجى وقايتُه ... قِ المستجيرَ قيـاهُ قوه قَيْ قينا
وإن هُمُ لم يَعُوا قولي أقول لهم ... عِ القول وَيك عِياه عوه عيْ عينا

ويكثر النحاة في العصر العلوي ، ومنهم ابن الطيب الشرقي المار ذكره في اللغويين ، وله شرح[4] الكافية لابن الحاجب ، وشرح لامية الأفعال لابن مالك وحاشية على التسهيل لابن مالك ، وحاشية على شرح المرادي لألفية ابن مالك ، وحاشية على المغني لابن هشام ، وشرح الاقتراح في أصول النحو للسيوطي ، وعني بشرح كثير من الشواهد مثل شواهد الكشاف للزمخشري وشواهد البيضاوي المفسر وشواهد التوضيح لابن هشام وشواهد التلخيص للقزويني ، ويفيض الأستاذ عبدالله كنون في ذكر كتب النحو المؤلفة والشروح والحواشي ومؤلفيها في العصر بجانب ما ذكره من أعمال ابن الطيب الشرقي ، مما يدل على اتصال النشاط في الدراسات النحوية بالمغرب الأقصى طوال الأزمنة الماضية .

وكان الدارسون للنحو في كل تلك الأزمنة يعرضون – أو يعرض كثير منهم – على طلابهم عروض الشعر العربي كي يحسنوا النطق به إذا أنشدوه ، ولكي يعرفوا بدقة موازينه وقواعدها إذا أرادوا صنع شيء منه أو نظمه ، وأول ما نلتقي به من كتب هذا العلم كتاب في عصر الموحدين لأبي ذر مصعب الخشني الذي مر ذكره في أول الحديث عن اللغويين . ونلتقي في أوائل العصر المريني بمالك بن المرحل الذي مرَّ ذكره في الحديث عن اللغويين ، وله أرجوزه

(١) انظر في القدومي درة الحجال ١/١٥٦ وروضة الآس للمقري ص ٣٤ .
(٢) راجع في قاسم بن محمد روضة الآس ص ٢٢٥ والصفوة لليفرني ص ٩٥ والمنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور لابن القاضي (طبع الرباط) ص ٧٩٠ .
(٣) المنتقى ص ٧٩١ .
(٤) راجع النبوغ المغربي في مؤلفات ابن الطيب الشرقي وغيرها من مؤلفات العصر .

فى علم العروض ورسالتان[1] فى وزن الرباعيات وهما تعرضان وزنين للرباعيات أو الدوبيت كما سماها الإيرانيون ومعنى دو عندهم اثنان ، والوزن الأول فعلن متفاعلن فعولن فَعْلن والوزن الثانى فَعْلن فعلن مستفعلن مستفعلن . وكان ضياء الدين الخزرجى قد ألف متنا أو منظومة فى هذا العلم فشرحها أبو القاسم الشريف المار بين اللغويين وسمى شرحه باسم رياضة الأبيّ فى شرح قصيدة الخزرجى ، وهو أول من شرحها شرحا وافيا . ولابن رشيد محمد بن عمر الفهرى السبتى الرحالة المتوفى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م كتاب فى القوافى سماه : وصل القوادم بالخوافى فى ذكر أسماء القوافى ، وكتاب ثان سماه باسم كتاب فى العروض . ويذكر الدكتور حجى للعصر السعدى كتابين[2] فى علم العروض : كتابا لابن غازى باسم « إمداد بحر القصيد ببحرى أهل التوليد » ويقصد بأهل التوليد المولدين من الشعراء ، وببحريهما أو بوزنيهما بحر أو وزن المتدارك ، وهو وزن محدث فى العصر العباسى ، وبحر أو وزن الدوبيت أو بعبارة أخرى الرباعية ووزنها أيضا محدث . وقد ذكرت فى العصر العباسى الأول أنها بدأت مع بشار وأنها كثرت عند أبى نواس وأبى العتاهية وضربت لها بعض الأمثلة ومنذ القرن الخامس الهجرى يتخذ لها وزنان كما أسلفنا وبيَّن ذلك غاية التبيين مالك بن المرحل فى الرسالتين اللتين ذكرناهما آنفا . والكتاب الثانى الذى ذكره الدكتور حجى كتاب كافية النهوض فى صناعة العروض لعبد العزيز الرَّسْموكى . ونلتقى فى العصر العلوى بمحمد بن زاكور المذكور بين اللغويين ، وله شرح على منظومة الخزرجية باسم : « النفحات الأرجية والنسمات البنفسجية بنشر ما راق من مقاصد الخزرجية » كما نلتقى بحمدون بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/١٨١٧ م وله مقصورة فى العروض والقوافى .

وظل المغرب الأقصى يتدارس ما أنتجه المشرق فى علوم البلاغة والبديع من أعمال قيمة عند أمثال ابن المعتز وقدامة وابن وهب والحاتمى والآمدى والعسكرى والباقلانى وابن سنان الخفاجى وعبد القاهر الجرجانى والزمخشرى والسكاكى وابن أبى الإصبع ، مضيفين إلى ذلك مدارسة بعض أعمال مغربية وخاصة كتاب العمدة لابن رشيق ، وقد يتناولون أعمالا سابقة بالشرح على نحو ما صنع ابن رشيد بشرحه لكتاب فى التجنيس أو الجناس . ولم يلبث المغرب الأقصى أن أهدى إلى علوم البلاغة والبديع علمين فذين ، هما ابن البناء أحمد بن محمد بن عثمان الأزدى المولود بمراكش سنة ٦٥٣ هـ/١٢٥٦ م العالم الرياضى البارع الذى لا تزال كتبه أو بعضها تدرس إلى اليوم فى المغرب الأقصى المتوفى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م ، وأبو محمد القاسم بن محمد الأنصارى السجلماسى ، ولا نعرف شيئا

(١) انظر تعريفا بالرسالتين فى الجزء الخاص بالعراق فى المجلد الخامس من تاريخ الأدب العربى ص ٣٢٨ وهما منشورتان فى العدد الرابع من المجلد الثالث من مجلة المورد ببغداد .

(٢) انظر الحركة الفكرية ١/١٥١ .

عن تاريخ مولده ووفاته سوى أنه أملى كتابه فى البديع أو أنهى تأليفه سنة ٧٠٤ هـ/١٣٠٥م مما يؤكد أنه كان معاصرًا لابن البناء .

ومر ذكر ابن البناء فى حديثنا عن علوم الأوائل ، وقلنا هناك إنه بلغ الغاية فى مختلف العلوم الدينية واللغوية والبلاغية وفى العلوم الفلسفية ولاسيما فى الرياضيات والفلك . وعلى نحو ضبطه لقوانين الرياضة ضبط قواعد النحو فى كتاب سماه الكليات النحوية ، وأكبر الظن أنه وزع قواعد النحو فيه على كليات عامة تستقصى كل كلية مجموعة من قواعده . وبالمثل صنع بالبديع فى كتابه : « الروض[1] المَرِيع فى صناعة البديع » والمريع أى الخصب وكلمة البديع عنده تعنى بالضبط ما عناه بها ابن المعتز فى كتابه « البديع » إذ ساق فيه الصور البيانية من تشبيه وغير تشبيه والألوان البديعية من طباق وغير طباق والأصباغ البلاغية فى علم المعانى ، إذ ذكر بين محسنات الكلام الالتفات ورد الأعجاز على الصدور وتجاهل العارف وتأكيد المدح بما يشبه الذم والعكس والخروج من معنى إلى معنى ويشمل الاستطراد . وبذلك تضمن كتاب ابن المعتز علوم البلاغة جميعا وكان الزمخشرى أول من ميَّز بين علمى البيان والمعانى كما جاء فى مقدمة تفسيره : « الكشاف » وجعل علم البديع ذيلا لهما كما يقول السيد الجرجانى فى شرحه لكتاب المفتاح للسكاكى . وبهذا التصور كتب السكاكى وتوالت بعده الكتب البلاغية تجمع بين هذه العلوم لثلاثة : البيان والمعانى والبديع ، غير أن بعض علماء البلاغة رأى أن يعود إلى التعبير بكلمة البديع عن كل هذه العلوم على نحو ما يلاحظ عند ابن أبى الإصبع المصرى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ/١٢٥٧ م فى كتابه « بديع القرآن » . فكلمة البديع عنده — كما عند ابن البناء — تعنى علوم البلاغة من بيان ومعان وبديع ، وقد بلغ تعداد محاسنها وقواعدها عند ابن أبى الإصبع فى كتابه : « بديع القرآن » مائة قاعدة ونيِّفا ، وبلغت فى كتاب ثان له باسم : « تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن » مائة وخمسا وعشرين قاعدة . وكأنما رأى ابن البناء بعقله المنطقى أن ييسر تصورها على الدارسين بوضع كل مجموعة من القواعد الجزئية الكثيرة عند البلاغيين فى قاعدة كلية تجمعها أو قل تجمع ما رآه حريا ببيانه وتوضيحه ، وهو يقدم لكتابه بتوطئة — أو كما نقول الآن بتمهيد — يتحدث فيها عن تأليفه للكتاب وغرضه منه قائلا :« غرضى أن أقرر فى هذا الكتاب من أصول صناعة البديع ومن أساليبها البلاغية ووجوه التفريع [فيها] تعريفا غير مخلٍّ ، وتأليفًا غير مملٍّ ، يصغر جرمه ويكثر علمه .. ومنفعته فى زيادة المِنَّة ، وفهم الكتاب والسنَّة » ويريد بزيادة المنة زيادة القدرة على فهم البلاغة القرآنية والنبوية وتلى ذلك ثلاثة أبواب : والباب الأول مقدمات فى الدلالة والكلام والبديع وهو فى ثلاثة فصول أولها يتناول الدلالة وارتباطها باللفظ والمعنى فى أقسامها ،

(١) حقق هذا الكتاب ونشره الأستاذ رضوان بنشقرون فى الدار البيضاء بالمغرب الأقصى .

والفصل الثانى فى أقسام الكلام من حيث الصياغة إلى منظوم ومنثور ومن حيث المخاطبات إلى برهان وجدل وخطابة وشعر ومغالطة ، ومن حيث الواقع إلى حقيقة ومجاز ، ومن حيث مواجهة المعنى للغرض إلى القواعد الكلية الأربع التى سيعرض لها فى الباب الثانى ، ومن حيث دلالته على المعنى إلى القواعد الكلية الثلاث التى يذكرها فى الباب الثانى . والفصل الثالث فى صناعة البديع ، وفيه يذكر أن البلاغة قد تكون فى الإيجاز أو فى المساواة أو فى التطويل ، أما الفصاحة فصفة للفظ وسهولة مخارجه وعذوبته فى السمع ، والصناعة المتكفلة بذلك هى صناعة البديع التى تعرض القوانين الكلية وما يندرج تحتها من الجزئيات . ويحاول أن يصل بين البديع وبين البلاغة والبيان . وفى الباب الثانى يتحدث عن أقسام اللفظ من جهة مواجهة المعنى ، ويجعله فى أربعة فصول أو أربع كليات عامة الفصل الأول أو الكلية الأولى فى الخروج من شىء إلى شىء وتشمل ما يسمى بالتخلص من موضوع إلى موضوع كما تشمل الإدماج وهو أن يدمج المتكلم غرضا فى غرض والتفريع والاستطراد والخروج من إثبات شىء إلى نفيه أو العكس والاعتراض والالتفات . والفصل الثانى أو الكلية الثانية تشبيه شىء بشىء ، وتشمل صور التشبيه التشابه فى النسب ويدخل فيها مراعاة النظير والمقابلة والطباق . والفصل الثالث أو الكلية الثالثة تبديل شىء بشىء وتشمل الاستعارة والتمثيل وتبادل الكلى مع الجزئى والعكس وتبادل الحقيقة مع المجاز والواجب مع الممكن وإبدال المدح بصورة الذم والعكس والخبر مع الطلب والعكس وما كان مع ما يكون والعكس . ويفسح لمسألة لغوية هى وصف المؤنث بصيغة المذكر والعكس مثل امرأة صبور ورجل علامة . والفصل الرابع أو الكلية الرابعة تفصيل شىء بشىء ويدخل فيه التقسيم والتشكيك والتضمين أو الإيحاء ثم الاتساع بدلالة البيت دلالات مختلفة ، والتوضيح ، وهو مصطلح غير واضح فى التعبير عن مراده ، وهو عند الرمانى حسن البيان . والباب الثالث أقسام اللفظ من جهة الدلالة على المعنى وهو فى ثلاثة فصول ، الفصل الأول أوالكلية الأولى عن الإيجاز وأدخل فيه الحذف اللغوى كحذف العائد والمضاف والصفة والموصوف . والفصل الثانى أوالكلية الثانية عن الإكثار ومنه الاستظهاروهو استغناء القول عن تكملته ومجىء الصفات أوالنعوت للتخصيص بعد النكرات وللتعيين بعد المعارف ، ومنه التذييل والتتميم أو التكميل والتسوير وهو التعميم بعد التخصيص أوالعكس ، ومنه الترادف . والفصل الثالث أوالكلية الثالثة التكرير ومنه قبيح ومفيد ، ويكون للتقرير أوللتأكيد أو للمقايضة أو للتصدير أو للترديد ، ومنه المشترك اللغوى والبيانى ، ومنه التجنيس وفرَّعه نحو اثنى عشر فرعا . وإنما أطلت فى عرض هذا الكتاب لأدل بوضوح على أن ابن البناء استطاع أن يخضع البديع أوالبلاغة للمنطق ، وان يجعل لها سبع كليات تضمنت أبواب علم البديع أو علوم البلاغة كما كان يتصورها عصره منذ ابن أبى الإصبع مع إضافة بعض مسائل لغوية وأظهر فى ذلك ذكاء وبراعة فائقين وقد حقق الكتاب تحقيقا سديدا وقدم له بدراسة

قيمة الأستاذ رضوان بنشقرون رادًا كثيرا من مسائله إلى كتب المشارقة البلاغية والعمدة لابن رشق .

وعلى ضوء هذا الكتاب وإخضاع علم البديع فيه للمنطق مع إدخال بعض المسائل اللغوية على المصطلحات البديعية ألف معاصرلابن البناء هو أبو محمد القاسم السجلماسى كتابه : « المنزع البديع فى تجنيس أساليب البديع[1] وكلمة البديع عنده – كما عند ابن البناء وابن أبى الإصبع وابن المعتز – تشمل كل صور البيان وألوان البديع ومحسنات المعانى ووجوهها البلاغية المختلفة ، وواضح من اسم الكتاب أنه أراد أن يجارى ابن البناء فى وضع جنس كلى لكل مجموعة من قواعد البديع الجزئية الكثيرة ، ورأى أن يخالفه فى الأجناس التى جعلها كليات وعنوانا للفصول السبعة فى البابين الثانى والثالث فى كتابه ، وهى عنده عشرة هى : الإيجاز – التخييل – الإشارة – المبالغة – الرصف – المظاهرة – التوضيح – الاتساع – الانثناء – التكرير . وهو يلتقى مع ابن البناء فى الإيجاز ويُدْخل فيه الحذف اللغوى مثله ، غير أن ابن البناء يستنبط منه أربع صيغ بلاغية بينما يستنبط السجلماسى أكثر من عشر صيغ بلاغية ، وتقسَّم فى أثناء ذلك الصيغ تقسيمات كثيرة ، إذ ينقسم الجنس إلى فروع والفرع ينقسم إلى فريعات أو غصون ، والغصون تنقسم إلى غصينات دون أن تميز هذه الأقسام المتولدة والمتنوعة بأسماء تعيِّنها ، فمثلا عنده المفاضلة ويعنى بها النقص عن المضمون فى الكلم : نوع من الإيجاز ، وهى نوعان وكأنها جنس متوسط ، والنوع الأول من نوعيها الاختزال ، والاختزال بدوره نوعان: اصطلام أى قطع وبتر ، وحذف وهو بدوره نوعان : إطلاق وانتهاك، والانتهاك أنواع . وهى صعوبة واضحة فى الكتاب ،غير أن فيه ذكاء بارعا وقدرة منطقية إلى أقصى حد ممكن . ونترك جنس الإيجاز إلى جنس التخييل وما يتصل به من التشبيه والاستعارة والمجاز وهو يقابل عنده الفصل الأول من الباب الثانى عند ابن البناء الخاص بكلية التشبيه ، والتعبير بالتخييل أدق غير أنه لم يضع فيه الكناية ، إذ عقد لها الجنس الثالث فى كتابه ، ولكن لا باسمها وإنما باسم الإشارة ، والبلاغيون قبله يدخلون فى أنواعها كل ما سماه من أنواعها وفروعها ما عدا حذف الحروف من الكلمة المذكور فى آخر جنسها أوحذف بعض الجمل ويسمونه باسم الاكتفاء . والجنس الرابع عنده المبالغة ، وأحسن حين جعل لها جنسا خاصا وقدبدأها بالصيغ اللغوية المستعملة فى المبالغة مثل حَسَّان – طُوال – رَحْمن – شرِّير غير أنه استكثر من أنواعها حتى بلغت نحو المائة واستغرقت اللغة – فيما بعد صفحات كثيرة كما فى ٣٠٦ إلى ٣٠٨ وأيضا فإنه أدخل فيها كثيرا من صيغ المجاز المرسل كتسمية السبب باسم المسبب وعكسه وتسمية الشىء بأولاه وبعقباه . والجنس الخامس الرصف ويعنى به نَسق الكلام وترتيبه ، ويدخل فيه التسهيم ،

(١) حقق هذا الكتاب ونشره الأستاذ علال الغازى فى مكتبة المعارف بالرباط .

وهو أن يشهد أول الكلام بآخره كما يدخل فيه التقسيم والمقابلة والالتفات أو مراجعة المعنى الماضى . والجنس السادس المظاهرة ويدخل فيها المطابقة وهى الجناس باللفظ المماثل ، والمكافأة وهى الطباق وتشمل المقابلة ، كما تدخل المقايضة فى مثل قوله عز وجل : ﴿تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل﴾ ويسميه ابن أبى الإصبع فى كتابه بديع القرآن : « العكس والتبديل » وتدخل المزاوجة وهى بنفس الاسم عند ابن أبى الإصبع (ص ٢٨ من بديع القرآن) كما يدخل التصدير وهو رد الأعجاز على الصدور عند ابن أبى الإصبع فى كتابه تحرير التحبير ص ١١٦ ، ويقول إن المتأخرين سموه التصدير ، ويدخل الترديد وهو بنفس الاسم عند ابن أبى الإصبع (ص ٩٦ من بديع القرآن) . والجنس السابع التوضيح ، وكان ينبغى أن يسميه حسن التوضيح لأن التوضيح من حيث هو لا يعد بديعا ، ولذلك سماه الرمانى حسن البيان وفى رأيى أن السجلماسى تابع فى ذلك ابن البناء غير أنه تحدث عنه كنوع فى الفصل الرابع أوالكلية الرابعة الخاصةبتفصيل شىء بشىء وجعل منه التفسير كما صنع السجلماسى ، وكان حريا به أن يجعله فرعا لأحد الأجناس كجنس الوصف . والجنس الثامن الاتساع وهو أن يحتمل القول أو البيت معنيين أو أكثر ، وذكره ابن أبى الإصبع (ص ١٧٣ من بديع القرآن) كما ذكره ابن البناء فى الفصل الرابع أو الكلية الرابعة من الباب الثانى فى كتابه ، ولم يتسع السجلماسى بالحديث فيه ، وكان حريا أن لا يعقد له جنسا مستقلا . والجنس التاسع الانثناء ، وهو بأنواعه الأصلية والفرعية يقابل الفصل الأول أو الكلية الأولى من الباب الثانى عند ابن البناء وهى الخروج من شىء إلى شىء . وربما كانت تسمية الكلية على هذا النحو أدق من تسمية الجنس عند السجلماسى .

والجنس العاشر التكرير وهو نفس الكلية الأخيرة عند ابن البناء ، والتجنيس مفرَّع عنده إلى نفس فروعه عند ابن البناء ، وهما يلتقيان فيها مع ابن أبى الإصبع (ص ٢٧ من بديع القرآن وص ١٠٢ من تحرير التحبير) . ومواضع الالتقاء بين ابن أبى الإصبع والسجلماسى كثيرة ، وبيانها يحتاج إلى مقابلات وتفصيلات لاتسعها هذه الدراسة . وإنما ذهبت إلى أن ابن البناء هو الذى ألف كتابه أولا ثم ألف السجلماسى كتابه لأنه أخذ منه فكرة الجنس الكلى للقواعد البديعية ، وفكرة إدخال مسائل لغوية كثيرة فى دراسة البديع ، مع الاشتراك فى أسماء بعض الأجناس والكليات والمصطلحات وفى كثير من التعريفات والأمثلة والشواهد ، وكأن ابن البناء هو الذى بدأ فكرة الكليات التى صدر عنها فى كتابه الكليات النحوية وفى هذا الكتاب الخاص بالبديع . والسجلماسى هو الذى انتهى بها إلى الغاية – على هدى علم المنطق – إذ استحالت فكرة الكلية عنده إلى فكرة الجنس وأنواعه ، ومضى فى الكتاب يطبق المنطق بقضاياه ومقولاته وأقيسته ولا يخفى ذلك بل يصرح به مرارا ، حتى لينقل كلامه بنصه مرارا (انظر الفهرس) ومما لاريب فيه أن السجلماسى حاول جاهدا أن يمنطق البديع ، وتم له ذلك ، غير أنه توسع

فى التفريعات على نحو ما يتضح فى تفريعاته على الإيجاز والمبالغة والمظاهرة والتكرير ، ولعل ذلك كان أهم سبب فى أن الكتاب لم يكتب له ولا لمنهجه الذيوع والانتشار فى حلقات دراسة البلاغة والبديع فى البيئات العربية حتى فى بيئة المغرب الأقصى نفسها مع أن فيه أمثلة وشواهد بديعية رائعة تشهد للسجلماسى بحسن ذوقه ورهافة حسّه البديعى أو البلاغى . وقد بذل الأستاذ علال الغازى جهدا واضحا فى تحقيقه لهذا الكتاب ودراسته وما صنع له من فهارس مختلفة .

ونعجب أن ينصرف المغرب الأقصى – بعد السجلماسى – عن الإكباب على كتابه بالدرس والشرح وأن يعنى – مثل مصر والشام – بدراسة كتاب التلخيص للقزوينى المتوفى سنة ٧٣٩ هـ/١٣٨٩ م ولعلى الياصلاتى فى العصر السعدى حاشية على شرح السعد لتلخيص القزوينى وهو تلخيص لعلوم البلاغة الثلاثة : البيان والمعانى والبديع ، ولحمدون بن الحاج فى العصر العلوى المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/١٨١٧ م حاشية على الشرح المختصر لسعد الدين التفتازانى لتلخيص القزوينى .ومن يرجع إلى الفصل الذى عقده حاجى خليفة فى كتابه : « كشف الظنون » لتلخيص القزوينى يشعر أنه أصبح المسيطر على كل الأبحاث البلاغية فى العالم العربى ، وقد أقبل عليه الشراح يشرحونه يشرحه المغربى والمصرى والعراقى وغيرهم وقد يضعون على الشروح شروحا ، ويسمونها حواشى ، بحيث أصبح هو وتلك الشروح والحواشى المادة الأساسية لتعليم البلاغة بفروعها المختلفة من بيان ومعان وبديع فى جميع الأقطار والبلدان العربية .

٤

علوم[1] القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

يعنى المغرب الأقصى – من قديم – بقراءات القرآن الكريم ، ومن أهم قرائه – قبل عصر المرابطين – أبو عمران موسى بن عيسى الفاسى ، أخذ القراءات عن أئمتها فى القيروان ومصر ومكة وبغداد ، وأقرأ الناس بالقيروان مدة . وكان يعاصره سليمان بن أحمد الطنجى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ/١٠٤٨ م رحل إلى مصر وبرع فى القراءات كما يقول ابن الجزرى . ونزل سبتة

(١) انظر فى تراجم القراء والمفسرين والمحدثين والفقهاء والمتكلمين طبقات القراء لابن الجزرى والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى والديباج لابن فرحون والمتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور السعدى وما وضع محققه فى هوامشه من مصادر لبعض الأعلام وكتاب النبوغ المغربى لعبد الله كنون وحضارة الموحدين لمحمد المنونى ومظاهر الثقافة المغربية فى الأدب المغربى بالعصر المرينى لمحمد بن شقرون والحركة الفكرية بالمغرب لمحمد حجى والحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة المغربية للأخضر .

قبل عصر المرابطين على بن عبد الغنى الحصرى المتوفى بطنجة سنة ٤٦٨ هـ/١٠٧٥ م وله قصيدة رائية مشهورة فى قراءة نافع . ونلتقى فى عصر المرابطين بالمقرئين : مروان بن سَمْجون المتوفى سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٧ م وَلِيَ الصلاة والخطبة بسبتة وتصدَّر قديما لإقراء القرآن وكان – كما يقول ابن الجزرى – مقرئا مجودًا لغويا ، وعلى بن محمد الجذامى نزيل سبتة المتوفى سنة ٥٣٠ أقرأ بها القرآن ودرَّس العربية زمانا ، وأبو بكر محمد الفَلَنْقَى نزيل فاس المتوفى بها سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨ م وكان إماما فى صناعة الإقراء ، وله كتاب فى القراءات سماه : الإيماء . ومن القراء فى عصر الموحدين علىبن محمدبن هذيل المتوفى سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٨ م وإليه انتهت رياسة الإقراء فى شرقى الأندلس ، وعلى بن أحمد الكنانى المستوطن لفاس المتوفى بها سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٣ م التزم الإمامة بمسجده فى فاس والإقراء فيه ستا وستين سنة ، وابن خير محمد المتوفى سنة ٥٧٥ هـ/١١٧٩ م وهو من أئمة المقرئين والمحدثين ، ولد ونشأ بفاس واستوطن إشبيلية ، وله فهرسة مشهورة ومنشورة بشيوخه وما اطلع عليه من كتب ، وكانت له أسانيد فى القراءات متواترها وشاذها فى مجلد خاص . ومن القراء فى هذا العصر عبد الرحمن الجذامى المتوفى سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م تصدَّر للإقراء بسبتة فى مسجد زقاق الخشابين نحوا من ستين سنة ، وابن الصقر محمد بن أحمد الأنصارى المراكشى المتوفى سنة ٥٩٠ هـ/١١٩٣ م وكان مقرئا مجوِّدا محدثا متسع السماع ، ويحيى بن محمد الهوزنى المتوفى سنة ٦٠٢ هـ/١٢٠٥ م تصدر للإقراء بسبتة وله أرجوزة فى غريب القرآن ، وعلى بن محمد بن يوسف الفهمى المتوفى سنة ٦١٧ هـ/١٢٢٠ م سكن سَلا ثم مراكش وكان قائما على القراءات آية من آيات الله – كما يقول المراكشى – فى حسن الصوت ضريرا وسمعه المنصور يعقوب صاحب موقعة الأرك فأخذ بلُبِّه طيب نغمته ، فقربه واستخلصه لتعليم أبنائه وبناته ، وأبو عبد الله محمد بن الحسن الفاسى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ويقول ابن الجزرى إن له شرحا على الشاطبية .

ومن القراء فى عصر المرينيين ابن رشيد صاحب الرحلة المشهورة المتوفى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م بمراكش وكان يروى قصيدة حرز الأمانى المعروفة باسم الشاطبية . وابن آجروم معاصره المار ذكره بين النحاة وله شرح على الشاطبية ، وابن برى التازى على بن محمد المتوفى بفاس سنة ٧٣٠ هـ/١٣٣٠ م وله منظومة فى قراءة نافع أحد القراء السبعة سماها الدرر اللوامع . وابن هانىء محمد بن على اللخمى السبتى المتوفى شهيدا بجبل الفتح سنة ٧٣٤ هـ/١٣٣٤ م وكان أستاذا فى القراءات والنحو ، وأبو القاسم بن عمران الحضرمى السبتى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ/١٣٥٠ م وله كتاب الكافى فى القراءات ، ومحمد بن محمد بن إبراهيم الخراز المتوفى سنة ٨١٨ هـ/١٤١٦ م صاحب كتاب مورد الظمآن فى حكم رسم أحرف القرآن أتى فيه بزوائد على سابقيه ، وله شرح على قصيدة الحصرى فى القراءات . ومن القراء فى عصر السعديين محمد بن أبى جمعة المبطى الصماتى المتوفى سنة ٩٣٠ هـ/١٥٢٤ م مؤلف

كتاب وقف القرآن ذكر فيه الكلمات القرآنية التى يوقف عليها من سورة الفاتحة إلى سورة الناس ، ولا يزال العمل جاريا فى المغرب الأقصى إلى الآن فى كتابة المصاحف على ما وضعه ودوّنه فى هذا الكتاب . ولأحمد بن شعيب المتوفى سنة ١٠١٥ هـ/١٦٠٧ م إتقان الصنعة فى قراءة السبعة ، ولعبد الواحد بن عاشر أستاذ القراءات المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ/١٦٣١ م شرح على مورد الظمآن فى حكم رسم أحرف القرآن للخراز . ومن القراء فى عصر العلويين عبد الرحمن بن القاضى المتوفى سنة ١٠٨٢ هـ/١٦٧٢ م وله منظومة فى القراءات السبع ، ومنظومة ثانية فى رسم المكى فى القرآن ، وكتاب فى قراءة ابن كثير عالم أم القرى (مكة) وكتاب بيان الخلاف والشهير والاستحسان وما أغفله مورد الظمآن لابن الخراز . وعبد الرحمن المنجرة الصغير المتوفى سنة ١١٧٩ هـ/١٧٦٦ م وله حاشية على شرح التونسى المسمى الطراز فى شرح ضبط الخراز فى رسم أحرف القرآن ، وله أيضا حاشية على شرح عبد الواحد بن عاشر المسمى فتح المنان على مورد الظمآن للخراز ، ومحمد بن عبد السلام الفاسى حاشية على شرح الجعبرى على الشاطبية المسماة حرز الأمانى ، وله كتاب فى تجويد القرآن ، وكتاب ثان فى طبقات المقرئين وكتاب ثالث فى مخارج الحروف .

وظل المغرب الأقصى يعتمد فى تفسير القرآن الكريم على ما ألفه المشرق فيه من كتب حتى إذا كنا فى عصر المرابطين أخذ يظهر فيه بعض المفسرين مثل أبى بكر السبتى محمد بن يعلى المعافرى خال القاضى عياض ، وله تفسير لم يتم . وينشط غير عالم مغربى لتفسير الذكر الحكيم فى عصر الموحدين مثل عبد الجليل القصرى من أهل مدينة القصر الكبير المتوفى بسبتة سنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م وله تفسير للقرآن كان يقع – فيما يقال – فى ستين مجلدا ، وابن مصالة الفازازى المكناسى المستوطن بأخرة « فاس » المتوفى بعد سنة ٦١١ هـ/١٢١٤ م وكان طوال حياته معتنيا بتفسير القرآن ، وأبى الحسن بن الحصار على بن محمد الأنصارى الفاسى المتوفى سنة ٦٢٠ هـ/١٢٢٣ م سكن سبتة ومراكش وغيرهما وله الناسخ والمنسوخ فى القرآن ثلاث نسخ : الأكبر والأوسط والأصغر ومقالة فى إعجاز القرآن وأنشد له ابن عبد الملك المراكشى قصيدة رائية فى اثنين وعشرين بيتا نظمها فى المدنى والمكى من سور القرآن ، ومحمد بن يوسف المزدغى المتوفى سنة ٦٥٥ هـ/١٢٥٨ م أقرأ بسبتة وفاس وَوَلِىَ الخطبة والصلاة بجامع القرويين فيها إلى وفاته ، وله تفسير حفيل مفيد انتهى فيه إلى سورة الفتح . ومن المفسرين فى عصر الدولة المرينية أحمد بن فرتون السلمى الفاسى المتوفى سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦٢ م وهو تلميذ ابن مصالة المار ذكره وله كتاب الاستدراك والإتمام بما فى كتاب السهيلى : التعريف والإعلام بما أبهم فى القرآن العزيز من الأسماء والأعلام ، ومحمد بن على بن العابد الأنصارى الفاسى نزيل غرناطة وبها كتب لابن الأحمر ، وله اختصار الكشاف للزمخشرى مع تجريده من آرائه الاعتزالية توفى سنة ٦٦٢ هـ/١٢٦٤ م ولابن البناء المار ذكره

فى الرياضيين والبلاغيين الباء فى البسملة ، وتفسير الاسم فيها ، وتفسير سورة الكوثر ، وتفسير سورة العصر ومتشابه اللفظ فى القرآن ، وتسمية الحروف وخاصية وجودها فى أوائل السور ، وحاشية على الكشاف للزمخشرى . ونلتقى فى القرن التاسع الهجرى بأبى القاسم السلوى وله تفسير للقرآن الكريم .

ومن المفسرين فى العصر السعدى ابن الحاج الشطيبى المتوفى سنة ٩٦٠ هـ/١٥٥٣ م وله اللباب فى مشكلات الكتاب ، وللمنصور الذهبي المتوفى سنة ١٠١٤ هـ/١٦٠٦ م حاشية على الكشاف للزمخشرى وبالمثل لمحمد بن عبد الله الرجراجى قاضى تادلة تلميذ أبى العباس المنجور ، ومن مفسرى العصر عبد الله بن طاهر الشريف المتوفى سنة ١٠٤٥ هـ/١٦٣٦ م وله الدر الأزهر فى مناسبات الآيات والسور ، وعبد الرحمن العارف المتوفى سنة ١٠٤٦ هـ/١٦٣٧ م وله حاشية على تفسير الجلالين ، وعلى بن عبد الواحد الأنصارى السجلماسى ، وله تفسير للقرآن الكريم ، وتوفى سنة ١٠٥٤ هـ/١٦٤٥ م .

ومن المفسرين فى عصر العلويين إدريس العراقى المتوفى سنة ١١٨٣ هـ/١٧٦٩ م وله حاشية على تفسير الثعلبى ، وابن عجيبة المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ/١٨٠٩ م وله البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد ، وكان يعاصره الطيب ابن كيران المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ/١٨١٢ م وله تفسير سورة الفاتحة ، وتفسير جزء من سورة البقرة ، وتفسير من سورة النساء إلى سورة غافر . وكان يعاصرهما حمدون بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ/١٨١٧ م وله تفسير بعض سور القرآن الكريم وحاشية على تفسير أبى السعود وحاشية أخرى على تفسير البيضاوى ، ولعبد الرحمن الحائك المتوفى سنة ١٢٣٧ هـ/١٨٢١ م حاشية على تفسير الجلالين .

وينشط المغرب الأقصى فى رواية الحديث النبوى ويشتهر فيها بالقرن الرابع الهجرى أبو محمد الأصيلى عبد الله بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٩٢ هـ/١٠٠١ م وهو منسوب إلى مدينة أصيلا على المحيط الأطلسى وبها نشأ وارتحل فى طلب الحديث إلى الأندلس . ثم رحل إلى المشرق فلقى شيوخ القيروان ومصر وحجَّ فلقى بمكة سنة ٣٥٣ أبا زيد المروزى وحمل عنه البخارى ، وكان يعد من كبار رواته ، ولقى بها الأبهرى رئيس المالكية ، وروى كل منهما عن صاحبه كما لقى الدارقطنى المحدث الكبير ، وروى كل منهما أيضا عن صاحبه ، وسمع منه البخارى ، ثم سمعه من أبى أحمد الجرجانى ، وعاد يحمل نسخة وثيقة صحيحة من البخارى أدق صحة ، ونزل الأندلس وأمَّه العلماء والطلاب من كل بلد ، يحملون عنه صحيح البخارى ، ويدل بوضوح على مدى صحتها أن اليونينى الدمشقى فى القرن السابع الهجرى حين أخرج نسخة من صحيح البخارى صحيحة كل الصحة جلب أصل الأصيلى ، وكان أحد أربعة أصول

اعتمد عليها فى المقابلة واتخذ حرف (ص) رمزا له طوال مقابلاته على نحو ما يتضح فى طبعة مصر لصحيح البخارى منذ القرن الماضى .

ونلتقى بعده ببكار بن برهون بن عيسى الغرديس السجلماسى ، وكان قد حجَّ ولقى بمكة أباذر الهروى وسمع منه صحيح البخارى ، وعاد إلى المغرب يملى رواية البخارى عنه . ورواية أبى ذر كانت أحد الأصول الأربعة التى اعتمدها اليونينى فى مقابلاته لإخراج نسخته من صحيح البخارى على أدق صورة علمية ممكنة ، وتسامع العلماء والطلاب فى المغرب الأقصى بروايته ، فرحل إليه كثيرون من المغاربة والأندلسيين يأخذونها عنه وبذلك حظيت المغرب من قديم بروايتين أصيلتين من روايات صحيح البخارى ، وكان ابن الغرديس لا يزال على قيد الحياة سنة ٤٨٦ مما يجعله أول محدث كبير يلقانا فى عصر المرابطين . ومن تلامذته يوسف بن عيسى بن الملجوم المتوفى سنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٨م وقد أجاز له سنة ٤٨٦ هـ/١٠٩٣ م وحضر ابن الملجوم مع يوسف بن تاشفين موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م . وكان ابنه عيسى محدثا على مثاله ، وسمع منه ومن شيوخ عصره ورحل إلى سجلماسة .وسمع ابن الغرديس وأخذ عنه . وتُهْدى سبتة فى عصر المرابطين القاضى عياض إلى علوم الحديث ورواياته وقد توفى سنة ٥٤٤ هـ/١١٤٩ م وبذلك يكون قد لحق عصر الموحدين إذ عاش فى عصرهم بقية قليلة نحو خمس سنوات ، ومولده بسبتة سنة ٤٩٦ هـ/١١٠٢ م وله فى الحديث النبوى كتب مختلفة ، منها كتاب الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى ﷺ ، وشرَّق هذا الكتاب وغرَّب ، وكُتبت له شروح كثيرة ، ومنها إكمال المعلم بصحيح مسلم ، والمعلم لشيخه المازرى الصقلى المتوفى بالمهدية سنة ٥٣٦ هـ/١١٤١ م وقد أضاف إلى شرحه لمسلم زيادات وإضافات ، ومنها مشارق الأنوار فى تفسير غريب الحديث بكتبه الصحاح الثلاثة : الموطأ وصحيح البخارى وصحيح مسلم ، ويشمل ضبط ألفاظها وتفسيرها مع التنبيه على مواضع الأوهام والتصحيفات .

ومضت رواية الحديث النبوى والتأليف فيه يزدهران فى عصر الموحدين ، إذ كان خلفاؤهم يعنون به بل كان منهم من يكثر من مدارسته ، حتى نُسب إلى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أنه كان يحفظ أحد الصحيحين : صحيح البخارى أو صحيح مسلم كما يقول صاحب المعجب ، وكان ابنه يعقوب على غراره ، ونال عنده طلبة الحديث ما لم ينالوه فى أيام أبيه وجده كما يقول صاحب المعجب . ويقول ابن أبى زرع فى كتابه روض القرطاس عن ابنه المأمون إدريس (٦٢٤ هـ/ ١٢٢٧ م – ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م) إنه كان إماما فى الحديث ولم يزل أيام خلافته يقرأ كتاب الموطأ وكتاب صحيح البخارى وسنن أبى داود . ومن كبار المحدثين فى عصرهم أبو عبد الله بن الغازى السبتى محمد بن الحسن ، وكان راوية للحديث واستُقضى ببلده سبتة ، توفى سنة ٥٩١ هـ/١١٠٤ م ومنهم على بن عتيق المتوفى سنة ٥٩٨ هـ/١٢٠١ م وكان محدثا

راوية مكثرا عنى بالحديث طويلا ، ومنهم محمد بن قاسم بن عبد الكريم التميمى الفاسى المتوفى سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م رحل فى طلب الحديث النبوى إلى بلاد إفريقية التونسية والبلاد المصرية ودمشق وكان محدثا حافظا ذاكرا للحديث ورجاله وطبقاتهم وتواريخهم ، ومن مصنفاته « اللمعة فى ذكر أزواج النبى ﷺ وأولاده السبعة » ومنها الأغذية مما جاء فى الحديث ، ومنها تحفة الطالب ومنية الراغب فى الأحاديث النبوية العلية السنية ، ومنهم أبو عبد الله بن الصيقل محمد بن عبد الله الحسينى القاضى المتوفى سنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م كان راوية للحديث حافظا لمتونه بصيرا بعلله عارفا برجاله وطبقاتهم وتواريخهم ، عُنى بذلك أتم عناية ودرس الحديث ببلده فاس واستدرك على عبد الحق فى كتابه الأحكام الكبرى أحاديث كثيرة ، ومنهم أبو الحسن ابن القطان على بن محمد بن عبد الملك المتوفى سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م كان مستبحرافى علوم الحديث بصيرا بطرقه عارفا برجاله مميزا صحيحه من سقيمه ، وله فى الحديث مصنفات نافعة ، منها نقع الغلل فى الكلام على أحاديث السنن لأبى داود فى ثلاثة أسفار ضخمة ، ومنها كتاب فى الرد على ابن حزم فى كتابه المحلى مما يتعلق به من علم الحديث ، ومنها كتاب حافل جمع فيه الحديث الصحيح محذوف السند ، كمل منه كتاب الطهارة والصلاة والجنائز والزكاة فى نحو عشرة مجلدات ، وله أحاديث فى فضل التلاوة والذكر ، ومقالة فى نعت المحدِّثين الحديث بأنه حسن . ومن محدثى عصر الموحدين عمرو بن دحية الكلبى السبتى المتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٣ هـ/١٢٣٥ م تجوَّل كثيرا فى بلاد الأندلس والشمال الإفريقى والمشرق واستقر أخيرا فى القاهرة وأسند إليه السلطان الكامل رياسة دار الحديث وكانت له عنده حظوة عظيمة ، ومن مصنفاته الآيات البينات فى ذكر ما فى أعضاء رسول الله ﷺ من المعجزات ، والمستوفَى فى أسماء المصطفى ، ومنهم أبو عبد الله بن المواق المراكشى قديما الفاسى حديثا المتوفى سنة ٦٤٢ هـ/١٢٤٤ م وله شرح الموطأ وشرح مقدمة صحيح مسلم وتعقيب على كتاب شيخه أبى الحسن بن القطان فى نقده لكتاب الأحكام الكبرى لعبد الحق أظهر فيه دقة معرفته بصناعة الحديث وعلله مع براعة تعقيباته . ومنهم أبو الحسن الشارى على بن محمد المتوفى سنة ٦٤٩ هـ/١٢٥٢ م وكان محدثا راوية مكثرا ثقة عاكفا على العلم جماعة لنفائس الكتب انتقى منها جملة وافرة وقفها على مدرسة شيدها بسبتة ، ووقف عليها من أملاكه ما يفى بنفقاتها ونفقات المدرسين فيها والطلاب ، وهى مَنْقبة عظيمة له . ومنهم أبو الحسن بن قطرال قاضى الموحدين فى بلدان أندلسية ومغربية كثيرة المتوفى سنة ٦٥١ هـ/١٢٥٤ م وكان محدثا راوية ثقة فيما يحدِّث به صحيح السماع .

ومن أهم المحدثين فى عصر المرينيين أبو عبد الله الأزدى محمد بن عبد الله السبتى المتوفى سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦٢ م روى عن علماء بلدته ، ورحل إلى الأندلس وأخذ عن شيوخها ثم رحل إلى المشرق فأخذ عن جماعة وافرة من شيوخ مصر والإسكندرية ودمشق وحرَّان والموصل

وبغداد وواسط ، وعاد إلى بلدته سبتة فروى عنه كثيرون من أهلها ونزلائها ، وكان راوية مكثرا ثقة ، وكثير من مروياته عن أستاذه ابن الغازى السبتى المار ذكره . ومنهم ابن رشيد المار ذكره بين القراء ، وله السَّنَن الأَبْيَنْ فى السند المُعَنْعَن والمحاكمة بين مسلم والبخارى ، ومنهم ابن الشاط قاسم بن عبد الله السبتى المتوفى سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م أقرأ – عمره – بمدينة سبتة ، وله حاشية على صحيح مسلم . وشرَحَ كتاب الشفا للقاضى عياض غير محدِّث ، ومنهم فى القرن التاسع الهجرى الزمورى وابن السكاك المتوفى سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥ م . ولابن هلال المتوفى سنة ٩٠٣ هـ/١٤٩٧ م اختصار فتح البارى على صحيح البخارى لابن حجر .

ومن المحدثين الكبار فى العصر السعدى سُقَّين العاصمى السفيانى عبد الرحمن بن على القصرى المتوفى سنة ٩٥٦ هـ/١٥٤٩ م رحل إلى المشرق فى طلب الحديث سنة ٩٠٩ هـ/١٥٠٣ م وأخذ عن تلامذة ابن حجر : زكريا الأنصارى وغيره من الشيوخ المصريين ، وتجول فى السودان الغربى ورجع إلى فاس سنة ٩٢٤ هـ/١٥١٨ م وأخذ فى إقراء الحديث على الطلاب حتى وفاته . ومن أهم تلاميذه أحمد المنجور المتوفى سنة ٩٩٥ هـ/١٥٨٧م ويذكر فى فهرست شيوخه أنه قرأ عليه أو سمع منه كتب الصحاح الستة سوى مصنفات فى الحديث أخرى مما حمله عن المشارقة والمغاربة ، مما يدل على اتساعه فى الرواية . ومن محدثى العصر محمد بن قاسم القصار المتوفى سنة ١٠١٢ هـ/١٦٠٤ م ، وكان إماما فى رواية الحديث وكان يقرىء تلاميذه صحيحى البخارى ومسلم والشفا لعياض ، ومنهم عبد الرحمن العارف المار ذكره بين المفسرين وله حاشية على صحيح البخارى .

ومن المحدثين المهمين فى عصر العلويين محمد بن سليمان الرودانى المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ/١٦٨٣ م وله الجمع بين الكتب الخمسة والموطأ ، ويقصد بالكتب الخمسة صحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وجامع الترمذى وسنن النسائى ، وله كتاب ثان جمع فيه بين أربعة عشر كتابا من كتب الحديث سماه جمع الفوائد لجامع الأصول ومجمع الزوائد ضم فيه إلى الأصول الستة السابقة مسند الدارمى ومسند ابن حنبل ومسند أبى يعلى الموصلى ومسند البزار ومعاجم الطبرانى الثلاثة : الكبير والأوسط والصغير . ومن محدثى العصر إدريس بن محمد الحسينى الفاسى المتوفى سنة ١١٨٣ هـ/١٧٦٩ م وله شرح شمائل الترمذى ، وشرح الأحاديث المائة الأولى من الجامع الصغير للسيوطى وتخريج أحاديث الشهاب القضاعى والدرر اللوامع فى الكلام على أحاديث جمع الجوامع . ومنهم التاودى بن سودة المتوفى سنة ١٢٠٩ هـ/١٧٩٥ م وله زاد المجد السارى لمطالع البخارى ، وشرح الأربعين النووية .

ونشط المغرب الأقصى – منذ القرن الرابع الهجرى – فى الفقه نشاطا عظيما ، ودائما إذا أطلقنا الفقه فى أى بلد مغربى ولم نخصِّصه فإنه يراد به الفقه المالكى ، إذ عملت أسباب

مختلفة فى أن يصبح مذهب مالك هو المذهب الفقهى المنتشر بالمغرب فى كل البيئات وكل الأوساط وكل البلدان ، وقد يلقانا من حين إلى آخر فقيه شافعى ، إذ كان شباب العلماء يرحلون إلى مصر ، وكان المذهبان المالكى والشافعى يتنافسان فيها ، فربما اختلف بعض هؤلاء الشباب إلى حلقات الشافعية وأعجبهم مذهب الشافعى ، وقليل جدا من كانوا يعتنقون هذا المذهب على مر الحقب . وأهم فقيه مالكى نلتقى به فى المغرب الأقصى بالقرن الرابع الهجرى دراس بن إسماعيل الفاسى المتوفى سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٢ م ، ويقال إن الفقيهين القيروانيين المشهورين أبا الحسن القابسى وابن أبى زيد تتلمذا له ، كما يقال إنه هو الذى أدخل مذهب مالك إلى المغرب الأقصى وأنهم كانوا قبل ذلك على مذهب أبى حنيفة الذى كان يدعو إلى اعتناقه الأغالبة فى القيروان . وبعد دراس يلقانا تلميذه عبد الرحيم بن أحمد الكتامى المعروف باسم ابن العجوز السبتى المتوفى سنة ٤١٣ هـ/١٠٢٢ م لازم ابن أبى زيد القيروانى مدة وسمع منه كتابيه : النوادر والمختصر ، ونلتقى بأبى عمران الفاسى المار ذكره بين القراء ، وإليه انتهت رياسة الفقهاء فى القيروان ، وكان يعاصره عبد الله بن غالب المتوفى سنة ٤٣٤ هـ/١٠٤٢ م صحب ابن أبى زيد بالقيروان وتفقه عليه ، وكان يعاصرهما عثمان بن مالك الفاسى المتوفى سنة ٤٤٤ هـ/١٠٥٢ م زعيم فقهاء المغرب الأقصى فى وقته ، وله تعاليق على مدونة سحنون .

ويدخل عصر المرابطين ومن فقهائه مروان بن سمجون المار ذكره بين القراء ، وكان فقيها محدثا مفتيا . ويلقانا بعده على بن القاسم رأس أسرة بنى القاسم بن عشرة بسَلا المتوفى سنة ٥٠٢ هـ/١١٠٨ م وكان فقيها حافظا ومحدثا ووجيه أهل بلدته استُقْضى بها وأورث عقبه سؤددا وشرفا . وكان يعاصره أبو عبد الله التميمى الفاسى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ/١١١١ م وهو شيخ القاضى عياض الذى افتتح به فهرسته . ومن فقهاء عصر المرابطين عبد الرحمن بن محمد بن العجوز المتوفى سنة ٥١٠ هـ/١١١٦ م كان يدرس لطلابه المدونة واستقضى للمرابطين فى عدة بلدان بالأندلس والمغرب . ومنهم عبد الله بن على بن سمجون المتوفى سنة ٥٢٤ هـ/١١٢٩ م وكان فقيها حافظا للفروع عارفا بإقرائها وتدريسها والفقه فيها ، ولاه أسير المسلمين يوسف بن تاشفين قضاء الجزيرة ونقل منها إلى غرناطة سنة ٥٠٨ وظل بها إلى وفاته . ومنهم موسى بن عبد الرحمن الصنهاجى المتوفى بمراكش وهو قاضيها سنة ٥٣٥ هـ/١١٤٠م وكان عالما بالأحكام مقدما فى معرفتها حافظا للرأى ورعا .

ومع أن دولة الموحدين كانت تعتنق فى الفقه المذهب الظاهرى وتدعو إليه ، كما مرَّ بنا فى الفصل الماضى . فقد ظل المذهب المالكى حيًّا طوال العصر ، غير أن كتب التراجم لا توضح مدى حياته ولا مدى حياة المذهب الظاهرى ، إذ تترجم لفقهاء العصر ترجمات عامة ، ولا نعرف أيهم كان ظاهريا وأيهم كان مالكيا . وأومن بأن الكثرة من القضاة كانت ظاهرية

فضلا عمن كان منهم يتولى منصب قاضى القضاة ، إذ الناس على دين ملوكهم ، ولعل خير مثال لقاضى القضاة الظاهرى يوضح ما نزعم أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء قاضى القضاة أو رئيسهم فى عهد المنصور يعقوب ، فإنه فجَّر – على هدى المذهب الظاهرى فى الفقه – أكبر ثورة على سيبويه ونحاة المشرق بكتابه : « الرد على النحاة » إذ صوَّب فيها سهامه على نظرية العامل التى تعد الأساس الذى أقام عليه النحاة بناء النحو مقدِّرين أن العامل هو الذى يصنع الظواهر النحوية من رفع ونصب وجر وهو الذى يترتب عليه ما لا يكاد يُحْصَى من تقديرات وتعليلات وأقيسة مع ما يضاف إلى ذلك من تمرينات افتراضية . وابن مضاء فى هذه الثورة على النحو وقواعده متأثر فى ذلك كله – كما قلت فى تحقيق الكتاب – بالفقه الظاهرى وما ينكره على المذاهب الفقهية المشهورة من الاعتماد على الأقيسة والتعليلات مما أدى فى التشريع – كما أدى فى النحو – إلى ركام هائل من الافتراضات .

وإنما سقت ذلك لأدل على أن دولة الموحدين كانت جادة فى اعتناق المذهب الظاهرى وكان قضاة القضاة جادين معها فى هذا الاعتناق حتى أن قاضيا منهم يريد أن يطبقه على علم النحو وقواعده . وبالمثل كان كثير من القضاة أنفسهم يعتنقون هذا المذهب ، غير أن كتب التراجم – كما قلت – لا توضح ذلك ، وأنا أعرض طائفة من فقهاء العصر ، محاولا أن أتبين الظاهريين بينهم ، وأول من نقف عنده ابن الرمامة المتوفى سنة ٥٦٧ هـ/١١٧١ م وهو من قلعة بنى حماد استوطن مدينة فاس ، واشتهر فضله فاستخلصه على بن يوسف بن تاشفين لنفسه ، واستخدمه قاضيا لنفسه وطالت حياته حتى لحق عصر الموحدين ، وكان شافعى المذهب فلم يكن ظاهريا ولا مالكيا . ونلتقى بعبد الرحيم بن عمر الحضرمى الفاسى المتوفى سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م وكان فقيها مالكيا كما ينص على ذلك ابن عبد الملك المراكشى ، وكان من أهل التقوى وألف كتابا فى المذهب المالكى .

ويلقانا بعده عمربن عبدالله‌بن صمع القرشى المتوفى سنة ٥٩٨ هـ/١٢٠١ م ، روى عن كثيرين من بينهم ابن مضاء قاضى القضاة الظاهرى ، ويقول ابن عبد الملك إنه صنف فى شواذ المذهب المالكى مصنفا ، ولا ندرى هل كان مالكيا أو كان ظاهريا ينتقد مذهب مالك . وكان يعاصره على بن خيار الفاسى المتوفى سنة ٦٠٥ هـ/١٢٠٨ م وكان فقيها محدثا مشاورا (أى مما يرجع إليه القضاة فى الفتوى) ويقول ابن عبد الملك إنه كان رافضا التقليد ميالا إلى النظر والاجتهاد متفننا أى أنه كان متصفا بنفس الصفات التى يدعو إليها المذهب الظاهرى وأنصاره مما يؤكد أنه كان ظاهريا .

ونلتقى بعده بأبى عبدالله‌بن الصيقل المار ذكره بين المحدثين وقد تقلد منصب قاضى القضاة بعد ابن مضاء إلى أن توفى سنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م وخلفه فى منصبه الفقيه ابن دافال موسى بن

عيسى بن عمران حتى وفاته سنة ٦٢١ هـ/١٢٢٤ م وتقلد المنصب بعده الفقيه على بن محمد بن أبى عشرة ، ونفس منصبهم يؤذن بأنهم كانوا جميعا ظاهرية . ويختم فقهاء الظاهرية فى عهد الموحدين بأبى الحسن بن القطان المار ذكره بين المحدثين ، ولا نستدل على ذلك فقط بما ذكره ابن عبد الملك المراكشى فى ترجمته من أنه كان معظما عند الخاصة والعامة من آل دولة بنى عبد المؤمن وأنه حظى كثيرا عند المنصور فابنه الناصر فالمستنصر بن الناصر فعبد الواحد أخى المنصور فالمعتصم بن الناصر ، بل نستدل بما هو أهم . فإن من ترجموا له ذكروا أنه رأس طلبة العلم بمراكش ونال بخدمة السلطان دنيا عريضة وما ذلك ، إلا لأنه سخَّر نفسه للدعوة بل ليصبح شيخ طلبتها ، وكانوا يطلقون اسم الطلبة على دعاتهم . وكان لا يزال يقرأ لهم كتب ابن تومرت ويفسر لهم ما فيها من مبادىء الدعوة . وأيضا مما يؤكد ظاهريته وانتصاره للمذهب الظاهرى ما ذكر من أن أبا على بن الطوير المراكشى عمر بن محمد الصنهاجى معاصره الفقيه المالكى ألف كتابا فى إثبات القياس الذى ينكره الظاهرية على المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة : مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل ، فردَّ عليه باسم الظاهرية منكرا القياس بكتاب سماه المنزع فى القياس لمناضلة من سلك غير المَهْيع (الطريق الواضح السديد) فى إثبات القياس .

وانتهى عصر الموحدين وبدأ عصر المرينيين وفيه توقَّف فى القضاء العمل بالمذهب الظاهرى وعاد للمذهب المالكى سلطانه كاملا فى القضاء والفقه ، ومن فقهائه حينئذ محمد بن إبراهيم الغسانى التاجر بمدينة آسفى المتوفى سنة ٦٦٣ هـ/١٢٦٥ م كان بعد الفراغ من مجلس تدريسه الموطأ والسِّيَر والنحو يقعد فى حانوته لإدارته وكسب عيشه . ومنهم أبو الحسن الصُّغَيِّر الزرويلى على بن عبد الحق المتوفى سنة ٧١٩ هـ/١٣٢٠ م القاضى بتازه ثم بفاس وله تقييد على المدونة . ومنهم تلميذه الشطى محمد بن على بن سليمان المتوفى غريقا فى أسطول أبى الحسن المرينى سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٩ م وكانت له حظوة عنده وكان يقرأ عليه . ومنهم تلميذه القباب أحمد بن قاسم المتوفى سنة ٧٧٩ هـ/١٣٧٨ م قال فيه ابن الخطيب فى الإحاطة : « صدر من صدور عدول الحضرة الفاسية ، فقيه نبيل مدرك جيد النظر شديد الفهم ، وله شرح مسائل الفقيه ابن جماعة المصرى فى البيوع ويقول ابن فرحون فى الديباج إنه شرح مفيد ، وله أيضا شرح قواعد الإسلام للقاضى عياض ، وفتاوى مجموعة نقل عنها الونشريسى فى كتابه المعيار . ومنهم محمد بن الفتوح المتوفى سنة ٨١٨ هـ/١٤١٥ م وهو الذى أدخل مختصر خليل بن إسحق إلى المغرب الأقصى . ومنهم محمد بن أحمد بن غازى المتوفى سنة ٩١٧ هـ/١٥١١ م وله شفاء الغليل فى حل مقفل خليل ، بيَّن فيه – كما يقول الأستاذ كنون – هفوات بهرام ، والمواضع المشكلة فى مختصر خليل ، وله أيضا تكميل التقييد أكمل به تقييد أبى الحسن الصغير على المدونة .

ومن أهم الفقهاء فى عصر السعديين اليسيثنى الفاسى محمد بن أحمد المتوفى سنة ٩٥٩ هـ/١٥٥١ م وهو منسوب إلى قبيلة بربرية تسمى يسيثن بالثاء أو بالتاء وكان فقيه فاس ومفتيها ، ومنهم مبارك بن على الجزولى المتوفى سنة ٩٨٢ هـ/١٥٧٤ م ويقول أحمد بن القاضى إن قراءته لمختصر خليل فى الفقه المالكى بصورة تحرير المسائل فقط كعادة أهل مصر والمشرق . ومنهم المنجور أحمد بن على المار ذكره بين المحدثين وهو أستاذ المنصور الذهبى وأجازه إجازة عامة فى فهرسه ، وله فى الفقه شرح المنهج المنتخب للزقاق . ومنهم عبد الواحد الحميدى المتوفى سنة ١٠٠٣ هـ/١٥٩٤ م وكان عالما بالفقه مستحضرا لمسائل خليل دءوبا على الإقراء والتدريس ، ومنهم يحيى بن محمد السراج الفاسى المتوفى سنة ١٠٠٨ هـ/١٥٩٩ م وكان يدرس لطلابه مختصر خليل بن إسحق المالكى المصرى وشيئا من ألفية ابن مالك والمغنى .

ومن الفقهاء المهمين فى عصر العلويين عبد القادر الفاسى المتوفى سنة ١٠٩١ هـ/١٦٨٠ م وله كتاب باسم المسائل الفقهية عرض فيه العبادات الدينية ، وأجوبة فقهية عن طائفة من النوازل . ومنهم المسناوى الدلائى محمد بن أحمد المتوفى سنة ١١٣٦ هـ/١٧٢٤ م وله رسالة نصرة القبض فى الرد على من أنكر مشروعيته فى صلاتى النفل والفرض ، وصرف الهمة إلى تحقيق معنى الذمة . ومنهم أبو على الحسن بن رحال المتوفى سنة ١١٤٠ هـ/١٧٢٨ م وله حاشية كبيرة على مختصر خليل وحاشية أخرى على شرح الخرشى عليه ، وله أيضا حاشية على شرح مَيارة لتحفة ابن عاصم ، ومنهم التاودى بن سودة المذكور بين المحدثين وله حاشية على شرح الزرقانى المصرى لموطأ مالك ، وإتحاف الناظر والسامع بشرح مسائل الجامع لخليل وشرح تحفة ابن عاصم وشرح الأربعين النووية ، وشرح الزقاقية لأبى الحسن على بن قاسم الزقاق الفاسى المتوفى سنة ٩١٢ هـ/١٥٠٦ م .

ولابد أن نشير – وقد أنهينا الكلام عن الحركة الفقهية – إلى ظاهرة مهمة كان لها تأثير فى ازدهار الفقه وفتاويه ، ونقصد ظاهرة المحاماة والمحامين بجانب القضاة ، وهى التى استتبعت فى المغرب كما فى الأندلس ظاهرة التوثيق فكان هناك موثقون وكانت هناك كتب للتوثيق يؤلفها الفقهاء الخبراء بالقضاء والفتوى وهى توضح كيفية كتابة العقود فى المعاملات وغيرها كالمزارعات واستئجارات العقار . ويكرر الحسن الوزان فى كتابه وصف إفريقيا الحديث عنهم فى عهده لأوائل القرن العاشر الهجرى[1] .

وآن أن نتحدث عن أصحاب علم الكلام أو علم العقيدة كما يسميه المغاربة ، وقد مر بنا فى الفصل الماضى حديث عن المعتزلة : الفرقة الكلامية المشهورة فى القرن الثانى الهجرى وأن

---

(١) وصف إفريقيا ص ٣٤٠ .

داعيا لواصل بن عطاء رأس الاعتزال أو دعاة هاجروا إلى المغرب الأقصى واستطاعوا أن يدخلوا فى عقيدة الاعتزال جموعا كبيرة منه ببلدة عُرفت بهم تسمى البيضاء وأنهم أيضا استطاعوا – فيما يقال – إدخال إدريس مؤسس الدولة الإدريسية فى عقيدتهم ، وأن محمد ابن إدريس الثانى بنى لهم بلدة بالقرب من مدينة أصيلا سماها البصرة إحياء لذكرى واصل البصرى مؤسس الاعتزال فى البصرة بالعراق .

ويبدو أن الاعتزال فى المغرب الأقصى أخذ – فيما بعد – يتلاشى وتلاشت مدينتهم « البصرة » معهم فلم يعدلها أثر . والمهم أن المغرب الأقصى عرف عقيدة الاعتزال الكلامية مبكرا ، ومعروف أنها تقوم على خمسة مبادىء هى – كما مر بنا فى الفصل الماضى – وحدانية الله بحيث لا يشبه المخلوقات ، وأيضا وحدانيته فى صفاته بحيث تُعَدُّ نفسَ ذاته ، والعدل على الله فهو لا يظلم بحال ، وإنفاذه وعده فى النعيم ووعيده فى الجحيم ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين الإيمان والكفر .

ودارت معارك عنيفة بين أهل السنة والمعتزلة القائلين بأن الإنسان حر مختار فى إرادته وأعماله وأن ما جاء فى القرآن الكريم من آيات تفيد التجسيد على الذات العلية تؤوَّل فمثل ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ تعنى أن قدرته فوق ما لهم من قدرة ، وأهل السنة القائلين بأن إرادة الإنسان وأعماله بقضاء الله وقدره يقولون إن مثل قوله تعالى : ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ نؤمن بها حسب الظاهر ولا نعرف كيفية هذه اليد ، حتى إذا ظهر أبو الحسن الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٥ م نفذ إلى تأسيس مذهب كلامى جديد متوسطا فيه بين المعتزلة وأهل السنة إذ ذهب فى مسألة أفعال الإنسان إلى أنها لله خلقا وصُنْعا وللإنسان كسبا وإرادة ، ووافق المعتزلة فى تأويل الآيات التى تفيد التجسيد على الذات العلية . ومر بنا أن المعتزلة كانوا يرون أن صفات الله مثل السميع البصير هى عين ذاته بينما كان أهل السنة يرون أنها زائدة على الذات قائمة بها وأخذ الأشعرى فيها برأى أهل السنة . وحاول التوفيق بين الطرفين المتعارضين فى مسائل أخرى (انظرها فى كتاب العصر العباسى الثانى ص ١٧٧) . وعمَّ مذهبه فى العراق والشام ومصر ، وحمله إلى إفريقية التونسية أبو الحسن القابسى وأبو عمران الفاسى ، وأصبح هذا المذهب : مذهبُ الأشاعرة المذهبَ الكلامى السائدَ فى البلدان المغربية .

ونجد فى عصر المرابطين علماء يعرضون هذا العلم : علم الكلام أو العقيدة على طلابهم مثل أبى القاسم المعافرى السبتى المتوفى سنة ٥٠٢ هـ/١١٠٨ م ومثل أبى بكر السبتى المار ذكره بين المفسرين . وندخل فى عصر الموحدين ومر بنا أن ابن تومرت مؤسس دعوتهم زار العراق وجلب منه إلى عقيدته مبادىء من الشيعة والمعتزلة ، فمن الشيعة أخذ ثلاثة مبادئ : مبدأ الإمام ومبدأ ظهور المهدى الذى يصلح العالم فى آخر الزمان ويسمَّى الإمام المهدى ومبدأ

العصمة من الوقوع فى الآثام وقد أطلقها جميعا على نفسه ، فتلقب بلقب الإمام المهدى المعصوم ، وكان يرفع لذلك نسبه إلى الرسول ﷺ كما فى المعجب للمراكشى . وأخذ من المعتزلة مبدأ توحيد الله أو وحدانيته بحيث لا يشبه المخلوقات ولا يجوز عليه التجسيد بأى صورة من الصور وما جاء فى القرآن من آيات يفهم من ظاهرها التجسيد تؤوّل على نحو ما صنع ذلك المعتزلة . وشركت الأشعرية المعتزلة فى اعتناق مبدأ عدم التشبيه على الله ، وكانت المعتزلة تمد هذه الوحدانية إلى الصفات – كما مر بنا – فهى عين ذاته لا قائمة بها كما يقول أهل السنة والأشعرى فمثلا الله عليم سميع بصير أى أن ذلك عين ذاته . وأخذ ابن تومرت بذلك كله ، أى أنه أخذ مبدأ الوحدانية عن المعتزلة بخذافيره ، كما أخذ عنهم فكرة أن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين الإيمان والكفر ، وأيضا فإنه أقام دعوته – كما يقول صاحب المعجب – على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو أحد مبادىء المعتزلة المذكورة آنفا . وله فى الدعوة إلى نحلته مصنفات هى : أعز ما يطلب ، الإمامة ، العقيدة المرشدة . ومن أكبر الدعاة لعقيدة ابن تومرت البيذق وله مصنف فيه ومصنف ثان فى دولة الموحدين حتى نهاية عصر عبد المؤمن بناهما على الدعوة للموحدين ، ومن كبار دعاتهم عبد الله بن حماد بن زغبوش المكناسى وله مصنف فى إثبات الهداية الموحدية بالاستقراء من الكتاب العزيز . ومن أهم دعاتهم أبو الحسن بن الإشبيلى على بن محمد بن خليد اللخمى نزيل مراكش ، وكان متحققا بعلم الكلام كما يقول ابن عبد الملك المراكشى ، ويقول إنه صنف كتابا سماه « المعراج » قدم به على الخليفة عبد المؤمن الموحدى سنة ٥٤١ للهجرة ، فحظى عنده ورقاه إلى رتب عليَّة نال بسببها دنيا عريضة[1] ، ولعل الكتاب كان فى الدعاية لعقيدة الموحدين ، إذ نراهم يسندون إليه القيام على إرشاد دعاتهم المسمَّين بالطلبة ، وكان يقرأ لهم كتب ابن تومرت صاحب الدعوة ، ويقول ابن صاحب الصلاة فى كتابه المن بالإمامة أنه سمع عليه مع هؤلاء الطلبة كتب ابن تومرت : عقيدة التوحيد ، وهى المسماة العقيدة المرشدة ، وكتاب العقيدة المباركة المسماة بالطهارة ، وكتاب أعز ما يطلب بقراءة أبى عبد الله بن عميرة . ويقول ابن صاحب الصلاة إن القارىء كان إذا قرأ فصلا مما ذكرته هذه الكتب من عقيدة الموحدين شرح أبو الحسن بن الإشبيلى غامضها وفتح أقفالها على الطلبة حتى يذللها ويبينها أتم بيان[2] .

وممن خلفوا أبا الحسن بن الإشبيلى وقاموا على بث تعاليم دعوة الموحدين فى طلبتهم أو بعبارة أدق فى دعاتهم أبو الحسن[3] بن القطان المار ذكره بين المحدثين وقد ذكرنا هناك أن من ترجموا له قالوا إنه : « رأس طلبة العلم بمراكش » ويعنى هذا أنه كان يقوم على إرشادهم – فكان

(١) الذيل والتكملة ٥/١/٣٠٤ وما بعدها .

(٢) المن بالإمامة تحقيق د . عبد الهادى التازى ص ١٦٠

(٣) نظر ترجمته فى الذيل والتكملة ٨/١/١٦٥ .

يشرح لهم كتب ابن تومرت ويفسرها لهم ، كما كان يشرح لهم مذهب الظاهرية ، ويحتج كما أسلفنا لما يذهبون إليه من إبطال القياس فى الأحكام الفقهية والاقتصار على الكتاب والسنة .

ومن علماء الكلام فى عصر الموحدين عثمان السلالجى المتوفى سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٨ م وله فى عقيدة الأشعرية منظومة سماها البرهانية فى العقيدة الأشعرية ، ومنهم محمد بن عبد الكريم الفندلاوى الفاسى المتوفى سنة ٥٩٦ هـ/١١٩٩ م وكان ماهرا فى علم الكلام ، ومثله معاصره على بن عتيق الأنصارى المتوفى سنة ٥٩٨ هـ/١٢٠١ م ومنهم أبو الحجاج نموى الفاسى المتوفى سنة ٦١٤ هـ/١٢١٧ م روى عن السلالجى البرهانية . وكان مبرزا فى علم الكلام ، ومنهم أبو الحسن بن الحصار المار ذكره بين المفسرين وله فى علم الكلام مصنف مفيد ومقالة فى الإيمان والإسلام وعقيدة سماها تلقين الوليد وخاتمة السعيد ، ومنهم يوسف بن محمد المكلاتى الفاسى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٨ م وكان مبرزا فى علم الكلام .

ومن أصحاب علم الكلام فى عصر المرينيين أبو الحسن الطنجى اليفرنى المتوفى سنة ٧٣٤ هـ/١٣٣٤ م وله شرح على البرهانية للسلالجى سماه : « المباحث العقلية فى شرح معانى العقيدة البرهانية » . ومنهم أحمد زروق المتوفى سنة ٨٩٩ هـ/١٤٩٤ م وله شرح العقيدة القدسية . ومن المتكلمين فى العصر السعدى اليسيتنى محمد بن عبد الرحمن الفاسى المار ذكره بين الفقهاء وله رسالة فى خلف الوعيد . ولأحمد المنجور المار ذكره بين المحدثين شرحان على العقيدة الصغرى والكبرى للسنوسى وله شرح مقاصد ابن زكرى فى التوحيد . وللحفصى المتوفى سنة ١٠٣٧ هـ/١٦٢٧ م شرح العقيدتين الكبرى والصغرى فى التوحيد للسنوسى ، وتتكاثر شروحهما فى العصر كثرة مفرطة . ومن أصحاب علم الكلام فى عصر العلويين عبد القادر الفاسى المار ذكره بين الفقهاء وله كتاب العقيدة . ومنهم أبو على الحسن اليوسى المارذكره بين علماء المنطق ، وله شرح على السنوسية الصغرى وحاشية على شرح السنوسى للعقيدة الكبرى ولمحمد المهدى الفاسى المتوفى سنة ١١٠٩ هـ/١٦٩٨ م النبذة اليسيرة واللمعة الخطيرة فى مسألة خلق أفعال العباد الشهيرة ومرَّ بنا توفيق الأشعرى فيها بين المعتزلة وأهل السنة . ولعمر الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ هـ/١٧٧٤ م حاشية على شرح السنوسى لعقيدته الكبرى .

٥

التاريخ

نشط المغرب الأقصى فى كتابة التاريخ منذ عصر المرابطين ، ومن أهم من كتب عن دولتهم يحيى بن الصيرفى المؤرخ الغرناطى ، فقد ألف عنهم كتابا باسم دولة لمتونة ، وهو —

وإن كان غرناطيا – نزل مراكش طويلا ، إذ يذكر فى ترجمته أنه كان من موظفى أمرائها ، وتوفى سنة ٥٥٧ عن تسعين سنة . ومنذ عصر الدولة اللمتونية أو دولة المرابطين يصبح تاريخ الأندلس جزءا متمما لتاريخ المغرب الأقصى . وكان يعاصر ابن الصيرفى القاضى عياض السبتى المار ذكره بين المحدثين وله ترجمة للرسول ﷺ باسم كتاب الشفا كما مر بنا ، وكتاب فى أعلام مذهب مالك باسم المدارك وكتاب فى شيوخه باسم الغنية .

وتتكاثر فى عصر الموحدين كتب السيرة النبوية العطرة وكتب تاريخ دولة الموحدين وكتب التراجم والفهرسة ، أما السيرة فيكتب فيها محمد بن قاسم بن عبد الكريم المتوفى سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م كتاب اللمعة فى ذكر أزواج النبى ﷺ وأبنائه السبعة . ولأبى العباس العزفى المتوفى سنة ٦٣٣ هـ/١٢٣٥ م الدر المنظم فى مولد النبى المعظم ، ولابن دحية المار ذكره بين المحدثين كتاب التنوير فى مولد السراج المنير ، وكتاب سلسلة الذهب فى نسب سيد العجم والعرب وكتاب المستوفى من أسماء المصطفى ، والابتهاج فى المعراج ، وله التحقيق فى مناقب أبى بكر الصديق ، وله فى التاريخ العام النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس ، وتاريخ الأمم فى أنساب العرب والعجم ، وأعلام النصر المبين فى المفاضلة بين أهل صفين .

ونلتقى فى تاريخ دولة الموحدين بثلاثة من مؤرخى الدولة الرسميين بجانب اثنين من المؤرخين غير الرسميين ، وأول المؤرخين الرسميين البيذق وله كتاب عن ابن تومرت ودعوته وكتاب ثان عن دولة الموحدين حتى نهاية عصر عبد المؤمن المؤسس الحقيقى للدولة . ويكتب مؤرخ رسمى ثان من حواشى الدولة ورجالها المقربين هو عبد الملك بن صاحب الصلاة المتوفى أواخر القرن السادس الهجرى كتابا عن دولة الموحدين حتى عصره باسم : « المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين » مشيرا بذلك إلى الآية القرآنية : ﴿ونريد أن نَمُنَّ على الذين استُضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ ويدل عنوان الكتاب أنه شديد التعصب لتلك الدولة كما هو واضح فى قسمه الثانى الذى بقى لعصرنا من تاريخه والذى تحتفظ به مكتبة البودليانا فى أوكسفورد ، ويشمل تاريخ دولة الموحدين من سنة ٥٥٤ هـ/١١٦٠ م إلى سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م وحقق هذا القسم الدكتور عبد الهادى التازى مع مقدمة قيمة ونشره فى دار الغرب الإسلامى . وهو تفصيل لأحداث السنوات الأربع الأخيرة من حياة عبد المؤمن المؤسس الحقيقى للدولة وعشر سنوات لأحداث السنوات العشر الأولى من حياة ابنه يوسف . ونلتقى بمؤرخ غير رسمى هو عبد الواحد المراكشى الذى كان حيا فى العقد الثالث من القرن السابع الهجرى ، وله كتاب « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » من لدن فتح الأندلس حتى

سنة ٦٢١ هـ/١٢٢٤ م وهو يعرض فيه تاريخ الأندلس ودولة المرابطين ، ويفصّل القول فى دولة الموحدين بقلم مؤرخ حصيف محايد دون المبالغة التى نلمسها عند البيذق وابن صاحب الصلاة .

وما نلبث أن نلتقى بالمؤرخ الرسمى الثالث لدولة الموحدين وهو أبو محمد حسن بن أبى الحسن على بن القطان المتوفى حوالى منتصف القرن السابع الهجرى وكان من رجال الدولة ، ومر بنا ذكر أبيه أبى الحسن بين المحدثين وبين دعاة الموحدين إذ كان من كبار دعاتهم . وأكبر الظن أن ابنه كان مثله من دعاتهم كما سيتضح عما قليل فقد صنف كتابا باسم نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، وسقط الكتاب من يد الزمن إلا قطعة من سنة ٥٠٠ هـ/١١٠٦ م إلى سنة ٥٣٣ هـ/١١٣٨ م وحققها تحقيقا سديدا مع مقدمة قيمة الدكتور محمود مكى وقد كان متحاملا على دولة المرابطين تحاملا شديدا حتى جعل حكامها مجسمين للذات العلية وكفارا مع ما لهم من خدمات عظيمة للإسلام وانتصارات كبرى على النصارى فى الأندلس ، ولكنه التعصب البغيض . وعرض فى كتابه ترجمة ضافية لابن تومرت أشاد فيها به وبدعوته ، حتى ليرفع نسبه إلى رسول الله ﷺ ويطيل الحديث عن أنه معصوم وعن كرامات عبد المؤمن ، ويذكر أن ابن تومرت فرض على أصحابه أن يقرأوا بعد صلاة الصبح كل يوم حزبا من القرآن الكريم ، وحزبا له ضمنه حديثا عن القدر والإيمان وأنه الإمام المهدى الواجب اتباعه وكفّر من لم يطعه ولم يصلّ عليه هكذا يقول أبو محمد بن القطان .

والترجمة دعاية سافرة لابن تومرت ودعوته ، ولابد أن بقية الكتاب المفقودة كانت على هذه الشاكلة من المبالغة المفرطة فى الدعاية للموحدين . ونضم إلى هذه الكتب التاريخية كتاب البيان المغرب لابن عذارى المراكشى ، وهو تاريخ للمغرب والأندلس منذ الفتح إلى آخر أيام الموحدين . وهو أهم مصدر تاريخي لهما ، ونشرت منه أولا أجزاء متفرقة ، وأمكن أخيرا نشر أربعة أجزاء منه فى بيروت . ونُشر القسم الخاص منه بالمرابطين والموحدين فى طبعة جديدة بدار الغرب الإسلامى فى بيروت وهو أوسع وأدق مصدر للدولتين . ونضم أيضا إلى الكتب السالفة كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول طبع الدار البيضاء وهو عن دولتى المرابطين والموحدين . ومن كتب التراجم فى هذا العصر كتاب المستفاد فى مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد لمحمد بن قاسم بن عبد الكريم وله أيضا بستان العابدين وريحان العارفين فى ذكر أهل الصفوة والانقطاع إلى الله بالخلوة . ومنها التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات يوسف بن يحيى التادلى المتوفى سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م ولابن المواق المار ذكره بين المحدثين شيوخ الدارقطنى ، ولأحمد بن يوسف ابن فرتون الفاسى المتوفى سنة ٦٦٠ هـ/١٢٦٢ م ذيل كتاب الصلة لابن بشكوال وهو مصدر أساسى لابن الزبير فى كتابه

صلة الصلة ، وتكثر الكتب المسماة بالفهارس والبرامج عن الشيوخ لمؤلفيها وما حملوا عنهم من الكتب .

ونمضى إلى عصر المرينيين ونلتقى بأبى عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسى الأنصارى المراكشى المتوفى سنة ٧٠٣ هـ/١٣٠٤ م وموسوعته : الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة ، وهى موسوعة كبرى طبع منها بعض أجزائها بتحقيق د . إحسان عباس والجزء الثامن فى مجلدين بتحقيق د . محمد بنشريفة ، وهو من أهم مراجعى فى الحركة الثقافية حتى نهاية القرن السابع الهجرى . وما نلبث أن نلتقى بابن أبى زرع الفاسى المتوفى سنة ٧٢٧ هـ/١٣٢٧ م وقيل بل توفى سنة ٧٤١ وهو صاحب كتاب « روض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » وهو أجمع تاريخ للمغرب من قيام الدولة الإدريسية إلى سنة ٧٢٦ من سنوات عهد السلطان المرينى أبى سعيد عثمان بن يعقوب ، وكان يعاصره ابن هانىء اللخمى السبتى المار ذكره بين النحاة صاحب كتاب الغرة الطالعة فى شعراء المائة السابعة ، وكان فى عصرهما أبو الحسن الجزنائى صاحب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس . ونلتقى فى القرن التاسع الهجرى بالحضرمى وكتاب الكوكب الوقاد فيمن حل بسبتة من العلماء والصلحاء والعباد ، وله بلوغ الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة من مدرس وأستاذ وطبيب فرغ منه سنة ٨٢٤ هـ/١٤٢١ م ويلقانا محمد بن غازى المكناسى المار ذكره بين الفقهاء وله الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون ، ولمجهول كتاب الذخيرة السنية فى أخبار الدولة المرينية والموجود منه ينتهى عند سنة ٦٧٩ للهجرة .

ونلتقى فى عصر السعديين بابن عسكر المتوفى سنة ٩٨٦ هـ/١٥٧٩ م وله كتاب دوحة الناشر فى علماء القرن العاشر وهو منشور بتحقيق الدكتور محمد حجى . ويلقانا أحمد بن القاضى المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ/١٦١٧ م وله ترجمة للخليفة المنصور الذهبى باسم المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور ، وله درة الحجال فى أسماء الرجال ، وجذوة الاقتباس فيمن حلَّ من الأعلام بمدينة فاس ، وغنية الرائض فى طبقات أهل الحساب والفرائض . كما يلقانا عبد العزيز الفشتالى المتوفى سنة ١٠٣١ هـ/١٦٢٢ م وله كتابه مناهل الصفا فى أخبار الملوك الشرفا بتحقيق الأستاذ عبد الله كنون . وينبغى أن نضم إليهم أحمد بابا التنبوكتى السودانى نزيل مراكش المتوفى سنة ١٠٣٢ هـ/١٦٢٣ م وفيها ألف نيل الابتهاج وهو تذييل لكتاب الديباج لابن فرحون وألف أيضا كتاب كفاية المحتاج اختصارا لكتابه السابق . ويختم مؤرخو العصر بأحمد المقرى المتوفى سنة ١٠٤١ هـ/١٦٣٢ م وله أزهار الرياض فى أخبار عياض ، والموسوعة الأندلسيه :« نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها

لسان الدين بن الخطيب » ألفه بالقاهرة ، وله أيضا روضة الآس العاطرة الأنفاس فى ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس . ودائما تؤلف فى المغرب الأقصى كتب برامج وفهارس كثيرة .

ومن أهم المؤرخين فى عصر العلويين أبو عبد الله محمد الإفرانى المراكشى المتوفى بعد سنة ١١٥٣ هـ/١٧٤٠ م وله « نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى » فى تاريخ الدولة السعدية وصدر الدولة العلوية ، وأيضا « صفوة ما انتشر من أخبار أهل القرن الحادى عشر » ومثله فى الأهمية ابن الطيب القادرى المتوفى سنة ١١٨٧ هـ/١٧٧٣ م وله نشر المثانى فى أخبار أهل القرن الحادى عشر والثانى ، وتذييل على كفاية المحتاج لأحمد بابا .

الفصل الرابع

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب المغرب الأقصى – كثرة الشعراء

(أ) تعرب المغرب الأقصى

مرَّ بنا . فى الفصل الثانى – أنه كانت تعيش فى بلاد المغرب – من قديم – سكان من قبائل البربر الكثيرة ، وأنه نزلتها قبل الفتح العربى الإسلامى عناصر جنسية مختلفة ، منها الآسيوى مثل الفينيقيين والقرطاجيين واليهود ، ومنها الأوربى مثل الإغريق والرومان والفندال . وفى الفتح نزلها عرب من آسيا قحطانيون يمانيون وعدنانيون مضريون ، ونزلها معهم من كان فى جيوشهم من إيران والعراق والشام ومصر ، ممن تم تعريبهم وحسن إسلامهم . ولم يفتحوا جميعا المغرب ابتغاء الاستيلاء على طيِّباته وخيراته ، وإنما فتحوه ابتغاء نشر الدين الحنيف ، فهم فاتحون ومجاهدون فى سبيل الله وسبيل دينه القويم يريدون أن ينشروه فى أطباق الأرض . وسرعان ما أخذ المغاربة يدخلون فيه أفواجا ، لما رأوا فى تعاليمه من تسوية مطلقة بين أتباعه ، بحيث يصبح لمن يعتنقه من البربر وغيرهم جميع ما للعربى الفاتح من الحقوق فى شئون المال وغير شئون المال ، وبحيث يعم العدل المطلق الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه . وقد حُكموا قبل العرب بالفينيقيين والرومان والإغريق ، وجميعهم كانوا يرهقونهم بضرائب فادحة ، وكانوا يسومونهم صورا مقيتة من الظلم التعس والقهر البشع ، وما إن فتح العرب البلاد المغربية حتى ارتفع عنها القهر والظلم والضرائب الباهظة وحلَّ مكان ذلك كله العدل التام الذى يكفل للناس حقوقهم دون أى ظلم أو حيف ويسوِّى بينهم فى مواجهة الحياة بقسطاس سليم . وليس ذلك كل ما راعهم فى الدين الحنيف فقد راعتهم فيه أيضا بساطته الروحية بالقياس إلى المسيحية التى ظل الرومان والإغريق يحاولون نشرها فى ديارهم ، إذ ليس فيه فكرة التثليث المعقدة فى المسيحية ، إنما هو إله واحد يدبر الكون ، ولا معبود سواه من أوثان وأحجار وكواكب مما كانت تعبده جماهير البربر قبل الفتح العربى . لذلك لا نعجب إذا رأينا البربر فى القرن الهجرى الأول يقبلون جماعات ووحدانا على اعتناق الإسلام ، بفضل حملته من الفاتحين الذين تحولت كثرتهم إلى ما يشبه معلمين يعلمون إخوانهم من البربر تعاليم دينهم الحنيف .

وصَدَر ولاة القرن الأول الهجرى عن تلك التعاليم فى معاملتهم لهم معاملة تقوم على الإخاء والعدل والمساواة ، فقد مر بنا أن حسان بن النعمان (٧١ – ٨٦ هـ) اتخذ من قبيلة جراوة الزناتية كتيبة عدادها اثنا عشر ألفا ألحقها بجيشه ، وبذلك أصبح البربر المسلمون رفقاء سلاح للعرب ، يقتسمون معهم بالسوية غنائم الحرب ، وليس ذلك فحسب فإنه ولّى على تلك القبيلة ابنا للكاهنة التى هزمها فى معركة ضارية ، وبذلك أصبح البربر يقودون الكتائب فى الجيش العربى ويتولون بعض الولايات مثل إخوانهم من العرب تماما ، وكان من تدبيره السياسى الحكيم أن وزّع على صغار الفلاحين من البربر مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية التى كانت تمتلكها الحكومة البيزنطية ، مما جذب إليه وإلى الإسلام قلوب البربر ، ووضع الخراج على الأرض بعدالة تامة وبدون أدنى ظلم أو عسف . ودعّم العربية إذ دوّن الدواوين وجعلها اللغة الرسمية ، فأضاف حاجة البربر إليها فى تخاطبهم مع الحكومة العربية وولاتها الكثيرين إلى حاجتهم إليها فى أداء شعائر الإسلام وتلاوة كتابه التى تعد جزءًا لا يتجزء من اعتناق البربرى للدين الحنيف . وخلف حسانا موسى بن نصير على ولاية المغرب (٨٦ – ٩٦ هـ) فأحكم مثله المساواة التامة بين العرب والبربر فى جميع الحقوق وجميع الشئون الخاصة بالحكومة ، وقد فتح منطقة زغوان وصار على رأس جيش عربى بربرى حتى المغرب الأقصى يرتب شئون الولايات التى قسم إليها المغرب ، وقد جعل منها للمغرب الأقصى ولايتين : ولاية السوس أو سجلماسة فى الجنوب وولاية طنجة فى الشمال ، وجعل على طنجة واليا بربريا هو طارق بن زياد الورفجومى ، وأبقى معه – فى قول بعض المؤرخين – تسعة وعشرين ألف جندى : سبعة عشر ألفا من العرب واثنى عشر ألفا من البربر ، وأمر العرب أن يعلموا إخوانهم البربر ما يتيسر من القرآن الكريم وتعاليم الإسلام . وفى سنة ٩٢ هـ/٧١١ م كتب موسى إلى طارق أن يغزو الأندلس – أو بعبارة أدق –إيبيريا ، فجهّز جيشا عداده اثنا عشر ألفا اجتاز الزقاق إلى إيبيريا ، ونزل فى مكان سُمِّى باسمه جبل طارق ، وفتح طارق فى برهة قصيرة شطرا كبيرا من إيبيريا ، واستمدَّ موسى ، فتبعه موسى بجيش ، وأتما معا فتح إيبيريا .

وإنما سقنا ذلك كله لندل على أن البربر أصبحوا سريعا منذ القرن الهجرى الأول أمة عربية تدين بالإسلام وتنطق جماهير كبيرة منها العربية ، وما نكاد نتقدم فى العقد الثانى للهجرة حتى يتولى على المغرب يزيد بن أبى مسلم صاحب شرطة الحجاج سنة ١٠٢ هـ/٧٢٠ م فينقض سياسة ولاة المغرب قبله ويأخذ فى فرض الضرائب الباهظة على البربر ، فما يستدير عام ولايته الأول حتى يقتلوه ، وما هى إلا سنوات حتى تولى على المغرب فى سنة ١١٤ هـ/٧٣٢ م عبيد الله بن الحبحاب ، فأوحى إلى عماله فى جميع أنحاء المغرب أن يفرّقوا بين البربر والعرب فى الخراج وجميع الشئون المالية ، واستشعر البربر فى ذلك عَسْفا لا يطاق ، وكان قد نزل بديارهم كثيرون من الخوارج وخاصة من فرقتى الصفرية والإباضية ، وكثر الأولون فى المغرب

الأقصى والثانون فى جبل نفوسة بليبيا وأعجب البربر بمادئهما وما تقرَّر من التسوية المطلقة بين العرب والموالى بربرا وغير بربر فى شئون المال والضرائب وشئون الحكم حتى فى تولى الخلافة ، فينبغى أن يتولاها أكفأ المسلمين عربيا أو بربريا أو عبدا حبشيًّا . واعتنق المذهب الصفرى كثيرون من أهل المغرب الأقصى ، وتولَّى زعامتهم ميسرة ثم خالد بن حميد الزناتى ، وواقعوا جيوش الدولة وانتصروا عليها مرارا ، وانسحب منهم سمكو بن واسول فكون دولة صفرية فى سجلماسة ظلت حتى أواخر القرن الثالث الهجرى ، أما صفرية الشمال فى طنجة وإقليمها فقد ظلت تنازل الولاة فى عهد بنى العباس حتى قضى عليهم يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ – ١٧٠ هـ) . ويطيب لبعض المستشرقين أن يجعلوا من اعتناق البربر لمبادىء الخوارج فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى دليلا على أن المغاربة أو البربر حاولوا أن يرفضوا الإسلام حينئذ والعروبة معه ، وهو رأى مخطىء أشد الخطأ ، لأن البربر لم يفكروا يوما فى رفض دينهم الحنيف الذى اعتنقوه ولا فى رفض العربية التى تغلغلت فى أعماقهم وعبروا بها عن مشاعرهم وعواطفهم وأهوائهم ، إنما كل ما هناك أنهم ثاروا على الظلم والعسف فى جمع الضرائب المجحفة التى ينكرها الإسلام كما ينكر التفرقة بين العربى المسلم والبربرى المسلم فى الحقوق المالية وغير المالية ، فثورتهم إنما كانت مطالبةً شرعية بتطبيق مبادىء دينهم وما ابتغاه من العدل المطلق بين أتباعه عربا وبربرا وغير بربر . ومن أكبر الدلالة على مدى ما حدث بين البربر من شعور عميق بالتعرب أن نجد قبائلهم جميعا تحاول كل منهم – منذ القرن الثانى الهجرى – أن تلفق لها نسبا يصلها بالعرب ، ومر بنا فى الفصل الثانى أن قبائلهم كانت ترجع إلى جذمين أو أصلين كبيرين هما البرانس والبُتْر ، وكانت البرانس تحاول الانتماء إلى العرب القحطانيين ، بينما كانت القبائل البتر تحاول الانتماء إلى القبائل العدنانية .

وما نتقدم فى المغرب الأقصى إلى سنة ١٧٢ هـ/٧٨٨ م حتى نجد إدريس بن عبد الله الحسنى يصل بفراره من وجه العباسيين إلى مدينة وَليلى وينزل على إسحق بن محمد زعيم قبيلة أوربة ويعرفه بنفسه فيكرمه إكراما لا مزيد عليه ويطلعه على سره وأنه يريد أن يؤسس للعلويين بالمغرب الأقصى دولة ، فجمع له عشائر قبيلته وبايعته ، وسمعت به قبائل زواغة ومكناسة وغمارة وعشائر من زناتة فوفدت عليه وبايعته ولم يلبث أن جهز جيشا نازل به تادلة جنوبى وليلى وتامسنة على المحيط ، وكان بعض أهلهما لا يزال وثنيا أو يؤمن باليهودية أو المسيحية ، ففتح حصونهم وأسلموا جميعا . وبذلك تأسست دولة الأدارسة فى وليلى وسرعان ما أسس إدريس الثانى خليفة أبيه إدريس مدينة فاس فى سنة ١٩٢ هـ/٨٠٧ م .

وكانت تلك الدولة الإدريسية أول دولة إسلامية عربية تأسست فى المغرب الأقصى ، ومضى إدريس الثانى وأبناؤه وأحفاده إلى نهاية دولتهم سنة ٣٠٤ هـ/٩١٦م ينشرون الإسلام السنى فى تلك الديار ويطهرونها من الصفرية والرافضة ، وفتح إدريس الثانى أبواب دولته لوفود شخصيات

عربية من القيروان والمشرق ، ووفد عليه مئات أسكنهم فى أحد شطرى مدينة فاس وسمى لذلك باسم العدوة القروية ، ولما أخفقت ثورة الفقهاء فى قرطبة على الحكم الربضى وطردهم منها ولّى مئات منهم وجوههم نحو مدينة فاس فأسكنهم إدريس الثانى الشطر المقابل لعدوة القرويين، وسمى لذلك العدوة الأندلسية . وأخذ الأدارسة منذ أيامهم الأولى يعنون بفتح الكتاتيب فى المدن وتحفيظ الناشئة القرآن الكريم ، وأخذت تنشأ فى المساجد سريعا حلقات المفسرين والمحدثين والفقهاء ومن يعلمون الناس العربية والنطق السديد بها ، وبذلك كله رسخ الإسلام ورسخت العروبة فى المغرب الأقصى إلى الأبد . وأخذت الدراسات الدينية واللغوية تنشط فيه لعهد الأدارسة وبعد عهدهم ، ولايلبث كثيرون من طلاب العلم فيه يريدون أن يتزودوا بأكبر حظ فيفدوا على القيروان ومصر وبلاد المشرق للاستماع إلى كبار العلماء فيها مالكية وغير مالكية ويعودوا بما حملوه من العلم إلى بلدانهم يعلمونه فيها ، وما يكاد ينتصف القرن الرابع حتى يصبح للمغرب الأقصى علماؤه وفقهاؤه ومحدثوه الذين تعنى كتب التراجم بإعطاء معلومات عن حياتهم مثل دراس بن إسماعيل الفاسى ومعاصره أبى جِيدة وغيرهما كثيرون .

وتحدث الهجرة الأعرابية الكبرى حول منتصف القرن الخامس الهجرى وتنزل قبائلها وعشائرها فى برقة وتونس والجزائر شرقا وغربا وقلما تسقط عشائر منها إلى المغرب الأقصى ، وكان مستمرا فى نشاطه العلمى والأدبى بفضل جامع القرويين أو جامعته الكبرى التى أنشئت سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م وكانت سيدة فاضلة من مهاجرة القيروان تسمى أم البنين الفهرية بنَتْ هذا الجامع فاستحال – من حينئذ – سريعا إلى جامعة ، وهى تعد أقدم جامعة إسلامية عربية فى العالم العربى ، ومضى العلماء فيها يعنون بالعلوم الدينية واللغوية ونَشَرها تلاميذهم فى أرجاء المغرب الأقصى . ونمضى مع التاريخ حتى القرن الخامس الهجرى ، فيدخل الفقيه الجليل عبد الله بن ياسين بلاد صنهاجة فى جنوبى المغرب الأقصى ليحفظهم القرآن الكريم وكان حصينا سيوسا بعيد النظر فعمل على تثبيت دعائم الإسلام فى السوس ودرعة وسجلماسة وما وراء تلك البلدان فى الصحراء المترامية ، وكوّن من صنهاجة جيشا لردع ما انتشر فى بعض بلدان المغرب الأقصى من الزيغ والفساد ، وبدأ بمدينة تارودنت ومن بها من روافض سُمّوا باسم البجلية نسبة إلى عبد الله البجلى الرافضى الذى نزلها فى القرن الرابع الهجرى وأشاع فيها نحلته المارقة ، فحاربهم عبد الله بن ياسين وانتصر عليهم وردهم إلى الإسلام السنى ، ومضى إلى تامسنة ونازل فيها برغواطة التى كانت قد اعتنقت نحلة زائغة ضالة ، وأنزل الله عليه النصر المبين ، غير أنه استشهد فى المعركة لسنة ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م وله فضل تطهير البلاد من الفرق والنحل الضالة وفضل تأسيس دولة المرابطين . وكان يلى أمرها – حين وفاته – أبو بكر بن عمر اللمتونى ، فأسلمها إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين ، فاستولى على مدينة فاس وبنى مراكش سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م وجعلها عاصمة للدولة ، أما أبو بكر بن عمر فمضى

إلى الجنوب فى الصحراء يجاهد فى سبيل الله ونشر دينه حتى بلغ السودان ونهر النيجر ، وتوفى سنة ٤٨٠ ، وصار كل ما فتحه يدين بالولاء ليوسف فعظم أمره وشأنه . ومن سياسته الرشيدة أنه كتب إلى الخليفة العباسى ببغداد يبايعه ويطلب منه تقليدا بولايته على ما بيده من البلدان وخاطبه الخليفة بلقب أمير المسلمين ، وثبت له هذا اللقب من حينئذ ، وبذلك أدخل المغرب الأقصى فى إطار الجامعة الإسلامية العربية ، واستصرخه أمراء الأندلس ضد نصارى الإسبان الشماليين ، فعبر الزقاق بجنوده ، وسحق أعداء الإسلام فى وقعة الزلاقة المشهورة فى سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م . وأخذ الأندلسيون من حينئذ يندمجون فى سكان المغرب الأقصى بالزيارة والمصاهرة وخدمة دولة المرابطين والعمل فيها كتابا وقضاة وموظفين وعلماء يفدون على جامعة القرويين ومساجد مراكش وسبتة وطنجة وأصيلا وغيرهما من بلدان المغرب مما كان له أثر بعيد فى استكمال تعربها .

وتتحول مقاليد الحكم فى المغرب الأقصى إلى دولة الموحدين ، ومر بنا فى الفصل الثانى – أن القبائل الهلالية بالجزائر : الأثبج وزغبة ورياحا وقرة وضعت يدها فى يد صنهاجة لحرب عبد المؤمن فأرسل إليها جيشا هزمها وولت على وجوهها لا تلوى على شىء تاركة وراءها نساءها وأولادها ، فأمر بحملهم إلى مراكش وأجرى عليهم نفقات واسعة ، وكتب إلى أمراء تلك القبائل المنهزمة بأن أبناءهم فى الحفظ والصون . وبذل لهم الأمان والكرامة ووفدوا عليه ، فرد عليهم نساءهم وأولادهم وأجزل لهم فى العطاء ، واحتفى بهم ، فملك قلوبهم ، ويقال إنه أحلفهم على السمع والطاعة له وعونه على الجهاد فى الأندلس مع القبائل المغربية ، وفى عودته من فتح المهدية سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م نقل من تلك القبائل الهلالية ألفا من كل قبيلة وأسكنهم البلاد المغربية منتويا بنظره الصائب أن يبعدهم عن الجزائر حتى تتخلص من عَيْثهم فيها وأن يشغلهم بالجهاد فى الأندلس . وأتاح ذلك للمغرب الأقصى جمهورا كبيرا منهم امتزج بسكانه وأنسى كثيرين منهم الرطانة البربرية وأبدلهم منها الفصاحة العربية . وفى سنة ٥٥٨ عزم عبد المؤمن على الجواز إلى الأندلس فأرسل إلى الأعراب فى بجاية وإقليمها يستصرخهم إلى الجهاد فى سبيل الله بالأندلس فاستجاب له منهم – كما يقول صاحب المعجب – جمع ضخم ، فأنزل بعضهم نواحى قرطبة وبعضهم نواحى إشبيلية ، وأقاموا هنالك . ودعا ابنه يوسف الخليفة بعده قبيلة رياح بالجزائر لنفس الغاية ، فوفد عليه منهم حشد ضخم وضعوا أنفسهم – كما مر بنا – تحت تصرفه ، وعبر كثير منهم معه الزقاق للجهاد فى الأندلس . وخرجت بقايا رياح وجشم والأثبج فى الجزائر على ابنه يعقوب وردها إلى طاعته ، ونقلها إلى المغرب الأقصى فأنزل قبيلة رياح منطقتى الهبط وأزغار ، وأنزل قبيلة جشم منطقة تامسنة وقبيلة الأثبج منطقتى دكالة وتادلة . وأخذ كثير من عشائر هذه القبائل ينساح داخل البلاد وعلى المحيط وفى السهول الواقعة بين سلا ومكناس . ومنح يعقوب نوميديا أى الصحراء جنوبى

الجزائر والمغرب الأقصى لعامة العرب ، وتغلغلوا إلى وادى مُلوية ودرعة ، وتغلغلت قبيلة المعقل فى زمن ابن خلدون بقفار المغرب حتى المحيط . ومعنى ذلك كله أن بربر المغرب الأقصى اختلطوا اختلاطا واسعا بأعراب الجزائر عن طريق التعايش والمصاهرة والسكنى واتصل ذلك قرونا بحيث استحال سكان المغرب الأقصى شعبا عربيا لغة ودينا وتناولا للحياة إلا فى بعض الجهات النائية فى شواهق الجبال بأوراس والصحراء . وبكل ما قدمت يتضح أن لدولة الموحدين فضلا عظيما فى تعرب المغرب الأقصى بما نقلت إلى أقاليمه من جموع العرب النازلين فى الجزائر وأكبر الظن أنها لم تكن غايتها نقلهم إعدادًا لجهاد الإسبان النصارى فحسب ، بل كانت غايتها أيضا تعريب المغرب الأقصى نهائيا بما أنزلت فيه من جموعهم الهائلة . أما ما يقال من أن ابن تومرت كان يؤلف كتبه بالعربية والبربرية وأنه كان يحاضر الجماهير باللغتين وأن الدولة – فى بدء عهدها – بدلت الخطباء والأئمة فى جميع البلاد ، وأنها اشترطت أن لا يؤم الناس ولا يخطبهم إلا من يحفظ عقيدة التوحيد لابن تومرت باللسان البربرى . فلم يكن ذلك منها سياسة رجعية كما يقول بعض المعاصرين إنما كان ذلك منها حرصا – والبربرية لا تزال منتشرة فى المغرب الأقصى – على إيصال عقيدة الدولة إلى العامية المغربية ، وكان لا يزال فيها جماهير بربرية لا تحسن العربية .

(ب) كثرة الشعراء

تبدأ الحركة الأدبية فى المغرب الأقصى مع نشأة الدولة الإدريسية أواخر القرن الثانى الهجرى إذ كان بين أمرائها شعراء متعددون يتقدمهم إدريس الثانى (١٨٦ – ٢١٣ هـ) وتلاه من أبنائه وأحفاده وأسرته غير شاعر ، وأخذ الشعر يجرى على ألسنة بعض الشعراء المغاربة يمدحون به الأدارسة على نحو ما نجد عند إبراهيم بن أيوب التكورى ، وكانوا يهجون به خصومهم من البرغواطيين وغيرهم . ويظل الشعر يسيل على ألسنة بعض الشعراء فى القرنين الثالث والرابع الهجريين ، حتى إذا كان القرن الخامس الهجرى طارت شهرة بعض الشعراء إلى البلدان العربية وخاصة الأندلس ، إذ نجد ابن بسام يترجم فى الذخيرة لابن القابلة السبتى ويحيى بن الزيتونى الفاسى وللفقيه أبى بكر المرادى ويذكر أنهم وفدوا على الأندلس مادحين لأمراء الطوائف ، وأن آخرهم اتَّجع أمراء المرابطين بالمغرب الأقصى فى أوائل دولتهم ، وولاه محمد بن يحيى بن عمر اللمتونى قضاء معسكره المجاهد فى بلاد السودان ، ويقول : « أخرجت مما وجدت من شعره. ونثره ما يستخفُّ رواسى الجبال ، ويستوفى ضروب السحر الحلال » . وينزل طنجة فى الربع الأخير من القرن الخامس الهجرى الشاعر القيروانى على بن عبد الغنى الحصرى المبدع فى شعره ، وتكوَّنت حوله سريعا ندوة أدبية . ونمضى إلى عصر المرابطين ، فيشتهر لعهدهم ابن زنباع والقاضى عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م ويترجم عماد الدين الأصفهانى

فى كتابه الخريدة لنفر من شعراء المغرب الأقصى لعهد المرابطين ، هم اليمان بن فاطمة وعبد الله بن حماد المراكشى وعبد المؤمن بن يحيى السجلماسى ومحمد المكناسى المعروف بلقب ينطلق وحماد بن الرفا الفاسى وعلى بن يقظان السبتى القائل :

أحـــنُّ إلى مصرٍ حـنينَ متيَّمٍ بها مستهـامَ القـلب محترقَ الكبْدِ

وهو حب قديم بين مصر وشعراء المغرب الأقصى .

ويأخذ الشعراء هناك فى التكاثر منذ عصر الموحدين وكانت الدولة حفية بهم وبالحركتين العلمية والأدبية ، وكان عبد المؤمن المؤسس للدولة وحفيده يعقوب شاعرين ، وكان ينظم الشعر غير أمير موحدى ، ومن شعراء تلك الدولة عثمان بن عبد الله السلالجى المتوفى سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٨ م ومحمد بن حبوس المتوفى سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م وأبو الربيع الموحدى المتوفى سنة ٦٠٠ هـ/ ١٢٠٣ م وابن الياسمين المتوفى سنة ٦٠١ هـ/ ١٢٠٤ م وأبو حفص عمر السلمى المتوفى سنة ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧ م وابن تولو القرشى التينملى المتوفى بمصر سنة ٦٠٥ هـ/ ١٢٠٨ م وفى نفس السنة محمد بن على السلالقى ، وأبو العباس الجراوى المتوفى سنة ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢ م وعبد الواحد المراكشى المتوفى سنة ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م وابن دحية المتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٦ م وابن الخبازة ميمون الخطابى المتوفى سنة ٦٣٧ هـ/١٢٤٠ م وابن العابد الفاسى المتوفى حوالى سنة ٦٥٠ هـ/ ١٢٥٣ م وابن عبدون المكناسى المتوفى سنة ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م وابن المحلى المتوفى سنة ٦٦١ هـ/ ١٢٦٣ م والخليفة المرتضى الموحدى المتوفى سنة ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧ م .

ورَعت الدولة المرينية الحركتين الأدبية والعلمية وكثر الشعراء فى عهدها وفى مقدمتهم شعراء البيت المرينى من أمثال عبد الواحد بن يعقوب وعمر بن عثمان والسلطانين أبى الحسن وأبى عنان وأخيه عبد العزيز ، ونلتقى بعشرات من الشعراء من أمثال محمد بن عمر الدراج المتوفى سنة ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٤ م وعبد العزيز الملزوزى المتوفى سنة ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٨ م ومالك بن المرحّل المتوفى سنة ٦٩٩ هـ/ ١٣٠٠ م وابن عبد الملك المراكشى صاحب كتاب الذيل والتكملة المتوفى سنة ٧٠٣ هـ/ ١٣٠٤ م وأبى العباس العزفى المتوفى سنة ٧٠٧ هـ/ ١٣٠٨ م ومحمد بن عمر بن رشيد المتوفى سنة ٧٢١ هـ/ ١٣٢٢ م والرحالة القاسم بن يوسف السبتى المتوفى سنة ٧٣٠ هـ/ ١٣٣٠ م وابن شبرين المتوفى سنة ٧٤٧ هـ/ ١٣٤٧ م وابن شعيب الطبيب الأديب المتوفى سنة ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٩ م مثل عبد المهيمن الحضرمى ، ومحمد بن عبد الرحمن المكودى المتوفى سنة ٧٥٣ هـ/ ١٣٥٣ م ومعاصره منديل بن آجُرُّوم وأبو القاسم الشريف المتوفى سنة ٧٦٠ هـ/ ١٣٥٩ م وأبو عبد الله الزناتى المتوفى سنة ٧٧٣ هـ/ ١٣٧٢ م ومحمد بن مصادف المتوفى سنة ٧٩٢ وفى نفس السنة أحمد بن عبد المنان ، وعبد الرحمن

المكودى المتوفى سنة ٨٠٧ هـ/ ١٤٠٤ م ومحمد بن جابر المكناسى المتوفى سنة ٨٢٧ هـ/١٤٢٣ م وأحمد الحباك المتصوف المتوفى سنة ٨٦٨ هـ/ ١٤٦٣ م والبهلول الوطاسى وإبراهيم بن هلال المتوفى سنة ٩٠٣ هـ/ ١٤٩٧ م ومحمد بن أحمد بن غازى المتوفى سنة ٩١٩ هـ/ ١٥١٣ م وابن يجبش المتوفى سنة ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤ م وفى نفس السنة الغزانى الفاسى وأحمد الدقون المتوفى سنة ٩٢١ هـ/ ١٥١٥ م وعلى بن موسى بن هرون المتوفى سنة ٩٥١ هـ/ ١٥٤٤ م وعبد الواحد الوانشريسى المتوفى سنة ٩٥٥ هـ/ ١٥٤٨ م ومحمد بن عبد الرحمن الكراسى المتوفى سنة ٩٦٤ هـ/ ١٥٥٧ م وغير هؤلاء كثير .

وخلفت الدولة السعدية الدولة المرينية ومضت ترعى العلماء والأدباء ، وبلغ السلطان المنصور الذهبى الغاية فى ذلك ، إذ فتح السودان وجاءته منه كنوز الذهب فألقى بكثير منها فى حجور الفقهاء والشعراء الذين كان يجمعهم إلى مجالسه ، وكانت مجالس علمية أدبية يتناظر فيها العلماء فى الفقه وفى الحديث والتفسير ومختلف فروع العلم إذ كان – كما يقول ابن القاضى فى كتابه درة الحجال – له قدم راسخة فى كل فن من معرفة الشعر والخبر والمنطق والمعانى والبيان والأصلين والفقه واللغة والتفسير والحديث وعلومه والحساب والهيئة والهندسة والنحو وغير ذلك وكان شاعرا كما كان عالما وعمَّ بنواله الشعراء والعلماء ، فازدهرت لعهده الحياتان العلمية والأدبية ازدهارا لعل المغرب الأقصى لم يعرفه من قبله . ونلتقى فى عصره وعصر الدولة السعدية عامة بكثير من الشعراء مثل القصرى الفاسى المتوفى سنة ٩٥٥هـ/١٥٤٩ م ومعاصره سعيد الحامدى المتوفى بعده بقليل وأحمد المنجور المتوفى سنة ٩٩٥ هـ/١٥٨٦ م ومحمد بن عيسى المتوفى سنة ٩٩٩ هـ/ ١٥٩٠ م ومعاصره داوود الدغوغى ، والزمورى المتوفى سنة١٠٠١هـ/ ١٥٩٢ م ومحمد بن عبد الواحد الحسنى وأخيه أحمد المتوفين سنة ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م وعلى بن منصور الشيظمى المتوفى سنة ١٠١٢ هـ/ ١٦٠٣ م والزرهونى المتوفى سنة ١٠١٨ هـ/ ١٦٠٩ م ومحمد بن على الفشتالى المتوفى سنة ١٠٢١ هـ/ ١٦١٢ م وأحمد بن القاضى صاحب درة الحجال المتوفى سنة ١٠٢٥ هـ/ ١٦١٦م وعبد العزيز الفشتالى وعلى بن أحمد الشامى المتوفين سنة ١٠٣٢ هـ/ ١٦٢٢ م ومحمد الوجدى الغماد المتوفى سنة ١٠٣٣ هـ/ ١٦٢٣ م وابن عاشر المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ/ ١٦٣٠ م وأبى عبد الله المكلاتى المتوفى بعد سنة ١٠٤٩ هـ/ ١٦٣٩ م ومحمد المسناوى الدلائى المتوفى سنة ١٠٥٩ هـ/١٦٤٩ م والطيب بن المسناوى المتوفى سنة ١٠٧٧ هـ/ ١٦٦٦ م . وممن ذكر أيضا فى عصر الدولة السعدية عبد الواحد الحميدى سنة ٩٣٠ هـ/ ١٥٢٤ م وعبد الواحد السجلماسى مفتى الحضرة أيام المنصور سنة ٩٣٣ هـ/ ١٥٢٧ م ومحمد بن عمر الشاوى سنة ٩٤٣ هـ/١٥٣٧ م وإدريس بن راشد الحسنى سنة ٩٦٠ هـ/ ١٥٥٢ م ومحمد بن يعقوب الآيسى سنة ٩٦٦ هـ/١٥٥٩ م

وأبى على المسفيوى سنة ٩٦٨ هـ/ ١٥٦٠ م ويسوق المقرى أسماء طائفة كبيرة من الشعراء فى كتابه : روضة الآس العاطرة الأنفاس فى ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس ، ومنهم من تقدم ذكره آنفا مثل عبد العزيز الفشتالى والهوزالى وابن القاضى ، وممن لم يتقدم ذكره أحمد بن الغرديس التغلبى وأحمد بن محمد الآيسى ومحمد بن عبد العزيز الفشتالى وأحمد المريد المراكشى وأبو القاسم الوزير الغسانى وعلى بن عمران السلاسى ومحمد بن رضوان النجارى وعبد العزيز الجيار والحسن بن يوسف الزيانى .

وترعى الدولة العلوية بدورها الحركتين العلمية والأدبية ، ومن الشعراء لعهدها محمد بن محمد بن أبى بكر الدلائى المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ/ ١٦٧٨ م وأحمد الدغوغى معاصره ، وعبد الرحمن بن القاضى المتوفى سنة ١٠٨٢ هـ/ ١٦٧٢ م وأبو سالم العياشى المتوفى سنة ١٠٩٠ هـ/ ١٠٧٩ م والرودانى المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ/ ١٦٨٣ م وعبد الرحمن الفاسى المتوفى سنة ١٠٩٦ هـ/ ١٦٨٥ م والحسن اليوسى الصوفى المتوفى سنة ١١٠٢ هـ/ ١٦٩٢ م ومحمد البوعنانى المتوفى بعد سنة ١١٠١ هـ/ ١٦٨٩ م وأحمد بن الحاج المتوفى سنة ١١٠٩ هـ/١٦٩٧ م وعبد السلام القادرى النسّابة المتوفى سنة ١١١٠ هـ/ ١٦٩٨ م ومحمد بن زاكور المتوفى سنة ١١٢٠ هـ/ ١٧٠٨ م وأحمد بن عبد القادر التاستاوى المتوفى سنة ١١٢٧ هـ/ ١٧١٥م ومحمد بن الطيب العلمى المتوفى سنة ١١٣٤ هـ/ ١٧٢١ م والحسن بن رحال المعدانى المتوفى سنة ١١٤٠ هـ/ ١٧٢٨ م وعبد القادر بن شقرون المتوفى بعد سنة ١١٤٠ هـ ومحمد الحاج الدلائى المتوفى سنة ١١٤١ هـ/ ١٧٢٩ م ومحمد بن زكرى المتوفى سنة ١١٤٤هـ/١٧٣١م وعلى مصباح الزرويلى المتوفى سنة ١١٥٠هـ/١٧٣٧م وعبد الوهاب أدرّاق المتوفى سنة ١١٥٩هـ/١٧٤٦م وعبد المجيد الزبادى المتوفى سنة ١١٦٣هـ/١٧٥٠م ومحمد بن الطيب الشرقى المتوفى سنة ١١٧٠هـ/١٧٥٦م وأحمد الهلالى السجلماسى المتوفى سنة ١١٧٥ هـ/١٧٦١ م وأبو مدين الفاسى المتوفى سنة ١١٨١هـ/ ١٧٦٧ م وابن الونان المتوفى سنة ١١٨٧ هـ/١٧٧٣ م ومحمد بن الطيب القادرى المتوفى بنفس السنة وأبو حفص عمر الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ هـ/ ١٧٧٤ م والتهامى بن الطيب أمغار وأحمد بن المهدى الغزال المتوفيان سنة ١١٩١ هـ/ ١٧٧٧ م والتاودى بن سودة المتوفى سنة ١٢٠٩هـ/١٧٩٥م ومحمد بن عثمان المكناسى المتوفى سنة ١٢١٣ هـ/ ١٧٩٩ م ومحمد الطيب بن كيران المتوفى سنة ١٢٢٧هـ/١٨١٢ م ومحمد الرهونى المتوفى سنة ١٢٣٠هـ/١٨١٥ م وحمدون بن الحاج المتوفى سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٧م ومحمد بن عبد السلام ابن ناصر المتوفى سنة ١٢٣٩هـ/١٨٢٤م والعربى المسارى المتوفى سنة ١٢٤٠هـ/١٨٢٥م وابن عمرو الرباطى المتوفى سنة ١٢٤٣ هـ/١٨٢٧ م .

٢

شعراء الموشحات والأزجال

(أ) شعراء الموشحات

أخذت تنشأ – منذ عصر دولة المرابطين – علاقات أدبية بين الأندلس وبين المغرب الأقصى وقدم من الأندلس إلى دياره بعض شعراء الأندلس بحثا عن رعاة لشعرهم ، وكان بينهم غير وشاح ، وأول وشاح أمَّ تلك الديار على بن عبد الغنى الحصرى القيروانى الكفيف المهاجر إلى الأندلس منذ سنة ٤٥٠ للهجرة فقد عبر الزقاق ثانية إلى طنجة سنة ٤٨٣ وأمضى بها الشطر الأخير من حياته وكان وشّاحا وشاعرا بارعا فالتف حوله كثيرون من شباب طنجة ينشدهم أشعاره وموشحاته وقد أنشد الصفدى إحداها فى كتابه : « توشيع التوشيح » . وأوغل بعده ابن اللبانة الوشاح المشهور المتوفى سنة ٥٠٧ للهجرة فى ديار المغرب حتى بجاية فى الجزائر ونزل على أميرها باديس الحمادى (٤٩٨ هـ) ومدحه بموشحة بديعة أنشدها صاحب فوات الوفيات فى ترجمته . وأهم منه ابن بقى الوشاح الأندلسى نزيل سَلا – بجوار الرباط على المحيط – على بنى عشرة قضاتها ، وكانوا بحورا فياضة فى الجود فغمروه بعطاياهم وخاصة يحيى بن على بن القاسم وأخويه أحمد ويوسف ، وله فيهم موشحات كثيرة ، إذ أقام لديهم مددا متطاولة . وظل وراء هؤلاء الوشاحين الراحلين أو المهاجرين وشاحون كثيرون فى الأندلس يهدون موشحاتهم إلى حكامها من الأمراء المرابطين مثل ابن باجة المتفلسف وموشحاته البديعة فى أبى بكر بن تيفلويت المرابطى والى سرقسطة .

وعلى هذا النحو أخذت تتوثق الصلة بين الوشاحين الأندلسيين والشباب المغربى ، فإذا من هؤلاء الشباب من يعكف على موشحات الحصرى وابن بقى وابن باجة وأضرابهم حتى تمثل عذوبة النغم فيها وحُسْن اختيار الألفاظ وأخذ ينشىء على غرارها موشحات مغربية تفيض نعومة وسلاسة وحلاوة جرس ، ولم يتحقق ذلك توًّا فى عصر المرابطين القصير ، إنما حدث منذ أول عصر الموحدين التالى لعصرهم على لسان ابن غُرْلة ، وسنفرد له ترجمة ، وتلاه غير وشاح مثل أبى حفص عمر السلمى المتوفى سنة ٦٠٢ غير أنه لم تؤثر له موشحة . وجاء بعده فى العصر أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الصباغ الجذامى وجميع موشحاته نبوية فى مديح الرسول ﷺ ، وسنخصه بترجمة – ونلتقى أواخر عصر المرينيين زمن الوطاسيين بوشاح بارع هو ابن سعيد عثمان المكناسى ، وله موشحة نبوية بديعة أنشدها ابن القاضى فى كتابه عن الخليفة المنصور والمقرى فى الجزء الثانى من أزهار الرياض ، يستهلها بقوله[1] :

(١) انظر المنتقى المنصور على مآثر الخليفة المنصور ص ٨٢١ وأزهار الرياض ٢/٢٢٩ .

يا عُرَيْبَ الحيِّ مِن حَيِّ الحِمَى أنتمُ عِيدى وأنتمْ عُرُسِى

وهو استهلال رائع لما سيتلوه من المديح النبوى وقد عارض بها موشحتين قفلهما سينى لابن سهل وابن الخطيب ، وهما بالترتيب : هل درى ظبى الحمى – وجادك الغيث . وفى نهاية الموشحة يقول :

هِمْتُ فى أطلال لَيْلَى وأنا ليس فى الأطلال لى من أَرَبِ
ما مرادى رامةٌ والمُنْحَنَى لا ولا لَيْلَى وسُعْدَى مَطْلَبِى
إنما سُؤْلى وقَصْدِى والمُنَى سَيِّدُ العُجْمِ وتاجُ العَرَبِ
أحمدُ المختارُ طه مَنْ سَمَا الشريفُ بنُ الشَريفِ الكيِّسِ
خاتمُ الرُّسْلِ الكريمُ المُنْتَمَى طاهرُ الأَصْلِ زكىُّ النَّفَسِ

فهو إن هام صبابة بأطلال ليلى ليس له من مأربٍ فيها ولا فى تغنيه برامة والمنحنى حيث اللقاء المأمول ولا مطلبه ليلى ولا سعدى ولا غيرهما ممن يذكرهن إنما سؤله وقصده وكل مناه رسول الله سيد العجم وتاج العرب . والموشح بالغ الروعة ، ويذكر له الأستاذ ابن تاويت موشحا على غراره ختمه بهذا الابتهال لربه :

طامعٌ فى رحمةِ الله وما خاب عَبْدٌ طامعٌ لم يَيْأسِ
يا إلهى جُدْ علينا كرمًا يا كريما قبل أخذ الأنفسِ

وما من مسلم إلا ويطمع فى رحمة الله الغفور الرحيم .

ويكثر الوشّاحون فى عصر السعديين ، وفى مقدمتهم الخليفة المنصور الذهبى ، وكان واسع الثقافة عالما مؤلفا ، كما كان أديبًا شاعرًا ، وازدهر العلم والأدب فى المغرب الأقصى بأيامه ، واستحالت مجالسه إلى مناظرات علمية متعمقة ومساجلات شعرية مع وفرة جوائزه وعطاياه ، وينوه المؤرخون غربًا وشرقًا به ، وعليه قصّر ابن القاضى كتابه : المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور تحدث فيه عن نسبه وحسبه وشيوخه وخلافته وسياسته وشمائله الحميدة وتعظيمه الميلاد النبوى وغزواته وعلو همته ، ويلم من حين إلى حين ببعض أشعاره ، ويذكر أن له موشحات كثيرة ، وينشد له موشحة ، يقول المنصور الذهبى فى غصنها الأخير[1] :

قلتُ لـــه وقد نَهَدْ وجَدَّ فى حَرْبِى[2]
وغَلَبَ الظَّبْىُ الأسَدْ ففـــاز بالغَلَبِ
الشمسُ بُرْجُها الأسَدْ فاسْمَعْ إلى قلبى

وهو يستغلّ ما يقوله الفلكيون من أن برج الشمس الأسد ، فيقول لصاحبته وقد اكتمل

(١) المنتقى ص ٦٦٢ . (٢) نهدت الجارية : اكتمل شبابها .

لها شبابها وجدت فى حربه غلب الظبى الأسد ، إذ الظبى شمس سَنًا جمالا ، ولابد أن تحل الشمس فى برجها برج الأسد ، وواضح أنه يكنى عنها بالظبى وعنه بالأسد تظرفا . وكان أحمد بن القاضى وشّاحا ، أنشد له المقرى فى ترجمته بكتابه : « روضة الآس العاطرة الأنفاس » موشحا نبويا ، استهلّه بقوله[1] :

لاهتزاز البانِ وقتَ السَّحَرِ ... هـــامــتِ الأرواحْ
وقيانُ الطير فــوق الشَّجَرِ ... تجلب الأفـــــراحْ
يا شقيقَ الروح هاتِ القَدَحا ... من دنـــان الحـــانْ
قهوةً تُكسِبُ قَلْبى الفَرَحَا ... تطـــربُ النَّشْـوَانْ
كلُ من دارتْ عليــه شَطَحا ... مِــنْ يَدَىْ وَسْنَانْ[2]

وواضح أنه استهلّ المدحة النبوية بالحديث عن الطبيعة الفاتنة وقت السحر وقد هامت بها الأرواح ، والطير فوق الشجر تصدح بأغانٍ تجلب الأفراح . ويلتفت إلى ساقى الخمر الصوفية فى السحر يطلب إليه أن يناوله قدحا دهاقا منها يشيع فى قلبه الفرح والبهجة ، وكل من دارت عليه كأنما يغيب عن نفسه فيشطح شطحات متوالية . ويتجه فى الغصن الأخير من الموشح للرسول منشدا :

يا رســول الله غَوْثٌ ومدَدْ ... يا منيع الجـــارْ
أنت – والله – الكريمُ المعتمَدْ ... لنزيحِ الـــــدار
كُنْ شفيعى يا نبيًّا لا يُـــرَدّ ... إنَّك المختـــــار

وهو يسأل الرسول استغاثة ومددا لا ينقطع ، إذ هو الغيث المدرار ، ويضرع أن يكون شفيعه ، ويشير إلى أن شفاعته فى أمته يوم الحشر لا ترد . ونمضى إلى عصر العلويين فنلتقى بوشاح بارع هو ابن زاكور وسنفرد له ترجمة ، ويلقانا بعده محمد بن الطيب العلمى تلميذه ، وموشحاته تموج بالعذوبة ، غير أنه اتجه بها نحو الخمر والمجون . وحرى بنا أن نتوقف قليلا للحديث عن ابن غرلة وابن الصباغ وابن زاكور .

ابن[3] غُرْلَة

لسنا نعرف شيئا عن نشأته ، إنما نفاجأ به فى عصر عبد المؤمن (٥٢٤هـ/ ١١٣٠م – ٥٥٨ هـ/ ١١٦٣ م) ، وأغلب الظن أنه عاش شطرا من حياته فى عصر المرابطين ، وهو أول مغربى تمثل الموشحات والأزجال ، ويقول صفى الدين الحلى فى كتابه : « العاطل الحالى » إنه

(١) روضة الآس ص ٢٦٣ .
(٢) وسنان : فاتر الطرف .
(٣) انظر فى ابن غرلة كتاب العاطل الحالى لصفى الدين الحلى تحقيق د . حسين نصار ، نشر هيئة الكتاب (راجع الفهرس) . وانظر موشحته فى النبوغ المغربى ٣٢٠/٣

كان ينظم الموشح والزجل والمزنم فى الفنَّيْن أى أنه كان يلحن أحيانا فى الموشح ويعرب فى الزجل ، والمزنم من الزنمة وهو المستلحق بالقوم ، فالموشح والزجل المزنمان كل منهما مستلحق بأصله . ويقول صفى الدين إنه كان يلحن أحيانا فى الموشح ويعرب فى الزجل قصدا منه واستهتارا ، ويقول : إذ القصد من الجميع عذوبة اللفظ وسهولة السبك . وكان ابن سناء الملك يعيب عليه ذلك ، ولهذا لم يثبت شيئا من موشحاته فى كتابه : « دار الطراز » . ويقول صفى الدين مسترسلا : ومن موشحاته المزنمة الموشَّحة الطنانة الموسومة باسم « العروس » وفيها يصور عشقه لرُمَيْلة أخت عبد المؤمن الموحدى خليفة الموحدين ، وقد قتله بسببها لما وقع فى نفسه من مطلعها وما يليه من اجتماعه بها . ويقال إنه كان حسن الصورة جليل القدر ذا عشيرة ، وكانت هى أيضا جليلة القدر جميلة الخلق فصيحة تنظم الأزجال الرائقة الفائقة ، وينشد صفى الدين مطلع الموشحة وما يليه على هذه الشاكلة :

مَنْ يصيد صَيْدا ... فليكن كما صَيْدى
صَيْدِى الغَزَالَهْ ... من مراتع الأُسْدِ

كيف لاَ أصولُ ... واقْتَنصْتُ وَحْشِيَّهْ
ظبيةٌ تجولُ ... فى رِدا سوسيَّهْ
صاغها الجليلُ ... فهى شِبْه حوريَّهْ

تَثْنى رُويدا ... إذ تميسُ فى البُرْدِ
تَعْجِزُ الغِلالِهْ ... والرِّدا مع النَّهْدِ

رُبَّ ذاتِ لَيْلَهْ ... زُرْتُها وقد نامتْ
والرَّقيبُ فى غَفْلَهْ ... والنجومُ قد مالتْ
رُمْتُ منها قُبْله ... عند ضَمِّها قالتْ

قِرَّ قِرَّ واهْدَا ... لا تكنْ مُتَعَدِّى
تكسِر النِّبالا[1] ... وتَفْرُط العقدِ

وواضح فى الموشح العذوبة والسلاسة وصفاء الألفاظ وحسن انتخابها .

وواضح أيضا ما فى القفل الأخير من لحن فى شطريه الثانى والرابع : « لا تكن متعدى – وتفرط العقدِ » والأصل : « لا تكن متعديا – وتفرط العقدَ » بفتح الدال . وهو لذلك موشح مزنَّم ملحق بالموشحات المعربة . ويقال إن ابن غرله حين قدم ليقتل نظر فى الناس من حوله وارتجل فقرة أنشدها من نفس وزن هذا الموشح يستنجد بعشيرته لتأخذ بثأره قائلا :

---

(١) النبالا : الأسارير بالمغربية الدارجة .

خدُّها الأسيلُ بدتْ منه أنوار
طَرْفُها الكحيلُ سُلَّ منه بتّار
ها أنا القتيلُ فهل يُؤْخذ الثار
قد أُسِرْتُ عَبْدًا ولم أَكُنْ بالعبدِ
مُتُّ لا محاله فاطلبوا دمى بعدى

وفى كتاب العذارى المائسات فى الأزجال والموشحات لفيليب الخازن موشح لابن نباتة ص٧ وقيل إنه لابن غرلة وموشح ثان لابن غرلة ص٢٣ وقيل إنه لصدر الدين بن الوكيل وموشح ثالث لأحمد بن حسن الموصلى ص٦١ وقيل إنه لابن غرلة . والإجماع منعقد على أن له موشح العروس السالف ، وهو يصور مهارته فى اصطفاء اللفظ العذب والملاءمة بينه وبين غيره فى حسن الجرس وحلاوة النغم .

ابن[1] الصباغ

يقول المقرى فى الجزء الثانى من أزهار الرياض : « هو الشيخ الإمام الصالح الزكى الصوفى أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الصبّاغ الجذامى » ويذكر المقرى أنه قرأ له موشحات فى كتاب ألفه بعض الأئمة ورفعه للسلطان المرتضى الموحدى (٦٤٦ هـ/ ١٢٤٩ م – ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧ م) وأكثر المؤلف فيه من موشحاته وأشعاره فانتخب المقرى منها غررًا من الموشحات وهى اثنتا عشرة موشحة وقصيدتين ومخمسا وجميعها فى المديح النبوى وآخر ما أورد له قوله :

تركتُ امتداحَ العالمين ولُذْت مِنْ مدائحِ خيرِ الخلق بالعُرْوة الوُثْقَى
سأجعلُها كَهْفى وحِصْنى ومَلْجئى لعلىَ بالأمداح أستوجب العِتقا

وموشحاته وقصائده فى الذروة من المديح النبوى ، وهو يبث فيها هياما ملتاعا لأنه لا يستطيع المثول فى حضرة الرسول ﷺ وزيارة قبره الشريف واكتحال عينيه بنوره . ويشكو شكوى مرة من البعد عن محبوبه ويأمل دائما أملا حارا فى القرب منه ولقائه كما يأمل فى شفاعته من عذاب النار التى لا تطاق . ودائما يتمنى وقفة فى ذلك الحمى وتلك الربوع ، ودائما يتجدد شوقه وتتجدد صبابته ويتجدد هيامه ، ويرسل أناته وزفراته ولوعاته ودموعه المنهمرة ، يقول فى مطلع أولى موشحاته :

ألفَ المُضْنَى الشُّجونا وارتضى الأحزانَ دِينا
فوق صَفْح الوَجْنَتَيْنِ أرسل الدَّمْعَ الهَتُونا

(١) انظر فى ابن الصباغ وموشحاته أزهار الرياض ٢/٢٣٠ وما بعدها .

يَقْطَعُ الأيـــامَ حُـزْنـًا وبُكـــــاءً وعَـوِيلا
فارحمـــــوا صَبًّا مُعَنًّى قلبـــه يُذْكِي غَلِيـلا
مُلْهَبَ الأحْشـاءِ مُضْنًى بالنَّـوَى أضحى عليلا
ذاب شَوْقًا وحنينا وسَقَامـــًا وأنينـــــا
وشُئـــونُ المُقْلَتَيْنِ تسكبُ الدَّمـــع المَعِينا[1]

ومنذ ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد اعتاد بعض الشعراء الذين نظموا فى الخمر والمجون أن ينظموا بعض زهديات مكفرة عن أشعارهم الماجنة ، وصنع ذلك بعض الوشاحين ، ونرى ابن الصباغ ومعاصره ابن عربى يختمان بعض موشحاتهما الدينية بخرجات لموشحات ماجنة نظمها بعض الوشاحين ، ونفس هذه الموشحة الأولى لابن الصباغ ختمها بقوله :

وبَلينـا وابتُلينـا واشْ يقول الناس فينا
قُمْ بنا يا نورَ عينى نجْعَل الشكَّ يقينـــا

وهذه الخرجة لموشح ابن الصباغ هى نفس خرجة ابن بقى للموشحة الثامنة فى جيش التوشيح وهى موشحة ماجنة وفيها يقول ابن بقى فى أول أغصانها :

قم بنا نجلو الكئوسا تحت أظلال السحابِ
نتعاطـاها عـروسـًا حَلْيها دَرُّ الحَبـــابِ
قهـوةٌ تُعْطى النفوسـا عزَّ أيـــام الشبابِ

وكأن ابن الصباغ يريد أن يكفر لابن بقى عن موشحته باستعارته لخرجتها ، ولعله يريد أيضا أن يلفت عنها الشباب وقد دارت فى أفواههم إلى موشحة نبوية لعلها تدور مثلها على شفاههم . وموشحته الثانية فى التشوق إلى مكة وطيبة على ساكنها الصلاة والسلام . ختمها بخرجة استعارها من موشحة لابن خزر البجائى منشدا كما يقول عند المقام النبوى :

ثَغْرُ الزَّمـانِ الموافق حيَّاكَ منـــه بِابْتِسَامْ

وكأن نزول ابن اللبانة الوشاح الأندلسى ببجاية لم يذهب هدرا ، فقد نشأ بها – فيما بعد – ابن خزر على غراره . وكما أن ابن خزر نشأ على غرار ابن اللبانة فإن ابن الصباغ نشأ – فى رأينا – على غرار ابن بقى الذى أقام طويلا فى سَلا والمغرب الأقصى ، وسنراه ينظم موشحات مكفرة عن بعض موشحات أخرى . ولم يوضح المقرى هل ابن الصباغ مغربى أو أندلسى ويؤكد أنه مغربى أن كتب التراجم والموشحات الأندلسية لم تذكره ، ونفس تكفيره عن موشحة لابن خزر البجائى يدل أو يؤكد أنه مغربى ، وموشحاته إنما عُرفت فى مراكش بتقديمها للمرتضى الموحدى . وتدل خاتمة موشحته الثالثة أنها مكفرة عن موشحة لابن بقى فى التغنى

---

(١) شئون العين : مجارى الدمع . المعين : السائل الغزير .

بمديح بنى عشرة قضاتها وخاصة يوسف بن القاسم بن عشرة . والموشحة الخامسة مكفرة أيضا لموشحة لابن بقى جعل خرجتها خاتمة لموشحة له على هذا النمط :

ليتنى رَمْلَه على شَطِّ البَحَرْ يا ابنى أو أطومْ[1]
وترى عينىَّ مذ تقلعْ سَحَر لبلاد الـــــروم

والخرجة ذكر أولها فى نهاية موشحة ابن الصباغ ، وكأن كاتب النسخة لم يعن باستكمالها وهى كاملة فى موشحة دينية مكفرة عند ابن عربى[2] – وبالمثل الموشحة السادسة خاتمتها مشتركة عند ابن الصباغ وابن عربى[3] وتجرى على هذه الصورة :

جَنَّانُ يا جنَّانْ اِجْنِ مِنَ البُسْتانْ اليَاسَمِينْ
وخَلِّ الرَّيْحانْ بحرمـــــة الرَّحْمـنْ للعاشقين

وقال الدكتور سيد غازى إنها خرجة لابن بقى فى إحدى موشحاته[4] . واجتماع ابن الصباغ وابن عربى فى اقتباس هاتين الخرجتين من ابن بقى قد يدل على أن أحدهما حاكى صاحبه . وخاتمة الموشح التاسع عند ابن الصباغ فاتحة لموشحة ابن باجة فى مديح أبى بكر بن تيفلويت حاكم سرقسطة المرابطى :

جَـرِّ الذَّيْـلِ أيَّما جَـرّْ وصِـلِ الشُّكْرَ منك بالشكْرِ

والشطر الثانى فى الأصل : « وصل السكر منك بالسكر » وعدَّله ابن الصباغ ليتلاءم مع موشحه النبوى . واستعار ابن الصباغ خاتمة الموشحة الثانية عشرة الأخيرة من مطلع زجل للزجال المشهور البعبع مع شىء من التعديل على هذه الشاكلة :

يا فلانْ إن زُرْتَ حِبِّى اِفْتِل اذْنو بالرُّسيلا
ليشْ أخذ عُنْق الخُشَيْفْ وسَرَقْ فَمَّ الحُجيلا

وأصل المطلع عند البعبع :

يا ليتنى إن رِيتْ حبيبى افْتِل اذْنو بالرُّسيلا
ليشْ أخذ عنق الغَزَيِّل وسَرَقْ فَمّ الحُجيلا

والرُّسَيْلا هى الرُّسَيْلة تصغير رِسْلة أى تؤدة وتمهل ، يريد أن يعرك أذن حبيبه فى ترفق معاتبا له ، والخشف ولد الظبية والحجلة طائر فى حجم الحمام . والموشحات حب وهيام

(١) أطوم : سلحفاة .
(٢) انظر ديوان ابن عربى ص ١٢١ وكتاب فى أصول التوشيح للدكتور سيد غازى ص ١٠٨ .
(٣) راجع ديوان ابن عربى ص ٨٦ .
(٤) انظر فى أصول التوشيح ص ١١٠ .

بالرسول صلى الله عليه وسلم وصبابة استحالت عند ابن الصباغ تراتيل بديعة ، إذ استقر حب الرسول فى قلبه واستأثر بكل ما فيه من شعور وعاطفة وهوى .

ابن[1] زاكور

هو أبو عبد الله محمد بن زاكور الفاسى ، ولد حوالى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى وتوفى سنة ١١٢٠ هـ/١٧٠٨ م وأكبَّ على الأدب والعلوم العربية منذ نعومة أظفاره ، وتفتحت شاعريته ومواهبه الأدبية مبكرة ، ولم يلبث أن أصبح إمام الشعراء والكتاب فى عصره ، ولم يقف بشعره عند القصيد فقد نظم كثيرا من الموشحات ، ولذلك سمى ديوانه : « الروض الأريض فى بديع التوشيح ومنتقى القريض » ، وله أعمال أدبية متعددة منها شرح على ديوان الحماسة سماه عنوان النفاسة ، وشرح على قلائد العقيان للفتح بن خاقان باسم شرح ما خفى من القلائد وشرح على لامية العرب . ومن موشحاته موشح غزلى مطلعه :

مَنْ علَّم الغزْلانْ الفَتْكَ باللَّيْثِ الجَرِى
وسلَّط العينـانْ على قلـوب البشَـرِ

يـا ضرَّةَ الشمسِ اللَّهَ فى الصَّبِّ الكئيب
يـا منيـةَ النَّفْسِ هَجْـرُكِ للنَّفْسِ مذيب
حدِّثنى حَـدْسى أنـكِ لِلُّـبِّ سليب[2]

عارض بهذا الموشح الغزلى موشحا لابن سهل ، وقد جعل مطلعه : « ليل الهوى يقظان » خرجة لموشحه ، وهو فى الموشح جميعه كما فى هذا المطلع يختار اللفظ السهل الذى يعجب ويروق دون تكلف أو تصنع . ويقول متغزلا فى مطلع موشحة أخرى :

أدر الكاساتِ من خَمْرِ اللَّعَس يا لهـا من راح تحكى الجُلَّنارْ[3]
واسقنيها خمرةً تجلـو النفس علَّنى أرتـاح من حرِّ الأوارْ[4]
بأبى ظَبْىٌ رمانى بسهامَ ريشها الأهدابْ تَبْرى الأفئـده[5]
مُزِّق القلبُ الكليم المستهام إذ رنا واتسابْ سَيْفٌ جـرَّدَه[6]
عنبرىُّ الخال مسكىُّ الخيام يذهل الألبـابْ درٌّ نضَّـده

(١) راجع فى ترجمة ابن زاكور النبوغ المغربى فى الأدب العربى ٣٢٥/١ وقد نشر الأستاذ عبد الله كنون منتخبا من ديوانه وانظر فيه وفى موشحاته الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى للأستاذ محمد بن تاويت ٧٧٩/٣ وكنون فى النبوغ المغربى ٣٢٥/٣ وما بعدها .
(٢) حدسى : ظنى وفراستى .
(٣) اللعس : سمرة جميلة فى باطن الشفة . الجلنار : زهر الرمان .
(٤) أوار الحب والنار : شدتهما .
(٥) تبرى : تنحت .
(٦) الكليم : الجريح .

همتُ وجدا من سناه المقتبسْ من سَنا الإصباح أو بـدر أنـارْ
لاح حين افتـرَّ ثَغْرٌ كالقَبَسْ أزهـرٌ وضـاح أذكى زَنْد نارْ[1]

والكلمات سلسة حلوة تلذ الألسنة حين تنطق بها والآذان حين تصيخ إليها لرشاقتها من جهة ولما تشتمل عليه من تصاوير ممتعة من جهة ثانية . وله فى مطلع موشحة يصف فيها الربيع :

قد اكتسى العريان من مائس الأغصانْ بالسُّنْدسِ
وطـرَّز البستان بالـوَرْدِ والرَّيحـانْ والنَّرْجسِ
هَبَّتْ بـه الأزهار بنسمة الأسحـار من الوَسَن
وهاجت الأطيـار برائـق الأشعـار أم الحسُـن
تسبِّح الجبَّـارْ الواحـد القهـار مـولى المِنَن

والشطور قصيرة وقصرها يزيد سلاسة ألفاظها ونعومتها جمالا وحسنا ، ودائما تلقانا فى موشحاته هذه اللغة العذبة المصفاة المنتقاة ، إذ كان يعرف كيف ينتخب ألفاظه وكيف يلائم بينها فى الجرس الموسيقى ملاءمات ممتعة .

(ب) شعراء الأزجال

الأزجال جمع زجل وهو فى اللغة التطريب وسمى به الأندلسيون الفن الشعرى العامى المقابل للموشحة ، وقد نشأ بعدها فى الأندلس بنحو قرنين ، حتى إذا كان عصر المرابطين كان الزجل قد استوى على سوقه وأصبح له زجالوه المشهورون كما للموشحات وشاحوها المشهورون ، ويبدو أنه دخل المغرب الأقصى مع الموشحات ، إذ يذكر صفى الدين الحلى عن أول وشاح مغربى مشهور ، وهو ابن غُرْله ، أنه كان ينظم الموشح والزجل كما مر بنا ، ويقول عن رُمَيْلة محبوبته أخت عبد المؤمن إنها كانت تنظم الزجل ، ويذكر لها مطلعا فى زجل نظمته فى ابن غرلة قائلة :

مَشَى السَّهَـرْ حـيرانْ حتى رأى إنسانْ عينى وَقَفْ

ويتحدث ابن خلدون[2] فى مقدمته عن الزجل فى الأندلس وأعلامه ، ويستطرد إلى الحديث عنه فى المغرب الأقصى فيقول إن أهله استحدثوا فنا منه كالموشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية (يريد العامية) وسموه عروض البلد ويذكر أن أول من أشاعه فيهم رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير ، وسنفرد له ترجمة ، ويقول ابن خلدون إن المغاربة ولعوا به وجعلوه أنواعا ، منها المزدوج والملعبة والغزل ، ويذكر من كبار زجاليهم ابن شجاع التازى

(١) أزهر : مضيء . وضاح : مشرق . أذكى : أوقد . الزند : الحجر أو العود الذى يقدح به النار .
(٢) مقدمة ابن خلدون (طبع دار المعارف) ص ١٣٥٧ .

وسنترجم له ، ويذكر منهم أيضا الكفيف الزرهونى المكناسى ويقول إنه أبدع فى مذاهب هذا الفن ، ويذكر له زجلا فى رحلة السلطان أبى الحسن المرينى بجيشه إلى فتح إفريقية يريد أن يضم المغرب بعضه إلى بعض فى وحدة مغربية ، وفتحها ونزل تونس ولم يلبث أعراب بنى سليم وإخوتهم من بنى هلال أن نصبوا لجيشه شَركا فى القيروان ودارت عليه الدوائر وعُمِّى أمره على شعبه ، وانبرى الكفيف الزرهونى يعيب عليه فى زجله غزوته إلى إفريقية التونسية وما كان من هزيمة الجيش فى القيروان ، ويعزى الشعب عنها بما وقع لغيرهم من الشعوب ، وفيه يقول[1] :

عسكرُ فـاس المنـيرةِ الغَـــرَّا ... وينْ سـارتْ بُـو عزايمُ السلطانْ
أحُجَّاجـًا تخلَّلوا الصحـــرا ... وذُّوا سَرْح البلاد مع السُّكان[2]
عن جيشِ الغربِ جيتْ نِسْألْكم ... المتلـوف فى افريقيـا السودا
لـو كانْ مـا بين تونس الغَرْبـا ... وبلاد الغـــرب سدَّ الاسكنَدرْ
لابد للطـير كانْ يَجِي بِنَبَا ... أو يأتي الرِّيحْ عنهـم بفـردْ خَبرْ
ما اعْوَصْنا من أمورْ وما شرَّا ... لـو تُقْرا كل يـوم على الويدان[3]
لجـرتْ بالدَّم وانصـدع حَجْرَا ... وهوت الاجْرافْ وجفَّت الغُدْران

وهو يبكى عسكر فاس الغراء وتغرير السلطان ويسأل الحجاج الذين جابوا الصحارى عن الجيش التالف فى إفريقية التونسية السوداء ويقول لو كان بين تونس وبلاد المغرب الأقصى سدٌّ الإسكندر أو سد يأجوج ومأجوج لحمل الطير الخبر عن هذا الجيش المرينى الذى انبهم أمره ، وما أصعبها وشرَّها من أمور لو تقرأ على الآذان لجرت العيون بالدم وتشققت الأحجار وهوت أجراف الهضاب والجبال وجفت الغدران فياهول المصاب ويا لفداحة الفاجعة المؤلمة . ولم يرزق المغرب الأقصى فى هذا العصر الوسيط الذى نعنى بدرسه بزجال كبير بعد الكفيف الزرهونى ، وحرى بنا أن نترجم لابن عمير وابن شجاع التازى .

ابن[4] عمير

ليس بين أيدينا عن حياة ابن عمير إلا ما ذكره ابن خلدون فى مقدمته إذ قال : إنه رجل من أهل الأندلس نزل بفاس واستحدث لهم فنا من الشعر فى أعاريض مزدوجة كالموشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية واستحسنه أهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الإعراب الذى ليس من شأنهم وكثر شيوعه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ، ونظموا بجانب المزدوج أنواعا

(١) المقدمة ص ١٣٦٠ وانظر النبوغ المغربى ٣٣٧/٣ .
(٢) وَدُّوا : أرسلوا . السرح : الزروع ودوابها .
(٣) الويدان : يريد الآذان .
(٤) انظر فى ابن عمير العاطل الحالى (راجع الفهرس) ومقدمة ابن خلدون ص ١٣٥٧ وما بعدها .

أخرى ، وكلها صور من الأزجال وأشكال . ونجد المصادر التاريخية والأدبية لا تعنى بابن عمير إلا ما كان من صفى الدين الحلى فقد ذكره مرارا فى كتابه العاطل الحالى ، وذكر مطالع خمسة أزجال له وجزءا من زجل ليس مطلعا ونعتقد أنه كان أمامه ديوان ابن عمير الزجلى وأخذ منه الأمثلة التى ضمنها كتابه ، ومن مطالعه التى ذكرها فى ص ٣٢ :

أنكرتْ شيبى مَنْ بُليتْ بِيها ... كلِ من عاش يشيبْ
إنما هى ملاحة البستانْ ... بالنوّار العجيبْ

ولاحظ صفى الدين أنه خفف الواو فى كلمة « النَّوار » فلم ينطقها مشددة كما فى أصلها ، بل نطقها مفتوحة مخففة . ومن مطالع أزجاله التى أنشدها له فى ص ٥٦ قوله :

يا حبيبْ قلبى تعطَّفْ ... بعض هذا الهجر يِكْفَا
دموعْ عينى ما تَرْقا ... ولهيبْ قلبى ما يِطْفَا

ولاحظ صفىّ الدين أن كلمة يِكْفَا محرَّفة عن « يكفى » بقلب الياء ألفا لتماثل الألف فى كلمة « يطفا » . وأنشد ابن خلدون له زجلا طويلا لعله مما سماه عروض البلد يقول فى مطلعه :

أبكانى بشاطى النَّهْر نَوح الحمامْ ... على الغُصْنِ فى البُسْتانْ قريب الصباحْ
وكفّ السَّحَرْ تمحو مِداد الظلام ... وماء النَّدَى يَجْرِى بِثَغْرِ الأقاحْ
باكرتُ الرِّياضْ والطَّلّ فِيهِ افتراقْ ... سَرَّ الجواهرْ فى نُحورِ الجَوَارْ
ودَمْع النَّواعِرْ يَنْهَرِقُ انهراقْ ... يحاكى ثعاينْ حلَّقَتْ بالثِّمارْ
لَوُوا بالغُصونْ خَلْخال على كل ساقْ ... ودار الجميع بالروض دَوْر السُّوارْ
وأيدى النَّدَى تِخْرق جيوب الكِمامْ ... وتِحْمِلْ نسيم المسك عنها رياحْ
وعاج الضِّيا يُطْلَى بمِسْكِ الغمامْ ... وجَرَّ النسيم ذِيلُو عليها وفاحْ

والزجل مكتظ بصور فريدة من ابتكار ابن عمير ، فمداد الظلام الأسود يمحوه كف السحر الأبيض ، ويشبه الشعراء الأقحوان بالثغر فيضيف ابن عمير أن ماء الندى يجرى فيه ، ويقول باكرت الرياض والطل يتساقط والجواهر كأنها مسرورة بمكانها من نحور الجوارى الفاتنات ، والسواقى تذرف الدمع مدرارا وكأنما يحاكى الماء فى قنواته أفاعى تريد أن تحلق بالثمار وقد استوت الغصون خلاخيل على سيقان الأشجار ، ودار كل ذلك فى الروض دور السوار ، وينفذ إلى تصوير مبتكر فأيدى النَّدى فى الصباح الباكر كأنما تخرق كمام الزهر بل جيوبه ، وتحمل عنها الرياح نسيم المسك العاطر ، وأخذ الضياء يعمه الغمام ، أو كما يقول ، يطلى بمسك الغمام ، وجرَّ النسيم ذيل ردائه عليه وفاح وسطعت رائحته سطوعًا شديدًا . وتمتلىء بقية الزجل بمثل هذه الصور البديعة فى حوار رائع بين ابن عمير والحمام . ونخ

كما يقول ابن خلدون استحسن أهل فاس أزجال ابن عمير وشغفوا بها وفتنوا فتنة شديدة ومضوا ينظمون على نهجه وطريقته .

ابن[1] شجاع التازى

لم يذكر عنه ابن خلدون شيئا إلا أنه من فحول الزجالين بالمغرب الأقصى وقال إنه من أهل تازا ثم أنشد له زجلين ، والزجل الأول أشبه بنقد اجتماعى ، وفيه يقول :

المالْ زينةِ الدُّنيـــا وعِزّ النفـوسْ ... بِيْهى وجوهـــًا ليستْ هى باهْيَا
فها كلّ من هُوْ كبير الفلـــوسْ ... وَلُّوهُ الكـــلامْ والرُّتْبَة العالْيـــا
يكبَّروا مَنْ كُثُرْ مالو ولو كانْ صغيرْ ... ويْصغَّرُوا عزيـز القُـــومْ إذا يِفْتِقِرْ
حتى يِلْتِقى مَنْ هُو فى قُومُهْ كَبِيرْ ... بمن لا أصْل عِنْدو ولا لُو خَطَرْ
أدِى صارت الأذناب أمام الرءوس ... وصـــار يستمدّ الـــوادِ من الساقْيا
ضَعْف الناس عمل ذا أو فساد الزمانْ ... ما نِدْرِيو على مَنْ نِكْثِرُوا ذا العتاب
أدِى صار فلانِ اليـــوم يِصَبّحْ بوفلانْ ... ولَوْ رِيتْ وكِيفْ حتى يِرُدّ الجـــواب

وواضح أنه يقول إن الموازين الاجتماعية اختلت ، فأصبح المال هو كل شيء : زينة الدنيا وعز النفوس حتى ليضفى البهاء على الوجوه غير البهية ، وها أنت ترى الناس يقدمون الثرىّ فى الكلام ويولونه الرتبة العليا ويكبرونه ولو كان صغيرًا ويصغرون عزيز القوم إذا افتقر ، حتى اختلطت المقاييس وأصبح كبير القوم يقرن بمن لا أصل له ولا خطر من الأثرياء ، وبذلك تقدمت الأذناب الرءوس وتُرَى هل هذا من ضعف الناس أمام الثراء أم من فساد الزمان ، لقد أصبح من لم يكن له لقبا يمنح الألقاب ويقال له أبو فلان إجلالا وتوقيرا ، وقد امتلأ غرورا حتى إنه لا يرد الجواب . والزجل الثانى الذى ذكره ابن خلدون موضوعه الغزل ، ويستهله على هذه الصورة :

تعبْ مَنْ تبَّع قَلْبُو مِلاح ذا الزمانْ ... اهمل يا فْلان لا يلْعَب الحسن بيكْ
ما منهم مليحْ عاهدْ إلا وخانْ ... قليـــل مَنْ عليه تحبِسْ ويحبِسْ عليك
يتيهوا على العُشَّاقْ ويتمنَّعوا ... يتعمَّدوا تَقْطيعْ قلوب الرجال
وانْ واصْلوا من حِينهم يقْطعوا ... وان عاهْدوا خانوا على كلّ حال
ومهَّدت لُـــو من وسْط قلبى مكان ... وقلت لقلبى اكرمْ لمنْ حلّ فيك
وهَوَّنْ عليك مـــا يعتريكْ من هـوانْ ... فلابد من حـــول الهـــوى يعتريك

(١) انظر فى ابن شجاع مقدمة ابن خلدون ص ١٣٥٨ وما بعدها والنبوغ المغربى ص ٣٣٥ وما بعدها .

وهو يدعو فى أول زجله إلى البعد عن الحسان الملاح لأنهن يَخُنَّ من يعاهدنه ولا يحبسن أنفسهن على من يصفيهنَّ الودَّ ، ودائما يَتِهْنَ على عشاقهن ويتمنعن ويجدن متاعا فى تقطيع قلوبهم ، وإن واصلوا لم يلبثن أن يهجرن ، ولا عهد لحن ولا أمان . ومع كل هذه النصائح يقول إن واحدة منهن صبته وملأت قلبه حبا وهياما وأوصى بها قلبه حتى لو أذاقته هوانا بعد هوان !

٣

شعراء المديح

المديح من أقدم موضوعات الشعر العربى ، وهو يحمل أمجاد الأمة على مر التاريخ ، ونراه دائما على ألسنة الشعراء فى كل قطر وعصر يتغنون بالأمجاد التى يحققها الخلفاء والحكام ، ونراه فى المغرب الأقصى منذ نشأت دولة الأدارسة ، وفيهم يقول – كما عند أبى عبيد البكرى – إبراهيم بن أيوب من نكور فى الشمال الشرقى للمغرب الأقصى على المتوسط ، ولعلها فى إدريس الثانى :

أيـا أملى الذى أبغى وسُـولِى ... ودُنْيـــاىَ التى أرجـــو ودِينى
أأحْرَمُ من يمينك رِىَّ نَفْسى ... ورزقُ الخلـق مـن تلك اليمين
ويُحْجَبُ عن جَبِينك طَرْفُ لَحْظى ... ونـــورُ الأرض من ذاك الجبـين
وقد جبتُ المهامـــهَ من نكـــورٍ ... إليك بكل ناجيـــةٍ أُمُـــونِ[1]

وابن أيوب لا يمدح فحسب ، بل يبالغ فى مديحه ، إذ يجعل نور الأرض – فى المشارق والمغارب – يستمد من جبين ممدوحه الإدريسى . ونمضى بعد الأدارسة فى عصر أمراء الطوائف ولا نجد إلا شظايا متناثرة من بعض المدائح ، ونجد ابن القابلة السبتى يمتدح قائدا ولعله من قواد المرابطين فى أول دولتهم ، ولم يبق من مدحته إلا ما أنشده ابن بسام فى الذخيرة من قوله فى بعض انتصاراته ووصفه لقتلاه[2] :

تركتهمُ نهبَ الفلاة ووَحْشِها ... شعورهمُ شُعْثٌ وأوْجُههم غُبْرُ
تظلُّ سِباعُ الطير عاكفةً بهم ... على جُثَثٍ قد سَلَّ أنفُسَها الذُّعْرُ
وقد عوَّضَتْهم من قبورٍ حَواصلا ... فيـا من رأى مَيْتا يطيرُ بـه قَبْر

وهو يقول إن أرواحهم لم تسلَّها السيوف ، وإنما سلها الذعر من الممدوح وجيشه قبل السيوف ويقـول إن الطير عاكفة على أجسادهم تأكلهم أكلا لَمًّا ، وكأنما لم يعد التراب

(١) المهامه : القفار والفلوات . ناجية : ناقة سريعة . أمون : لا تعثر ولا تفتر .
(٢) الذخيرة ٤/١/٣٨١ .

قبورهم ، بل أصبحت قبورهم حواصل الطير. ويقول الحصرى نزيل سبتة يصف بأس المرابطين وشجاعتهم :

بنو الحَرْبِ غذَّتْهم لبانَ ثُدِيِّها ... وما استعذبوا منهن إلا العلاقما[1]
يحثون للهيجـــاء جُرْدًا سَلاهِبا ... ويَنضون فى البيداء بُزْلا صَلادما[2]
إذا طعنـوا بالسمهريَّـة خِلْتهم ... ضراغم تُغْرِى بالقلـوب أراقما[3]
وإن كرَّ منهم ذو لثـــامٍ مصمِّمٌ ... غدا لفم الهيجـاء بالسيف لاثما[4]

والحصرى يقول عن المرابطين إنهم بنو الحرب رضعوا لبان ثديها ، مستعذبين منها العلاقم وأشدها مرارة كناية عن حسن بلائهم فى الحروب الضارية ، وإنهم ليحثون لها خيلا جردا مقدمة ويُضْنون فى البوادى إبلا متينة صلبة ، وإنك لترى الرماح فى أيديهم يدسونها – كأنها أفاع – فى قلوب أعدائهم ، وإنك لترى الملثم منهم إذا صمم وكرَّ كأنما يريد أن يقبِّل الحرب بسيفه ، الذى يستأثر منه بكل مشاعره . وأنشد المقرى فى الجزء الرابع من أزهار الرياض للقاضى عياض السبتى مقطوعة بديعة يهنىء بها – كما نص – على بن يوسف بن تاشفين بزفاف ولى عهده تاشفين على عروسه منشدا :

لِيَهْنِ العُلا أنْ زُفَّتِ الشمسُ للبدرِ ... وحُلِّىَ جِيد المُلْك بالأنجم الزُّهْرِ
وقرَّتْ عيونُ المجدِ أيَّةَ قِرَّةٍ ... بيومٍ تعالَى أن يكونَ من الدَّهْرِ
لَدُنْ ساعةً أفضتْ إلى كل بغيةٍ ... كما اعتلق الغوَّاصُ بالدرَّة البِكْرِ
قرانٌ كلا السَّعْدَينِ فيه تلاقيا ... كما يلتقى فى المُقْلـــة الشَّفْرُ بالشَّفْرِ
لِتَجْرِ المُنَى فى حَلْبَتَيْهِ مُغِذَّةً ... فحقَّ لها فى مثل ذلك أن تجرى[5]
بِسَعْدِ أميرِ المسلمين تَطلَّعَتْ ... أَساريرُه تَندَى بمـائيَّة البِشـر[6]
تمنَّـــاهُ نَجْلُ الملك حظـــا ممتَّعًا ... بعِـــزٍّ إلى عِـــزٍّ وقَـدْرٍ إلى قَـدْرِ

وهو يقول : لتهنأ العلا فقد زُفَّت الشمس الساطعة إلى البدر المنير ، وزُيِّن جيد الملك بالأنجم المتلألئة ، وأصبح المجد قرير العين بيوم زفاف تسامى على الدهر ، حين أتيحت لولى العهد كل أمنية ، وظفر بها ظفر الغواص بالدرة اليتيمة ، وإنه لقران تلاقى فيه سعدان كما يتلاقى فى العين الجفنان ، ولْتَجْرِ المنى فى حلبتيه وتمرح ما شاء لها المرح ، فذلك سعد أمير المسلمين ، وتلك أساريره يترقرق فيها رونق البشر ، وهو كل ما كان يتمناه نجله حظا سعيدا هانئا بعزٍّ

---

(١) العلاقم : جمع علقم : شديد المرارة .
(٢) جردا : قوية . سلاهب : طويلة . ينضون : يهزلون . بزلا : إبلا ناضجة متينة . صلادم : صلبة .
(٣) السمهرية جمع سمهرى : الرمح . ضراغم : أسد . أراقم : جمع أرقم : أخبث الحيات والأفاعى .
(٤) ذو لثام : كان المرابطون يضعون لثاما على وجوههم ، ولذلك سموا الملثمين . لاثما : مقبِّلا .
(٥) مغذة من أغذ السير إذا أسرع فيه .
(٦) أساريرالوجه : محاسنه . مائية : رونق .

إلى عز وتجلة إلى تجلة . وترمز هذه المقطوعة إلى ما أصاب الشعر المغربى من نهضة منذ عصر المرابطين ، وسنترجم لابن زنباع أحد شعرائه . ونمضى إلى عصر الموحدين ونلتقى بابن حبوس شاعر عبد المؤمن والجراوى شاعر يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور وحفيده الناصر ، وسنفرد لكل منهما ترجمة . وكان عبد المؤمن قد استوزر أبا جعفر بن عطية واستكتبه ، ثم جرت له محنة معه فزجّ به فى مهاوب السجون وقتله ، وأرسل إليه ، وهو سجين يستعطفه ، أبياتا شعرية افتتحها بقوله[1] :

عطفا علينا أميرَ المؤمنين فقد ... بان العزاءُ لفرط البَثّ والحَزَنِ
قد صادفتْنا سهامٌ كلها غرضٌ ... ورحمةٌ منكمُ أوْقَى من الجُنَنِ[2]
مَنْ جاء عندكُمُ يَسْعَى على ثقةٍ ... بنصره لم يخفْ بَطْشًا من الزَّمَنِ
أنتم بذلتم حياةَ الخلق كلِّهمِ ... من دون مَنٍّ عليهم لا ولا ثَمَنِ
ونحن من بعض منْ أحييتْ مكارمُكم ... كلتا الحياتين من نَفْسٍ ومن بدنِ
وصبيةٍ كفراخ الوُرْق من صِغَرٍ ... لم يألفوا النَّوْحَ فى فَرْعٍ ولا فَنَنِ[3]
قد أوجدتْهم أيادٍ منك سابغةٌ ... والكلُّ لولاك لم يوجد ولم يكُنِ

وهى أبيات تلين القلوب القاسية وتملؤها رحمة وبرا وإشفاقا ، ولكن قلب عبد المؤمن لم يلن له ولا أخذته فيه رأفة ولا رحمة ، وظل غاضبا عليه حتى أذاقه حتفه . وكان ابنه يوسف محبوبا من شعبه وكان عالما واسع المعرفة وقرّب المتفلسفة والشعراء منه ، ولأبى حفص عمر السلمى مدحة طويلة فيه أنشدها المقرى فى أزهار الرياض استهلها بقوله[4] :

اللّهُ حسبُك والسبعُ الحواميمُ ... تغزو بها سبعةً وَهْى الأقاليمُ
سبعُ المثانى التى لله قمتَ بها ... عليك من سِرِّها نَصْرٌ وتقديمُ
وأنت بالسُّوَرِ السبع الطوال على ... كل الورَى حاكمٌ بالله محكومُ

ولعل يوسف كان أمضى من حكمه سبع سنوات ، فخال الله يرعاه والسور الحواميم السبع كأنما يغزو بها العالم وأقاليمه السبعة كما كان يظن الجغرافيون حينئذ ، والسبع المثانى وهى سورة الفاتحة التى لا يزال يقوم بها مصليا لربه وداعيا تحفظه وتكفل له النصر والتأييد . وتؤكد السور السبع الطوال : البقرة ، وتالياتها حتى التوبة أنك محكوم وحاكم بكتاب الله وما جاء فيه من الإخاء بين المسلمين والمساواة والعدل الذى لا تصلح حياة الشعوب بدونه . ومضى عمر السلمى فى قصيدته يسترسل فى بيان تعمق يوسف فى العلم وتدفق الخير على رعيته من يده ، ويقول مبالغا إن الشرق والغرب والبحر والبر من سهل وجبل يدين له ، ويشيد بعلمه وكرمه

(١) النبوغ المغربى ١٦٦/٢ .
(٢) الجنن جمع جنة : الوقاية .
(٣) الورق : الحمام . فنن : غصن .
(٤) أزهار الرياض ٣٦٢/٢ .

وإقدامه فى الحرب وشدته على العصاة ، ويختم القصيدة بمبالغات طالبا إلى سامعيه أن يجثوا على الرُّكب إعظاما ليوسف . وبحق يمجِّد انتصار يعقوب بن يوسف فى موقعة الأرَك التى سحق فيها نصارى الإسبان ومزق جموعهم تمزيقا ، وكان حريا بابن سعيد أن ينشد القصيدة كاملة فى كتابه الغصون اليانعة ، ومما أنشده قوله ليعقوب[1] :

أطاعتْك الذَّوابـــل والشِّفـــارُ ... ولبىَّ أمـرَك الفلكُ المـــدارُ[2]
ببشرى مثل ما ابتهجتْ رياضٌ ... وسَعْدٍ مثلمـــا وضح النهـــارُ
وفتحٍ مثلما انفتحتْ كِمامٌ ... وشُقَّت عن صدور مَهًا صَدارُ[3]
وآمـــالٍ كما مُدَّتْ ظـــلالٌ ... وأفعـــالٍ كما مدَّتْ بِحـــارُ
وأعـــلامٍ بنصرك خافقـــاتٍ ... لها فى كل جـــوٍّ مستطـارُ
ليَهْنِىءْ أرضَ أندلـسٍ بـــدورٌ ... من السـرَّاء ليس لها سِرارُ[4]

وهو نصر عظيم فى الأرك طوَّق يعقوب بمجد وفخر لا يماثلهما فخر ومجد . وكانت دولة الموحدين دولة ظاهرية كما مر بنا فى الفصل الثانى ، وكانوا يدعون إلى المذهب الظاهرى وإلى نبذ كتب الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، ويسمونها كتب الفروع . ولا نصل إلى عصر يعقوب حتى تبلغ هذه الثورة على كتب المذاهب الأربعة الكبرى غايتها فيأمر بإحراقها بعد أن يجرِّد ما فيها من آى القرآن والأحاديث النبوية وأن يُحْمَل الناس على الظاهر من الذكر الحكيم والحديث الشريف ، وينوه بذلك غير شاعر فى مديحه ، من ذلك قول قاضى قضاته أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن مروان كما جاء فى الغصون اليانعة لابن سعيد[5] :

نُصِرْتُمْ لأن الحق آن ظهورُه ... وناصِرُه فى الله ما كان يُخْذَلُ
قطعتم فروعًا قد أضرَّتْ بأصلها ... ألا هكذا من كان بالعدل يَشْمَلُ

والأصل الذى يقصده هو القرآن والحديث النبوى الذى يأخذ بهما الظاهرية . ويقول ابن سعيد فى الغصون اليانعة إن لابن الياسمين قصيدة منصورية يذكر فيها قَطْع المنصور الاشتغال بكتب الفروع أى كتب المذاهب الفقهية الأربعة الكبرى والاقتصار على ما ثبت من الأحاديث النبوية ، وينشد منها قوله[6] :

أسيِّدَنا قد وردتـمْ بنـــا ... مـــواردَ كنا عليهـــا نحـومْ
نبذتـم مقـالةَ هـذا وذا ... فزال المِراء وقلَّ الخصـــومْ

(١) الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة ص٩٦ .
(٢) الذوابل والشفار : الرماح والسيوف .
(٣) الصدار : ما تلبسه المرأة على صدرها .
(٤) السرار : آخر ليلة فى الشهر يريد أنها بدور منيرة من المسرة والرخاء لا يعقبها أى ظلام .
(٥) الغصون اليانعة ص ٣٠ .
(٦) الغصون اليانعة ص ٤٧ .

وأثبتمُ قـــولَ مَنْ لفظُه هو الشَّرْعُ والحق منه يقومْ
فلازلتمُ لكمـــال الهُـــدَى وإحياء دارسِ درسِ العلـــومْ

وهو يشير إلى ما كان قد أمر به يعقوب الفقهاء فى أيامه من جمع الأحاديث الصحيحة من مصنفات عشرة ، هى كتب الصحاح ماعدا ابن ماجة والموطأ وسنن البزار ومسند ابن أبى شيبة وسنن الدارقطنى وسنن البيهقى ، فجمعوها له فكان يمليها بنفسه على الطلبة ويجعل لمن حفظها مكافأة سنية .

ونمضى إلى عصر المرينيين وأول شاعر كبير نلتقى به فى عهدهم مالك بن المرحِّل ، وهو شاعر أهم سلاطينها فى أوائل عهدها يعقوب بن عبد الحق (٦٥٧ هـ/١٢٥٩ م - ٦٨٥ هـ/١٢٨٧ م) وله يهنئه بافتتاحه مدينة مراكش[1] سنة ٦٦٨ هـ/١٢٧٠ م :

فَتْحٌ تبسَّمتِ الأكـــوانُ عنه فما رأيتَ أملحَ منـــه مَبْسِمًا وفَمَـــا
فَتْحٌ كما فتـــح البستـــانُ زهـــرتَهُ ورجَّـــع الطيرُ فى أفنـــانه نَغَمَا
فَتْحٌ كما انشقَّ صُبْحٌ فى قميصِ دُجىً وطـــرَّف البَرْقُ فى أرْدانـــه علما
أضحتْ له جَنَّةُ الرِّضوان قد فُتحتْ أبوابُهـــا وفـــؤادُ الدِّينِ قَدْ نَعِما
الحمدُ لله هـذا مـــا وُعِدْتَ بهِ يا خيرَ مَنْ وَلِىَ الدُّنيا ومَنْ حَكَما
لن يُخْلف اللّهُ وَعْدًا كان واعَدهُ فاشكرْ يضاعفْ لك الحظَّ الذى قُسِمَا
سبحـــانَ مَنْ بجميع الفضـــل أفـــردَهُ ومَنْ حَبَـــاه السَّجـــايا الغُـــرَّ والشِّيَمَا

وهو يمجد فتح يعقوب المرينى لمراكش مدينة المغرب الأقصى الكبرى أعظم تمجيد ، فقد ابتسمت لفتحه الأكوان ، كما يتفتح البستان المونق عن زهراته ، والطير تصدح مبتهجة على أغصانه وكأنما فُتحت له أبواب الفردوس ، ونعم فؤاد الدِّين بهذا النعيم العظيم . والشاعر يحمد الله أن تحقق ليعقوب كل مأموله من ربه ، مما لا يسعه معه إلا مضاعفة الشكر ، والله جلَّ فى علاه جدير بكل حمد إذ أفرده بكل فضل وحباه بكل سجية وشيمة شريفة . ويعقوب من سلاطين المسلمين الذين يستحقون هذا الثناء لا بفتحه مراكش ، ولكن لأنه رصد نفسه وجيشه المغربى لجهاد نصارى الإسبان ، وقد جاز لهم بجيشه الزقاق أربع مرات : سنة أربع وستين وسبع وسبعين وإحدى وثمانين وأربع وثمانين قبل وفاته بعام واحد ، وفى كل مرة كان يسحقهم سحقا ، وبذلك أعز الإسلام والمسلمين فى غرناطة والعُدْوة الأندلسية ، وكان كل ما يغنمه يقدِّمه لسلاطينها من بنى الأحمر بنفس راضية . وكان يسمى بالسلطان المجاهد والملك العابد لربه . وللقاضى أبى عبد الله القَشْتالى يستمنح[2] أبا عنان (٧٤٩ - ٧٥٩ هـ) :

(١) انظر النبوغ المغربى ٣/٢١٢ .
(٢) النبوغ المغربى ٣/٢٢٠

أيا إمامًا ندى كفَّيه قد وَكَفَا ... حَسْبى اعتصامى بحبلٍ منكمُ وكَفَى
وكيف أصرفُ وَجْه القَصْد عن ملكٍ ... ما صدَّ عنى سَنَا بِشْرٍ ولا صَرَفا
ما إن شكوتُ بما أضْنَى تطلُّبهُ ... إلا وجدت بـه لى من ضَنَـاىَ شِفا
ولا وقفتُ عليـــه منتهـى أملى ... إلا قضى وطـــرا منـه ومـا وقفا[1]
فى كل يـــومٍ له تجديدُ عارفةٍ ... مهمـا انقضتْ هذه ائْتنفا[2]
وليس ممـن يـــرى أن لا يُتيح يَـــدًا ... حتى يقـــام لـــه بشكرِ مـا سلفا

وهو يقول لأبى عنان إن ندى كفيك قد سال وفاض على جميع الناس ، وحسبى أننى أعتصم منك بعهد ومودة باقية ، ولن أنصرف عن قصدك وكيف أنصرف وأنت دائما تلقانى ببشر وترحاب وما شكوت ضنا إلا شفيتنى منه ، ولا أملت فيك أملا إلا حققت لى شطرا منه ، وفى كل يوم يتجدد منك عارفة وإحسان وما ينقضى إحسان حتى تستأنف إحسانا آخر ، وإنك لتقدم أفضالك غير منتظر على فضل شكرا .وسنفرد لأحمد بن عبد المنان شاعر أبى عنان ترجمة . ولمحمد بن أحمد الشبُّوكى يمدح أبا فارس المرينى قائلا[3] :

هو الإمامُ الذى من أمِّ ساحتَه ... جادتْ عليهـا بجدواها أناملهُ[4]
ومَنْ تخلَّف جهلاً عن إجابتِه ... سارتْ إليه على علمٍ صَواهلهُ[5]
قل للذى عنه أقصتْه جرائمُه ... وعقَّلته عن العَلْيـــا معـــاقلُه[6]
زُرْ حضرةَ الملك الميمون طالعُه ... تحظى بما أنت فى دُنْياك آملُهُ
فطبْعه الصَّفْح والمعـروف شيمتُه ... والحلم والصَّوْن والتقوى شمائلُه

فهو الإمام الذى يغمر من يقصده بعطاياه ، والجاهل هو الذى يتخلف عن إجابته فتغزوه خيوله وجيوشه ، وما أحرى من أبعدته عنه جرائمه وحبسته عن العلياء من الصلة به معاقله أن تبتسم له الدنيا وتتحقق له آماله إذ طبعه الصفح والغفران وشيمته زَرْعُ المعروف والحلم والصيانة والتقوى ومخافة الله .

وإذا انتقلنا إلى عصر السعديين التقينا بمعركة كبرى بينهم وبين البرتغاليين فى وادى المخازن بقرب مدينة القصر الكبير سنة ٩٨٦ هـ/١٥٧٨ م وكان يقود جيش البرتغاليين ملكهم سباستيان وكان السلطان عبد الملك السعدى مريضا وحضر المعركة أخوه أحمد ، ومن قائل كان الجيش البرتغالى ثمانين ألفا ومن قائل كان مائة ألف ، أُسِر أكثرهم ، وقتل ملكهم فى المعركة وتوفى السلطان عبدالملك وتولى أخوه أحمد الملقب بالمنصور الذهبى.

---

(١) وطرا : مأربا .
(٢) عارفة : مكرمة . ائتنف : استأنف .
(٣) النبوغ المغربى ٣/٢٢١ .
(٤) أم : قصد . جدواها : عطاياها .
(٥) صواهله : خيله .
(٦) عقلته : حبسته .

وللشعراء فى هذه المعركة والإشادة ببطولة المنصور فيها قصائد كثيرة ، منها قصيدة داود بن عبد المنعم الدُّغوغى ، وفيها يقول[1] :

جَنَا النَّصْرِ ما بين الظُّبا والكنائنِ ... على سابقات المذكيات الصَّوَافنِ[2]
وماذا يفيد الجيش إن كان ربُّه ... كسيسَطْيانَ عند وادى المخازنِ
يُسَرِّبُ نحو المَغْرِبَيْن جنودَهُ ... كمثل الدَّبا عن ماخرات السفائنِ[3]
وخيَّم فى تلك الجهات وعَيْنُهُ ... لمرَّاكُشَ الحمراءِ لا لتطاونِ
وشبَّتْ لظى الهَيْجاء ليس وقودُها ... سوى أنفُسِ الشجعان وسْط الميادنِ
وذلك يومٌ مثل بَدْرٍ وصِنْوِه ... حُنَيْنٍ بأيدى المؤمنين اليامن
لقد ذاق فيه البُرْدُقِيزُ من الرَّدَى ... جزاءَ مناحيسٍ خَزايا ملاعنِ[4]

وهو يقول إن ثمار النصر دائما تجلبها السيوف وكنائن السهام على سابقات الخيل الفتية القارحة ، ولكن ماذا يفيد الجيش إن كان قائده مثل سباستيان عند وادى المخازن ، وقد ظل يدفع بجنود مثل الدبا أو الجراد من السفن ماخرات المحيط ، وخيَّم فى تلك الجهات وعينه على المدينة الكبرى مراكش لا على تطوان أوغيرها . وشبت المعركة وقودها البرتغاليون وإنه ليوم نصر عظيم للمسلمين كيوم بدر وصنوه يوم حنين ، وذاق البرتغاليون فيه من الموت أصنافا عقابا وتنكيلا لمناحيس مستخزين . ومعركة ثانية كبرى خاضتها جيوش المنصور الذهبى لكن لا فى الشمال، وإنما فى الجنوب ببلاد السودان ، فقد أمر سنة تسعمائة وثمان وتسعين بتجهيز جيش لغزو بلاد السودان ، ففتحها واستولى على إقليم توات فى الجنوب الشرقى للمغرب وإقليم تيجورارين شمالى إقليم توات، وغير ذلك من البلاد ، وتوغل فى السودان وألقى فى حجره بذهب كثير أثرت به الدولة، وفى هذا الفتح يقول الشيظمى[5]أحد قواد المنصور :

سهمٌ من الغرب قد أصْمَى الأساودَ إذ ... صَمُّوا وهم حيث بحرُ النيلِ مورودُ[6]
وحين صَمُّوا عن الإنذار أسمعهم ... صواعقًا بِذاها الموتُ معقودُ
تراه ينفث من أفواههـا بَرَدًا ... ينقضّ حيث فؤاد القِرْنِ مرصودُ[7]
مدافعٌ أبطلتْ للسود حِكْمَتها ... فلم يُفِد معها نَفْثٌ وتعقيدُ[8]
وما استقاموا إلى أن جُرِّدَتْ لهمُ ... بِيضٌ وأُشْرِعتِ السُّمْرُ الأماليدُ[9]

(١) النبوغ المغربى ٤٣/٣ .
(٢) جنا : ثمرة . الظبا : السيوف . الكنائن جمع كنانة : وعاء السهام . المذكيات : الخيل القارحة . الصوافن جمع صافن : يريد المتأهبة للحرب .
(٣) الدبا : الجراد . ماخرت السفينة : شقت الماء .
(٤) البردقيز : البرتغاليون .
(٥) الوافى بالأدب العربى لابن تاريت الطنجى ٦٧٨/٣.
(٦) أصمى : أصاب إصابة قاتلة . صموا : لم يسمعوا .
(٧) بردا : يريد الشاعر بارودا .
(٨) النفث والتعقيد يراد بهما تعاويذ السحر .
(٩) بيض : سيوف . سمر أماليد : رماح لينة فاتكة .

والشيظمى يتصور كأن سهما انصبَّ من المغرب فقضى على السودانيين إذ أصابهم – وهم حاشدون على نهر النيل – ما يشبه الصمم ، فلم يسمعوا إنذار المدافع المدوى وما تنفث من أفواهها من قذائف قاتلة ، مدافع أبطلت للسود حكمتهم فلم ينفعهم نفث ولا تعويذات ، وسرعان ما قوَّمتهم السيوف والرماح واستلموا خانعين . وشعراء المنصور كثيرون وسنترجم لشاعريه الحوزالى وأحمد بن القاضى .

واستولى المنصور على مدينة أصيلا من أيدى البرتغاليين ، وهنأه بذلك الشعراء ، ويتوفى ويتنازع أولاده بعده على الحكم ، ويتنازل أحدهم – وهو المأمون – عن مدينة العرائش ، للإسبان وأسسوا لهم بالقرب منها مدينة المهدية . واستولوا على سبتة وطنجة من أيدى البرتغاليين كما استولوا على الجديدة وأزمور ، وتعلق أمل الناس بالمتصوفة فى مقاومة البرتغاليين والإسبان ، وانتعشت الزاوية الدلالية فى تادلة إلى أن دمَّرها السلطان العلوى الرشيد سنة ١٠٧٩ هـ/١٦٦٩ م ونقل شيوخها وفى مقدمتهم شاعرها الكبير اليوسى إلى فاس . وأهم من هذه الزاوية وشيوخها فى مقاومة الإسبان الشيخ الصوفى أبو عبد الله محمد العياشى الذى تصدَّى – ومعه جماعات الفدائيين المجاهدين – للإسبان ، فخلص منهم مدن العرائش وأزمور والجديدة وتوفى سنة ١٠٥١ هـ/١٦٤٢ م واستولى الخضر غيلان أحد رجاله – فيما بعد – على مدينة القصر الكبير . وفى العياشى يقول أبو عبد الله محمد بن أحمد المكلاتى مصورا محبة الشعب له لجهاد أعدائه وأعداء الدين الحنيف[1] :

حديثُ العلا عنكم يسيرُ بهِ الرَّكْبُ ... وينقله فى صُحْنِهِ الشَّرْقُ والغَرْبُ
وحبُّكُمُ فَرضٌ على كلِّ مسلمٍ ... تُنـــال بـــهِ الزُّلْفَى من الله والقُرْبُ
وأنت رفيعٌ من أصـولٍ رفيعةٍ ... نجومُ الدياجى فى الأنام لها سِرْبُ[2]
سمىُّ رســولِ اللهِ نـاصـرُ دينـــهِ ... تجلَّى بكـم عن أفْقِهِ الشكُّ والرَّيْبُ

وكما تغنى الشعراء طويلا فى العهد السعدى بانتصارات المنصور الذهبى كذلك تغنوا فى العصر العلوى بانتصارات السلطان إسماعيل العلوى (١٠٨٤هـ/١٦٧٢م– ١١٣٩ هـ/١٧٢٧ م) فقد استرد المهدية من الإسبان سنة ١٠٩١هـ/١٦٨١م وطنجة من الإنجليز سنة ١٠٩٥هـ/١٦٨٤م والعرائش من الإسبان سنة ١١١١هـ/١٦٩٩م وأصيلا سنة ١١١٢هـ/١٧٠٠م . وكان لاسترداد العرائش فرحة كبيرة فى قلوب الشعب إذ كانوا من شدة الحزن والأسى لاستيلاء الإسبان عليها أن لبسوا الأحذية السود ، ولم يخلعوها من أرجلهم إلى أن استردها السلطان إسماعيل فلبسوا الأحذية الصفر . واتُّخذت مدينة العرائش وما تم من استعادتها على يد السلطان إسماعيل محورا

(١) الوافى لابن تاويت ٣/٧٢٩ .
(٢) سرب : جماعة .

تدور من حوله مدائحه وتهنئاته ، من ذلك تهنئة لمفتى فاس عبد الواحد البوعنانى وسنخصه بكلمة . واستثاره عبد السلام جسوس إسماعيل حتى يسترد سبتة من يد الإسبان كما استرد العرائش ، يقول[1] :

رفعتْ منـازلُ سَبْتةٍ أقوالها ... تشكو إليكم بالذى قد هالها
فلقد قضيتم للعرائش حاجـةً ... مع طنجةٍ فاقضوا لذى آمالها
إن لم تكونوا آخذين بثارها ... من ذا يفكُّ من الوَثاق حِبالها
فابعَثْ لها أهلَ الشجاعة عاجلا ... حتى تراهم نازلـين جِبالهـا

وليوسف بن محمد الشوذرى أرجوزة صور فيها معركة العرائش مشيدا فيها ببطولات المجاهدين ، ومن قوله فى وصف الخطة الحربية[2] :

قد حلَّ نصفُ الجيشِ أرضَ الساحلِ ... مقـابل المَرْسَى لمنـع الداخـلِ
ونصفُـه حـلَّ على سُورِ البلادْ ... طوَّقها بأسْرِها طـوقَ القِلادْ
لمـا رأى الكفَّـارُ مـا أذهلهم ... وشدّة الأمـر العظيـم هالهـم
وكان بالمَرْسَى مراكبٌ لهـم ... موثوقـة دارتْ بهـا حبالهم
ارْتقبـوا الليل وقد جـنَّ الظـلام ... واختلسوا فى زورقٍ مثـل السهـام

وهو يقول إنهم فرُّوا ليلةً خلسة فى زوارق حملتهم فى الظلام الدامس المعتم إلى سفنهم ، فطاروا بها إلى المحيط فارين من وجه الموت المرعب المخيف . وحرى بنا أن نترجم لمن وعدنا بالترجمة لهم .

ابن[3] زنباع

من أهل طنجة كما يقول القلقشندى ، اختلف إلى الكتاب حتى حفظ القرآن ، ثم شغف بحلقات العلماء حتى أتقن العلوم الدينية والعربية وعلومها البيانية واللغوية ، وترجم له الفتح بن خاقان فى القلائد ، ومن قوله فى التعريف به : « حوى العلوم وحازها ، وتحقق حقائق العرب ومجازها ، وروى قصائدها وأرجازها » وأضاف أنه عالم بالطب « موفق العلاج ، واضح المنهاج » . وقد يفهم من ذلك أنه توسع فى الاطلاع على علوم الأوائل واختار منها الطب فتعمقه كما تعمق الفقه والدراسات الدينية مما جعل دولة المرابطين تختاره قاضيا بطنجة كما اختارت

(١) الوافى ٨٤١/٣ .
(٢) الوافى ٨٤٥/٣ .
(٣) انظر فى ترجمة ابن زنباع وشعره القلائد (طبع تونس) ص ٢٥٩ وصبح الأعشى والوافى للأستاذ ابن تاريت ٣١/١ وما بعدها والنبوغ المغربى للأستاذ عبد الله كنون ١٠١/١ والتعريف بالقاضى عياض لابنه محمد ، تحقيق د . بنشريفة (طبع الرباط) .

صديقه عياضا قاضيا فى سبتة . وحكى ابن القاضى عياض فى كتابه الذى قصره على التعريف بأبيه أن أبا الحسن بن زنباع كان بينه وبين أبيه فى الشبيبة إخاء كبير ، وفى الكبر وقع بينهما تقاطع إذ بلغ عياضا عنه كلام ساءه ، فعاتبه واعترف ابن زنباع بالفضل له . وفى ذلك ما يدل – من بعض الوجوه – على حسن خلقه . وربما نقله المرابطون قاضيا فى بعض المدن الأندلسية مما جعله يقترب من المعارك التى سجل فيها قوادهم انتصارات ضخمة على نصارى الإسبان ، ومن قوادهم العظام : سير بن أبى بكر وابن عائشة أخو أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين وأخوه تميم ومحمد بن الحاج وابن فاطمة أبو محمد عبد الله ومزدلى ، ولكل منهم جهاد وفتوحات عظيمة ، ويقول ابن زنباع ممجدا بطلا من هؤلاء الأبطال لدولة المرابطين منوِّها بفتح تمَّ على يده :

لذا تُصان السيوفُ فى الخِلَلِ ... ويفخر الخَطُّ بالقَنا الذُّبُلِ[1]
وتُكْرَمُ الخيل فى مرابضها ... بِرّ الفتاة العَروب بالرجلِ[2]
ويُقْطَفُ النَّبْعُ كالحواجب أو ... أحْنَى وتُمْهَى السهامُ كالمقلِ[3]
ويؤثر الشِّرَّةَ الكمىُّ إذا ... خُيِّر بين الدروع والحُلَلِ[4]
فَتْحٌ به أثَّأرتَ البلاد كما ... أشرفت المُقْربات بالنَّهَلِ[5]
هُدَّت له الروم هَدَّة ملأتْ ... قلوبَ أبطالهم من الوَجَلِ[6]
فما أطاقوا الولوجَ فى نفقٍ ... وما أطاقوا الصعود فى جبلِ[7]
كأنهم والرماحُ تخفزهم ... جَرْىُ فصالٍ سلكنَ فى الوَحَلِ[8]

وهو يقول لمثل هذا النصر تصان السيوف فى أغمدتها ، ويفخر الخط برماحه الفاتكة ، وتكرم الخيل فى مرابطها ، بر الفتاة الكريمة بالرجل المحتاج لمعروفها وبرها ، وتُقْطف أعواد شجر النبع اللينة حتى تصبح قِسِيًّا كأقواس الحواجب ، وترقق السهام وتسدد إلى صدور الأعداء كما تسدد سهام الأعين الفاتنة إلى القلوب ، ولمثل هذا النصر يؤثر الشجاع حميَّة الحرب وهولها إذا خُيِّر بين الدرع والحلة الفاخرة ، فإن الدرع فى نظره أكثر نفاسة ، وإنه لفتح مبين أدركتَ

(١) الخلل جمع خلة : غمد السيف . الخط : أرض كانت تنسب إليها الرماح الخطية . القنا : الرماح . الذبل : الحادة .
(٢) مرابضها : أماكن مقامها . العروب : الجميلة الأصيلة .
(٣) النبع : شجر تقطف غصون منه لينة كالحواجب. تمهى: ترقق منها السهام وتسدد.
(٤) الشرة : شدة الحرب وشدة القتال . الكمى : الشجاع .
(٥) أثأرت البلاد : أدركت لها ثأرها . المقربات : الخيل العطشى طوال ليلة . النهل : الشرب الأول .
(٦) الوجل : الفزع .
(٧) الولوج : الدخول .
(٨) فصال جمع فصيل : ولد الناقة أو البقرة .

به للبلاد ثأرها من أعدائها ، وإنها لتستشرف به فتوحا متوالية كما تستشرف الخيل الكريمة التى ظلت تعدو ليلة طويلة ظامئة إلى الماء أنها ستنهل منه إذ تراه فجأة أمامها ، ولقد سُحِق الروم سحقا ملأ قلوب أبطالهم بالوجل والفزع فما استطاعوا الدخول فى نفق ولا الصعود فى جبل حتى لكأنهم فصال أو أولاد نوق يسيرون فى وحل ، ولا يستطيعون السير ، بل يتعثرون ويقعون بالعشرات فى شباك الأسر . وبطولة ثانية صورها لمعركة أخرى من معارك المرابطين ، وفيها يقول :

سَلِ الحرب عنهم والسيوفُ جداولٌ ... تدفَّق والأرماح رُقْطٌ تُنَضْنِضُ[1]
وبالأرض - من وقع الجياد - تمدُّدٌ ... ولكنه - فيما تروم - تَقَبُّضُ
وبالأفق للنَّقْع المثار سحائبٌ ... مَوَاخِضُ لكنْ بالصواعق تَمْخَضُ[2]
وقد سَهِكَتْ تحت الحديد من الصَّدَا ... جسومٌ بما عُلَّتْ من المسك تُرْحَضُ[3]
وأشرفتِ البِيضُ الرِّقاقُ على الطُّلَى ... لتكرع فيها والرءوسُ تخفَّضُ[4]
فلستَ ترى إلا دماءً مراقةً ... تخاض إلى أكباد قوم تَخَضْخَضُ[5]

وابن زنباع يقول سل الحرب عن شجاعة المرابطين وبأسهم ، والسيوف فى أيديهم كأنها جداول تتدفق بالدماء ، والرماح تلوكها وتستحيل رقطا ملطخة بها ، والأرض تحت حوافر خيلهم كأنها تتمدد ، وهى فى الواقع تُطْوَى طيا ، وبالأفق للغبار المثار سحائب حوامل صواعق مهلكة من الأسلحة والعتاد الحربى وقد تغيرت أجسام الأبطال تحت الحديد من الصدأ بما تُغْسل به من المسك مرارا ، وفى أيديهم السيوف وقد سلت على أعناق الأعداء كأنما تريد أن ترتوى منها بينما تهوى الرءوس إلى الحضيض ، فلست ترى إلا أنهارا من الدماء تُقْتَحَمُ إلى أكباد الأعداء .

وكان حريا بالفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان أن يضيف فى ترجمة ابن زنباع إلى هاتين البطولتين للمرابطين ما وصفه من بطولات أخرى لهم فى الأندلس ، وعلى الأقل كان ينبغى أن يورد قصيدتى البطولتين اللتين ذكرهما كاملتين وأن يذكر القائدين اللذين يمدحهما ابن زنباع بقصيدتيه وموقعتيهما الحربيتين ، وسنلتقى بابن زنباع فى عرضنا لأشعار الغزل والطبيعة لتتضح شخصيته الشعرية .

---

(١) رقط : جمع أرقط : ما كان بلونه نقع مثل النمر . تنضنض : تلوك .
(٢) النقع : غبار الحرب . مواخض : حوامل . تمخض : تحمل .
(٣) سهك الشيء : تغيرت رائحته . علت : الشرب الثانى بعد النهل . ترحض : تغسل .
(٤) البيض الرقاق : السيوف . الطلى : الأعناق . كرع : شرب .
(٥) مراقة : سائلة . تخاض : تقتحم . تخضخض : تخوض فى أكبادهم

ابن[1] حبُّوس

هو أبو عبد الله محمد بن حسين بن عبد الله بن حبُّوس ، ولد بفاس سنة ٥٠٠ هـ/ ١١٠٧م وبها منشؤه ومرباه فى الكتاتيب وحلقات العلماء ومجالس الأدباء ، حتى أصبح متفننا فى الكلام واللغة والبيان ، وتفتحت شاعريته مبكرة فى صباه ، ورحل إلى تلمسان وظل بها فترة ، وعاد إلى مراكش فى عهد المرابطين وأصبح فى طليعة شعرائهم ، وندَّتْ منه تُرَّهات جعلته يبرح مراكش إلى الأندلس ويظل بها إلى أن علا نجم عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين واستولى على مراكش سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م فعاد إليها واستوطنها ، ولزم الدروس التى كان يلقيها عبد المؤمن على طلابه وأتباعه ، وألقى بين يديه قصيدة أنشدها صاحب نظم الجمان لعلها أولى مدائحه له ، وفيها يقول :

بخليفة المهـدىِّ سيِّدنا اغتدى ... نَهْجُ العلـوم معبَّدًا ومـذلَّلا
وافيتُ حضرتَه المقـدَّس تُربُّها ... فإذا الذى أبصـرتُ لن يُتَخيَّلا
وسمعتُ كلَّ مذاهـب الحـق التى ... مـا إنْ تَرَى عـن مُقْتَضاهـا مَعْـدِلا
وبَصُرْتُ بالطوسىِّ يَفْهَقُ حولـه ... وأبى المعـالى مُجْمِلا ومفصِّلا
فالحـقْ بحضرته السنيَّة واستمعْ ... للقول واحذر - وَيْكَ - أن تتقوَّلا
فِيها كمالُ الديـن والدنيـا مَعًـا ... وسعـادةُ الأرواح فى أن تكمـلا

وهو يقول إن نهج العلوم أصبح ممهدا ومذللا بفضل عبد المؤمن خليفة المهدى ، ويصف حضرته بأن ترابها مقدس ، وأن ما رآه بها من علم عبد المؤمن أوسع من أن يحيط به خيال ، ويقول إنه سمع منه كل مذاهب الحق من دعوة الموحدين التى لا يجوز العدول عن مذاهبها ومبادئها ، وكأنما بصر بالغزالى الطوسى وبيانه الغزير الرائع وبأبى المعالى الجوينى إمام الحرمين وفكره الثاقب ، فالحقْ به وبحضرته ودعوته التى تحقق لك كمال الدين والدنيا معًا .

وبذلك لم يكن مادحا لعبد المؤمن فحسب ، بل كان أيضا داعية لمبادىء الموحدين ودعوتهم ، فهو شاعره ، وهو داعيته ، وكان عبد المؤمن يشغف بشعره ، فلزمه فى حركاته وسكناته ، وإن سار كان فى ركابه ، على نحو ما نراه معه فى فتحه لبجاية سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢ م وله فى حصار عبد المؤمن لها جيمية يقول فى مطلعها مخاطبا حاكمها الحمادى يحيى بن العزيز :

---

(١) انظر فى ترجمة ابن حبوس وأشعاره الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ٢٩٣/١/٨ ، وزاد المسافر لصفوان ونظم الجمان لابن القطان تحقيق د . محمود مكى (طبع بيروت) ص ١٧٤ والمعجب للمراكشى (طبع القاهرة) ص ٢٨٢ والتكملة لابن الأبار (طبعة كوديرا) رقم ١٠٥٥ والمطرب لابن دحية ص١٩٩ والمنّ بالإمامة لابن صاحب الصلاة (طبع بيروت) ص٧١ والوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى للأستاذ ابن تاويت ٩١/١ - ١١٥ والنبوغ المغربى للأستاذ كنون ١٧٦/١ ، ٢٣/٣ ، ١٩٦ .

شُدَّتْ إليك على الرِّياحِ سروجُ أين الفـــرارُ بأهلكـم ياجوجُ

ثم اتجه بالخطاب إلى عبد المؤمن فقال :

عصفتْ بدعوتك الرياح الهوجُ وسَطا بأمرك ذابلٌ ووشيجُ[1]
وتقدّمتْك إلى العـــدوِّ مهابةٌ يَشْقَى بها فى سَدِّه ماجـوج

وهو يشير بياجوج وماجوج إلى ما جاء فى سورة الكهف عن يأجوج ومأجوج وأنهما مفسدون فى الأرض وأن قومهم لجئو إلى ذى القرنين ليرفع عنهم فسادهم ، يقول جلّ شأنه : ﴿قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خَرْجا على أن تجعل بيننا وبينهم سَدًّا﴾ وكأن إفسادا كبيرا حَلَّ ببجاية جعل أهلها يستغيثون بعبد المؤمن ليرفع عنهم هذا الإفساد الذميم ، ويسمى الشاعر يحيى بن العزيز تارة باسم يأجوج وتارة باسم مأجوج . ويفتح عبد المؤمن بجاية ، ويعود إلى عاصمته مراكش ، ويستقبل فى شهر شوال سنة ٥٥٢ مصحف عثمان الذى أمر بنقله من قرطبة إلى مراكش ، ويمتدحه ابن حبُّوس بهذه المناسبة منشدا من قصيدة :

سيشكر المصحفُ إكبابَكـــم عليـــه إذ أوجـــده الفَقْدُ
مصحف ذى النُّورَيْن عثمانَ مـا كان لكـــم عن صـــونهِ بُدُّ
مـا اختـــار شيئا مؤنسًا غـيره حـين أتى – واقترب – الوَعْدُ
أوسعتُم الدنيـــا اطِّراحًـا وما كان لكـــــم إلا بـــهِ وَجْدُ
يحنو عليـــه العطف منكـم ولا يُغِبُّـه الإشفـــاقُ والـــوُدُّ
ألبستمـوه حِلْيَةً لـــم يكـــن يسمح للكفِّ بهـــا الـزَّنْدُ

وهو يبالغ إذ يقول إن المصحف سيشكر له عنايته به ونقله إلى مراكش لصونه خشية فقده ، وهو مصحف عثمان الذى استشهد وهو بين يديه يتلو فيه ، وقد اتخذه مؤنسه فى اللحظات الأخيرة من حياته وإنكم لتشغفون به أكبر الشغف . ودفعته مبالغاته فى مديح عبد المؤمن إلى أن يقول إنه يحنو على المصحف بعطفه ، ودائما يودّه ويشفق عليه . وله فى المصحف أخرى زاد فيها من مثل هذه المبالغات وأفرط ، وأشار ابن حبوس فى البيت الأخير إلى تجديد عبد المؤمن لدفتى المصحف وتحليتهما بالجواهر النفيسة بحيث لم تعد الكف الواحدة تستطيع حمله . وكان النورمان قد استولوا على المهدية وطرابلس واستغاث

(١) ذابل : سيف . ووشيج : رمح .

أهلهما بعبد المؤمن فلبّاهم بجيش جرار قَلَّم به أظفار أمراء الجزائر وإفريقية التونسية الخارجين عليه وفتح المهدية سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م وطرد النورمان منها ومن سواحل إفريقية التونسية وطرابلس . ويهنئه ابن حبوس بفتح المهدية مقارنا فى مطلعها بين المهدى العبيدى الذى بناها واختار لها لوقت بنائها برج الأسد وبين عبد المؤمن الذى خلصها من النورمان :

بطالع الأسَدِ اختطَّ البنـاءَ بها لكنك الأسَدُ الدَّامى الأظـــافيرِ

ويقول ابن عبد الملك فى الذيل والتكملة : « بعد انصراف عبد المؤمن من فتح المهدية سنة ٥٥٤ هـ/١١٥٩ م فارقه ابن حبوس وعاد إلى مسقط رأسه فاس فاستوطنها » ويبدو أنه كان يرحل إليه من فاس مادحا بمثل قوله فى إحدى مدائحه :

أميرَ المؤمنين لقد أضاء الـ ـزَّمانُ بنور عَدْلك واستنارا
لكم شَرْقا البلاد ومَغْرِباها وأمركـمُ مع الفلك استدارا
ومَنْ قد فرَّ عنكم من عدوٍّ فنحوَكُمُ إذا يبغى الفرارا
ولـــو خوَّفتُمُ أعلام رَضْوَى لما سكنتْ ولا وجدتْ قرارا

والمبالغة واضحة فى الأبيات ، فالفلك يجرى طوع أمره ، ومن فرَّ عنكم لابد أن يفر إليكم إذ تملكون عليه جميع مسالكه ، وحتى لو خوَّف عبد المؤمن جبال رضوى الراسخة فى المدينة من قديم ما استقرت ولا وجدت لها قرارا . وصاحب المعجب محق حين يرى عنده هذه المبالغات المفرطة فيشبِّهه بابن هانىء فى مديح المعز الفاطمى وما يضمِّنه من تهويلات وقعقعات . ونراه يرافق عبد المؤمن فى أواخر سنة ٥٥٥ حين عبر الزقاق من سبتة إلى مرفأ جبل طارق ، واحتفل الناس بقدوم عبد المؤمن احتفالا عظيما ، ولما أذن للشعراء بالإنشاد بين يديه أنشده شعراء كثيرون أندلسيون ومغاربة وفى مقدمتهم ابن حبوس : ومن قوله فى قصيدته :

بلغ الزمانُ بهديكم ما أمَّلا وتعلَّمتْ أيامُـــه أن تَعْدِلا
وبحسبه أن كان شيئا قابلاً وجد الهداية صورةً فتشكَّلا
ولأنتمُ الحقُّ الذى لا يُمْتَرى فيه وليس بجائزٍ أن يُجْهَلا
ولأنتمُ سِرُّ الإلـــه وأمركم ملأ العوالـــمَ مجملا ومفصَّلا
عُزِلَتْ ولاةُ الحِسِّ عن إدراكهِ فهـــو المنزَّه حسبـه أن يعقـلا

ولو أننا لم نعرف ناظم هذا الشعر وممدوحه وسمعناه لظننا أنه ابن هانىء يمدح المعز الفاطمى لهدايته للزمان وتشكيله له مع العدالة ، وإنه للحق الذى لا شك فيه بل سر الإله ، وأمره يملأ العالم وإنه ليعز على الحسِّ أن يدرك كنهه إنما يدركه العقل . وأنشد له ابن عبد الملك قصيدة فى دعوة الموحدين والزهد والتمسك به ، وفيها هاجم الفلسفة والمتفلسفة ، وله أشعار بديعة فى الوصايا والأمثال وذم الزمان والاعتبار ، وعاش حتى سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٤ م .

الجَراوى[1]

هو أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوى ، من قبيلة جراوة بتادلة ، سكن مدينة فاس ، ... نشؤه ومرباه ، ويقول ابن خلكان : كان نهاية فى حفظ الأشعار القديمة والمحدثة ، وجمع كتابا يشتمل على فنون الشعر سماه صفوة الأدب وديوان العرب ، وهو عند أهل المغرب كحماسة أبى تمام عند أهل المشرق ، وكان شاعرا نابها مدح بشعره عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب وابنه الناصر ، توفى سنة ٦٠٨ هـ/١٢١١ م . وقد اتصل بعبد المؤمن منذ سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٩ م إذ نراه يكتب على لسانه قصيدة يحثُّ فيها الأعراب الهلالية لتلبية دعوة عبد المؤمن لجهاد نصارى الأندلس استهلها بقوله :

أحاطتْ بغايات العُلا والمفاخرِ ... على قدم الدنيا هلالُ بن عامرِ

وشارك الأعراب فى حروب الأندلس وجاءت عبد المؤمن البشرى بتحرير بطليوس واستردادها من ابن الرنك وهنأه الجراوى بقصيدة طويلة مطلعها :

نصرٌ بكل سعـادةٍ مقرونُ ... نالتْ به الدُّنيـا الهَنا والدينُ

ويفتح عبد المؤمن المهدية مستردا لها من أيدى النورمان بعد أن ظلوا فيها وفى ساحلها اثنى عشر عاما طوالا ، ويهنئه الجراوى بتائية يقول فيها :

اهْنَأْ إمامَ الهُدَى فالعدلُ منبسطٌ ... والدِّينمنتظمٌ والكفـر أشتـاتُ

وينتصر جيش عبد المؤمن ومن معه من كتائب الأعراب فى السنة التالية على نصارى الإسبان فى موقعة فحص بلقون ، ويهنئه الجراوى برائية وفيها يقول :

أعليتَ دين الواحـد القهّارِ ... بالمَشْرفيَّة والقَنـا الخطَّـارِ[2]

لوراء موسى مـا فعلتَ وطارقٌ ... زَرَيَا بما لهما من الآثـارِ[3]

أتممتَ ما قد أمَّلوه فتاتهم ... من نَصْر دينِ الواحد القهارِ

بِعِرابِ خيـلٍ فوقهـن أعاربٌ ... من كل مقتحمٍ على الأخطـارِ

وهو يبالغ مبالغة مفرطة حين يعلى عبد المؤمن على موسى بن نصير وطارق بن زياد فاتحى الأندلس العظيمين ، وإنما سقنا الأبيات لنثبت معها البيت الرابع الشاهد على اشتراك الهلالية فى حرب الأندلس المظفرة أيام عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . ويصبح الجراوى شاعر يوسف بن عبد المؤمن الحظىَّ لديه ، وكان لا يبرح مجلسه ،

---

(١) انظر فى الجراوى وترجمته وشعره البيان المغرب لابن عذارى وابن خلكان ١٢/٧ ، ١٣٦ وزاد المسافر والغصون اليانعة والمنّ بالإمامة لابن صاحب الصلاة ، وراجع الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى للأستاذ ابن تاويت١١٦/١ ومابعدها والنبوغ المغربى ١٧٩/١ ، ٢٢/٣ ، ١٩٨ وما بعدها ، ٢٥٣ .

(٢) القناالخطار : الرماح شديدة الطعن. المشرفية: السيوف.

(٣) راء : رأى .

ونراه فى ركبه حين جاز إلى الأندلس سنة ٥٦٣ هـ/١١٦٩ م وكان قد جمع جموعه يريد منازلة محمد بن سعد بن مردنيش ، ونازله أخوه عثمان صاحب غرناطة وتوفى ، فبايع أبناؤه يوسف وانتهت ثورته . ونرى الجرّاوى يمدحه فى هذه الأثناء بقصيدتين يقول فى إحداهما مشيرًا إلى المتمردين عليه :

تنـــالُ المـــارقين بكـــلِّ أرضٍ ولا طـارتْ – ولا نقَلتْ – خُطاها

ويقول فى الثانية :

لو كانت الجوزاءُ من أعدائهِ لـم تَنْجُ من غاراتـه الجوزاءُ

وكانت آخر معارك جيش الموحدين فى الأندلس لعهد يوسف معركة البيوج فرناندو بن ألفونس سنة ٥٦٩ وفيها كان النصر حليف الموحدين ووقف الجراوى بين يدى يوسف ينشده مدحة طنانة ، وفيها يقول :

عن أمرِكـم يتصرَّف الثقلانِ وبِنَصْرِكم يتعاقب الملَـوانِ[1]
وبمـا يسوء عدوَّكم ويسرُّكم تتحرَّك الأفلاكُ فى الدَّوَران
جاهدتمُ فى الله حقَّ جهادهِ ونَهَضْتُمُ بحماية الإيمـانِ
وتركتمُ أرضَ العِدَى وقلوبُهم فى غاية الرَّجفانِ والخفقانِ
وغزاهمُ الديـنُ الحنيفىّ الذى كُتِب الظُّهورُ لـه على الأديانِ

والبيتان الأولان من نوع مغالاة ابن هانىء فى المعز الفاطمى ومديح ابن حبوس فى عبد المؤمن مما مرَّ بنا وأشرنا إليه . وهو يضفى على يعقوب – كما أضفى على أبيه يوسف وجده عبد المؤمن – غير قليل من القدسية وقد مدحه مرارا حين انتصر أسطوله على ابن غانيّة فى بجاية ، وحين واقعه جيشه وهزمه ، وحين فتح قفصة جنوبى إفريقية التونسية ، وحين قضى على بعض الثوار . وفى سنة ٥٨٧ هـ/١١٩١ م استرد يعقوب مدينة شلب بغربى الأندلس ، وعاد يعقوب إلى عاصمته مراكش ، وهنأه الشعراء بهذا النصر المبين ، وأنشده الجراوى قصيدة يقول فيها :

إيـــابُ الإمـــام حيـــاةُ الأُمَمْ تَـــوَالَى الســـرورُ بـــهِ وانتَظَمْ
وجادَ به الأرضَ صَوْبُ الحَيا وجَلَّى الظَّـــلامَ بـهِ بَدْرُ تِمّ[2]
فشكرًا لخيـــلٍ وفُلْكٍ دَنَتْ بمُسْتأصـــلِ الظُّلم ماحى الظُّلَمْ
إذا حـلَّ فى بلدةٍ أمْرَعتْ فطـــاب جَناها وفـاح المَشَمّ[3]
وقـــام بأقطـــارها عَدْلُهُ وصَوْبُ نَـداه مقـــام الدِّيَمْ[4]
سَلِ الدَّهْرَ عن بطشـه بالعِدَا تُجِبْ من وراء الدروب العجم

(١) الثقلان : الإنس والجن . الملوان : الليل والنهار .
(٢) صوب الحيا : انسكاب الغيث . بدرتم : البدر فى اكماله .
(٣) أمرعت : أخصبت . جناها : ثمرها . المشم : الشذا .
(٤) نداه : كرمه . الديم جمع ديمة : المطر يطول فى سكون .

وإياب يعقوب – فى رأى الجراوى – ليس حياة لشعبه فقط ، بل هو حياة الأمم جميعا ، إذ يجود الأرضَ غيث منهمر ، ويضيىء الظلامَ بدر فى اكتماله ، فشكرا للسفن التى عبرت بها المجاز وللخيل التى حملت لا مستأصل الظلم وناشر العدل فحسب ، بل أيضا من يمحو الظلامَ بنوره ، وإن البلاد لتخصب وتطيب ويفوح شذاها حين يحل فيها ، وينتشر العدل الذى لا تطيب حياة الناس بدونه ويعمُّ الكرم الفياض . وسل الدهر عن قهره للأعداء تجبك من وراء الدروب جموع إسبانيا متوجعة مما يذيقها من البطش الشديد . ولم يلبث نصارى الإسبان أن توجعوا توجعا أليما سنة ٥٩١ هـ/١١٩٥ م فإن ألفونس الثامن ملك قشتالة علم أن يعقوب يعد لمعركة كبرى استنفر فيها المغاربة وأعراب الهلالية وأهل الأندلس فاستصرخ البابا وملوك أوربا وحشد جموعه عند حصن يسمى الأرك بين قرطبة وطليطلة . وسحق جيش يعقوب تلك الجموع سحقًا ذريعا ، وفرَّ ألفونس على وجهه لا يلوى حتى طليطلة ، وكان نصرا عظيما أعاد للذاكرة موقعة الزلاقة وبطلها يوسف بن تاشفين وتغنى الشعراء بها وببطلها يعقوب طويلا ، وللجراوى فيها قصيدتان يقول فى أولاهما :

هو الفتحُ أعيَا وَصْفُه النَّظْمَ والنثرا ... وعمَّتْ جميعَ المسلمين بـه البُشْرَى
وأنجدَ فى الدنيا وغارَ حديثُه ... فراقت بهِ حُسْنًا وطابتْ بـه نَشْرا[1]
تميَّز بالأحجال والغُرَر التى ... أقلُّ سَناها يَبْهرُ الشمسَ والبدرا[2]
لقد أورد الأذفونش شيعته الرَّدَى ... وساقهمُ جهلا إلى البَطْشة الكبرى[3]
حكى فعل إبليسٍ بأصحابه الأُلى ... تبرَّأ منهم حين أوردهم بَدْرا
فدارتْ رَحَى الهيجا عليهم فأصبحوا ... هشيما طحينًا فى مهبِّ الصَّبَا يُذْرَى[4]
يطير بأشلاءٍ لهم كلُّ قَشْعَمٍ ... فما شتَ من نَسْرٍ غدا بَطْنُهُ قَبْرَا[5]
بيُمْن الإمام الصالح المصلح الرِّضا ... نضا سيفَه الإسلامُ فاستأصَل الكفرَا[6]

والجراوى يقول إنه فتحٌ أعظم من أن يحيط بوصفه شعر ونثر وقد عمت به البشرى والفرحة جميع المسلمين وملأت تباشيره الدنيا بهضابها وسهولها فازدانت به حسنا وطابت نشرا وعطرا ، وإنه لفتح محجَّل أغر يبهر ضوؤه الشمس والقمر ، فقد أورد ألفونس ملك قشتالة وطليطلة أنصاره مورد الردى والهلاك ، ودفعهم دفعا إلى البطشة الكبرى ، فذاقوا ما ذاقته قريش يوم بدر ، إذ دارت رحى الحرب على جثثهم وأصبحوا أشلاء وطحينا تذروه الرياح ، وشبعت منهم الضباع والسباع ، وغدت بطون النسور لأشلائهم قبورا طائرة . وكل ذلك بيمن طالع

(١) أنجد وغار : ملأ المرتفعات والسهول . نشرا : رائحة عطرة .
(٢) الأحجال: بياض فى السيقان. الغرر: بياض فى الجباه.
(٣) الردى : الهلاك .
(٤) الهيجاء : الحرب . يذرى : يطير فى الهواء .
(٥) قشعم : نسر مسنّ .
(٦) نضا : سلَّ .

الإمام يعقوب الصالح المصلح الرضا المرضى الذى سلَّ الإسلامُ سيفه فاستأصل به الكفر من جذوره وكاد لا يبقى منه باقية .

ويتوفى البطل المغوار يعقوب سنة ٥٩٥ هـ/١١٩٩ م ويخلفه ابنه الناصر لدين الله ، وتؤخذ له البيعة فيهنئه الجراوى بقصيدة طويلة ، يقول فيها :

هىَ بيعةٌ أحيا الإلهُ بهـا الوَرى وحَمَا بهـا دينَ النبىِّ المصطفى

وهو دائمًا يردِّد فيه وفى آبائه أن الله اختارهم ليتكامل للدنيا وجودها وللناس حياتهم بما يشيعون فيها من العدل والكرم الفياض ، ودائما يردِّد أنهم حماة الدين الحنيف وأن الدهر يصدع لمشيئتهم . ويستولى الناصر على ميورقة من يد ابن غانية فيهنئه بقصيدة مطلعها :

لك النصرُ حزبٌ والمقادير أعوانُ فحسبُ أعاديك انقيـادٌ وإذعانُ

كما يهنئه بقصيدة أخرى حين استولى على منورقة ، وظل يمدحه إلى وفاته سنة ٦٠٨هـ/ ١٢١١م .

ابن عبد[1] المنَّان

هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن عبد المنان الأنصارى الخزرجى ، من أهل مكناس ، تفتحت مواهبه الأدبية مبكرة ، فجرى الشعر على لسانه ، واستخلصه لنفسه السلطان أبو عنان المرينى (٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م – ٧٥٩ هـ/ ١٣٥٨ م) فاتخذه كاتبه فى الدواوين كما اتخذه شاعره ، وله فيه مدائح بديعة ، وكتب بعده للسلاطين : أبى بكر السعيد لمدة عام فعمه أبى سالم إبراهيم بن أبى الحسن فأخيه تاشفين سنة ٧٦٢ هـ/ ١٣٦١ م فأبى زيان سنة ٧٦٣ فعمه عبد العزيز سنة ٧٦٨ هـ/ ١٣٦٧ م وابنه أبى زيان سنة ٧٧٤ فأبى العباس أحمد المستنصر سنة ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٥ م وظل يعمل مع السلاطين حتى وفاته سنة ٧٩٢ هـ/ ١٣٩٠ م . ونوه به وبشعره ونثره كل من ترجموا له ، من ذلك ما نقله الأستاذ ابن تاويت من وصف تلميذه ابن جابر الغسانى له بقوله : « رافع راية الأدب والشعر فى عصره ، القدوة الأحفل ، المتفنن الأكمل ، كاتب الخلافة العلية ، المخصوص لديها بالمزايا السنية » . ويبدو أن أهم مدائحه إنما كانت فى السلطان أبى عنان ، ونراه حين قضى على أحد الثوار وثورته قضاء مبرما ، يقول من قصيدة طويلة يهنئه فيها بالنصر وعيد الأضحى معا :

(١) انظر فى ابن عبد المنان وترجمته وشعره كتاب نثير فرائد الجمان لابن الأحمر (طبع دمشق) ص٣٤٨ وجذوة الاقتباس فيمن حَلَّ من الأعلام مدينة فاس لابن القاضى ١٢٤/١ وأيضا درة الحجال ٥٣/١ والنبوغ المغربى ٢٣٨/١ و١١٤/٣ ، ١١٥ ، ٢١٦ والوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى ٤٩٣/٢ .

مليكُ ملوكِ الأرض أوحدُها الذى ... بهِ عَلَتِ العلياءُ وافتخر الفَخْرُ
غمامُ النَّدَى الطلَّالِ والجوُّ أغبرٌ ... وليثُ الفِدَا والبِيضُ قانيةٌ حُمْرُ
إذا ما تراءى البدرُ يومًا ووَجْهُه ... تَحيَّرت الأبصارُ أيُّهما البَدْرُ
لعمرى لقد زِنْتَ الخلافةَ فاغتدتْ ... يقصِّر عن أوصافها النظمُ والنثر
وراقتْ بك الدنيا جمالاً وبهجةً ... فإظلامُها صُبْحٌ وإصباحها بِشْرُ
وهنِّئتَ عيدَ النَّحْرِ والفتحَ إنَّه ... لك العِيدُ منه والعِدا لهم النَّحْرُ
بقيتَ لديـــن الله رِدْءًا وعصمـةً ... فما غيرُ عَلْياك الزمـــانُ لـه ذُخْرُ

وهو يجعل أبا عنان ملك الملوك الذى سمت به العلياء وافتخر الفخر ، إنه غمام الكرم المنهمر فى الأيام المجدبة ، والليث المفدى والسيوف ملطخة بالدم القانى . وحين يطلع على الناس هو والبدر تحار الأبصار أيهما البدر الساطع ، وقد زان الخلافة حتى أصبح كل مديح شعرا ونثرا يقصر عن وصفه لها . وحسنت بك الدنيا وازدانت حتى غدا ظلامها صبحا وصبحها طيبا ذكيا ، وإن الله ليزف لك الفتح والنصر المبين بينما يقدم لأعدائك النحر والذبح ، ويدعو له أن يظل معينا وعصمة للدين الحنيف ، ويظل الزمان له ذخرا مطيعا . وفى إحدى مدائحه يصف الساعة التى نصبها أبو عنان على واجهة مدرسته بفاس . وأهم منها قصيدته التى مدحه بها ووصف فيها صراع الأسد مع ثور أمامه ، وكان يُعْتَدُ لذلك حفل كبير ، وفيه ينازل الأسد ثورا حتى إذا خيف على الثور منه أن يصرعه تصدى له مخاتل فى أكرة مستديرة من خشب معدة لذلك يحركهاشخص فى وسطها ، وفى يمناه حديدة يطعن بها الأسد حين يهجم عليه طعنات متوالية ، ويتعلق بها الأسد يريد أن يظفر بهذا المخاتل، فتدور به مع الأكرة وتجهز عليه . والقصيدة طويلة ويصف فيها ابن عبد المنان صيد الأسد فى الفلاة وإحضاره لمنازلة الثور ، وهو يكثر فيها من الألفاظ الغريبة على عادة شعراء المقصورات منذ منشئها ابن دريد ، وخاصة فى وصفه للثور والأسد والمحتال وأكرته وما نشب حينئذ من عراك عنيف ، ونذكر بعض أبياته فى المنازلة بين الثور والأسد إذ يقول :

ومـدرَّبُ السرَّوْقين أصفـرُ فاقـعٌ ... راق النـواظرَ نضرةً لمـا بَدَا[1]
مـا زال يدعـو للـنزال أسـامـةً ... ولقد أشـار بظِلْفِهِ لمـا دعـا[2]
ولقـد أراه مكـان مَصْرعـهِ وقد ... أوْمَى بساحِ القصرِ ينكتُ فى الثرى[3]
وعَدَا لـه والظـنُّ يقضى أن يُـرَى ... وقد اعتـلاه فكان عكسًا ما قضى
جالتْ عليـه صَدْمةٌ مـن حـارثٍ ... تنسيك صدمةَ حارثٍ يـوم الوغَى[4]

(١) الروقين : القرنين .
(٢) أسامة : من أسماء الأسد وألقابه .
(٣) ينكت : ينقض الثرى بحافره .
(٤) حارث : من أسماء الأسد – الوغى : الحرب .

أعجبْ بهـا من صدمـةٍ قد عفَّـرتْ لِبَد الهزبَرِ وأوهنَتْ منـه القـوى[1]

وهو يشيد بقرنى الثور المدرَّبين على الطعن وشدته ، ويقول إنه راق النواظر بلونه الأصفر الفاقع وما إن رأى الأسد حتى أخذ ينكت الأرض بظلفه استعدادا للنزال . ويخال الشاعر كأنما يشير بذلك إلى المكان الذى سيُصْرَعُ فيه الأسد فى ساحة المعركة أمام قصر أبى عنان ، ويصدم الأسد الثور صدمة شديدة تنسيك صدمة البطل حارث يوم الحرب الضارية ، وما أعجبها من صدمة ، فقد عفرت لشدتها لِبَد الأسد وأوهنت قواه لصلابة الثور ومتانة بنيانه . ويعرض علينا نزال المخاتل فى أكرته للأسد ، قائلا :

وضُبـارمٍ رَحْـب اللَّبـــان تُقِلُّه صُهبٌ متينٌ خَلْقُها عَبْلِ الشَّوَى[2]
يفترُّ عـن نـابٍ كأطـــراف القَنَا بَيْضا ويَنْضُو مِخْلَبًا حـادَّ الشَّبـا[3]
ومُخـاتلٍ فى جـوفِ دائـرةٍ طوت أضْلاعَهـــا منـــه على شَهْمٍ فَتَى
يحكـــى بهـــا رألاً ببيضةِ مَبْسَب لـم تنفرج عنـــه فأنفذها كُوَى[4]
يمشى الهُوَيْنَى وسطها فتقلُّه عَدْوا ومـا إن تشتكى ألمَ الوَجَى[5]
حسِبَ الغَضَنْفرُ مُرْتقاهـــا كعبةً فَدَنَا يطيل بها الطوافَ وقد سَعَى[6]
أمسى صريعًا والدمـــاءُ سلافـةٌ أتُراه سكرا مـال من تلك الطِّلا[7]

وهو يصور الأسد بأنه واسع الصدر تحمله قوائم صهباء مفتولة الأطراف متينة ، ويفترّ فمه عن ناب كأطراف القنا فى شدة الطعن ويسلّ مخلبا حادَّ الشباة كأطراف السيوف وأسَلها الفاتك . وينازله فتى شجاع داخل أكرة يحكى بها ولد نعام فى بيضة بفلاة لم تفرج عنه ، فأنفذ بها كوى وثقوبا – ويظل يمشى بها فى تؤدة – وهى تحمله فى قوة لا تشتكى عرجا ولا ألما ، وكأنما يحسبها الأسد كعبة يريد أن يطوف بها ويسعى ، ويَعْلَق بحديدة فتاها . وما تزال تمزق جسده حتى تصرعه ، ويغرق فى دمائه . ونقد القصيدة الأستاذ محمد بن تاويت ، وأعلى عليها مدائح أخرى لابن عبد المنان، وربما كان موضوع القصيدة ، وهو وصف المصارعة بين الثور والأسد، هو الذى أدَّى إلى وجوه النقد التى لاحظها الأستاذ ابن تاويت . على أنه يذكر لابن عبد المنَّان أنه الشاعر المغربى الوحيد الذى وصف لنا هذه المنازلة بين الثور والأسد ، والتى تعد هى وأخواتها فى غرناطة أما لمصارعة الثيران المعروفة لهذا العصر فى إسبانيا . ولابن عبد المنان وراء مدائحه الرائعة غزليات ومولديات بديعة .

(١) الهزبر : أيضا من أسماء الأسد .
(٢) ضبارم : من أسماء الأسد – رحب اللبان : واسع الصدر . عبل الشوى : مفتول الأطراف .
(٣) ينضو : يسلّ . الشبا : الطرف .
(٤) الرأل : ولد النعام . السبسب : الفلاة .
(٥) تقله : تحمله . الوجى : العرج .
(٦) الغضنفر : من أسماء الأسد .
(٧) الطلا : الخمر.

الهوزالى[1]

هو محمد بن على الهوزالى شارح ديوان المتنبى الملقب بالنابغة ، ترجم المقرى فى كتابه « روضة الآس » لأبيه على وقال إنه من كتاب الإنشاء بالحضرة الفاسية وبيته بيت صلاح ودين ، وأنشد نبذة من أشعاره ، وكأنه ورَّث ابنه محمدا الشعر ، وقد أكبَّ فى شبابه على كتب الفقه والشعر ، ولم يلبث أن أصبح من قضاة الدولة السعدية كما أصبح شاعر خليفتها المنصور ، ومن تعريف درة الحجال به : « الأديب الناظم الناثر نابغة زمانه ، أخذ عن أبى العباس المنجور ، وله معرفة بالبيان والنحو وله نظم رائق ، وهو قاضى سكتانة » وذكره عبد العزيز الفشتالى فى كتابه المناهل مرارا ، ويقول عنه : « صاحبنا الفقيه القاضى شاعر الدولة مفتى الحضرة » ويقول عنه محمد بن عيسى الصنهاجى فى مقامته التى عرف فيها بأدباء عصره : « أخو علقمة ولبيد ، وذو المقول المحيى المبيد ، جزالته فى وصف المهامه والقفار وذكر المَرْخ والعَفار ، وعلى ذلك فرحه فى المدح مقوَّم الأنابيب ، لا يقصر فيه عن ابن الحسين (المتنبى) وحبيب (أبى تمام) » . وابن عيسى يرفعه إلى مرتبة علية فى الشعر ، فهو أخو علقمة الشاعر الجاهلى الفحل ولبيد أحد شعراء المعلقات ، وشعره يرفع ويضع أو كما يقول يحيى ويبيد ، وأساليبه فيه جزلة رصينة ويتعلق بوصف الفيافى والقفار ، ورمحه لذلك فى الشعر رمح متين لا يقصر فيه عن شاعرى العصر العباسى الكبيرين المتنبّى وحبيب . وجمهور شعره فى مديح المنصور ، ويستهله بوصف بطولته فى واقعة وادى المخازن المشهورة ضد البرتغاليين التى مرت بنا وكانوا نحو مائة ألف – فيما يقال – فسحقهم جيشه المغربى بين قتيل وأسير بحيث كاد أن لا ينجو منهم أحد ، ويصور المنصور فى المعركة وهو يصول ويجول مجندلاً للبرتغاليين ومنظما لكتائب جيشه قائلاً :

لعمرُك لا أنساه يوما شهدتُه ... وقد سَفَرَتْ بين الكُماة المداعسُ[2]
يربِّس للإقدام كلَّ كتيبةٍ ... كما رَبَّس المرجانَ فى السلك رابسُ[3]
وحسبك فى وادى المخازن وقعةً ... بها الشِّرْك حتى آخر الدهر تاعسُ
بها عرفتْ أبناءُ عيصٍ بأنهم ... عبيدُ العَصَا ما نارَ فى الأرض نائس[4]
فدانوا له حتى توقَّع بطشَه ... برمَّتهم صُلْبانُهم والكنائسُ
فلا زالت التثليثُ تُقْرَعُ باسمه ... فتخرس فى الأديار تلك النواقسُ[5]

(١) انظر فى ترجمة الهوزالى وأشعاره كتاب الدرة لابن القاضى ٢٣٣/٢ وكتابه المنتقى ص٦٧٢ وما بعدها والمناهل للفشتالى نشر كتون فى صفحات مختلفة (انظر الفهرس) والنبوغ المغربى لكنون ٢٦٣/١ و٢٢٣/٣ والوافى لابن تاويت ٦٥٥/٣ ، ٦٧٢/٣ والحركة الفكرية فى عهد السعديين لحجى ٤٠٨/٢ .

(٢) الكماة : الشجعان . المداعس جمع مدعس . الرمح الغليظ الحاد

(٣) يربس : ينظم ويرتب .

(٤) أبناء عيص : يريد البرتغاليين . عبيد العصا : مسترقون أزلاء . نائس : متحرك .

(٥) التثليث : يريد عقيدة التثليث عند النصارى .

وللهوزالى فى هذه الموقعة التى أذاعت وأشاعت بطولة المنصور فى حرب البرتغاليين غير قصيدة يمجد فيها تلك البطولة من مثل قوله فى قصيدة عينية :

لـم يألُ بِسْتيَّانُ فى استصراخهِ ... صُهْبَ الأعاجم من بلادٍ شُسَّعِ[1]
فتجشموا البحر المحيط وما درَوْا ... بمحيطِ بحرٍ من عَوَالٍ شُرَّعِ[2]
وكتائبٍ حَفَّتْـــه مَنْصُـــورِيَّةٍ ... تنقـــاد بالأُسْد الغضـاب الجوَّع
صبَّتْ على الكفار – صَبًّا – عارضا ... هَطِـلا ولكـــنْ بالسُّمـوم النُّقَّعِ[3]
فتركن عُبَّـــادَ المسيح كأنهم ... أعجـــازُ نَخْلٍ بالسيول مقلَّعِ
لا زِلْتَ فى أُفُـــق الخـلافةِ نَيِّرًا ... تختـال بين كواكـبٍ لك خُضَّعِ

والهوزالى يذكر أن ملك البرتغال « بستيان » ما زال يستصرخ الأعاجم من البلاد الأوربية الشاسعة ، ولبَّوه متجشمين المحيط الأطلسى إلى وادى المخازن ، وما دروا أنهم سقطوا فى محيط من رماح شُرَّع مسدَّدة ، تحفُّه كتائب المنصور يقودها أُسْدٌ غضاب جوَّع تريد أن تقضمهم قضما ، صبَّت عليهم سحابا هطلا من الرماح والسيوف ، شربوا منه سما ناقعا قاتلا ، وإن ساحة الحرب لتمتلىء بقتلى عبَّاد المسيح ، وكأنهم أعجاز نخل رمت بها سيول غزيرة ، ويدعو للخليفة أن لا يزال بدرا ساطعا تحفّ به الكواكب من قواده وكماته . وبعد هذه الموقعة بائنتى عشرة سنة عام ٦٩٨ جهز المنصور السعدى جيشا ضخما – كما مرَّ بنا – لغزو السودان ، واستولى على إقليم توات وأقاليم أخرى وجاءته سيول من الذهب كان لها أثر بعيد فى انتعاش البلاد اقتصاديا لعهده ، ويهنىء الهوزالى المنصور بهذا الفتح العظيم منشدا فى وصف كتائبه :

غدتْ تحمل الموتَ الزؤامَ يحوطها ... ويكنُفها يُمْـنٌ يشيِّعـــه نَصْـرُ[4]
فحلَّتْ بأرض السود لم يَثْنِ عزمَها ... مهـالكُ صَدَّ عن مسالكها الذُّعْرُ
لقد ذكر الحَبْشانُ من وَقْعها بهم ... وقيعةَ يـــومِ الفيـل لـو ينفع الذكر
هنيئا أسيرَ المؤمنين فقد قضى ... على كل من ناواك أسيافُك البُتْر[5]
ودُمْ لفتـــوحٍ يُسْتَحَثُّ لِنَيْلهـــا ... إلى كل قُطْرٍ منك ذو لَجَبٍ مَجْرُ[6]

وهو يصور الكتائب تحمل إلى السودان الموت العاجل السريع يحوطها اليمن ويشيعها النصر ، وقد مضت فى هذه البلاد السودانية ومسالكها الوعرة المخيفة لا يصد عزمها أى مهالك أو معوقات ، وهى وقائع لا شك أن السودانيين – أو الأحباش كما يقول – يذكرون وقعة الفيلة حين وجهها أبرهة إلى مكة والكعبة ، فأرسل الله عليهم طيرا ترميهم بحجارة من سجيل قضت

(١) بستيان : سباستيان : ملك البرتغاليين .
(٢) عوال : رماح . شرع : مسددة .
(٣) عارضا : سحابا . السموم النقع : المهلكة .
(٤) الموت الزؤام : العاجل السريع .
(٥) البتر : الحادة القاطعة .
(٦) ذو لجب مجر : جيش كثيف ذو ضجيج .

عليهم قضاء مبرما ، وبالمثل قضى جيش المنصور على كل ما التقى به من جيوش السودانيين . ويهنىء المنصور بانتصار كُماته وفرسانه ، ويدعو له أن تدوم مثل هذه الفتوح العظيمة بما يوجه إليها من جيوشه الباسلة . وما يترك الهوزالى حادثة فى عهد المنصور إلا وينشده فيها قصيدة غرّاء ، كما لا ينزل به مرض ويشفى منه إلا ويسارع بتهنئته ، وهو بحق يعد شاعر المنصور السعدى فى عصره إلى وفاته سنة ١٠١٢ هـ/١٦٠٤ م .

أحمد[1] بن القاضى

هو أحمد بن محمد بن أبى العافية المشهور بابن القاضى ، من بيت علم وأدب ، ولد سنة ٩٦٠ للهجرة ، وحفظ القرآن الكريم مثل لداته ، وأكب على حلقات العلماء ببلدته فاس ينهل من حلقاتهم العلوم المختلفة من فقه ونحو ولغة وعروض وأدب وتاريخ وحساب وهندسة ومنطق وبلاغة ، ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج ولقاء مشيخة العلوم والتلقى عن أئمتها ، ونزل مصر وأقام بها فترة يأخذ عن علمائها ويحمل إجازاتهم ، وعاد إلى المغرب ورجع إلى مستقره بفاس ، ثم وفد على مراكش ، وأثنى عليه للمنصور الذهبى عبد العزيز الفشتالى وغيره من حاشيته فألحقه بحضرته . وفى سنة ٩٩٤ عاودته فكرة الرحلة إلى المشرق لينشر به مآثر المنصور ومفاخره وفتوحه ، واستأذنه فى ذلك فأذن له ، ورأى أن يسلك طريق البحر المتوسط من تطوان ، ولم يلبث أن اعترضه هو ومن معه قراصنة الإسبان فأسروهم ، ونقلوه إلى مالطة وظل بها أسيرا نحو عام فى بلاء عظيم من الجوع والبرد والتكليف بما لا يطاق . وعلم بأسره المنصور » . فكتب إلى حاكم تطوان كى يعمل على فدائه ، وافتداه بمال كثير ، وعاد إلى حضرة المنصور وهو يحمل له هذا الجميل العظيم ، وأداه نبله إلى أن يكتب عنه كتابه : « المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور » وهو سيرة له رائعة ، نشرت فى مجلدين بتحقيق الأستاذ محمد زرّوق ولم يكتف بذلك ، فقد ألف لخزانته كتاب درة الحجال فى أسماء الرجال ذيل به على كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان حتى زمنه ، وأيضا كتاب جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس . وقد استقصى الأستاذ زروق مؤلفاته فى مختلف العلوم والفنون وبدأها بمجموعة كتب التاريخ والتراجم وتلاها بمجموعة ثانية فى مؤلفاته فى الفقه ومجموعة ثالثة فى مؤلفاته فى الحساب والهندسة ومجموعة رابعة بمؤلفاته فى المنطق . وجعله بصره بالفقه يتولى القضاء ملازما حضرة المنصور طوال حكمه حتى سنة ١٠١٢ للهجرة ، وتفرغ بعد ذلك للتدريس حتى وفاته سنة ١٠٢٥ هـ/١٦١٦ م وكما كان

(١) انظر فى ترجمة ابن القاضى وأشعاره روضة الآس للمقرى ص ٢٣٩ ونشر المثانى ٢١٣/١ وصفوة من انتشر ص ٧٧ ومناهل الصفا للفشتالى بتحقيق كنون وراجع المصادر الكثيرة التى ذكرها الأستاذ زروق فى دراسته له التى قدم بها تحقيقه للمنتقى وانظر الوافى بالأد . العربى فى المغرب الأقصى ٧٠٦/٣ .

عالما بفنون كثيرة كان شاعرا ، وخصَّ المنصور الذهبى بكثير من شعره منذ أن كان فى الأسر ، إذ أرسل إليه قصيدة حينئذ ، يستعطفه بها لتخليصه من أسره ، وفيها يقول :

بحق الذى أولاك ملكا فنجِّنى ... من المُلْك يا قَصْد الأسير المكبَّلِ
وكنْ يا إمامَ العدل فى عونِ خائرٍ ... أسيرٍ كسيرٍ ذى جنـــاحٍ مذلَّلِ

ومنذ عاد ابن القاضى إلى حضرة المنصور الذهبى ، وهو يلزمه ويقدم له مدائحه فى كل نصر لجيوشه وكل مناسبة . وكانت وقعة وادى المخازن لا تبرح ذاكرة البرتغاليين وكانوا لا يزالون يحتلون مدينة أصيلا على المحيط ، وأحسوا أن المنصور يريد الاستيلاء عليها ، فخشوا أن يواقعوه فيحدث لهم ما حدث فى وادى المخازن من تمزيقهم كل ممزق ، قرأوا أن ينسحبوا منها ويتركوها للمنصور . ويهنئه ابن القاضى بهذا الفتح الذى أتاه دون أى حرب ودون أن يُسَلَّ سيف وتراق الدماء ، يقول :

يا أيها المنصـــورُ أبشرْ بالعلا ... اللّهُ بلّغ فى العِدا المأمولا
أنضاكمُ سيفا لحتف عِداتِهِ ... وبكم غدا سيفُ الرَّدَى مفلولا
وهزمتمُ الشـرك المبـين بعزمكم ... من غير ما سيفٍ يُرَى مسلولا
وأذبتمُ كَيْدَ الخبيث مهابةً ... وفتحتـمُ آرامـــه أصـيلا
وغدتْ من الناقوس صِفْرا بَلْقَعًا ... يُتْلَى بهـا قرآنـــا ترتيـلا
أبشرْ لـــواءُ الفتح معقـودٌ لكم ... واشكرْ إلهك بُكْـــرةً وأصيلا

وهو يبشر المنصور بمعال لا تنتهى ، فالله حافظه ويبلغه فى عِداه كل ما يأمل من نصر وفتح ، وقد منحكم سيفا لحتف الأعداء ، وفلّ لكم سيف الردى والهلاك فهزمتم الشرك بعزمكم دون سيف سللتموه ، وذاب كيد الخبيث الصليبى مهابة ، ففتحتم عقر داره : أصيلا وأصبحتْ خلاء من ناقوس النصارى ترتَّل فيها آى القرآن ترتيلا . وينتح المنصور فتحه العظيم فى السودان سنة ٩٩٨ للهجرة ، ويهنئه بهذا الفتح فى قصيدة طويلة ، وفيها ينشد :

بشراك بالفَتْحِ المبين المتاحْ ... قَطَفْته بين القَنـــا والصِّفاحْ
وليَهْنك النَّصْر الذى حُزْتَهُ ... دون الملوك فى مغانى الكفاح
واسْعَدْ فقد دانتْ ملوك الورَى ... لما رأتْ فى الانقياد النجاح
والطاهرُ المنصـور من هاشمٍ ... واسطةُ العقد وبحرُ السماحْ
رُجّت بلادُ السود من جُنْدِهِ ... وافْتِيحَتْ بالسيف أىَّ افتتاح
فتـحٌ مبينٌ هـو تاريخُـه ... ينمو على الأرض مديدَ الجَناح
لا زالتِ الأقطـارُ تَعْنو لكـم ... من سَعْدكم طـولَ المَدَا تُسْتباح

وهو يهنىء المنصور بالنصر الذى قطفه بأسلحته من الرماح والسيوف وحازه من دون الملوك فى منازل الكفاح ، وإنه لحرى أن يسعد فقد دانت له الملوك وألقت له عن يد صاغرة ، وإنه للطاهر المنصور من ذرية هاشم وبيته النبوى ، وإنه لجوهرة العقد الفريدة وبحر السماح وغيثه المدرار ، وإنه لفتح سيظل ينمو ويمد جناحه فيشمل كل ما حول المغرب الأقصى من الديار ، ويدعو له أن تظل الأقطار تفتح أبوابها لجيوشه طوال الدهر لسعده العظيم الذى لا يحد . وقد أشار فى الأبيات إلى أن المنصور من بيت بنى هاشم بيت النبوة ، وهو يردد ذلك فى مدائحه مرارا وتكرارا بمثل قوله :

الملكُ أصبح ثابتَ الآساسِ بابن النبيِّ الطـــاهر الأنفاسِ
يروى أحاديثَ العلا عن مُرْسَلٍ طهـرتْ خلائقه من الأدنـــاسِ

وكانت الأسرة السعدية تنتسب إلى الرسول الطاهر ، فمضى يبدىء فى هذا النسب الشريف ويعيد منوها ومشيدا بصور مختلفة .

الدغوغى[1]

هو أبو العباس أحمد الدغوغى ، من شعراء الزاوية الدلائية فى القرن الحادى عشر الهجرى ، ومرَّ بنا فى الفصل الأول أنه أسس هذه الزاوية فى بادية تادلة أبو بكر الدلائى سنة ٩٧٤ هـ/١٥٦٧ م وأن محمدا ابنه نهض بها إذا استكثر فيها من عمارة الدور والدكاكين وسائر المرافق ووقف على شيوخها وطلابها ما يكفيهم من مئونة . وأمَّها كثيرون من علماء المغرب يدرسون فيها ويتحلق من حولهم الطلاب ، وسرعان ما أصبحت مركزا كبيرا من مراكز الثقافة والأدب ، ولولا تعرضها لمسائل السياسة لظل لها فى الأدب وشئون الثقافة دور مهم ، إذ قضى عليها المولى رشيد وهدم عمارتها سنة ١٠٧٩ للهجرة ونقل شيوخها وعلماءها إلى فاس . والمهم أن محمد بن أبى بكر الدلائى مؤسسها الحقيقى كان يحفُّ به كثيرون من الشعراء فى مقدمتهم أحمد الدغوغى الذى قصر عليه جمهور أشعاره ، حتى ليصبح شاعره الرسمى الذى ينطق باسمه فى مواقفه العلمية وجهاده نصرة للدين الحنيف ، ويصوره زعيمًا دينيا آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، وكان لوعظه أصداء بعيدة فى القبائل المتبدِّية إذ تستجيب له مذعنة مستشعرة له الولاء ، ولدعاته الذين ينهونهم عن اقتراف الآثام والتوبة منها والعمل الصالح . وللدغوغى يمدحه :

---

(١) انظر فى الدغوغى وترجمته وأشعاره كتاب الشعر الزاوية الدلائية كتاب الدكتور حجى عنها (طبع الرباط) .

يا أحلمَ الحلماء أحزمَهم إذا ما الرأىُ رُدَّ إلى مشورةِ حازمِ
صُلْ واغْلُظَنْ فى الله واسْطُ مجاهدا بحسام عزمك ذى الذؤاب الحاسمِ
واقطعْ حِبالَ خبالِ كلِّ معارضٍ ومعـاندٍ للحـــق غيرِ مـوائمِ
فإلام تبرح فى الضـلال قبائلٌ من غُرْب مغربنا سُدًى وأعَاجمِ
وإلى سيـادتك السنيَّة ينتهى نصحُ الورَى ولأنت أعلم عالمِ
والديـــنُ أنت إمامـــه ورئيسُهُ والدهر عَبْدك وهْـو أطـــوعُ خادم

والدغوغى يصور محمد بن أبى بكر حليما فهو لا يأخذ أتباعه والقبائل من حوله بالشدة ، ويقول له لك أن تصول وتجول وتغلظ فى الدعوة لله وتقهر خصومها بحسام عزمك الحاد ولْتَقْضِ على كل معارض لك ومعاند للحق لا يذعن له . ويحمل على القبائل الخارجة عن ولائه التى لا تبرح مهالكَ الضلال ، الأعجمية منها والمهملة التى لا يصلها دعاته ، وينوه بسيادته السنية وعلمه وإمامته وطاعة الدهر له كيفما أمره . وثار فى الصحراء أبو الحسن السملالى وعاث فيها فسادًا ، ففزع إليه كبراؤها وسادتها يستنجدون به لإحباط ثورته ، ففكر فى جمع جيش لحربه ثم عدل عن ذلك إلى طريق الوعظ والإرشاد حتى لاتراق دماء المسلمين ، واستجاب لدعاته السملالى وحُقنت الدماء ، فأنشده الدغوغى قصيدة منوها بصنيعه ، وفيها يقول :

كم وِلْدةٍ لولاكمُ فى بلدةٍ يَتِمَتْ وغودرتِ المواطن عافِيَهْ
ولكم بكم عمرتْ مواطنُ طالما أقوتْ وتألفها الذئابُ العاويَهْ
هذا لسان الحـق ينشد إنما شمسُ الهدى للمهتدين دِلائيه
بكريْةُ الأبـراج مشرقُ سعدها بمحمدىٍّ الرشد غربًا باقيَهْ
ولعلمهِ ولحلمـــه ولحكمـــهِ حِكَمٌ تفـــوق الحصر لا متناهيه

وهو يصف محمدبن أبى بكر الدلائى بأنه دائما يحمى الصغار الأبرياء من حرب آبائهم ولولاه لتيتَّموا وأصبحت المواطن خالية من آبائهم ، وكم به عمرت بلاد ومواطن كانت تُقْفر فى عهد غيره وتسكنها الذئاب العاوية ، وإن لسان الحق لينشد إن شمس الهدى للناس جميعا دلائية الموطن بكرية الأبراج ، مشرقها دائما فى المغرب أو الغرب بمحمد بن أبى بكر ، وينوه بعلمه وحلمه وعدالة حكمه . خلال وشمائل تفوق الحصر لا متناهية . ودائما ينوه بكرمه وجوده وأنه غيث مدرار بمثل قوله :

يا مَنْ إذا تربتْ يمينىَ كان لى نَشْرٌ ثناه غِنىً فلست أعـولُ[1]
ما المالُ من أملٍ إليك أمالنى حَسْبى رضاك فهل إليه وصـول
فرضـــاك كل غنيمةٍ فى ضمنِه حتى الثراءُ به رضـــاك كفيلُ

(١) أعول : أفتقر .

ولقد أفادنيَ الفصـــاحةَ جودُكم وأنا امرؤٌ حَصِرُ اللسـان كَليلُ
فعجزتُ عن نطقٍ بحسنِ كَمالِكُمْ وكذا سـواى فمـا عساه يقـــول

والقطعة تصوره مريدا وتلميذا لشيخه محمد بن أبي بكر ، وإنه ليشعر فى عمق حين يعول ويفتقر أن ثناءه على شيخه غنى ما بعده غنى ولا ثراء ، ويعلن أنه يمدحه لا لعطاياه ، وإنما طلبا لرضاه ، فرضاه كل ما يريد من غنمه ، وإنه ليحمل إليه ثراء ما بعده ثراء ، كما يعلن أن جود ابن أبي بكر هو الذى حل عقدة لسانه وكان عَيِيًّا كليلا فأصبح فصيحا ، ومع ذلك فإنه يعجز عن بيان كمال أستاذه ، بل إنه كمال لا يستطيع هو ولا غيره تصويره . وكان ابن أبي بكر يختم صحيح البخارى مرة كل عام ، ويحتفل بهذه المناسبة ، وينشده الشعراء مدائح مختلفة ، وينشده الدغوغى فى أحد احتفالاته :

نال البخـارىُّ منه سَبْحا وغَوْصا مرامَهْ
فناب فى السَّبْح عنه وقام غَوْصًا مقامَهْ
أكرمْ بسوقٍ بديعٍ للمكرمات أقامـــه
فيـــه الثنـــاءُ عليهِ وَقْفًا إذا الغيرُ سامَهْ
فجوهرُ الفضل فردٌ تأبى المعـالى اقتسامه

وهو يقول إن صحيح البخارى حظى منه بسبح فى أحاديثه وغَوْصٍ ما يماثلهما سبح وغوص ، ويقول إنه أقام للمكرمات سوقا عظيمة ، جعلت الثناء وَقْفًا عليه دون غيره ممن قد يبتغيه ، إذ جوهر الفضل فرد ، وتأبى المعالى أن يكون قسمة بينه وبين سواه . وعلى هذا النحو كان الدغوغى شاعر محمد بن أبي بكر وداعيته ولسانه الناطق عن ميوله وأهوائه .

البوعنانى[1]

هو عبد الواحد بن محمد البوعنانى مفتى فاس فى عهد المولى إسماعيل العلوى (١٠٨٤ هـ/١٦٧٢ م – ١١٣٩ هـ/١٧٢٧ م) وهو يعد أهم حكام الدولة العلوية ، وفى عهده نهض المغرب الأقصى نهضة ثقافية وأدبية ، واستعادت البلاد ذكرى واقعة وادى المخازن ضد البرتغاليين فى أوائل العهد السعدى إذ آذنَ المحتلين الأوربيين للبلدان المغربية بحرب تسحق ضلوعهم سحقا . وأخذت تلك البلاد تسقط فى حجره وحجر المغاربة واحدة تلو أخرى ، وكان أول ما حازه منها – كما تقدَّم – المهدية سنة ١٠٩١هـ/١٦٨١م وتلتها طنجة سنة ١٠٩٥ هـ/١٦٨٤ م ثم حاز العرائش سنة ١١١١ هـ/١٦٩٩ م واستدار العام فحاز أصيلا ، وكان حريًّا أن يواكب هذه الفتوح قصائد حماسية وملحمية كثيرة . وربما

(١) انظر فى البوعنانى وقصيدته كتاب الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى ٨٣٩/٣ . والنبوغ المغربى ٢٣٢/٣ .

كان خير ما نظم فيها مدحة للبوعنانى يشيد فيها بفتح المولى إسماعيل لمدينة العرائش ، وهو يفتتحها بقوله :

ألا أبشرْ فهذا الفَتْحُ نورُ ... قد انتظمت بعزمكمُ الأمورْ
وطيرُ السَّعْد نادى حيث غنَّى ... قد انشرحتْ بفتحكمُ الصدورُ
وقد وافتكمُ الخيراتُ طرًّا ... وطـابَ العيش واتصل السرور
وجـاهَدْتُمْ وقاتلتـم فأنتـم ... لديـــن الله أقمـــارٌ تُنِيرُ
وأطلعتم صوارمكم نجومًا ... لدى هيجـــاءَ صاحبُها كَفـور
وأنت البدرُ يـــوم السِّلْم حُسْنًا ... وفى يوم الوَغَى الأسدُ الهصورُ[1]

والشاعر فرح بهذا الفتح المبين ، حتى ليراه نورا يغمر سَناه البلاد والعباد ، وكل شىء من حوله فرح ، فالطير تتغنى ، وقد انشرحت الصدور بما وضع عنها إسماعيل من أثقال كانت تعانى منها عناء شديدا ، وأى أثقال أشد من احتلال الوطن واعتصار طيبات الرزق فيه ، وقد رُدَّتْ إلى أهلها وطاب العيش واتصل السرور بفتح العرائش وفتح طنجة والمهدية قبلها ، وقد جاهدتم أصحاب الصليب ، وانتصرتم لدين الله الحنيف ، وكأنكم أقمار تشع من حولها أضواء منيرة ، وكأنما سيوفكم نجوم تحف بكم ، وإنك للبدر المنير فى السلم حسنا وفى الحرب الأسد الهصور ، ويمضى منشدا :

وفى ثَغْر العرائش قد تبدَّى ... لقدركُمُ على الشِّعْرى الظُّهورُ
قهَرْتهمُ بأبطـــالٍ عظـــامٍ ... على الهيجـــاء كلُّهُمُ جَسُـورُ
وكم رَأْسٍ من الكفـــار أمسى ... قطيعَ الـرأس مجرورا يَخُور[2]
وكم أسرى وكم قَتْلَى بأرضٍ ... وكـم جَرْحَى دماؤهمُ تفورُ[3]
تمرُّ بهـــا الطيـــورُ فتنتقيها ... وبـات الذئب وهو لها شكور
وأضحى النـاسُ كلُّهمُ نشاوَى ... على طـربٍ وما شُرِبتْ خمورُ

وهو يقول للمولى إسماعيل لقد بدا واتضح لقدركم فى ثغر العرائش النصر المبين ، فقد قهرتم العدو بالمغاربة الأبطال ممن تدربوا على الحروب ، فكلهم جسور على القتال لا يتخاذل أبدا ، وكم رئيس من الكفار أمسى مقطوع الرأس أو مجرورا يتخبط فى دمه صائحا ، وإن الأسرى والقتلى لأكثر من أن تُحْصَى سوى الجرحى ودمائهم المتدفقة ، ولكأنك أقمت للطير مأدبة تتخيرُّ منها غذاءها ، وقد تجمعت عليها الذئاب ، وهى تعوى كأنها تشكرك ، وأضحى الناس

(١) الهصور : المفترس .
(٢) رأس : يريد رئيسا . يخور : يصيح .
(٣) تفور : تتدفق .

تشاوى من الفرحة بهذا النصر لا من خمر ذاقوها ، ولكن من نصر تفوق نشوته نشوة الخمر فرحا وسرورا . ويقول :

فبُشْراكم بهذا الفتح نـورٌ ... وبشراكم بِمـا منَّ الغفـورُ
بـه زادتْ مآثرُكم علـوًّا ... وقد عظمتْ به لكمُ الأجور
ألا يا أهل سبتةَ قد أتاكم ... بسيف الله سلطـانٌ وَقـورُ
إذا ما جاء سبتةَ فى عَشىٍّ ... تُزَفُّ له إذا كان البكـورُ
ووَهْرانٌ تنـادى كل يـومٍ ... متى يأتى الإمام متى يزورُ
فيهزمكـم ويقتلكـم ويَسْبِى ... وسيفُ الحق فى يده ينـور[1]

وهو يبشر المولى إسماعيل بأن هذا الفتح نور منَّ عليكم به الله الغفور فزاد مآثركم وأمجادكم سموا ، وعظم لكم به الأجر والثواب ، وكانت سبتة لما تفتح ، فشعر بها تهبُّ فى وجه الإسبان مهددة لهم بالمولى إسماعيل وما يحمل من سيف الله الذى لا يفلُّ أبدا ، وكأنما حين يأتيها مساء تزفّ إليه بكورًا منكلا بالمحتلين لها من الإسبان وبالمثل وهران وكانوا قد استولوا عليها ، تناديه صباح مساء كى يهزمهم ويقتلهم بسيف الله الذى لا يزال يضيىء فى يده ، ويختم قصيدته بقوله :

أيا مولاىَ قُمْ وانهضْ وشَمِّرْ ... لأندلسٍ فأنت لهـا الأميرُ
وجاهدْهم وحاربْهم وفرِّقْ ... جموعهـمُ فَربُّكـمُ النَّصير
ولا يمنعْ بفضل الله منها ... كما قد قيل بَرٌّ أو بحورُ
بقُرْطُبَةٍ تنـال المجـد طُرًّا ... ويأتى العـزّ والملكُ الكبـير

وتصور هذه الأبيات مدى طموح البوعنانى حين رأى فتوح المولى إسماعيل تتوالى فيحثه لا على أخذ سبتة ووهران فحسب ، بل أيضا على استرداد الأندلس حيث ينال العز والمجد طرا بعودة قرطبة إلى حمى العرب والعروبة .

٤

شعراء الفخر والهجاء

(أ) الفخر

الفخر من أغراض الشعر العربى القديمة منذ الجاهلية ، وقد ظل حيًّا فيه على توالى العصور ، والشاعر يفخر فيه بشمائله الرفيعة الفردية من المروءة والكرم والوفاء وما يماثل ذلك وبعصبيته القبلية والقومية وبشجاعته وبسالته الحربية . ونراه على ألسنة شعراء المغرب الأقصى منذ ابن زنباع

(١) ينور : يضيىء وينير .

فى عصر المرابطين ، وهو يفتخر فى بعض غزله لصاحبته بأنه يمنىّ من حمير وأنهم سيأخذون منها بثأره ويصور لها بأسهم فى الحرب . ويأخذ الفخر عند شاعر الموحدين : ابن حبُّوس شكل نصائح يوصى بها الشعراء بل معاصريه جميعا أن يتمثَّلوها ليصونوا بها مروءتهم ، ويتخذوها شعارات ترسم لهم مثالية خلقية كريمة من مثل قوله[1] :

ردِ الطَّرْقَ حتى توافى النَّميرا ... فـربَّ عسيرٍ أتـاح اليَسيرا[2]
وأرسلْ قَلُوصَك طورا شَمالا ... وطـورا جَنوبـا وطـورا دَبـورا[3]
وطِرْ حيث أنت قوىَّ الجنـا ... حِ لا عـذرَ عـندك أن لا تَطيرا
ولا تقَعـنَّ وأنـت السَّليـ ... ـمُ حيث تضاهى المَهيضَ الكسيرا
وذو العجز يَرْضَعُ ثَدْيـًا حَدُورًا ... وذو العـزم يَرْضَعُ ثَدْيا دَرُورا[4]

وأول شعار رسمه للشخص كى يحصل على ما يريد مهما يكن عسيرا صعبا أن يتحمَّل شرب الماء العكر حتى يصل إلى ما يريد من الماء العذب الصافى وشعار ثان أن يرسل ناقته شمالا وجنوبا وفى كل اتجاه حتى يتحقق له أمله ، فلابد له من العناء ولابد له من الضرب على أبواب الآمال حتى تنفتح على مصاريعها ، ولابد له من الطيران بعيدا فى آفاق الدنيا حتى يقع على ما يتمناه ، وعيب أن تكون أجنحته قوية ولا يطير شأن المهيض الكسير ، فالآمال إنما تؤخذ مغالبة وعزما مضطرما ، وكأنما العاجز فى الدنيا يرضع ثديا شحيحا ، بينما القادر المملوء إرادة وعزيمة يرضع ثديا دارًّا له بكل ما يريده من دنياه . ويقول القاضى أبو حفص عمر بن عمر السُّلَمى المتوفى سنة ٦٠٤ للهجرة[5] :

نهـائىَ حِلْمى فلا أظلمُ ... وعزَّ مكانى فـلا أُظْلَمُ
ولابُدَّ مـن حاسدٍ قلبُه ... بنـــور مآثـرنا مُظْلِمُ
رحمتُ حسودى على أنه ... يقاسى العذابَ وما يَرْحَمُ
هجـانا افتراءً ولسنا كمـا ... يقـــول ولكنْ كما يعلـــمُ

والقطعة ردَّ بها على بعض من آذاه بهجائه ، وكان كبير النفس ، فردَّ عليه بما يتفق مع شخصيته وسمو نفسه ، فقال إن مروءته وحلمه يمنعانه من أن يظلم أحدا وإن ما له من سمو المكانة يمنع أن يتعرض شخص له بظلم أو هجاء ، ولا يسلم مثله من حاسد يحسده على مآثره ومكارمه ، وإنه ليرحم حاسديه لما يقاسون من عذاب الحسد وما يصيبهم به من الكمد ، ويقول إن حاسده يهجوه افتراء . وضمَّن ذلك سخرية لاذعة إذ قال إنه ليس كما يقول حاسده

(١) النبوغ المغربى ٧١٧/٣ والوافى ١١١/١ .
(٢) الطرق : الماء العكر . النمير : الماء الصافى .
(٣) الدبور : ريح تهب من الغرب . القلوص : الناقة .
(٤) حدورا : شحيحا .
(٥) النبوغ المغربى ٧١٨/٣ .

ولكنه كما يعلم من منزلته الرفيعة . ويقول أبو العباس أحمد بن على المَلْيانى رئيس ديوان الإنشاء فى عهد السلطان أبى يعقوب المرينى[1] :

العِزُّ ما ضُرِبتْ عليه قِبابى ... والفضلُ ما اشتملتْ عليه ثيابى
والزَّهْرُ ما أهداه غُصْنُ يراعتى ... والمِسْكُ ما أهداه نِقْسُ كتابى[2]
والمجد يمنع أن يزاحَم موردى ... والعــزم يأبى أن يُضــام جَنابى

وإذا حمدتُ صنيعةً جازيتها ... بجميل شكرى أو جزيل ثوابى
وإذا عقدتُ مــودَّةً أجريتها ... مجرى طعامى من دمى وشرابى
وإذا طلبت من الفَراقد والسُّهــا ... ثــأرا فأوْشِكُ أن أنــال طِلابى

وهو فخر يصور نفسا نبيلة إلى أقصى حد ، نفسا تستشعر العز كأنما ضرب الشاعر عليه قبابه فأصبح ملازما له لا يغادره ، ومثله الفضل الجاثم فى ثيابه ، أما الزهر وشذاه فما تكتبه يراعته أو قلمه من الشعر ، وأما المسك وعطره فما يكتبه من رسائله البليغة ، وإن المجد ليقف حائلا لمن يريد أن يزاحمه فى مورده العذب ، ويأبى العزم أن يصاب جنابه بأى ضيم وإذا قدم له شخص صنيعة أو جميلا جازاه بشكره أو بثوابه الجزيل ، وإذا عقد مودة لشخص جرت فى دمه مجرى طعامه وشرابه . وهى صورة بديعة . وإذا طلب من الكواكب ثأرا نال مطلبه سريعا . ويقول أبو على اليوسى الدلائى المتوفى سنة ١١٠٢ للهجرة[3] :

إنا أنــاسٌ لست تُبْصرنا ... نتحيَّن الطُّعَــمَ التى تُزْرِى[4]
يَعْرَى الفتى ويجوعُ وهْو يُرَى ... متجمِّــلا بالصَّبْــر والبِشْــر
والحــرَّةُ الشمَّــاءُ ربَّما ... جاعتْ ولم تُرْضِع على أُجْر[5]
والحــرُّ ليس حياتُه بسوى ... عِزِّ الجَنــاب ورفعــة القَدْر
لا بالطعــام ولا الشراب ولا ... استلقائــــهِ بأرائكٍ وُثُرِ[6]

فهو من قوم لا يتحينون المطاعم التى تزرى بمن يطعمها، وإن الفتى منهم ليعرى ويجوع ومع عُرْيه وجوعه يُرَى مُزْدانا بالصبر متحليا بالبشر ، ومثله الحرة ترى شَمَّاء متسامية وتجوع ولاتأكل بثدييها فذلك موت زؤام ، والحر مثلها يستشعر العزة ورفعة القدر فهما متاعه من دنياه لا الطعام ولا الشراب ولا المقاعد الوثيرة .ولعمر[7] الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ هـ/ ١٧٧٥ م :

---

(١) النبوغ المغربى ٣/٤٢ .
(٢) نقس : مداد .
(٣) النبوغ ٣/١٦٧ .
(٤) الطعم جمع طعمة : ما يطعم .
(٥) الشماء : المترفعة المتسامية .
(٦) أرائك وثر : مقاعد مترفة .
(٧) النبوغ المغربى ٣/٤٩ والحياة الأدبية فى المغرب للدكتور محمد الأخضر ص ٣١١ .

قل لمن يَعْلُو على النا س بآباءٍ سَراةِ
ليس من شأني فَخارٌ بعظامٍ ناخراتِ
ما فخارُ المرء إلا بعلومٍ زاخراتِ
وسجايا ومزايا وهباتٍ وافرات

وهو يقول إن الفخر الحقيقي لا يكون بالانتساب إلى الآباء والأجداد الرؤساء والعظام البالية في المقابر ، وإنما يكون بما وعى المرء وتعمقه من العلوم وبخصاله الحميدة وما منحه الله من الهبات الوافرة ، ويقول ابن زكرى الولتي حاثا على اقتحام الصعاب في طلب المجد[1] :

المجدُ حيث مدارُ السبعة الشُّهُبِ هيهات يدركه مَنْ لم يكن بأبي
وهمَّة المرء لا تعدو بصيرته يقدر نظرته يسمو إلى الطلبِ
كلٌّ له أربٌ لكنْ أخو قِصَرٍ في الهمِّ ليس له في الجِدِّ من أربِ
إن كان لابد للإنسان من أملٍ فليأمل المجدَ فوق السبعة الشُّهب

وهو يقول إن المجد ليس شيئا هينا ، بل هو شيء في منتهى الصعوبة ، وعلى طالبه أن يعرف أنه لابد له من الطيران فيه والصعود حتى يبلغ الكواكب السيَّارة السبعة ، ويقول الشاعر إنه لا يدركها من لا يشعر بشمم وإباء لا حد لهما . ويذكر أن كل شخص يحصل في دنياه على ما يطلبه بقدر همته ، ويقول إن مَنْ همته قصيرة لا ينال مأربا كبيرا ، وإذا كان كل إنسان له أمل لا يزال يتمناه ، فَلْتَسْمُ نفسه ويأمل المجد لا في الأرض ولكن فوق السبعة الشهب . وحرى بنا أن نتوقف قليلا عند الشاذلي الدلائي وقصيدة بديعة له في الفخر .

الشاذلي[2]

هو محمد بن أحمد بن الشاذلي المتوفى سنة ١١٣٧ هـ/١٧٢٥ م . لم يولد لأبيه في عهد الزاوية الدلائية ، وإنما ولد له بعد خروج أهله وآبائه منها . حفظ القرآن الكريم ، وأكبَّ بعد حفظه له على علوم اللغة من نحو وصرف وعلوم البلاغة المختلفة ، ومضى يتزود بالأدب ، ولم تلبث شاعريته أن استيقظت فيه ، فأخذ ينظم الشعر في أغراضه المختلفة ، واشتهرت له قصيدة في الفخر يستهلها بحوار بينه وبين سيدة يمضي على هذه الشاكلة :

مـا إنْ يَعيبك فَقْدُ الحَلْي والحُلَلِ إن أنت بالهِمم الشمَّـاء كنت مَلِي
وربَّ جاهلـةٍ هبَّتْ تعـاتبني أن كنتُ- عن غَمْرِ عيشٍ- مؤثرَ الوشَلِ[3]
قالـتْ رأيتك ذا قـولٍ محبَّـرُهُ أزهى من الـرَّوض غِبَّ الواكف الهَطِلِ[4]

(١) الوافي ٨٥٦/٣ .
(٢) انظر في الشاذلي كتاب الشعر الدلائي (راجع الفهرس) والنبوغ المغربي ٤٧/٣ .
(٣) غمر العيش: رافهه وواسعه. الوشل: الماء الضحل القليل.
(٤) محبَّرة : منمقه . غب الواكف الهطل : عقب السحاب الممطر .

وفى الملوك له كُفءٌ فأُمَّهُمُ ... حتى يعيدوك ذا خَيلٍ وذا خَولِ[1]
ولستُ أصْغى وإن لجَّتْ لتعدلَ بى ... عن منهج الصَّوْن بالنَّعْتاب والعذَلِ
وإن من كرمى بُخْلى بشعرىَ عن ... تقريظِ ذى كرمٍ أو ذمِّ ذى بَخَلِ

وهو يقول إن الشخص لا يعيبه فقد الحلى والحلل أو بعبارة أخرى فقد الثراء إذا كان مليئا بالهمم السامية الرفيعة ، ويقول : رب جاهلة عاتبتنى لانصرافى عن رافه العيش واكتفائى بالوشل القليل منه ، بينما أملك بيانا بليغا أزهى من أزهار الروض عقب السحاب الهاطل ، وتقول فى الملوك من يستحقه ، فاقصدهم حتى يثروك ويصبح لك خيل وخدم كثيرون . ويقول إنه لا يصغى لمثل هذه العاتبة مهما لجت وألحت إذ تريد أن تعدل به عن منهج الاحتفاظ بمروءته ، وإن خلاله الكريمة لترفعه عن مديح الملوك والكرماء وعن هجاء البخلاء الأشحاء ، وما يلبث أن يعلن لعاذلته قوله :

ولن تَرَيْنى مُذيلا - ما حييتُ - له ... فى غير ذكر الوَغَى والأعْيُن النُّجُلِ[2]
يَأْبَىَ إبائى وآبائى ويأنف لى ... مجدٌ أناف - ولم يقْنع - على زُحَلِ[3]
نفسُ الكريم تعاف الوِرْدَ يصحبه ... ذلٌّ على ظمأٍ فى الجوف مُشْتَعِلِ
لو كنت سائلَ غيرِ الله لم أسَلِ ... غَيْرَ المَذاكى وغير البِيض والأسَلِ[4]

وهو يقول لصاحبته إنه لن يبتذل شعره إلا فى الحماسة والحرب الضارية وإلا فى الغزل بالحسان ذوات الأعين النجل الفاتنة ، وإن آبائى وإبائى يأبيان أن أمتهن شعرى وأهينه فى مديح أو هجاء ، وبالمثل مجدى الذى بلغ عنان السماء ، وظل فى ارتفاعه حتى أشرف على الكوكب البعيد : زحل . ويقول إن نفس الكريم تعاف أن يرد على ماء فيه ذل أو ما يشبهه ، مهما كان ظامئا ومهما كان الظمأ يشتعل فى جوفه . وما يلبث أن يقول إنه لو سأل غير الله لم يسأله نوالا ولا عطاء ، وإنما يسأله خيلا وسلاحا وسيوفا . ويمضى فى قصيدته منشدا :

لا تَرْضَ بالعيش فى ظلِّ الهوان وخُضْ ... لنَيْل عزٍّ غِمار الموت والثُّكَلِ[5]
فليس يُدْرَك بالجُبْن البقاءُ ولا ... الإقدامُ يَقْضى بما لم يُقْضَ فى الأزلِ

وهو يوصى كل من حوله أن لا يرضوا بعيش فى ظل هوان وذل ، وأن يخوضوا فى سبيل العز غمار الموت وفقد الأهل ، فالبقاء لا يدرك بالجبن ، ونفس الإقدام لا يغير قضاء كُتب فى الأزل وقُدِّر على الإنسان . ويستمر قائلا :

---

(١) أمهم : اقصدهم . خول : خدم وعبيد .
(٢) مذيلا : مبتذلا ومهينا . النجل : الواسعة الجميلة .
(٣) أناف : أشرف .
(٤) المذاكى : الخيل . البيض والأسل : السيوف والرماح .
(٥) الثكل : فقد الأهل والأحبة .

حَلَبْتُ شَطْرَيْ صروفِ الدهر من عدمٍ ... ومن يسارٍ ومن صابٍ ومن عَسَلِ
فما بطِرتُ لإثراءٍ ولا حسبى ... بدت به خلَّةٌ تنتابُ من خَلَل[1]
وكنت إما بدا لى من حِلِيٍّ عَطَلٌ ... ألْفيتُ من حَلْى فضلى غيرَ ذى عَطَلِ
وَشْيُ المهنَّد يبدو فوق صفحتِه ... يغنيه عن شيَة الأغماد والحُلَلِ

وهو يقول إنه طالما جرَّب صروف الدهر وأحداثه من فقر وغنى ومن مرٍّ وحلو فلم يلحقه بطر ولا استخفاف لإثراء ولا بدا خلل فى حسبه وشرفه ، وكان إذا أصابه عطل من حُلِيّ الغنى شعر أن حُلِيَّ فضله يزينه . ويضرب مثلا لذلك السيف فإن الوشى الذى يزينه يبدو على صفحته مما يلمع عليها ويبرق لا على غمده وما يزدان به من بعض النقوش . والقصيدة بديعة فى كل ما يتصل بها من الألفاظ والصور والمعانى .

(ب) الهجاء

الهجاء من موضوعات الشعر العربى ، الموغلة فى القدم ، وكان أصله لعنات يستنزلها الجاهلى من آلمته على من يعاديهم من الأفراد أو من يعاديهم مع قبيلته من القبائل والعشائر . وتطور من اللعنات إلى الذم بالصفات المرذولة من مثل البخل والجبن والغدر ، واستحال عند جرير والفرزدق إلى مناظرات واسعة فى أمجاد قيس وتميم وسادتهما ، مما أوضحناه فى كتابنا : « التطور والتجديد فى الشعر الأموى » . ومنذ العصر العباسى الأول أخذ الشعراء يتفننون فى وصف المهجو بالدناءة والقذارة ، مع ما قد يذكره عنه الشاعر من فساد الأخلاق والمروق من الدين . وظل كثيرون من الشعراء – على مر العصور – يكثرون منه بحيث يمكن تلقيبهم بجماعة الهجَّائين ، وقد يفرضونه على حياتهم ويعيشون له ، وهو ما نفتقده عند شعراء المغرب الأقصى ، إذ كان الشاعر المغربى يلم به فى لحظة من لحظات غضبه ثم ينصرف عنه إما رعيا للذمام والمواطنة وإما تساميا بنفسه عنه . ويلتانا منه فى أول الأمر أهاج لبعض من كانوا يتنبئون ويثيرون مع بعض أتباعهم حروبا تدور فيها عليهم الدوائر ، من ذلك قول سعيد بن هشام المصمودى فى هزيمة برغواطة مع متنبئها أبى عفير[2] :

قفى قبل التفرُّق فاخبرينا ... بقولٍ صادقٍ لا تكْذبينا
بأمر برابرٍ خَسِروا وضَلُّوا ... وخابوا لا سُقوا ماءً مَعينا[3]
يقولون النَّبِيُّ أبو عُفَيْرٍ ... فأخْزَى اللهُ أمَّ الكاذبينا
ألم تسمع ولم تَرَ يوم «بَهْتٍ» ... على آثار خيلهمُ رَنينا[4]

(١) بطرت من البطر ، وهو الاستخفاف بالشىء .
(٢) النبوغ المغربى ٣/٢٥١ .
(٣) ماء معينا: من مياه الجنة أولعل الشاعر يريد كل مياه عذبة.
(٤) بهت : مكان المعركة .

رنينَ الباكيـــات بهم ثُكالى وعاويـــةٍ ومسقْطةٍ جنينا[1]

وهو يعيرهم بيوم « بهت » الذى هزموا فيه مع نبيهم أبى عنير ، ويقول لأهل برغواطة إنهم خسروا وخابوا وضلوا ضلالا مبينا إذ تبعوا متنبئًا كذابا من أعداء الله ورسوله ودينه الحنيف ، فأخزاهم الله ، وحرمهم مياه الجنة المعين الصافى العذب . ولقد كتب الله عليهم هزيمة ساحقة لهم ولنبيهم يوم بهت ، وفرت خيلهم لا بفرسانهم إذ قتلوا شر قتل وإنما بنسائهم يعولن ويبكين ويندبن من فَقَدْنهم من الأزواج والأبناء ، وبلغ من حزنهن أن الحوامل منهم لكثرة عويلهن كن يسقطن أجنتهن فزعا ورعبا . وكثيرا ما كان يعدل الهاجى عن هجاء شخص بعينه إلى هجاء قومه أو هجاء بلدته من مثل هجاء الجراوى – وقيل إنها لغيره – بنى غَفْجوم قومه متوسلا بذلك إلى هجاء أهل فاس وخاصة عشيرة بنى ملجوم إذ يقول[2] :

يا بنَ السبيل إذا مررتَ بتادِلا لا تنزلنَّ على بنى غَفْجُومِ
أرضٌ أغارَ بها العدوُّ فلن ترى إلا مجـــاوبةَ الصَّدَى للبُومِ
قـــومٌ طوَوْا ذكرَ السماحة بينهم لكنهم نشروا لـــواء اللُّـــومِ
لاحظَّ فى أموالهـــم ونَوالهـــم للسائل العافى ولا المحـــرومِ[3]
لا يملكون إذا استُبِيح حريمهم إلا الصُّراخَ بدعـــوة المظلومِ
يا ليتنى من غيرهم ولـــو اننى من أهـــل فـــاسٍ من بنى المَلْجُوم

وهو يقول للضيف الطارق المار بمدينة تادلة لا تفكر فى النزول على بنى غفجوم لبخلهم وشحهم ، وإنها لأرض كريهة خرَّبها الأعداء حتى لا تجد فيها إلا صياح البوم وأصداءه ، ولقد طووا راية السماحة والخلق الكريم بينهم ونشروا لواء اللؤم والدناءة غير مستجيبين لطالب معروف ولا لفقير محروم . وهم فى غاية الجبن ، حتى إنهم لو استبيح حريمهم ما ثاروا ولا فزعوا إلى حمل السلاح ، بل فزعوا إلى الصراخ يدعون فعلَ النساء والمظلومين . ويقول ليته لم يكن منهم لما يحملون من هذه المساوىء الذميمة حتى لو كان من أهل فاس وبنى الملجوم اللؤماء ، وهى سخرية لاذعة . وكاد الهجّاءون لا يتركون بلدة دون هجاء ، فهم يهجون مراكش ويهجون مدينة القصر الكبير وغيرهما من مدن المغرب الأقصى الجميلة . ولهم فى الهجاء طرائف ، فمن ذلك هجاء ابن حبُوس شاعر الموحدين لفنه الشعرى قائلا[4] :

يا غرابَ الشعـــر لاطِرْ تَ ومُنِّيت الوقـوعـــا
فـــإذا استيقظ شَهْـــمٌ قَـــرِمٌ زدتَ هجـوعـــا
هَبْكَ لا تَقْنِـصُ عـــزًّا لِمْ تقنَّصْتَ الخضـوعـــا

(١) ثكالى جمع ثاكل : فاقدة الزوج أو الولد .
(٢) النبوغ المغربى ٢٥٣/٣ .
(٣) السائل العافى : طالب المعروف .
(٤) الوافى ١١٠/١ .

رمت أن ترقـــى سـريعا فـتـردَّيتَ صريعـــا[1]
ربمـا اصطـاد بُغـاثٌ شِبعًا واصطدتَ جوعا[2]
ولقـد غـــال حَبيبـــا منك مـا غـال صريعـا

وهو يختار للشعر من الطير الغراب الذى كان يتشاءم به العرب ، وكأنه مصدر شؤم كبير ، ولذلك يتمنى له أن تقصر به أجنحته ، فيقع ويطيل الهجوع حتى لو استقبله سيد شهم ويعجب أنه لا يقتنص عزا فلماذا يقتنص الخضوع ، مهما أمَّل معه الرقى السريع إذ سرعان ما يهوى صريعا . وقد يصيد شويعر ، بينما لا يصيد الشاعر الكبير سوى الجوع والحرمان ، بل لقد يغتاله المديح كما اغتال أبا تمام الملقب بحبيب ومسلم بن الوليد الملقب بصريع الغوانى الشاعرين المبدعين اللذين أضاعا شعرهما فى الثناء على ممدوحيهم . وكان ابن حبوس ظريفا فلم يتعرض لشخص بعينه ، وإنما تعرض بعامة للحاسدين والهجائين والعيَّابين الذين يكثرون بين الناس منشدا[3] :

أعِـدَّ لنابحيك عصَـا وأقْضِم ما ضغِيك حَصَا[4]
وغمِّضْ عينك النَّجْـلا ءَ حتى تُنْعَتَ الحَوِصا[5]
وهُـــزَّ لمعشرٍ سَيْفـــا وهـــزَّ لآخـرين عَصـــا
لقد رَخُصَ الإخاءُ وأهْـ ـوَنُ الأعْلاق مـا رَخُصا
وقد ذهب الوفـــاءُ فلا يقـــول مغـــالطٌ نقَصا

وهو ينصح الشخص أن يعد عصًا لكثرة النابحين حوله الذين ينكرون فضله ، ويقول أطعمْ من يمضغون لحمك هاجين وذامين حصا ، وغمض عينك البصيرة عن أخلاق الناس الذميمة حتى تنعت بالحوص وضيق العين وأنك لاتكاد تبصر شيئا . والناس صنفان : صنف يلقى بالسيف وصنف يلقى بالعصا . ولقد رخص الإخاء حتى ابتذل ولم يعد موجودا وذهب معه الوفاء كاملا دون أوبة . ولمالك بن المرحل المرينى المتوفى سنة ٦٩٩ للهجرة قصيدة تصور زواجه بمدينة سبتة من امرأة وصفت له بالجمال والحسن البارع ووجدها قبيحة بالغة القبح ، ويطيل فى وصف ما قيل له من جمالها الساحر ، وبالمثل فى وصف قبحها وأنها قرعاء حولاء فطساء صماء بَكْماء عرجاء ، ويقول إنه ولَّى هاربا منها حين لاح الصباح ، وهى قصة أراد بها إلى الهزل والمجانة .

---

(١) ترديت : سقطة .
(٢) البغاث : طير صغير .
(٣) النبوغ المغربى ٢٥٢/٣ .
(٤) أقضم : أطعم . ماضغيك : الذين يمضغونك ذامين .
(٥) الحَوِص : الأحوص وهو ضيِّق مؤخر العين .

٥

الشعراء والشعر التعليمى

الشعر التعليمى من الموضوعات الشعرية التى ابتكرها الشعراء فى العصر العباسى الأول بتأثير اتساع الثقافة ورقى الفكر العربى ، إذ أخذ بعض الشعراء ينظم فى التاريخ وبعض العلوم ، وفى مقدمتهم أبان بن عبد الحميد الذى ترجم عن الفارسية قصص كليلة ودمنة ، وقد اقترح له هو ومعاصروه نمطا مستحدثا من الشعر هو نمط الشعر المزدوج الذى ينظم مو وزن الرجز ، وتتحد القافية به فى شطرى كل بيت . وأخذ هذا النمط من الشعر التعليمى يشيع فى البلدان العربية منذ القرن السادس ، فنُظم به كثير من المتون العلمية ، وأُلفت لها شروح كثيرة . ولم تبق بلدة عربية إلا وشارك علماؤها فى نظم هذه المتون وفى وضع شروحها ، وأكثروا من نظم مسائل الفقه والنحو والتصريف . وكان للمغرب الأقصى فى ذلك مشاركة خصبة ، ومن كبار الناظمين به لهذا الشعر التعليمى محمد بن أحمد بن غازى من العصر المرينى ، وله فيه منظومات تعليمية فى التاريخ ومختلف العلوم ، ومنها منظومته المنية فى علم الحساب . وكثر هذا الشعر فى العصر السعدى ، ونجد المقرى فى كتابه روضة الآس ينشد للشعراء من معاصريه أشعارا تعليمية متنوعة فى مسائل العلوم . ولشعراء المغرب الأقصى - فى مختلف العصور - شعر كثير فى الوصايا والحكم ، ولعمر الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ للهجرة قصيدة فى الأمثال والحكم نظمها على مثال لامية العجم ، غير أنه وقف بها عند نحو ستين بيتا ويهمنا فى العرض الأدبى لهذا الشعر أن نقف عند منظوماته التاريخية والعامة فى الأدب ، ونختار لذلك شاعرين هما عبد العزيز الملزوزى وابن الونان .

عبد[1] العزيز الملزوزى

مكناسى الأصل وأكبَّ منذ نعومة أظفاره على التثقف بالعلوم اللغوية والشعر العربى حتى تفتحت موهبة الشعر فيه ، وقدم إلى المنصور يعقوب المرينى فأعجب به وأصبح شاعره ، وهو لا يكتفى بمديحه العام له ، بل ينظم فيه وفى أسرته ملاحم تاريخية بارعة ، من ذلك ملحمته الكبرى : « نظم السلوك فى الأنبياء والخلفاء والملوك » وهى منظومة تاريخية يعرض فيها التاريخ من أعتق الأزمنه ، حتى زمن يعقوب المرينى ، وفى فاتحتها يقول :

الحمـــد لله مغيث الديـن بالملك المنصور من مَرين

ولا يلبث أن يقول :

---

(١) انظر فى ترجمة الملزوزى وشعره التاريخى الإحاطة لابن الخطيب ٢٠/٤ والوافى ٣٦٥/٢ والنبوغ المغربى ٢٣٦/١، ٢٩/٣ .

سميتها من حسنها نظمَ السلوكْ في الأنبيا والخلفاءِ والملوكْ
وأذكـرُ الأمـر على الترتيبِ مختصرا بأحسن التقريبِ
من عهـد آدمٍ إلى زمانـنـا أختمها بالغُـرَّ من أملاكنـا

وهو يمضي في سرد التاريخ منذ أقدم العصور ، حتى إذا وصل إلى دولة بني مرين ومليكها يعقوب المنصور أخذ يفصّل الحديث في تاريخه وأحداثه ومجالسه ، وكأنما هو الغاية المبتغاة من تأليف منظومته ، وفيه يقول :

قد ألبس الوقار والسكينه وحَلَّ في مكانةٍ مَكينه
حتى إذا ما حانَ وقتُ الظهرِ قام إلى بيت النَّدَى والفَخْرِ
يبقى إلى وقت صلاة العصر يأتي بقصدٍ نهيـه والأمـر
فينصف المظلوم ممن ظلمه ولم يزل إلى صلاة العَتَمه[1]
وأمَّن الغرب من الفسادِ ونشر العدلَ على العبـادِ
وخضعتْ مرينُ تحت قهرِهِ وأذعنوا لنهيـه وأمـرِهِ
ورفَع الظلـم عن الرَّعيَّـه وقمَع الطغـاة في البَريَّه

وهو يصور يعقوب المنصور المريني يحفّ به الوقار والجلال والسكينه ، ويحلّ في مرتبة رفيعة ، حتى إذا حانت صلاة الظهر أسرع إلى مسجده يؤديها ، ويأتي بعد صلاة العصر لإبرام أوامره ونواهيه وإنصاف المظلومين ، ويظل حتى صلاة المغرب ، وقد نشر الأمن في البلاد وأخلاها من الفساد ، ونشر العدل في الناس ، وخضعت له قبائل مرين وأذعنت له ، ورفع عن الرعية كل ظلم عانت منه وقمع الطغاة الذين ظلموها ظلما فادحا .

وينظم الملزوزي قصيدة تاريخية ثانية في المنصور يعقوب وجهاده للإسبان في ديارهم نصرة لبني الأحمر أمراء غرناطة ، وقد بدأ هذا الجهاد سنة ٦٦٤ للهجرة إذ عبر الزقاق على رأس قوة مرينية كما مر بنا في الفصل الأول ونكل بالإسبان ، وعاد إلى هذا الجهاد مرارا سنة ٦٧٧ وسنة ٦٨١ واستولى على بعض حصونهم وسنة ٦٨٥ وكان كل ما يحوزه من حصونهم وبلدانهم ، يقدمه إلى بني الأحمر في غرناطة متنازلا عنه لهم . فهو لا يجاهد نصارى الإسبان بقصد تكوين دولة عربية جديدة في الأندلس ، وإنما يجاهدهم انتصارا لدينه ، إذ رأى بني الأحمر يتخاذلون عن جهادهم وخشي عليهم عواقب هذا التخاذل ، فامتعض للإسلام وأخذ ينازل الإسبان بجيوشه المرينية ، وينزل بهم ضربات متوالية . والملزوزي يبدأ قصيدته بحمد الله جلَّ في علاه وتمجيده ، ويستغرق ذلك أربعة عشر بيتا يختمها بنعمته الكبرى على المسلمين بإرساله فيهم الرسول ﷺ وما خصَّه به من الإسراء والمعراج ، ويلم بتحريضه لأتباعه على جهاد الكفار ،

(١) العتمة : الظلام .

وينوه بخلفائه الراشدين وبقية العشرة المبشرين بالجنة ومن اقتفوا سيرتهم حين كان الإسلام شامخا ويقول إنه انسحق بعدهم مشيرا إلى إخراج الإسبان للمسلمين من الأندلس ، حتى صار بالمغرب الأقصى غريبا ، إذ استكان سكانه – كما يقول – إلى القعود عن الجهاد ، إلى أن استولى على صولجان الحكم يعقوب المنصور المريني ، فإذا هو ينازل الإسبان بقواته المرينية وقواده من أبنائه وأبناء رعيته نزالا ضاريا طوال عشرين سنة والنصر يواكبه . وهذه القصيدة التاريخية الثانية للملزوزى تتغنى بهذه الانتصارات ليعقوب على الإسبان ، وتفصّل أحداثها وما غنم يعقوب من الحصون الإسبانية هو وأبناؤه وقواده وما أنزلوه بهم من هزائم ساحقة فى نحو مائة بيت ، يستهلها الملزوزى بقوله فى يعقوب ونزاله المتكرر للأعداء :

ولم يُعْلَمْ جهادٌ للأعادى ... بهذى الأرض يُحْتَسَبُ احتسابا
إلى أن فتَّح الرحمنُ فيه ... ليعقوبَ بن عبد الحقّ بابا
لمولانا أميرِ العدل ملكٌ ... به انسلبتْ يَدُ الكفر انسلابا
ولم نر قبله فى العصر مَلْكا ... أرانا فى العِدا العجَب العُجابا
دعا لله دعوةَ مطمئنٌّ ... لمولاه دعاءً مستجابا
فلبَّى الله دعوته وسَنىَّ ... له الحُسْنى وجنَّبه الصِّعابا[1]
فجاز البحر مجتهدا مرارا ... يقودُ إلى العِدا الخيل العِرابا[2]

وكأنى بالملزوزى حين نفى أن يكون قد سبق يعقوب جهاد من المغرب الأقصى لنصارى الإسبان إنما يريد أنه لم يحدث جهاد لهم فى عهد الدولة المرينية قبله ، إذ نحن نعرف جهاد الموحدين لهم قبل تلك الدولة وما أنزلوا بهم فى الأرك وغير الأرك من هزائم ساحقة . ويقول إن الله فتح له فى الجهاد بابا بل أبوابا ، ويشيد بعدله ومحقه لجيوش الإسبان محقا ، وكأنما دعا الله أن ينصره واستجاب دعاءه ، فيسَّر له الحسنى من الفتوح حين جاز الزقاق مرارا للجهاد ، يقود إلى الأعداء الخيل العربية الأصيلة فألبسهم هو وبنوه وقواده ذلا مابعده ذل . ويسترسل فى ذكر الوقائع وقوادها وكيف أوسعوا بعض بلاد الإسبان حرقا وانتهابا ، ويتحدث عما ساقوه من الغنائم والأسلاب مع الإشادة بيعقوب وبلائه البلاء المستطاب ، ويختم قصيدته مخاطبا بنى مرين بقوله :

هنيئا يا مرينُ لقد علوتم ... على الأملاك بأسًا وانتجابا[3]
وفاخرتم بمولانا البرايا ... فأعطوكم قِيادا وانْغلابا
أبعد الفُنْش وابنِ الفونسِ يبغى ... رضاكم لا يخاف به العتابا[4]

(١) سنى : يسّر
(٢) العراب : الكريمة الأصيلة .
(٣) انتجابا : نجابة واصطفاء .
(٤) يريد ألفونس العاشر وابنه شانتو .

فحزبُ مرينَ حزبُ الله يحمى حمى الإسلام لا يخشى عقابا
إذا سَلّوا السيوف ترى الأعادى وقد حَلّوا الرُبَى مَـدَّتْ رقابـــا

وهو يهنىء مرين بهذا المجد الحربى الذى سمت به على الأملاك شجاعة وانتجابا ، وقد فاخرتموهم بسلطانكم يعقوب فاستسلموا لكم مغلوبين على أمرهم ، وهذا ألفونس العاشر وابنه يمدان يديهما للصلح . وإن حزبكم لحزب الله الذى يحمى ديار الإسلام ، وبمجرد أن ينازل أعداء الدين يلتمسون الربى هلعا ، ويستسلمون بين قتيل وأسير . وفى شعر الملزوزى — كما رأينا — غير قليل من النصاعة والسلاسة ، وقد لبىَّ نداء ربه سنة ٦٩٧ للهجرة .

ابن[1] الونان

هو أبو العباس أحمد بن محمد الونان الحميرى الفاسى من نابهى شعراء العصر العلوى ، تألق اسمه فى عصر السلطان محمد بن عبد الله (١١٧١ — ١٢٠٤ هـ) وهو من صفوة السلاطين العلويين نهض بالمغرب الأقصى وطرد البرتغاليين من الجديدة سنة ١١٨٢ هـ/١٧٦٩ م وعنى بالحياة الثقافية والأدبية . ولابن الونان فيه مدائح متعددة ، وكان أبوه مقربا إلى السلطان ، وكان ظريفا فسماه أبا الشمقمق . وأول منظومات ابن الونان فيه أرجوزة سماها الشمقمقية ، ويقال إنه حاول أن يصل إلى السلطان لينشدها ، ولم يتح له ذلك ، فترصد موكبه يوما وصعد على ربوة ، ونادى بأعلى صوته عليه :

يا سيِّدى سِبْطَ النبى أبـو الشمقمق أبى

فطلبه السلطان ، وصحبه معه إلى القصر وأصبح من حاشيته . والشمقمقية أرجوزة فى ٢٧٥ بيتا ، للسلطان محمد منها ٢٧ بيتا ، وبقيتها موسوعة أدبية ، استهلها بالرحلة فى مجاهل الصحراء واصفا رَكْبَ النوق الذى كان فيه ، وظل فى أكثر من أربعين بيتا يحاور حاديها طالبا إليه أن لا يكلفها فى السير بما لا تطيق جامعا لها فى وصفها كثيرا من أوابد اللغة . ويصف صاحبة له فى ٢٥ بيتا ويورد فى وصفها المادى طائفة من الألفاظ الغريبة ويقول إن لم يظفر بها فسيشنّ على قومها غارة بفرسان من خير يعرب . ويسترسل فى فخره بآبائه وقبيلته اليمنية فى نحو خمسة وثلاثين بيتا ، ويفضى إلى طائفة كبيرة من الأمثال والحكم فى نحو تسعين بيتا ، وهى لب الأرجوزة ، ولذلك جعلناها من الشعر التعليمى ، ويمدح الشعر وشاعرية أبى الشمقمق ، وكأنما الأرجوزة كانت منتهية فى هذا الجزء منها ، ورأى أن يضيف إليها مديحا للسلطان محمد بن عبد الله .

ولا تلاحظ كثرة الألفاظ الغريبة فى الأرجوزة فحسب ، فإنها تحمل كثيرا من أمثال العرب

(١) انظر فى ترجمة ابن الونان وشعره الوافى ٨٦٢/٣ وما ذكره من مراجع ، مع شرح الشمقمقية لكنون ، والحياة الأدبية فى المغرب عند الدكتور الأخضر ص٢٩٨ وانظرها فى النبوغ المغربى ١٧٨/٣ .

القدماء ومن شخصياتهم وشعرائهم وأدبائهم منذ الجاهلية حتى العصر العباسى يكمل بهم المعانى فى أبياته . وهو ما جعل أدباء المغرب يهتمون بكتابة شروح لها متعددة ومن أهمها شرح السلاوى وشرح عبد الله كنون ، ونقتبس منها أبياتا سهلة لندل بها على خصب شاعريته فمن ذلك قوله فيمن سماها لُبنى :

تَسْبى بثغرٍ أشنبٍ ومَرْشِفٍ ... قد ارتوى مِن قَرْقَفٍ معتَّقِ[1]
وزاد مسكُ الخال وردَ خدِّها ... حُسْنا وقد عمَّ بطيبٍ عَبِقَ
وقبَّلتْ أقدامَها ذوائبٌ ... سودٌ كقلب العاشقِ المحترقِ
كم أودعتْ فى مقلتى من سَهَرٍ ... وأضرمتْ فى مهجتى من حُرَق
ولا يزال فى رياض حُسْنها ... يَسْرح فكرى ويجولُ رمقى

فهى تخلب من يراها بفمها الجميل وريقها الذى كأنه من خمر معتقة ، وقد زاد مسك الخال ورد خدورها حسنا بشذاه العبق ، وقبَّلت ضفائرها أقدامها وهى شديدة السواد كقلب عاشقها المحترق ، وقد أودعت مقلته سهرا متصلا ، وأضرمت فى مهجته حرقا متقدة ، وإن فكره ليسرح دائما فى رياض حسنها ويجول معه ما بقى من شعوره بالحياة . والقطعة تموج بالصور والأخيلة . ومن قوله فى الأرجوزة مفاخرا :

سَلِ ابنَ خلدونٍ علينا فلنا ... بِيَمنٍ مآثرٌ لم تُمْحَقِ
بهم فخرتُ ثم زدتُ مَفْخَرا ... بأدَبى الغَضِّ وحُسْن منطقى .
وزانَ علمى أدبى فلن ترى ... مَنْ شِعْرُه كشعرىَ المنمَّقِ
فإن مدحتُ فمديحى يُشْتَفَى ... بهِ كمثل العَسَل المروَّقِ
وإن هجوتُ فهجائى كالشَّجَا ... يقفُ فى الحلق ومثل الشَّرَقِ[2]

وهو يقول سل ابن خلدون عنا ويريد سل تاريخه وما اشتمل عليه من أسماء آبائه ومآثرهم وأمجادهم ، ويذكر أنه يفخر بهم ويزداد فخرا بأدبه وحسن بيانه ومنطقه ، وقد زان علمه أدبه ، ولن ترى لأحد شعرا كشعرى المنمق ، فإن مدحت فمد يحى مثل العسل المصفى ، وإن هجوت فهجائى غصص تعترض فى الحلق ويشرق أو يغص بها المهجوُّون . وتوفى ابن الونان سنة ١١٨٧ هـ/١٧٧٣ م . وحسبنا من الشمقمقية هذه الأشعار الواضحة البينة ، أما ما وراءها من أشعار أخرى فيكتظ بالألفاظ الحوشية ، وبالأسماء والأمثال من جاهلية وإسلامية مما يكدُّ القارىء ويحوجه فيها إلى كثير من الشرح والبيان .

(١) ثغر : فم . أشنب : رقيق . مرشف : الفم وما به من ريق . قرقف : خمر .
(٢) الشجا : ما يعترض فى الحلق . الشرق : الغُصَّة .

الفصل الخامس
طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

الغزل من أهم موضوعات الشعر العربى ، وقد نظمه شعراؤهم فى جميع عصورهم وأقاليمهم مصوِّرين فيه عاطفة الحب الإنسانى وما تثير فيهم من المشاعر والخواطر . والشاعر تارة سعيد بحبه فى وصاله ووداعه ، وتارة شقى محروم يتضرع ويستعطف ويتمنى ولو نظرة من بعيد . وقلما لا يتغنى شاعر عربى بالحب ، فالشعراء جميعا يتغنون به حتى الفقهاء ومثلهم العلماء من كل صنف . ولكل وطن عربى مجلداته فى هذه العاطفة الخالدة وللمغرب الأقصى بدوره مجلداته ، إذ نجده على ألسنة كثيرين من الشعراء والأدباء والعلماء معبرين فيه عن لحظاته الحنيئة من لقاءات صواحبهم ولحظاته المرة من هجرهن وانصرافهن عنهم دون وداع أو ما يشبه الوداع . وأول ما نلتقى به منهم فى عصر المرابطين بالمائة الخامسة للهجرة ابن القابلة السبتى إذ يقول[1] :

ووجه غزالٍ راق حُسْنًا أديمهُ ... يَرَى الصبُّ فيه وجهه حين يُبْصِرُ
تعرَّض لى عند اللقاء به رشًا ... تكاد الحميَّا من محيَّاه تَقْطر
ولـم يتعـرَّض كى أراه وإنمـا ... أراد يُرينـى أن وجهىَ أصفـر

وهو يقول : بلغ وجه صاحبته من الجمال وشفافيته أن يظن مبصره أنه يرى فيه وجهه ، وهى غزال أو رشا يكاد محياها يقطر خمرا ينتشى به مبصر وجهها كما ينتشى بشرب الخمر . ويتلطف فيقول إنها لم تتعرض له ليرى ما فى وجهها من بدائع الحسن ، وإنما ليشعر بما حدث له فى قلبه من شدة الخفقان وفى وجهه من شدة الاصفرار حياء منها وانبهارا . ويقول ابن زنباع شاعر هذا العصر[2] :

لهَوَاكِ فى قلبى كريقكِ فى فمى ... غَيْرى يقـول الحبُّ مرُّ المَطْعَمِ
فـأدِرْ علىَّ بمُقْلَتَيْك كئوسَـه ... حتى يدبَّ خُمارُه فى أعظمى[3]

(١) الذخيرة لابن بسام ٣٨١/١/٤ .
(٢) قلائد العقيان ص ٢٦٤ .
(٣) الخمار : الانتشاء بالخمر .

إن التلدُّد فى هـواكِ تلذُّذ ... لو كان أقتلَ من زُعاف الأرقم[1]
يا أيهـــا القمـــر الذى إنسانُه ... يَرْمى أناسًا للعيـــون بأسهم
لم أُبدِ حُبَّك غير أن جَوانحى ... فاضَتْ به فيضَ الإناء المفعمِ
لا ذنبَ لى عَلِمَ الذى أسررتُه ... نظرا ولم أرمُزْ ولم أتكلم
فتلافَنى قبـــل التَّـلافِ فـإننى ... من حِمْيَرٍ وسيأخذونك فى دمى

وهو يخاطب صاحبته فيقول لها : غيرى يقول الحب مر ، أما أنا فأقول حبك فى قلبى حلو كريقك فى فمى ، ويتمنى عليها أن تدير كئوسه بعينيها الفاتنتين ، حتى ينتشى بخماره الممتع . ويقول لها إن التلدد أو العذاب فى حبها له فى نفسه لذة لا تماثلها لذة ، حتى لو كان قاتلا مثل سم الأفعوان . وإنها لقمر يرمى إنسان عينها بأسهم تصيب أفئدة الرجال ، ويقول لها إننى لم أُفْش حبك غير أن جوانحى اكتظت به حتى فاضت به فَيْضَ الإناء المملوء إلى حوافيه ، ولا ذنب لى كما تعلمين فإننى أسررت إليك نظرا لم يره أحد ، ولم أُنبِئْ به أحدا . ويتوسل إليها أن تتلافاه فتصله وتلقاه قبل هلاكه . ويقول إنه من حمير ، وإن لم تستجب له وتركته يهلك فسيدركون فيها ثأر الأسد الضرغام . ويقول القاضى عياض[2] :

يا راحلين وبالفـؤاد تحمَّلوا ... أيُرَى لكم قبـــل الممات قفولُ
أما الفؤادُ فعندكم أنباؤُهُ ... ولـواعجٌ تنتابـــه وغليـــلُ[3]
أترى لكم علمٌ بمنتزح الكَرَى ... عن جفن صَبٍّ ليلُـه موصولُ
أودى بعزمـــةِ صبره وإبائه ... طَرْفٌ أحمُّ ومبسمٌ مصقولُ[4]
ما ضرَّكم ، وأضَنَّكم بتحيَّةٍ ... يحيى بها عند الـوداع قتيلُ
إن البخيـــلَ بلحظةٍ أو لفظـة ... أو عطفـــةٍ أو وقفـــةٍ لبخيل

والقاضى عياض يقول إنهم رحلوا بصاحبته ورحل فؤاده معها ، ويتمنى لو عادوا به مماته ويقول إن عندهم أنباء فؤاده وما يضطرب فيه من آلام الحب وحرقه ، ويسألهم ألهم علم بالنوم الذى نزح عن جفون محب ، ليله موصول بالسهر والسهاد ، ولقد ذهب بصيره وإبائه عين ذات سواد جميل وفم يَرْتسم عليه ابتسام لطيف ، ويقول : ما ضرَّهم لو نوَّلوه ما طلب وما أبخلهم بتحية ترد الحياة إلى قتيل ، ويقول إن من لا تنيل صاحبها لحظة لقاء أو لفظة وداع أو عطفة أو وقفة لشديدة البخل على من يكنون لها حبا يستأثر بأفئدتهم وقلوبهم . ويتكاثر الغزل فى عصر الموحدين ويبرز فيه أو يشتهر شاعران هما أبو الربيع سليمان الموحدى وأبو حفص

(١) التلدد هنا : العناء . زعاف الأرقم : سم الثعبان .
(٢) انظر التعريف بالقاضى عياض لابنه محمد ، تحقيق د . بنشريفة .
(٣) لواعج : آلام .
(٤) أحم : أسود .

عمر بن عمر السلمى ، وسنخص كلا منهما بترجمة . ومن شعراء العصر ابن عبدون المكناسى المتوفى سنة ٦٥٨ للهجرة ، ومن غزلياته قوله[١] :

يا جيرتى ومَن استجرتُ بهم ... مِن جَـوْر عزّهمُ عـلى ذُلّى
عوّضْتمـونى بالـوِداد قِلًى ... وأبْدلتمُ الإنصـافَ بالمَطْل[٢]
ما هكذا فعلُ الكرام بمن ... منهم تعوَّد أجمل الفِعْل
علّقت حبـلَ محبّتى بكـمُ ... بَحياتِكـم لا تقطعـوا حَبْلى
ما كان أنْدَى ظلَّ عيشتنا ... إذ كان منتظما بكم شَمْلى
عودوا إلى عادات وَصْلكمُ ... لا تحْرمونى لذّة الوصل
وإذا أبيتم غير جَـوْركمُ ... فالجَـوْرُ منكم غايـةُ العَدْلِ
إن شئتمُ قتلى فهـا أنـا ذا ... لا تحذروا من طالبٍ ذَحْلى[٣]

وهو يقول إنه يستجير من جور صاحبته وشعورها بالعزة على ذلّه وهوانه فقد أبدلته بالمودة بغضا وبإنصاف اللقاء ونعيمه مطلا ، وليس ذلك بفعل الكرام ومن عوّدته أجمل الفعل ويذكر أنه علّق محبته بها أو بهم – كما يقول – فلا تقطعوا حبلى ، وما كان أجمل عيشتنا حين كنا ننتظم معكم فى جماعة واحدة . ويضرع إليها – أو إليهم – أن لا يحرموه لذة الوصل ، وحاشاكم أن تعقبوا الإخصاب والود بالجدب والبغض . وحتى إذا أبوا غير ظلمه فإنه يعده غاية العدل ، وإن أرادوا قتله فليقتلوه غير حذرين فليس وراءه من يطلب ثأره . ونلتقى فى أوائل العصر المرينى بالشاعر الفذ مالك بن المرحل المتوفى سنة ٦٩٩ للهجرة ، ومرّ بنا أن الأستاذ هلال ناجى نشر له فى المجلد الثالث من مجلة المورد ببغداد رسالتين فى عروض الدوبيت أو الرباعيات ، عُنى فى أولاهما بوزنه على فَعْلن متفاعلن فعولن فعلن ، وفى ثانيتهما بوزنه الثانى فعلن فعلن مستفعلن مستفعلن ، وأنشد له الأستاذ عبد الله كنون فى عروض الوزن الأول للدوبيت مجزوءًا غزلية يقول فيها[٤] :

يـا عاذلتـى إليك عنى ... لا تقربُ ساحتى العواذلْ
مهلا فدمى لـه حلالٌ ... مـا أقبلُ فيـه قـولَ قائلْ
قد نمَّ به شَذَا الغَـوالى ... إذ هبَّ ونمَّت الغلائل[٥]
والسِّحْرُ رسول مُقْلَتَيْهِ ... ما أقرب عهدَه ببابل
والـروضُ يُعير وَجْنَتيه ... وَرْدًا كهواى غيرَ حائل
يَسْبيك برقّـة الحـواشى ... عشقـا ولطافـةِ الشمائل

(١) الوافى ٣٣٢/١ والنبوغ المغربى ٦٨/٣ .
(٢) قلى : بغضا .
(٣) ذحل : ثأر .
(٤) النبوغ المغربى ٦٩/٣
(٥) الغوالى جمع غالية : الطيب . الغلائل : الثياب .

وهو يقول لعاذلته ابتعدى عنى، فساحتى لاتقربها العواذل، وإن دمى لصاحبتى حلال ولا أقبل فيه قول قائل. وإن روائح الغوالى أو الطيب لترافقها وتنم عنها ثيابها ، وإن عينيها لترسلان سحرا كأنه مجلوب توا من بابل بلدة الساحرين هاروت وماروت ، وكأنى بالروض يعير وجنتيها وردا بديعا لا يذبل أبدا كحبها ، وإنها لتسبيك بلطفها ورقتها ولطف شمائلها ، مما يجعلك تعشقها عشقا متصلا . ويقول عبد المهيمن الحضرمى الوزير المرينى المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة[1] :

كانوا نعيمَ فؤادى والحيـــاةَ له ... فالآن كلُّ وجـــودٍ بعدهم عَدَمُ
بانوا فعـــاد نهـــارى كلُّه ظُلَمًا ... وكان قُرْبُهـــمُ تُمْحَى بـــه الظُّلَمُ
والعـــينُ منِّىَ لا تَرْقـا مدامعُهـا ... كأنهـــا سحبٌ تَهْمى وتنسجـــمُ
تبكى عهـــودَ وصالٍ منهمُ سلفتْ ... كأنمـــا هـــنَّ فى إنسانهـا حُلُمُ
لئن ضحكتُ سرورًا بالوصال لقد ... بكيت حزنا عليهم والدمـــوعُ دَمُ
هم علَّمونى البُكا ما كنت أعرفـه ... يا ليتهـــم علَّمـــونى كيف أبتسمُ

وهو يفدى بنفسه عهدا جميلا استطاب له العيش فيه وجيرةً كان يأنس بوصلهم ، وكانوا نعيم فؤاده وحياته ، ورحلوا فأصبح كل وجود بعدهم كأنه عدم ، وأصبح النهار كله ظلمات بعضها فوق بعض وكان يمحى بقربهم كل ظلمة وكل ظلام ، وإنه ليبكيهم ولا تجف دموعه كأنها سحب تهمى مدرارا ، وعينه تبكى عهدا يبدو فى إنسانها وكأنما كان حلما ، ولئن ضحك سرورا بهم قديما لقد أصبح يبكيهم بدموع قانية كأنها دماء مسفوحة ، ويقول إنهم علموه البكا ولم يكن يعرفه ، ويتمنى لو كانوا علموه كيف يبتسم إذا نزلت به المحن والخطوب . ونمضى إلى العصر السعدى ونلتقى فى كتاب روضة الآس للمقرى بمحمد الوجدى العماد المتوفى سنة ١٠٢٢ للهجرة ، وله من قصيدة غزلية[2] :

إن الرشـاقة واللطـافة والصَّبـــا ... حةَ والحلاوة والمـــلاحةَ والحـوَرْ
صيغتْ لمن أهـوى وأُلبس سُندسًا ... منها وديباجـًا عليـــهِ قد ظهـــر
وإذا نظـــرتَ لوجهه ولعينـــه ... قلت الجمال من الخدود قد انفجر
عينى وأُذنـــى فى النعيـــم بنظرةٍ ... وبلفظـــةٍ منـــه وقلبـــى فى سَقَرْ
هـــل عطفـــةٌ أو زورة أو وقفـــةٌ ... أو لفظـــة تقضى بإدراك الوطـــر

وهو يجمع لصاحبته فنون الحسن من الرشاقة واللطافة والصباحة والحلاوة والملاحة وحور العين الفاتنة ، وكأنما صيغ لها من كل ذلك سندسا وديباجا لبسته ، وإنك لتخال كأنما الجمال اجتمع بكل فِتنَه فى وجهها ، وإنه ليخال كأنما عينه حين تنظر إليها وأذنه حين تصغى لها ، كأنما هما فى نعيم الفردوس ، بينما قلبه فى جحيم من الحب ولوعاته ، ويتمنى عطفة منها إليه

(١) النبوغ ٧٢/٣ والوافى ٣٣٢/١ .
(٢) روضة الآس ص ٧٤ .

أوزورة أو وقفة ، أو حتى لفظة يدرك بها مناه . ويقول أبو سالم العياشى المتوفى سنة ١٠٥١ للهجرة فى وداعه الرائع[١] لزوجته :

ولم أنْسَها يقظانةَ الهمِّ فى الحَشا ... مبلبلةَ الأشْجـــان وَسْنانةَ الطَّـرْفِ
تقول وقد حَلَّ الرحيـــلُ أهكذا ... تحمِّلنى ثِقْـــل الفـــراق على ضعفى
أتترك أفراخـــًا كزُغْب القَطَـا ومـــا ... رحمتَ بنيـــك إذ سلوتَ عن الإلْف[٢]
فقلتُ لها كُفِّى الملامَ فأعرضتْ ... كخِشْفِ النَّقَا تَسْتَعْرِضُ الدمعَ بالكفِّ[٣]
فودَّعتُهـــا والقلبُ منطبـــقٌ على ... أســـاه ودمعى لا يمـــلّ من الوَكْفِ[٤]
عليكِ ســـلامٌ لا زيـــــارةَ بيننـــــا ... مـع البعـــد إلا أن أزور مـع الطَّـيْف

وهو يقول إنه ودعها صباحا وأشجانها تملأ صدرها ، ولا تزال سنة من النوم عالقة بطرفها ، وتقول له وقد أزف الرحيل : أتتركنى أتحمَّل أثقال الفراق على ضعفى . أتترك أبناء صغارا كأولاد القطا لم يطل ريشهم ، فهلا رحمتهم حين سلوتنى ولم ترحل ؟ فقلت لها كفى عن الملام ، وظلتْ تذرف الدمع . وودعها وقلبه يكتظ بالأسى والحزن ، ودمعه يتقاطر ولا يكف ، وسلَّم عليها ، وهو يقول فى نفسه لن أزورك مع البعد إلا أن أزورك فى الحلم مع الطيف . ويتكاثر الغزل فى العصر العلوى ، ومن مختاره قول أبى عبد الله الشرقى المتوفى سنة ١١٧٠ للهجرة[٥] :

مَنْ لى بها تَخْتال فى حَلْيها ... كروضةٍ تختـــالُ فى زَهْرهـــا
فبِشْرُها أرحبُ من بِشْرها ... ونَشْرُهـا أطيب من نشْرهـا[٦]
وخدُّهـــا أبهجُ من وَرْدهـــا ... ونُورُها ألطف من نَـــوْرها[٧]
وَقدُّهـــا أرْفَـــعُ من غُصْنها ... ووجهها أبيضُ من فَجْرها
العيش والجنَّـــة فى وَصْلها ... والمـــوت والنيران فى هجرهـا

وهو محب لصاحبته أشد الحب ، ونتراءى له فى حليها تختال كروضة فى زهرها ، ويستمر فى المقارنة ، فبِشرها وتهلل وجهها أرحب من بشر الروضة وتهللها ، وعطرها أطيب من عطرها وخدها يفوق وردها فيما يبعث فى نفس الناظر إليها من البهجة والسرور . ونورها يفوق زهر الروض لطفا وحسنا ، وقدها نخيل ممشوق أرفع من غصن الروضة ، ووجهها يفوق فى بياضه بياض فجرها ، وما وصلها إلا الحياة والفردوس وما هجرها إلا الموت والجحيم .

---

(١) النبوغ المغربى ٨٧/٣ .
(٢) زغب القطا : أولاده الصغار قبل أن يطول ريشهم .
(٣) خشف النقا : ظبية الرمل .
(٤) الوكف : تقاطر الدمع .
(٥) النبوغ المغربى ٩٢/٣ .
(٦) نشرها : شذاها وعطرها .
(٧) النور بفتح النون : الزهر .

وحرى بنا أن نتوقف قليلا بإزاء شاعرين غزلين كبيرين من شعراء عصر الموحدين ، هما أبو الربيع الموحدى وعمر السلمى .

أبو الربيع[1] الموحدى

هو أبو الربيع سليمان بن عبدالله بن عبدالمؤمن، فهو من أسرة الموحدين الحاكمة، وقد عنى أبوه بتربيته، فنشأ أديبا شاعرا ، ولا يُعْرَفُ تاريخ ميلاده ، والمظنون أنه ولد حوالى منتصف القرن السادس ، وعاش حتى أوائل القرن السابع إذ توفى سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٨م ونرى العلاقة سيئة بينه وبين ابن عمه الخليفة يعقوب فى أوائل توليه الحكم (٥٨١ – ٥٩٥ هـ) ومازال يستعطفه حتى عفا عنه وأصبح من كبار رجال دولته ، وأخذ يعقوب يكلفه بكثير من الأعمال المدنية والحربية فأدَّاها على خير وجه ، وجعلته هذه الصلة بابن عمه والدولة يعيش فى رفاهية من العيش ، مما جعله يكثر من الخَمريات كما جعله يعيش لعواطفه الشخصية وخاصة فى الحب والغزل ، وهما يستغرقان الشطر الأكبر من ديوانه من مثل قوله :

حَسْبُ الهوى من قتيل الحب مَصْرَعهُ ... وحَسْبه منه ما تحويه أضلعهُ
قالوا تعزَّ وقد بانوا فقلت لهم ... كيف العزاءُ وأدنى البينِ أوجعه
لا عذَّب الله قلبا بالفراق ولا ... سقاه من صابهِ ما بِتُّ أجْرَعُه
لا تعذلونى فما أُصغى لعذلكمُ ... صمَّتْ عن العذل أذْنى ليس تسمعه

وهو يقول يكفى المحب مصرعه وماتحويه منه أضلعه، وهو يحاول كتمان أساه وضناه، وعبثا يستطيع ذلك ويقول الناس له تعزَّ عن صاحبتك حين رحلتْ ، ويجيبهم كيف أتعزى ومواجع البين آخذة بتلابيبى، ويدعو الله أن لايعذب بالبين والفراق قلبا ولا يسقيه ما يتجرعه من المرِّ والعذاب، ويقول لعذاله لاتعذلونى فلست أصغى إلى عذلكم إذ أصاب أذنى صمم فلاتسمعه. ويقول:

كيف التصبُّرُ والأشواقُ تزدادُ ... والدارُ تَنأى وما للوصل ميعادُ
وكلما قربتْ منى ديارُكمُ ... ينأى المزار كأنَّ القرب إبعاد
والقلب فى حُرَقٍ والجفنُ فى أرقٍ ... وللبلابل إصدارٌ وإيراد[2]
إنى وإن فاتنى عيدٌ بربْعكمُ ... حسبى بلقياكمُ أعراسٌ وأعياد

إنه لا يستطيع صبرا عن رؤية صاحبته ، فالأشواق تزداد ، ودارهم تبتعد ، وليس للوصل ميعاد . ويقول إن ديارهم كلما قربت منه نأت الزيارة ، وكأن القرب تحول نوعا من الإبعاد ، وقلبه فى حرق من الحب ، وجفنه فى أرق والبلابل أو الشجون تقلقه ، ويقول إنه إن فاته العيد فى ديارهم ، فلقاؤها أعراس وأعياد تنتظره . ويقول :

---

(١) انظر فى ترجمة أبى الربيع الموحدى وأشعاره الوافى ص ١٨٤ – ٢٢٧ ودراسة للدكتور عباس الجرارى ، وديوانه منشور .

(٢) البلابل: الشجون. إصدار وإيراد : رواح ورجوع .

الشوقُ يزداد إذ تدنو يك الدارُ فهل على الشوق أعوانٌ وأنصارُ
ما باختيارى نأتْ بى الدارُ يا أملى وليس غير دُنُوّى منك أختار
ما سرتُ ميلا ولا جاوزتُ مرحلةً إلا وفى النفس من تذكاركم نارُ
ولا نظرتُ إلى شىءٍ فأعجبنى مذ فارقتْ وجهكِ المحبوبَ أبصارُ
الله يعلم أن القلب عندكمُ وإن تناءتْ به عن إلفه الدارُ
ما ضر طَيْفُكمُ لو زارنى بدلا منكم وطيف حبيب النفس زوَّارُ
الذنبُ للنـوم لا للطَّيْف يا سَكنى وكيف يطرقنى والنـــوم فـرَّارُ

وشوقه يزداد كلما دنت منه دارها وكأنما له أنصار وأعوان يساعدونه ، ويقول إنه ليس باختياره بعد دارها عنه، إذ يختار دائما دنوها وقربها، ويقول إنه لم يسر ميلا ولامرحلة إلاوتشتعل ذكراها فى نفسه ، ولم يشغل نظره بشىء بعد رؤية وجهها المحبوب ، ولكأنما رحل عنه قلبه معها ، ويعجب أن طيفها لايزوره بينما طيف الأحبة دائما زوار للمحبين، ويعتذر عنه، فالذنب للنوم لاللطيف، لأنه لاينام إذ يبيت دائمًا مسهَّدا لايفكر فى شىء سواها . ويقول:

يا مزمع البَيْن فى تَرْحالك الأجَلُ وأنت لاهٍ بحبِّ البَيْن مُشْتغلُ
إنى لأعْظم أن تمضى وتتركنى والدمع يَهْمِى ونـارُ الوجد تشتعل
فلا تروعُ فـؤادا أنت ساكنه بالبين منك فإنى والـهٌ خَبِلُ
لم يدر قومكِ ما ذا فى ترحُّلهم من الذنوب ولو يدرون ما رحلوا
سَرَوْا – بزعمهمُ – ليلا وما علموا بأنهم فى فـؤادى حيثمـا نزلـوا

وهو يخاطب صاحبته المصممة على الرحيل ، ففى رحيلها موته إذ سترحل بحبيبة قلبه ، وهو يعظم أن ترحل وتتركه لعذابه ، والدمع يهطل ونار الحب والوجد تشتعل ، ويقول لها لا تروّعى فؤادى بالبين فإننى فى غاية الحزن وأكاد أجن ، ولم يدر قومك ما فى ترحلهم من الذنوب والآثام بسببى ولو عرفوا ذلك ما رحلوا ، وقد ساروا ليلا وما علموا أنهم دائما فى فؤادى أذكرهم وأذكرك ذكرى متصلة . ويقول :

أقول لركبٍ أدْلجوا بِسُحَيْرةٍ قفوا ساعةً حتى أزورَ رِكابَها
وأملأ عينى من محاسنِ وجهها وأشكو إليها أن أطالتْ عِتابها
فإنْ هى جادتْ بالوصال وأنعمتْ وإلا فحسبى أن رأيتُ قِبابها
وقفتُ بها أشكو وأسكبُ عَبْرَةً على غير بَيْنٍ ما عرفتُ انسكابها
فأومتْ برَخْصٍ من بنانٍ مخضَّبٍ وحطّت على البدر المنير نِقابها
وقالـتْ أيبكى البينَ من قـد أراده ويشكو النَّوَى من قد أثـار غُرابها

وهو يضرع إلى ركب صاحبته الذى سار بها سحرا أن يتوقف ساعة ليزور ركابها ويملأ عينه من محاسن وجهها ، ويشكو إليها طول عتابها ، فإن هى نعمت بالوصال فبها وإلا فحسبه أن رأى قبابها وخيامها ، ويقول إنه وقف بها يشكو ويسكب عبراته التى لا يسكبها فى غير بين ، وكأنما عطفت عليه فأومت ببنان غضٍّ مخضب وقد وضعت نقابها على وجهها المنير كالبدر فى اكتماله ، وعاتبته قائلة أتبكى من البين وأنت الذى أردته وتشكو النوى والفراق وأنت الذى أثرت غرابه . وواضح أنه يتميز بموسيقى عذبة وقلما يَضْنَى فى شعره أو فى حبه ، لأنه أمير مترف ، وشعره لذلك ليس فيه تعمق فى وصف دقائق الحب ومعانيه .

عمر[1] السلمى

هو أبو حفص عمر بن عمر السلمى ، ولد بأغمات سنة ٥٣٠ هـ/١١٣٦ م ، وعنى به أبوه ، وصَحِبه معه وهو قاض بفاس فأكبَّ بها على حلقات الفقهاء والأدباء ، وأعدَّه إكبابه على الفقه والحديث النبوى ليتولى منصب القضاء فى تلمسان وفاس وإشبيلية . وكان مع إحسانه للفقه والفتاوى الدينية شاعرا مجيدا ، وله مدائح فى يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب ، واشتهر فى البيئتين : المغربية والأندلسية بشعره فى الغزل ، وأخذه عليه بعض المتزمتين ولم يُصْغِ لهم ، ويقول مترجموه إنه كان يعنى بمسكنه وملبسه وزينته عناية الشعراء الفنانين من أمثاله ، ومن غزلياته قوله :

أعيذُك يا سُلَيْمى من سُلَيْمٍ ... قتلتِ فتاهمُ وهْـو الزعيـمُ
قتيلُ الحبِّ لا يُودَى وعانيـ ... ـه لا يُفْدَى ولا فيه الخصومُ[2]
ومالى طالبٌ بِترات قتلى ... إذا قَتَـلَ الغـرامُ فلا غريمُ
فؤادى سار نحوكِ عن ضلوعٍ ... بهـا يا ريـمُ حبُّك لا يَريم[3]
ووِدادُك صحَّ فى قلبٍ سقيمٍ ... كطَرْفك صحَّ ناظرُه السقيمُ
إذَا أعرضْتِ تسودُّ الأمانى ... وإن أقبلتِ تبيضُّ الهمـوم
ومـا حُبِّى لهـا إلا عذابٌ ... عليـهِ من نضارتهـا نعيـم

وقد اختار لصاحبته اسم سليمى ليجانس بينها وبين اسم قبيلته سليم وفى ذلك تكلف واضح ، ويلقب نفسه بالزعيم فخرا لا يستحب فى الغزل ، ويقول لها إن قتيل الحب لا يؤخذ بثأره ولا يفدَّى ، وإنه ليس له طالب بثأره إذا قتله الغرام ، وحبها مستقر بين ضلوعه لا يبرحها .

---

(١) نظر فى ترجمة السلمى وأشعاره أزهار الرياض ٣٦١/٢ وما بعدها والذيل والتكملة لابن عبد الملك فى ٢٢٢/١/٨ والغصون اليانعة لابن سعيد والوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى ١٦٨/١ وما بعدها والنبوغ المغربى ٦٢/٣ وما بعدها .

(٢) لا يودى : لا يؤخذ بثأره .

(٣) لا يريم : لا يبرح .

وإنما سماها فى البيت الرابع ريمًا ليجانس بين اسمها والفعل فى آخر البيت ، ويقول إن قلبه سقيم مثل طرفها ، ويعنى فى البيت السادس بالطباق بين اسوداد الأمانى وابيضاض الهموم ، ويقول إن عذابه فى حبها عليه أثارة من نضارتها . وفى رأيى أن السلمى لم يكن على طبيعته حين نظم هذه المقطوعة ، ولذلك تكلف فيها ألوانا من التكلف . ويقول :

أغارَ على الصبِّ مَنْ أنَّبَهْ ... هو الحبُّ مَنْ يُطْفِهِ ألهَبَهْ
نأى القلبُ عنى وشوقى معى ... فللّه أمـرىَ مـا أعجبَه
يحـنُّ فـؤادى إلى قـاتلى ... كذاك الهـوى عند من جَرَّبَه
يجـود لمُسْخطه بالرضا ... ويطلبُ راحـةَ مـن أتعبَـهْ
إذا شفَّ قلبى غـرامُ الهـوى ... دعـا بالنعيـم لمـن عذَّبَـهْ

وهو يقول إن شخصا نزل بالمحب أنَّبه ، وكأنه لا يعرف أن من يريد أن يطفىء الحب بالتأنيب أو باللوم يُشْعله ، ويعجب أن قلبه رحل مع صاحبته ولا يزال ما كان يختلج فيه من أشواقه معه ، وإن فؤاده يحنُّ دائما إلى رؤية صاحبته قاتلته شأن المحبِّين جميعا . ويجود المحبوب بالرضا لمن أسخطه ، ويطلب الراحة لمن أتعبه ، ويقول إن الغرام كلما أضْنَى قلبه وشفَّه دعا بالنعيم لمن عذبه . وهى رقة واضحة فى الغزل . ومن قوله فى جمال الأعرابيات بالقياس إلى الحضريات مستلهما المتنبى وإعجابه المعروف بالبدويات :

مَها القَفْرِ لا دُمْيةُ المرمـرِ ... وفى العُرْب لا فى بنى الأصْفَرِ[1]
بنفسى يَعافيرُ تلك الخيـامِ ... ومَسْرَحُها فى النَّقـا الأعْفَـرِ[2]
ملاعبُ يَصْبُو إليها الحكيـم ... ويُسْلَب فيهـا فـؤادُ الجَـرِى
وفيها الظبـاء بنـاتُ الأسـودِ ... غَيـارَى متى بَغَمَتْ تَـزأرُ[3]
فخِيسُ الخِزَبْرِ كِنـاسُ الغـزال ... بـهِ الشِّبْلُ نـاشٍ مـع الجُؤْذَرِ[4]
يُخالِسُهـا نظـرا تحتَـهُ ... غـرامٌ بـه الحىُّ لـم يشْعُرِ
وباللحظ يُقْدَحُ زَنْـدُ الهـوى ... فطَـرْفٌ غَـرٍ وفـؤادٌ بَـرِى

وهو يفضل جميلة القفر البدوية على دمية المرمر الحضرية ، ويكفى أن يسميها دمية فليس فيها حيوية البدوية ولا نضرتها ، ويقول إنه يفدى بنفسه وروحه ظباء تلك الخيام وملاعبها فى الرمل المغبر . ويقول إنها ملاعب تجذب الرجل الحكيم وتسلب فؤاد الجرىء الشجاع ، فيها الظباء كريمات الرجال الأسود اللائى إذا صحن ظننت أنهن يزأرن ، وكأنما بيت هذا

(١) بنو الأصفر : الروم وأمثالهم من الإسبان .
(٢) اليعافير جمع يعفور : الظبى وولد البقرة الوحشية . النقا : الرمل . الأعفر : المشوب بالعفر والتراب .
(٣) بغمت : صاحت .
(٤) خيس الخزبر : أجمة الأسد . الكناس : بيت الغزال . الجؤذر : ولد البقرة الوحشية .

الغزال أجمة أسود ، به الشبل ناشيء مع بنت عمه التى تشبه ابنة البقرة الوحشية ، وكل منهما يختلس النظر إلى الآخر تعبيرا عن غرام مكتنٌ لايشعر به الحى ، وباللحظ وحده يضطرم الهوى ، وطرف يغرى به وفؤاد لايزال طاهرا بريئا . وهى لوحة بديعة لفتيات البادية . ومن قوله متغزلا :

هذا فـؤادى أَقْصَدَتْـه الأسهمُ ... من ذا يرى تلك الجفـونَ ويَسْلَمُ[1]
يا غُرَّةً حكمَ الجمالُ لها على ... شمس الضحى وأصابَ فيما يحكم
يُضْحى الخلىُّ إذا رآها عاشقا ... والعقـل توقظـه اللحـاظُ النُّـوَّمُ
وكأن قامتهـا ونَغْمـةَ لفظِهـا ... غصنٌ عليـه بُلْبُـلٌ يَتَرَنَّـمُ

فقد أصابت فؤاده الأسهم المصوبة من عينى صاحبته ، ويقول إن أحدا لا يسلم من تلك السهام إذا نظر إلى جفونها الجميلة ، ويقول إنها غرة شديدة البياض حتى ليحكم الجمال لها على شمس الضحى ، وهو مصيب فى حكمه ، وإن الخلىّ الذى لم يتعود الحب حين يراها يصبح عاشقا للحاظها الفاترة الجميلة ، ويشطح به الخيال ، فيقول إنه يخيل إليك وقد رأيت قامتها الممشوقة تصدح بالغناء أنك ترى غصنا يتغنى فوقه بلبل جميل – ويقول :

همُ نظروا لواحظَها فهاموا ... وتشربُ عَقْلَ شاربها المُدامُ
يخاف الناسُ مُقْلَتها سواها ... أيَذْعَرُ قلبَ حاملـهِ الحُسام
سما طَرْفى إليها وهْو بـاكٍ ... وتحت الشمسِ ينسكبُ الغمام
وأذكر قَدَّها فأنوحُ وَجْدا ... على الأغصان تَنْتدبُ الحمام
وأعقب بَيْنُها فى الصَّدْر غمًّا ... إذا غَربتْ ذُكـاءُ أتى الظـلام

وهى قطعة بديعة بتصاويرها الرائعة ، فحين نظروا إلى لواحظها سكروا وهاموا كشارب للخمر لم تُبْق له من عقله شيئا ، والناس لفتنة عينيها يخافون من النظر إليها وطبيعى أن لا تخاف لأن الحسام لا يخيف حامله . وقد نظر إليها طرفه باكيا ، وكأنها الشمس ينسكب تحتها الغمام ، ويقول إنه يذكر قدها الممشوق فينوح كما ينوح الحمام على الأغصان ، وإن بينها وبعدها أنشأ فى صدره غما كما ينشأ الظلام حين تغرب الشمس . وهى مقابلات فى غاية الطرافة وتدل على شاعرية خصبة . وقبيل وفاته سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٨م نظم أشعارا زاهدة كثيرة .

٢

شعراء الوصف

الوصف قديم فى الشعر العربى يصف فيه الشعراء الطبيعة برياضها وأزهارها وحيوانها وصحرائها وزروعها حتى إذا تحضروا وصفوا القصور وأدوات الحضارة وملاهيهم المختلفة ،

(١) أقصدته : أصابته .

ولم تقع أعينهم على شيء من أرض أو سماء إلا سجلوه ووصفوه ، يصفون الأنهار والبحار والسفن كما يصفون النجوم والشمس والقمر والسحب والأمطار والطير . وكما وصفوا السهول والوديان وصفوا الجبال والكثبان والأشجار والغابات . ونجد الوصف على كل لسان منذ عصر المرابطين ، من مثل قول القاضي ابن زنباع في وصف الربيع[1] :

أبدتْ لنا الأيامُ زهرةَ طِيبها ... وتَسَرْبلتْ بنضيرِهـا وقَشيبِها
واهتزَّ عِطْفُ الأرض بعد خُشوعها ... وبدتْ بها النعماءُ بعد شُحوبها
وتطلَّعت في عنفوان شبابها ... من بعد ما بلغتْ عِتِيَّ مَشيبِها
وقنتْ عليها السُّحْبُ وقفة راحمٍ ... فبكتْ لها بعيونها وقلوبها
فعجبتُ للأزهار كيف تضاحكتْ ... ببكائها وتباشرتْ بقُطوبها
وتسربلتْ حُللا تجرُّ ذُيولها ... من لَدْمها فيها وشقّ جيوبها[2]

وهو يقول إن الأيام أبدت لنا أروع طيب لديها : طيب الربيع ، ولبست أروع حللها وأجدَّها ، واهتزت جوانب الأرض خصبا بعد جَدْبها ، وتراءت النعماء فتية بعد شحوبها ، وتطلعت لمفاتنها في عنفوان شبابها بعد أن كانت شابت وبلغت من شيخوخة الجدب عِتِيًّا ، فقد وقنت عليها السحب راحمة لها عاطفة وبكت لها بكاء حارًّا ، ويقول إنه عجب للأزهار تضحك وتبتهج لبكائها وعبوسها ، وسرعان ما لبست حللا سابغة بما حدث لها من ضرب الأمطار لها وشق مداخلها . ولما جاء الموحدون بالقاضي عياض مغلولا من سبتة إلى مراكش ومر بواد يقال له « داى » سمع قمرية تسجع ، فقال[3] :

أقُمْرِيَّة الأدْواح بالله طرِّبي ... أخـا شجنٍ بالنَّوْحِ أو بغناءِ[4]
فقد أرَّقتْني من هَديلكِ رَنَّةٌ ... تهيِّج من بَرْحى ومن بُرَحائي[5]
لعلك مثلي يـا حمـامُ فإنني ... غريبٌ بداي قد بُليتُ بـداءِ
فكم من فلاةٍ بين داي وسَبْتةٍ ... وخَرْقٍ بعيد الخـافقين قَوَاءِ[6]
يذكرني سَحُّ المياه بأرضها ... دموعاً أريقَتْ يـوم بنتُ ورائي
ويعجبني في سهلها وحُزونها ... خمائلُ أشجـارٍ ترفُّ رُوَاءِ[7]
لعل الذي كان التفرُّقُ حكمه ... سيجمع منا الشملَ بعد تَنـاءِ

وهو يقول لقمرية الأشجار طَرِّبي أخاهمٌ وشجن بالنوح أو بالغناء فقد أسهرني من غنائك رنَّةٌ هيجت من شدائدي ، لعلك مثلي غريبة تنوحين على قرينك وأولادك ، وكم من فلاة بين

(١) قلائد العقيان ص ٢٥٩ .
(٢) لدم : ضرب .
(٣) المنتقى لأحمد بن القاضي ٥٤٧/١ .
(٤) الأدواح جمع دوحة : الشجرة العظيمة .
(٥) برحى وبرحائي : شدائدي .
(٦) خرق : مفازة . قواء : مقفر .
(٧) ترف : ناضرة . رواء : منظرها جميل .

داى وسبتة وكم من مغازة متباعدة الجانبين متفرة ، وإن سحَّ المياه بأرضها ليذكرنى دموع زوجتى وأولادى ورائى يوم رحلت ، وإنى لتعجبنى خمائل داى الناضرة ذات المنظر الجميل ، ولعل الله الذى حكم بالتفرق بينى وبين أهلى يجمع الشمل بعد فراق وبُعدٍ بعيد . ويقول أبو الربيع الموحدى فى وصف الربيع[1] :

حَيِّ الربيعَ بمـا وشَّتْ أزاهرُهُ ... ونظَّمتْ من أكاليلٍ على الشَّجَرِ
ودبَّجتْ فوق مَتْن الروض من حُلَلٍ ... ونمَّقته بألـوانٍ من الزَّهَـرِ
من نرجسٍ ساحر الألحاظ ذى غُنجٍ ... ومن أقـاحٍ نقيِّ الثَّغْرِ ذى أشَرِ[2]
بما تضوَّع روضُ الزهر غِبَّ حَيًا ... تأكَّد الشكرُ للنُّعْمَى على البشرِ
لا يحسب الناسُ أن الروضَ فاح لهم ... طوعا ولكنَّـه يُثنى على المطـر

وهو يطلب من كل قارىء له أن يحيى الربيع بما وشت ونقشت أزاهره وبما نسقت من تيجان الزهر على الشجر وبما زينت الروض من حلل نمَّقتها بألوان من الزهر : من نرجس مدلٌ ساحر الألحاظ ومن أقاحٍ ذى حزوز نقى الثغر ، وقد وجب الشكر على الناس لهذه النعمة العظيمه مما ينشر روض الزهر عقب الحيا أو المطر من عطر زكى ، ولا يظن الناس أن الروض فاح به لهم ، وإنما فاح به ثناء وشكرًا للمطر . ويقول أبو القاسم الشريف السبتى المشهور بالغرناطى المتوفى سنة ٧٦٠ فى ناعورة[3] (ساقية) :

وذاتِ سيرٍ إذا حُثَّتْ ركائبُها ... حنَّت فراقتْك فى مَرْأًى ومُستَمعِ
كأنهـا فلكٌ دارتْ كواكبُـه ... على الريـاض بنَـوْءٍ غير منقشعِ
تماثل السُّحْبَ صَوْبًا بل تخالفها ... إذا استهـلَّ حَيًا المتَّـانة الهَمِعِ[4]
هذى من المـاء تعلو كلَّ منخفضٍ ... وتلك تنـزل منـه كلَّ مرتفـع

يقول إنها إذا أسرعت دواليبها سمعتَ صوتا فيه حنان فراقتك فى منظرها وصوتها ، وكأنها فلك دارت كواكبه أو دواليبه على الرياض بمطر مستمر لا ينقشع . ويقول إنها تماثل السحب فيما تستقط من مطرها ، ويعود ، فيقول بل تخالفها إذا انهمرت أمطارها ، فالناعورة تسقى كل منخفض بينما السحب تسقى المرتفعات من الجبال والتلال . ويقول فى وصف سفينة تمخر به البحر :

وغريبةِ الإنشـاء سيرْنا فوقهـا ... والبحرُ يسكنُ تـارة ويموجُ
عُجْنا نؤمُّ بهـا معاهـدَ طالما ... كرمتْ فعاجَ الأنسُ حيث تعوج
وامتدَّ من شمس الأصيل أمامنا ... نـورٌ لـه مَرْأًى هنـاك بهيج

(١) الوافى ٢٠٥/١ .
(٢) أشر : حزوز . والشعراء يشبهون الثغور بالأقاح .
(٣) انظر فى هذه الأبيات وتاليتها الوافى ٤٣٥/٢ .
(٤) المتانة الهمع : السحابة الهاطلة .

فكأن مـاء البحـــر ذائبُ فضَّةٍ قد سال فيه من النُّضـــار خليجُ

وهو يقول إنها سفينة بديعة الصنع سرنا عليها والبحر تارة يسكن وتارة يموج ، وعرجنا نؤمُّ أماكن طيبة وعرَّج معها الأنس ، وامتد أمامنا من شمس الأصيل نور بهيج ، وكأن ماء البحر فضة ذائبة امتدت فوقه شمس الأصيل فاستحال خليجا من النضار أوالذهب . ويقول عبدالمهيمن الحضرمى المتوفى سنة ٧٤٩ للهجرة فى وصف السَّحَر وانبثاق أضواء الفجر[١] :

تراءى سُحَيْرٌ والنسيمُ عليلُ وللنَّجْم طَرْفٌ بالصبـــاح كليلُ
وللفجر نهرٌ خاضَـه الليلُ فاعتلتْ شَوَى أدهمِ الظلماء منه حُجولُ[٢]
فمزَّق ساجى الليل منه شرارةٌ وخرَّق سِتْرَ الغيـم منـه نُصـول
تبسَّم ثغرُ الروض عنه ابتسامةً وفاضتْ عيونٌ للغمـام هَمول[٣]
ومالتْ غصونُ البان نَشْوىَ كأنها يُدار عليهـا من صَبَـاه شَمولُ[٤]
وغنَّت على تلك الغصون حمائمٌ لهـن حفيفٌ دونهـا وهَديـل[٥]
إذا سجعتْ فى لحنهـا ثم قَرْقَرتْ يَطيح خفيفٌ دونهـا وثقيـل[٦]

وهو يقول إن السحر تراءى ومعه نسيمٌ رقيق وأصاب طرف النجم ببعض الكلال ، وكأنما الفجر نهر خاضه الليل فاعتلى أطراف حصان الظلماء بياض فى قوائمه ، ومزقت منه شرارة سكون الليل وخرَّق ستار الغيم منه ما يشبه نصول الرماح ، وتبسم ثغر الروض ، وفاض الغمام بسيول من المطر ، وانتشت غصون البان وكأنما يدار عليها كئوس من ريح الصبا الجميلة ، وأخذ الحمام يغنى على الغصون ، ويُسْمَعُ حفيفه وهو يسقط على الأغصان وترانيمه ، ويقول إن الحمائم إذا ترنمت وردَّدت صوتها فاق لجماله الخفيف والثقيل مما يلحِّنه المغنون . وينشد أحمد بن يحيى الشَّفْشَاوْى المتوفى أيام المنصور السعدى سنة ١٠٠١ للهجرة فى روض[٧] :

أما ترى الطيرَ بالأدْواح ساجعةً أدْمَتْ أناملَهـا أوتـــارُ عِيـدانِ
تحكى مزاميرَ مَنْ لانَ الحديدُ له تشدو بالاجْـزال فى رَصْدٍ وزيدان[٨]
تنفى عن الصبِّ ما بالقلب من كُرَبٍ بل تترك الصبَّ فى تِيهِ الهوى عانى
والبـانُ يَرْقُص من تَرْجيعها طربا والزهـــر يفترّ عن أثغـار مَرْجان
والمـــاء مُنْسكبٌ والظـلُّ منسحبٌ وللنسيم هبـــوبٌ يُنْعش الفـــانى

وهو يقول إن الطير يترنم فى الأشجار وقد أدمت أناملَها الحمراء ما تقف عليه متغنية من

(١) الوافى ٤٤٦/٢ .
(٢) شوى : أطراف ويريد القوائم . حجول : بياض .
(٣) همول : دافقة .
(٤) شمول : خمر .
(٥) هديل : صوت الحمام .
(٦) قرقرت : رددت . يطيح : يسقط .
(٧) النبوغ المغربى ١٣٧/٣ .
(٨) الرصد والزيدان : من ألحان الغناء .

أوتار العيدان تحكى بغنائها مزامير داود الذى ألان له الله الحديد ، وتشدو بأنغام الرصد والزيدان ، وتنحّى عن المحب ما بقلبه من كُرب الحب بل تجعله كأنه أسير لحبه يردد صبابته فيه ، والبان يرقص من ترديد صوتها وترنمها طربا ، والزهر يضحك عن ثغور لؤلؤية ، والأمطار تنسكب والظل ينسحب ، ويهب نسيم منعش . ونمضى إلى بواكير العصر العلوى ، ويقول أبو على اليوسى المتوفى سنة ١١٠٢ للهجرة فيما بين الزهر والمطر من علاقة قديمة[1] :

إن بين الغمام والزَّهَرِ الغَـ ـضِّ لَرِحْما قديمةً وإخاءَ
بان إلفٌ عن ألفه فتوارى في الثَّرى ذا وذاك حلَّ السماءَ
فإذا ما الغمامُ زارتْ جَنابًا آذنتْ فيه بالحبيب اللقـاءَ
ذكرتْ عهده القديمَ فحنَّتْ عند لقياه فاستهلَّتْ بُكاءَ
فترى الزَّهْرَ بارزا من خبايا هُ يحيِّى الوفـودَ والأصدقاءَ
راقصًـا والصَّبا تهنيِّه والوُرْ قُ غوانى القيـان تشدو غناء

وهو يقول إن بين الغمام والزهر مودة قديمة وإخاء ، وقد بان كل عن صاحبه فالزهر توارى فى الثرى والغيم تعالى فى السماء ، فإذا ما الغمام زار ناحية آذنت حبيبها فيه باللقاء ويذكر الغمام عهده القديم فيبكى بمطر منهمر ، وترى الزهر بارزا من كل مكان يحيى وفود أصدقائه من الأمطار ، وكأنه يرقص وريح الصبا تهنيه ، والحمام قيان الرياض يشدو غناء .
ويقول ابن زاكور المتوفى سنة ١١٢٠ للهجرة يصف روضا[2] :

مُـدَّ للسُّلْوان أشْراكَ النَّظَرْ فى ابتهاج الروض من وَجْد المطرْ
وتلقَّ الأنسَ عن آس الرُّبـى وارْوِ طىَّ النَّوْر عن نَشْر السَّحَر
وارْتَشِفْ ثَغْـرَ أقـاحٍ باسمـا واصْطبح بالطلِّ من كأس الزَّهَرْ
والتَثِمْ وجـهَ المنـى مستبشـرا حيث رامَ الغصنُ تقبيلَ النَّهَرْ
وجلا الـورد خدودًا أشْرِبتْ خمرةَ العِقْيانِ من فرْط الخَفَر
وحَبا الخِيرىُّ أنفـاسَ الصَّبا نفحاتٍ أنشرتْ مَيْتَ الفِكَرْ
وانبرى النِّسرينُ يُهْـدى ذهبـا فى صحاف مُتْرَعَاتٍ من درر
نظَّمتْ فى جِيـده أنـداؤهُ عقـدَ دُرٍّ كلمـا مـاسَ انْتَثَرْ

وهو معجب بروض بديع ، ويقول : مُدَّ فيه حِبالات النظر لعلك تجلب لنفسك شيئا من ابتهاج الروض بما سقط عليه من المطر ، وتلقَّ الأنس فيه عن آس الربى البديع ، وتمتع بروائح النور أو الزهر التى نشرها فى السحر ، وارتشف السرور من ثغر الأقاح الباسم .

(١) النبوغ المغربى ١٤١/٣ .
(٢) النبوغ المغربى ١٣٩/٣ .

وليكن صبوحك بالطل تنعم برؤيته فى كئوس الزهر ، ولتلثم وتقبّلْ وجه الأمانى مستبشرا ، حيث كل شىء من حولك ينعم بالتُبَل كما تقبّل الأغصان النهر ، وأبدى الورد خدودا مشربة بحمرة الذهب من فرط الحياء والخفر ، وآثر زهر الخيرىّ أنفاس الصبا بنفحات تُحيى ميت الفِكَرْ ، وأخذ زهر النسرين يهدى ذهبا فى صحاف مليئة بالدرر ، ونظمت الأنداء فى جيد الروض عقد لآلىء كلما تحرك انتثر . وحرىٌ بنا أن نتحدث عن وصاف كبير فى العهد السعدى .

عبد[1] العزيز الفشتالى

هو أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالى ، آباؤه من قبيلة فشتالة فى الشمال الغربى لفاس ، ولذلك نسب إليها ، وقد ولد سنة ٩٥٦ هـ/١٥٤٩ م وتوفى سنة ١٠٣١ هـ/١٦٢٢ م ، وتتلمذ لأئمة عصره من الفقهاء والنحاة واللغويين ، وأقبل على حفظ الشعر والنثر حتى نضجت ملكته الأدبية ، مما جعله يلتحق بدواوين الدولة السعدية ، وأعجب به المنصور الذهبى ، فجعله على رأس دواوينه ، وأخلص له أشد الإخلاص ، فعاش يقدِّم له مدائحه ، ويؤرخ لدولته المنصورية السعدية ، ووصفه المقرى فى كتابه : روضة الآس بقوله : « وزير القلم الأعلى ، الوارد من البلاغة والبراعة المنهل الأحلى ، نشأة الدولة المنصورية (دولة المنصور الذهبى) وكاتم أسرارها ، ومنزل القوافى من قُنَنِها ومستعبد أحرارها ، المقدم فى الفضائل والمحاسن » . ويقول أحمد بن القاضى عنه فى كتابه درّة الحجال : « فقيه أديب ، ناثر ناظم ، علىّ الهمة ، متين الحرمة ، فصيح القلم ، زكى الشّيَم ، ركن البلاغة والبراعة ، وفارس الدواوين واليراعة » . وكما كان رئيسا لدواوين المنصور كان شاعره الرسمى ، وكما كان شاعرا كاتبا أو أديبا كان عالما مؤرخا لدولة المنصور وترجم لمعاصريه فى كتابه « مناهل الصفا » وهو أحد المصادر التى نرجع إليها فى العصر . وله ميلاديات نبوية كثيرة سوى الغزليات والمراثى ، وله أمداح سياسية كثيرة للمنصور ، وبجانب ذلك له أشعار فى وصف قصر المنصور المسمى بالبديع ومبانيه وقببه وما ازدان به من التماثيل والنقوش ، مما يدلّ – بوضوح – على مدى الحضارة المترفة التى اتصف بها عصر المنصور الذهبى . وفى الإشادة بقصر البديع يقول عنه فى كتابه : « المناهل » : إنه من الآثار التى لم يخلق مثلها فى البلاد .. وإنه المثل المضروب فى الأرض عظمة وضخامة ، وجلالة وفخامة ، وتفننا وتأنقا ، وفى وصف مبانيه يقول :

---

(١) انظر فى ترجمة الفشتالى وأشعاره روضة الآس ص ١١٢ ودرة الحجال ١٣٠/٢ والمنتقى (انظر الفهرس) ونشر المثانى ٢٤١/١ وخلاصة الأثر للمحبى ٤٢٥/٢ والنبوغ المغربى ٤١٢/١ ، ١٢٨/٣ وما بعدها والوافى ٦٨١/٣ وما بعدها . وراجع ديوانه مع دراسة له بتحقيق السيدة نجاة المريني .

سَلبتْ تَماثُلُها الحِجا لما اغتدتْ تزهـــو بحسن طرازهـــا تذهيبا[1]
ولقد تشامخَ فى العلوِّ سِماكُها فجرى على الفَلَك المنـــير جَنيبا[2]
وسَما إلى الشُّهُب الزواهرِ فاغتدى الـ إكليلُ منهـــا تاجَها المَعْصُـــوبا[3]
أَضْنَى الغزالةَ حُسْنُه حسدًا لـذا أَبْدَى عليها للأصيـــل شحـــوبا[4]
وانقضَّت الزُّهْـــرُ المنـــيرةُ إذ رأتْ زَهْرَ الريـــاض بـــه ينـــورُ عجيبا[5]

وهو يقول إن تماثلها (تماثيلها والصور المنقوشة فى القصر) سلبت العقول بما تزهو به من طرُزها المذهبة ، وقد تمادى فى الارتفاع سماكها حتى غدا القصر كأنه مجنوب تابع للفلك العلوى ، وظل فى ارتفاعه حتى استقر بين النجوم ، وأصبح كأنه المجموعة النجمية المسماة بالإكليل ، بل غدا كأنه تاجها المعصوب . وناهيك بحسنه ، فقد أضنى الشمس وبدا شحوبها واضحا فى وقت الأصيل ، أما النجوم المنيرة فانقضَّت إذ شاهدت أنوار زهر رياضه تضيىء ضياء عجيبا . وله مما كُتب على بَهْو فى القصر بمرمر أسود فى مرمر أبيض :

لِلَّهِ بَهْوٌ عزَّ منـــه نظيرُ لمـــا زَها كالـــروض وهْو نضيرُ
رُصِفَتْ نقوشُ بِناه رَصْفَ قلائدٍ قد نضَّدتها فى النُّحور الحورُ[6]
فكأنهـــا والتِّبْرُ ســـال خِلالهـــا وَشْىٌ وفضَّةُ تُرْبهـــا كافـــور[7]
شَأْوُ القصـــور قصـــورُها عن وصفِه سيَّـــان فيـــه خَوَرْنَقٌ وسَدِيرُ
فإذا أجلْتَ اللحظ فى جَنَباته يرتدُّ وهْـــو بحسنه محســـورُ[8]
صُفَّتْ بضِفَّتها تمـــاثِلُ فضَّةٍ ملكَ النفوسَ بحسنها تصويرُ[9]
مـــا بين آســـادٍ يَهيجُ زئيرُهـــــا وأســـاودٍ تُسْلِى لهـــنَّ صَفيرُ

وهو يقول ما أروعه بهوا يعز نظيره لما يجرى فيه من نضرة وجمال ، وقد صُفِّفت نقوش بنائه تصفيف قلائد سوَّتها على النحور فاتنة أو فاتنات ، وكأن هذه النقوش والتبر يسيل خلالها وشى بديع ونقوش على فضة شديدة البياض كزهر الكافور . إن البديع ليسمو على كل القصور حتى على قصرى الخورنق والسدير اللذين كانا بقرب الحيرة فى الجاهلية ، وحين تجيل البصر فى جوانبه يرتد حسيرا كليلا لروعة ما تشاهد ، وقد صفت بضفة هذه النقوش صور فضية تخلب الألباب بجمال تصويرها سوى ما تراه هناك من آساد يخيل إليك أنها حية تزأر وجماعات

(١) تماثلها : تماثيلها المنقوشة فى القصر . الحجا : العقل .
(٢) جنيبا : محاذيا له .
(٣) الشهب : النجوم . المعصوب : المعقود .
(٤) الغزالة : الشمس .
(٥) ينور : يضيىء .
(٦) نضدتها : نسقتها .
(٧) التبر : الذهب .
(٨) محسور : كليل ضعيف .
(٩) تماثل : تماثيل ونقوش .

من الطير كأنها تصفر صفيرا متصلا . ويتسع فى وصف قبة القصر ، وما تشرف عليه من النهر والأزهار ، ويستهل وصفه بقوله على لسانها :

سموتُ فخرَّ البدرُ دونىَ وانحطَّا ... وأصبح قُرْص الشمس فى أُذنى قُرْطا
وصُغْتُ من الإكليل تاجـًا لمَفْرقى ... ونِيطت بىَ الجوزاء فى عنقى سِمْطا[1]
ولاحت بأطـواقى الثريَّا كأنها ... نِثيرُ جُمـانٍ قد تتبَّعتـه لَقْطـا
وعدَّيتُ عن زُهْر النجـوم لأننى ... جعلتُ على كيـوانَ رَحْلىَ منحطًّا[2]
وأجريتُ من فيض السماحـة والنَّدَى ... خَليجا على نهـر المجـرَّة قد غطَّى

والقبة تقول إننى سموت وتعاليت فى السماء ، فسقط البدر دونى وأصبح قرص الشمس فى أذنى قرطا ، وجعلتُ من نجوم الإكليل تاجا لمفرق رأسى ، وتعلقت نجوم الجوزاء فى جيدى عقدا ثمينا ، ولاحت فى الأعالى الثريا ونجومها وكأنها فتات فضة تعقَّبتُه لقطا ، وتجاوزتُ النجوم إلى كيوان (زحل) ووضعت عليه رَحْلى ، وأجريت من السماحة والندى خليجا غطى على نهر المجرة فى السماء وفاقه . ويستمر فى وصف النهر الذى تشرف عليه القبة :

تَنضْنَضَ مـا بـين الغُـروسِ كأنـه ... وقد رقرقـتْ حصبـاؤه حيَّـةٌ رَقْطا[3]
حواليـه من دَوْحِ الريـاض خَرائدٌ ... وغِيدٌ تجـرُّ من خمائلهـا مِرْطـا[4]
إذا أرسلتْ لُدْنَ الفروع وفتَّحت ... جَنَى الزهـر لاح فـي ذَوائبها وَخْطا[5]
يرنِّحهـا مـرُّ النسيـم إذا سَرَى ... كمـا مـال نشـوانٌ تشـرَّب إسْفَنْطا[6]
يشقُّ رياضًا جادَها الجـودُ والنَّدَى ... سـواءٌ لديهـا الغيثُ أسكبَ أم أبطا
وسـالتْ بِسَلْسال اللُّجَيْن حِياضُـه ... بحـارا غـدا عـرضُ البسيط لهـا شَطَّا[7]
تطلَّعُ منهـا وَسْط وُسْطـاه دميـةٌ ... هى الشمس لا تخشى كسوفا ولا غَمْطا[8]
حكتْ وحبـابُ المـاء فى جَنباتهـا ... سَنا البدر حلَّ من نجـوم السما وَسْطا

وهو يقول إن النهر تجرى مياهه بين الغروس كأنه وقد تبدت حصباؤه حَيَّة رقطاء ، وحواليه شجر بض ناعم كالخرائد والغيد الحسناوات اللائى يتأنقن فى ثيابهن ، ويخيل إليك إذا تفتح الزهر فى أعالى فروعها اللدنة كأنه وخط شيب يجتمع فيه السواد والبياض ، ويميلها النسيم مترنحة إذا مر بها كما مال مخمور شرب خمرة الإسفنط المعتَّقه ، وإنه ليشق رياضا يهطل

(١) نيطت : علقت . سمطا : عقدا .
(٢) كيوان : كوكب زحل .
(٣) تنضنض: سال. رقرقت: لمعت. رقطاء: بلونها نقط.
(٤) خمائلها : حللها . مرط : ذيل طويل للثوب .
(٥) ذوائبها : نواصيها . وخطا : شيبا .
(٦) الإسفنط : خمر معتقة .
(٧) اللجين : الفضة. البسيط: المتبسط من الأرض .
(٨) الغمط : الانتقاص .

عليها جود المنصور الذهبى وعطاياه . ولذلك سواء لديها أسرع الغيث الحقيقى فى انسكابه أو أبطأ ، وتلك حياضه تسيل بأسراب الفضة بحارا تسقى الزروع ، وتزين تلك الحياض دمية جميلة كأنها الشمس لا تخشى كسوفا ولا غمطا (انتقاصًا) ، ويقول إن هذه الدمية وما يتناثر حولها من حباب الماء كالبدر ومن حوله النجوم وسط السماء . ويعود إلى وصف القبة منشدا :

إذا غازلتْها الشمسُ ألقى شعاعُها ... على جسمها الفضىُّ نهـرا بها لُطَّا[1]
توسَّمتُ فيها من صفـاء أديمها ... نقوشـا كـأن المسـك يَنْقُطها نَقْطا
إذا اتسقتْ بِيضُ القِباب قلادةً ... فإنى لهـا فى الحسن دُرَّتُها الوُسْطَى
تكنَّفنى بِيـض الـدُّمَى فكأنهـا ... عَذارَى نَضَتْ عنها القلائدَ والرَّيْطا[2]
قدودٌ ولكن زادهـا الحسنَ عُرْيُها ... وأجمـلَ فى تَنْعيمها النحتَ والخَرْطا
نَمَتْ صُعُدًا تيجانُهـا فتكسَّرتْ ... قواريـرُ أفـلاكِ السمـاء بهـا ضَغْطا
فيـالكِ شَـأْوًا بالسعـادة آهـلاً ... بأكنافه رَحْلُ العـلا والهـدى حُطَّا[3]

وهو يقول إذا انعكست على القبة أشعة الشمس خلتَ كأن نهرا من الضياء والنور التصق بها مقابلا للنهر الذى يجرى بجوارها ، وخُيِّل إلىَّ من صفاء بياضها وما عليه من النقوش كأنما نقطها المسك ، ويقول إذا تحولت القباب البيضاء فى أعالى القصور العظيمة قلادة كانت دُرَّتها الوسطى وقبتها الفريدة التى لا تماثلها قبة . ويقول على لسانها إن الدمى البيضاء أحاطت بى عارية ، وكأنها عذارى خلعت عنها القلائد والثياب وكل زينة ، قدود ممشوقة وقد زادها العرى حسنا ، والنحت والخرط نعومة ورشاقة ، وتعالت تيجانها صاعدة فى السماء حتى حطمت قوارير أفلاكها من النجوم والكواكب ، وما أعظمها قُبَّة شامخة آهلةً بالسعادة وقد هبط فى أكنافها وجوانبها رَحْل العلا والهدى ، ويمضى منشدا :

وكعبةَ مجدٍ شادها العزُّ فانبرتْ ... تطـوف بمغناها أمـانى الوَرى شَوْطا
ومسرحِ غزلان الصَّريم كِناسُها ... حنايا قبـاب لا الكثيبَ ولا السِّقْطا[4]
فَلُكْنَ به ما طـاب لا الأثلُ والخَمْطا ... ووُسِّدْن فيه الوَشْىَ لا السِّدْرَ والأَرْطى
ثَـراه من المسك الفتيت مدبَّرٌ ... إذا ما زجتْه السحبُ عاد بها خِلْطا
وإن باكرتْه نسمةٌ سحرًا سَرَى ... إلى كل أنفٍ عَرْفُ عَنْبره قِسْطا
أقـرَّتْ لـه الزهـراءُ والخُلْد واثنتْ ... أواوينُ كسرى الفـرسِ تغبطه غَبْطا

وهو يقول يالك قبة كأنها كعبة رفعها العز فى عنان السماء وإن أمانى الناس لتطوف بها

(١) لُطَّ بها : التصق .
(٢) الريط : ملاءة .
(٣) الشأو : الهمة العظيمة ويريد بناء القبة الشامخة .
(٤) الصريم : القطيع . كناسها : بيتها . السِّقط : منقطع الرمل .

شوطا وأشواطا رجاء أن تتحقق على يد المنصور ، ويقول يا لها مسرحا أو كناسا أو بيوتا للغزلان من الدمى والتماثيل القائمة فيها . وإنها لتلوك ما طاب لها لا ما تلوكه غزلان البوادى من شجر الأثل والخمط ، وإنها لتتوسَّد الوشى المنمق لا شجر البوادى من السدر والأرطى ، وأما الثرى فإنه من فتات المسك وإن المطر ليختلط به حين يسقط فيصبح خِلْطا أو أخلاطا من الطيب ، وحين تباكره نسمة سحرا تضوع رائحته ، ويأخذ كل أنف منها قسطا أو حظا ممتعا ، ويقول إن قصر الخلد ببغداد وقصور الزهراء بقرطبة لتعترف بعظمة هذا القصر وأن أواوين كسرى لتغبطه . ولعل فى كل ما قدمت ما يصور شاعرية الفشتالى وأنه كان يعنى بالجزالة والرصانة فى أسلوبه كما كان يعنى بالصور البيانية .

٣

شعراء الرثاء

الرثاء قديم فى الشعر العربى ، ونجده – منذ الجاهلية – يتخذ صورا ثلاثة هى الندب لبكاء ذوى القربى من الآباء والأبناء والإخوة ، والتأبين لذكر فضائل الميت تصويرا لخسارة المجتمع فيه ، والعزاء بذكر الموت وأنه سنة من سنن الحياة ، لا مفر لإنسان منه ، ونجد هذه الصور الثلاثة فى شعر المغرب الأقصى بمختلف عصوره . ومن أوائل ما يلقانا من صور الندب بكاء أبى الربيع الموحدى لأخيه ، وفى بعضه يقول[1] :

أتانى نعىٌ ضـــاقَ صدرى بحملـه ... وصدرى – كما قد تعلمان – رحيبُ
فمـــرَّ بقلبٍ لـــم تُدَمّل قُروحـــهُ ... كما مـــرَّ بالجمـــر الدَّفين هبوبُ
فحتى متى تَبْرِى الرزايا سهامَها ... وتقصـدنى عمدا بهـــا فتُصيبُ
وحتى متى ألقى رزايـا ممضَّةً ... يكـــاد لإحداهـــا الحديدُ يذوب
ولكنْ قضاءُ الله حَتْمٌ فليس لى ... ســواه على حمـل الخطوب حسيبُ
يقولـــون لى صَبْرًا ونـــــارُ تلهفى ... لهـــا بين أحنـــاء الضلوع وَجِيبُ

وهو يقول لصاحبيه إن نعىّ أخيه أتاه فضاق به صدره الرحيب ، وقد أثار الجمر الدفين من أحزانه وكأنه ريح عاصفة ، وأصاب قروحه التى لم تبرأ ، فعادت تألمه ، ويقول إلى متى تقصدنى الرزايا بسهامها فتصيبنى فى الصميم ، وحتى متى توجعنى ، ولو أن إحداها نزلت بحديد صلب لأذابته غير أنه قضاء الله المحتم وينبغى للإنسان أن يتقبله راضيا بما قضى به ربه حسيبه ، ويقولون لى صبرا ونار تلهفى على أخى تضطرم وتلذع فى أحناء ضلوعى . ويعزى ميمون الخطابى (ابن خبازة) المتوفى سنة ٦٣٧ للهجرة ابن الجَدّ عظيم إشبيلية فى ابنه ، ويستهل عزاءه بقوله[2] :

---

(١) الوافى ١٩١/١ .
(٢) النبوغ المغربى ٢٧٣/٣ .

أَرَجَّةُ الصَّعْقِ يوم النَّفْخ فى الصُّور ... أم دكَّةُ الطُّور يوم الصَّعْق فى الطورِ
أم هدَّةُ الأرض إظهارًا لما زجرتْ ... بـــه الخليقةَ من إيقـــاعِ محذورِ
أم الكواكبُ فى آفاقها انتثرتْ ... وباتت الشمسُ فى طىٍّ وتكْويرِ
ما للنهار تعرَّى من ثياب سَنًا ... وشابَهَ الليلَ فى أثواب دَيْجور
أَصِخْ لتسمـع مـن أنبائهـــا نَبَـأً ... يَطْـــوِى من الأُنسِ فيها كلَّ منشورِ
وافَى مع العيد لاعادتْ مَضاضتُه ... فشاب سَلْسالَه الأصفـى بتكديـر[1]
نـــوَّارةٌ عندما راقتْ بِدَوْحتها ... أهوتْ إلى التُّرْب من بين النواوير
جارَ الذبـــولُ عليهـا عند ما ملأتْ ... معاطسَ الدَّهْـــر من طِيبٍ وتَعْطير

وهو يتصور كأن موت هذا الشاب رجَّة الصعق يوم ينفخ فى الصور ، فيصعق من فى السموات والأرض ويهبّون من مراقدهم ليوم القيامة ، أو كأنه دكة الطور حين طلب موسى من ربه رؤيته ، أو كأنما الأرض هُدَّت وتناثرت الكواكب وكُوِّرت الشمس ، كما جاء فى الذكر الحكيم عن يوم القيامة . وهى مبالغات يتحملها الشعر وحتى النهار تعرَّى من ثياب ضيائه وغطاه الليل بظلامه . ويقول لمخاطبه : أرهف سمعك لنبأ طوى كل أنس وكل سرور ، نبأ وافى فى أواخر رمضان مع العيد ، فكدَّر كل صاف فيه ، وما النبأ ؟ زهرة حينما زهت وتفتحت على شجرتها وراقت الأعين والأنفس سقطت إلى الترب من بين أخواتها من الزهرات والنواوير ، وجارَ الذبول عليها فهوت عندما ملأت أنوف الدهر من أريج طيبها وعطره . ويفضى إلى عزاء ابن الجد بأن كل ما على وجه الأرض فانٍ ، فينبغى أن يسلم الأمر لربه ، إذ كل شىء يفنى بتدبير محكم ، وما الكون إلا صحيفة كبرى والناس فيها أحرفه بين ممحوٍّ ومبتور ، فلا تخدعك الليالى ، ويورد عليه أسماء بعض الملوك والأنبياء ، ممن طواهم الدهر وبادوا ، ويقول له فى خاتمة قصيدته : سلِّم للقضاء تسليم مأجور مثاب على تسليمه . ولابن رشيد المتوفى حول سنة ٧٢٠ للهجرة قصيدة بكى فيها ابنه محمدا بكاء موتِرا يقول فيه[2] :

شبابٌ تَوَى شابتْ عليه المفارقُ ... وغُصْنٌ ذَوَى تاقتْ إليه الحدائقُ[3]
على حين راق الناظرين بُسوقُه ... رمتْـــه سهامٌ للعيـــون رواشق[4]
محمدُ إنَّ الصبر فيـــك مُصـــارمٌ ... محمد إن الوجـــد فيك مصادق[5]

(١) مضاضته : ألمه .
(٢) الوافى ٣٩١/٢ .
(٣) توى : هلك .
(٤) بسوقه : ارتفاع شأنه .
(٥) مصارم : مقاطع .

وتالله مالى بعد عيشك لذةٌ ... ولا راقنى مَرْأَى لعينىَ رائقُ
فإن ألتفتْ فالشخص للعين ماثلٌ ... وإن أستمع فالصوتُ للأذْن طارق
وإن تَقْرع الأبوابَ راحةُ قارعٍ ... يَطِرْ عندها قلبٌ لذكرك خافقُ
فيا واحدا قد كان للعين نورَها ... وكلُّ ضياءٍ بَعْد بُعْدك غاسق[1]

وهو يبكى ابنه ، يقول شباب هلك شابت عليه الرءوس وغصن ذبل كانت الحدائق النضرة تتوق إليه ، وكان الناظرون قد راقهم شبابه وذكاؤه ، وكأنما رمته سهام للعيون سريعة النَّيل ممن ترميه ويقول له إننى لا أستطيع فيك صبرا ، وإن الحزن فيك لا يفارقنى ، ولم أعد أجد فى عيش بعدك لذة ولا عاد يروقنى شيء يعجب العين . وإنك لتملأ كل ما حولى ، فإن ألتفت أشعر كأن شخصك ماثل أمامى ، وإن أستمع أشعر كأننى أستمع صوتك ، وإن يقرع الأبواب أحد أشعر كأنك أنت الذى يقرعها فيخفق قلبى ويطير ، كأنه يريد أن يلقاك . ويقول إنه كان نور عينه ، فأصبح كل شيء بعده مظلما لا يراه . ويقول أبو بكر بن شبرين السبتى المتوفى سنة ٧٤٧ للهجرة يؤبن العالم الجليل مواطنه ابن هانيء وقد استشهد فى حصار جبل طارق سنة ٧٣٣ هـ/١٣٣٣ م[2] :

قد كان ما قال البريد ... فاصبرْ فحزنك لا يفيد
أوْدَى ابنُ هانيءٍ الرِّضا ... فاعتادنى للثُّكل عِيد
بَحْرُ العلوم وصدرُها ... وعميدُها إذ لا عميد
قد كان زَيْنًا للوجو ... دِ ففيه قد جُمِعَ الوجود
العلـــم والتحقيق والـ ... ـتوثيق والحسب التَّليد
أوْدَى شهيـــدا باذلاً ... مجهـودَه نعم الشهيد
فلِئن بَليتَ فإنَّ ذِكْـ ... ـرَك فى الدُّنا غَضٌّ جديد
وتعهَّـــدتْك مـــن المهيـ ... ـمن رحمـــةٌ أبدا وجود

وهو يخاطب نفسه قائلا : قد كان حقا ما قال البريد من استشهاد ابن هانيء ، فلتصبر ، فالحزن لا يفيد فقد استشهد ابن هانيء الذى كان تمثالا للرضا والقناعة ، فنزل بى من فقده ما يعتادنى من فقد الإخوان والأحباب من حزن ، ولقد كان للعلوم بحرا لا يُسْبَرُ غَوْره وإماما أو عميدا لا يماثله عميد ، بل لقد كان زينا للوجود جميعه ، وكأنما جمع فيه الوجود ما شئت من علم وتحقيق وكتابة للوثائق الشرعية مع الحسب القديم الأصيل ، وقد توفى شهيدا باذلا

(١) غاسق : مظلم .
(٢) النبوغ المغربى ٢٧٧/٣ والوافى ٤٥٨/٢ .

روحه فى جهاد أعداء الدين ، فنعمت الوفاة ونعمت الشهادة ، ولئن بلى جسده فإن ذكراه ستظل تتجدد خالدة . ويدعو له ربه أن يتعهده برحمته وكرمه ، إنه نعم الرحيم الكريم . وفى النبوغ المغربى للشيخ القصار فى رثاء أبويه مرثية ، يقول فيها[1] :

زُرْ والديك وقفْ على قبريهما ... فكأننى بك قد نُقلتَ إليهما
كانا إذا ما أبصرا بك علَّةً ... جَزِعا لما تشكو وشقَّ عليهما
كانا إذا سمعا أنينَك أسْبلا ... دَمْعيهما أسفًا على خدَّيْهما
وتمنَّيا لو صادفا لك راحةً ... بجميع ما يحويه مُلْكُ يديهما
بُشْراك إن قدَّمتَ فعلا صالحا ... وقضيتَ بعض الحق من حَقَّيهما
وقرأتَ من آى الكتاب بقدر ما ... تسْطيعُه وبعثتَ ذاك إليهما

وهى مرثية للأبوين فريدة فى العربية ووصية لكل ابن توفى أبواه أن يزور قبريهما فإنه موشك على اللحاق بهما ، ويقول لكل ابن إنهما كانا عطوفين عليك عطفا لا حدَّ له ، فكانا إذا رأوك مريضا تشكو جَزِعا لشكواك جزعا ما مثله جزع ، وإذا سمعا أنينك من علة ذرفا دموعهما على خدَّيهما مدرارا ، وتمنيا لو أتيحت لك راحتك بجميع ما يملكون فى دنياهم . وبُشْراك بما سينالك من جزاء ربك إن عملت فعلا صالحا وقضيت بعض ما لوالديك من حقوق ، وأول حق لهما أن تقرأ ما تستطيع من آيات القرآن الكريم وتهديه إلى روحهما ، ليتقبَّلهما الله قبولا حسنا . ويقول ابن زاكور المتوفى سنة ١١٢٠ هـ/١٧٠٩ م فى العصر العلوى يرثى سيدة فاضلة من أهله[2] :

سَقَى الرحمنُ قَبْرًا ضَمَّ شَخْصًا ... تَسَرْبل بالمكارم وارْتَداها
ونضَّر مَضْجَعًا لفتاةِ صِدْقٍ ... حَوَى غُرَر الفضائل إذ حواها
لقد كانتْ تحضُّ على المعالى ... وَتندب للمكارم مَنْ أباها
وألبسها المَنُونُ حُلَى كسوفٍ ... فهلاَّ فَضْلُها الوافى حَمَاها
فكم أحيتْ مواهبُها كثيبًا ... أحلَّتْه النوائبُ فى حِماها
وكم ربَّتْ بأنْعُمِها يتيمًا ... قَلَتْه أمُّه حتى سَلاها
لئن ماتت فما ماتتْ حُلاها ... وإن أوْدَتْ فما أودى عُلاها

وابن زاكور يدعو الرحمن لقبر هذه السيدة بل الفتاة الكريمة التى لبست حلل المكارم أن ينزل عليه غيث الرحمة ، وينضِّر مضجعها ويملأه رونقا ، إذ هى فتاة صدق وفضائل عظيمة ، ولقد كانت تحض كل من حولها على المعالى والأعمال السامية ، وقد طوى الموت شمسها

(١) النبوغ المغربى ٢٨٠/٣ .
(٢) النبوغ المغربى ٢٩٩/٣ .

الساطعة ، ولم يحمها فضلها ولا كرمها مما نزل بها من كسوف ، ولئن ماتت فكم أحيت مواهبها وعطاياها تَعِسًا وأنقذته مما يغمره من كآبة وهم ، وكم حَنَتْ على يتيم ورعته حين نبذته أمه ، وحقا إن ماتت فما مات ما كان يزينها من أفضال وسمو لا نظير له . وفى زيارة مقبرة يقول الطيب بن مسعود المرينى المتوفى سنة ١١٤٥ هـ/١٧٣٣ م[1] :

أتيتُ القبورَ أُداوِى بها ... قساوةَ قلبى التى أجِدُ
وقمتُ أسائلُ عن أهلها ... وهيهاتَ لا خَبَرٌ يوجد
رأيتُ مَصارعَهم عِبْرةً ... تُذيب حُشاشةَ مَنْ يَشْهَدُ
أقاموا قليلا وقد رحَلُوا ... وغابوا وبالعَوْدِ ما وَعَدُوا
دعاهم على الرَّغْم داعى الرَّدَى ... فلبَّوْه حين انقضى الأَمَدُ
وقد هدم الموتُ لذّاتهم ... وغيَّر عَيْشُهمُ الأَرْغَدُ
وحَلُّوا بُطونَ الثَّرى تحتهم ... ترابٌ وفوقهمُ جَلْمَدُ

وهو يقول إنه أتى القبور يداوى بها قساوة قلبه ، وأخذ يسائل عن أهلها ، ولا نبأ ولا خبر عنهم ، ويقول إن مصارعهم عبرة لمن يفكر فيهم حتى لتذوب روحه أسىً ، فقد أقاموا فى دنياهم ورحلوا عنها وغابوا دون وعد بالرجوع أو الإياب ، وقد دعاهم داعى الهلاك فلبَّوه حين انقضى الأجل ، وقد أتى الموت على لذاتهم ، وبُدِّل عيشهم الرغد الهنىء وحلوا بطون الثرى ، تحتهم تراب وفوقهم صخور ، فحرىٌّ بالإنسان أن يعتبر ويتعظ . ولعلى مصباح الزَّرْويلى المتوفى سنة ١١٥٠ للهجرة فى تأبين الفقيه جسُّوس الشهيد[2] .

حلَّ بالدين يا لقومى بلاءُ ... أحجمتْ دون وصفه الشعراءُ
قُتل اليوم أعلمُ الأرض ظلما ... فَبِه للإسلام حقَّ العزاءُ
قتلوه من أجل أنْ كان أستا ... ذًا أعزَّته السُّنَّة السَّمْحاء
قتلوه من أجل أن كان للشَّرْ ... ع حُسامًا تهابُه الأمراء
قتلوه أن كان للحق قَوَّا ... لاً وما إنْ تضلُّه الأهواء
يا لها من مصيبةٍ سار فى الأر ... ضِ وفوق السَّما بها الأنباء
عَمَّت المسلمين رُزْءًا فأضحتْ ... كلُّ عينٍ منهم عَراها البكاء

والزرويلى يجعل موت الفقيه جسوس بلاء حلَّ بالدين الحنيف ، فقد قتل ظلما أَفْقهُ الأرض وأعلمها ، وإن الإسلام ليعزَّى فيه . ويقول إنهم قتلوه ، إذ رأوه يحمى الشرع والسنة النبوية ، وكان يقول الحق ولا يخشى فيه أحدا . ويقول ما أعظمها مصيبة سارت بها الأنباء وطارت

(١) النبوغ المغربى ٢٩٨/٣ .
(٢) النبوغ المغربى ٢٨٤/٣ .

كل مطار فى الأرض وفى السماء ، ويقول إنها فاجعة عمت المسلمين وملأت عيونهم بالدموع مدرارا . ونتوقف قليلا لنتحدث عن شاعرى الرثاء : ابن شعيب الجزنائى وأبى على اليوسى .

ابن[1] شعيب الجزنّائى

هو أحمد بن محمد بن شعيب الجزنّائى ، منشؤه ومرباه فى مدينة تازا ، ووفد على مدينة فاس فعُرف فضله ، والتحق بدواوين أبى سعيد المرينى ثم ابنه أبى الحسن ، وكان بين العلماء الذين رافقوه فى فتحه لتونس ، وبها توفى سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٩ م ، وكان مثقفا ثقافة واسعة بعلوم الأوائل ، وحذق الطب والفلك والكيمياء والصيدلة ، وفيه يقول ابن مرزوق : « أبو العباس أحمد بن شعيب الفقيه المشارك التعاليمى الفاضل الطبيب الأديب النباتى النخبة ، أحد فضلاء وقته ونبلاء زمانه ، طبقة عالية فى قرض الشعر وإمام فى التعاليم (علوم الأوائل) وواحد فى المعرفة بالأشجار والنبات » . وفى الإحاطة أنه كان يحفظ عشرين ألف بيت للمحدثين وإنه تسرّى جارية رومية اسمها صبح من أجمل الجوارى حسنا فأدبها حتى أحسنت العربية ونظمت الشعر وكان شديد الحبّ لها وتوفيت وكان بعد وفاتها لا يُرَى إلا فى تأوه دائم ، وله أشعار بديعة فى رثائها ، ومن قوله فيها :

أعلمتَ ما صنع الفرا ... قُ غداةَ جَدَّ بها الرِّفاق
ووقفتُ منهم حيث للـ ... ـنظرات والدمعِ اتساق
سبقتْ مطاياهم فما ... أبْطا بنفسك فى السباق
أولى بجسْمك أنْ يرِ ... قَّ ودمعِ عينك أن يُراق
أما الفؤادُ فعندهم ... دَعْه ودَعْوَى الاشتياق
واهًا لسالفة الشبا ... بِ مضتْ بأيَّامى الرِّقاق
أبقتْ حرارةَ لوعةٍ ... بين الترائب والتَّراق

وهو يقول لمخاطبه أعلمت ما صنع فراق « صبح » بى غداة أسرع بى الرفاق ، لقد وقفت منهم أفكر فى صاحبتى وأطيل النظر وعيناى تترقرقان بالدموع ، وعرفت أنها تركتنى إلى غير أياب فأولى بجسمى أن يَضْنَى صبابة بها وأولى لعينى أن تسيل دموعها سيلا لا ينقطع ، أما الفؤاد فعندهم ، ودعه ، وما أشد حسرتى على أيام الشباب السالفة التى ذهبت بما كنت فيه من متاع ولم تبق لى إلا حرارة لوعة فى صدرى بين الترائب والتراقى لا تبرحنى ، ويبكى صبحا فى مرثية أخرى قائلا :

---

(١) انظر فى ترجمة ابن شعيب الإحاطة للسان الدين بن الخطيب ٢٧٢/١ ونيل الابتهاج للتنبكتى ص ٦٨ والمسند فى ترجمة أبى الحسن المرينى لابن مرزوق ص ٣٧٥ والوافى ٤٢٤/٢ والنبوغ المغربى ٢٣٧/١ ، ٧٤/٣ ، ٢٧٧/٣ .

يا صاحبَ القَبْرِ الذى أعلامُه درستْ ولكنْ حبُّه لم يَدْرُسِ
ما اليأسُ منكِ على التصبر حاملى أيْأَسْتِنى فكأننى لـم أيْأَسِ
لما ذهبتِ بكل حُسْنٍ أصبحتْ نَفْسي تعانى شَجْوَ كلِّ الأنفسِ
يا صبحُ أيامى ليـــالٍ كلُّهـــا لا تَنجلـى عن صُبْحكِ المتنفِّسِ

وهو يخاطب صاحبته قائلا إن ما حول قبرك من معالم درست وامَّحت ولم يدرس حبك ولم ينمح فى قلبى ، وإن اليأس منك ومن لقائك لا يحملنى على التصبر ، وقد أيأستنى من لقائك وكأننى لم أيأس ، ولما ذهبتِ بكل حسن وجمال أصبحت كأننى أحمل أحزان كل المحبين الذين غادرتْهم كل محبوباتهم الحسناوات ، ويقول لها إن أيامى كلها بعدك أصبحت كأنها ليل متصل لا يتنفَّس ولا يشرق فيه صباح . ويخاطب قبرها منشدا :

يا قَبْرَ صبحٍ حـــلَّ فيـ ـك لُمْهْجتى أُسْنَى الأمانى
وغدوتَ بعـــد عِيانهـــا أشهى البقاع إلى العِيانِ
أخْشَى المنيـــة إنهـــا تُقْصى مكانَكِ عن مكانى
كـــم بين مقبـــورٍ بفـــا سَ وقابـــرٍ بالقـــيروان

وهو يذكر لقبر صبح إنه حلَّ فيه أجمل الأمانى – كانت – لمهجته وروحه ، ولقد أصبحت بعد عيانها أشهى البقاع إلى العيان والمشاهدة ، وإنى لأخشى الموت أن يباعد بين مكانك ومكانى ، ويقول إنها توفيت بفاس وكان فى القيروان مع أبى الحسن المرينى فى رحلته ، ومن رثائه لصاحبته قوله :

يا غائبا فى الضمير ما بَرحا دانى محلٌّ الهوى إذا نَزحا
لم تضمر الصَّبْرَ عنك جارحةٌ ولا فؤادى لسلوةٍ جَنَحا
مُسْتَعْبِرُ المُزْن فيكِ أدمعُه يظلُّ يَبْكيك كلما سَفَحا
ولا أرى البرق عاد مبتسما بعدكِ بل زَنْدُ شوقه قدحا
وما تغنىَّ الحمـام من طربٍ بـل يُعلن النَّوْحَ كلَّما صدَحا

وهو يقول لصاحبته إذا غبت ونزحت لا تزالين دانية منى ولا يزال محل هواك قريبا من نفسى ، ومعاذ الله أن تضمر الصبر عنك جارحة أو أن يجنح فؤادى إلى سلوان أو عزاء . وإنه ليطلب إلى المزن أن تسبل حتى تفيض أدمعه ويظل يبكيك غيثها ، وإنه ليرى البرق فيه كأنه زند شوقه يقدح نارا وشرارا ، ويقول إن الحمام لا يتغنى من طرب أو فرح وإنما ينوح كلما صدح نوحا متصلا . وظل مأتم صاحبته صبح قائما وهو ينوح فيه ويندبها حتى أنفاسه الأخيرة .

أبو علي[1] اليوسى : الحسن بن مسعود

أحد شعراء الزاوية الدلائية ، ولد سنة ١٠٤٠ هـ/١٦٣١ م ، ونشأ نشأة متواضعة ، وشغف بالعلوم الإسلامية واللغوية ، ورحل فى طلبها وتعددت رحلاته إلى مراكش وسوس ودرعة وسجلماسة . وفى نحو العشرين من عمره استقر فى الزاوية الدلائية واختلف إلى حلقات علمائها يتزود منهم ، حتى إذا شهدوا له بنبوغه وتفوقه تصدر للتدريس ، وظل ناعما فيها بالتدريس إلى سنة ١٠٧٨ هـ/١٦٦٨ م، وهى السنة التى استولى فيها السلطان الرشيد العلوى على الزاوية الدلائية بعد هزيمة أهلها أمامه ، وقد أخذ كل ما كان فيها من مال وسلاح وكل ما فى الخزائن من الكتب، وأمر شيوخها: اليوسى وغيره بالرحيل إلى فاس ، وهدمها ولم يبق منها باقية . وأخذ اليوسى يحاول استعادة مكانته العلمية فى فاس، وأخذ يناله غير قليل من الشهرة ، وأقبل على دروسه الطلاب وشاعت مؤلفاته . ونزل مراكش بأخرة من حياته وتصدر فيها للتدريس ، وحظى برضا حكام الدولة العلوية وخاصة السلطان إسماعيل . وأدى فريضة الحج وعاد منه ليسلم روحه إلى بارئه سنة ١١٠٢هـ/١٦٩١م . وكان شاعرا بارعا ، وله ديوان شعر مطبوع يشهد له –كما يقول الأستاذ ابن تاويت–بمكانة ممتازة فى قرض الشعر الجزل وفى أسلوبه الأخاذ بسحر بيانه الباهر بطول نفسه . ومن أهم قصائده رائية طويلة رثى بها الزاوية الدلائية ، وهو يستهلها بقوله :

أكلِّفُ جَفْنَ العين أن ينثر الدرَّا ... فيأبى ويعتاضُ العقيقَ بها جَمْرا[2]
وأسأله أن يكتم الوجدَ ساعةً ... فيُفْشى وإن اللَّوم آونةً أغْرى
وكانتْ عيونُ الحادثات غوافلا ... زمانًا وخَطْبُ الدهر كان بنا غِرًّا[3]
عَدَتْ غُدْوَةً أيدى الحوادثِ فاختلَتْ ... خَلاها فعادتْ بعد نَضْرتها غُبْرا[4]
وأبْدَلْنَ مأنوسَ الديار وأهلها ... بوحشٍ وحوَّلن الأهيلَ بها قَفْرا[5]
فلا جَفْنَ إلا وهْو مُغْضٍ على القَذَى ... ولا عَيْن إلا من نَجيعِ الشَّجا حَمْرا[6]

وهو يقول إنه كلف عينيه أن تنثر لآلىء الدموع على الزاوية الدلائية فأبتا إلا أن تنثرا دموعا كالعقيق الأحمر بل لكأن العقيق استعاض بها جمرا مشتعلا ، ويسألهما أن يكتما الوجد والحزن لحظة أو لحظات فيفشيان همه وغمه ، وكأن اللوم يغرى على الإفشاء أكثر فأكثر . وكأن الأحداث كانت غافلة عنها ، وكأن خطب الدهر كان غافلا بدوره ، وإذ أيدى الحادثات تأتى

(١) انظر فى ترجمة اليوسى وشعره : عبقرية اليوسى للدكتور عباس الجرارى والزاوية الدلائية للدكتور محمد حجى ص٩٧وكتاب الشعر الدلائى لعبد الجواد السفاط (انظرالفهرس)والنبوغ المغربى ٢٨٥/٣ والوافى ٧٤٠/٣.

(٢) العقيق : حجر كريم أحمر .

(٣) غرًّا : غافلا

(٤) اختلت : قطعت . الخلا : النبات الرطب .

(٥) الأهيل : المأهول بالسكان .

(٦) النجيع : الدم . الشجا : الهم والحزن .

عليها وعلى ما حولها من الكلأ والنبات فإذا هى أرض جرداء بل لقد أصبحت قفرا ، وأبدلت بأهلها الناعمين وحوشا ، ولا جفن إلا وهو ملىء بالقذى ولا عين إلا وهى من الحزن حمراء كالدم . ويبكى ما كان فيها من رياض وغير رياض منشدا :

رياضٌ إذا أبصرتهَا ونَشَقْتهَا ... فلا تذكُرَنْ نَجْدًا ولا تذكرنْ شَحْرا[1]
فمن لى بواديها إذا فاحَ رَنْدهُ ... ومَنْ لى بمرعاها إذا أطلعَ المَشْرَا[2]
ومَنْ لى بروضاتٍ يفوق ضياؤها ... على الشمس حسنا كلما ابتهجتْ زَهْرا
وهل نفحةٌ تكفينىَ المسكَ فائحا ... وهل شربةٌ تكفينىَ الشهدَ مُسْتَمْرا[3]
وهل وقفةٌ بين الطُّلول التى قضتْ ... صروفُ الليالى فى معالمها نَذْرَا
هنالك إخوانُ الفؤادِ وفِتْيَةٌ ... همُ للحَشا خمرٌ فما يَطْلُب الخمرا
ونَنَّأى عِجالا عنهمُ مثلما نَأى ... أبو صِبْيةٍ عنهم إذا يمَّم القبرا
بها هامت الأرواح من قبل خلقنا ... ومن بعد ما كنا وإذ نبلغ الحَشْرا

وهى رياض إذا أبصرتها ونعمت بشذاها الذكى لم تعد تذكر ديار نجد الحبيبة ولا ديار الشحر بجوار حضرموت ، ومَنْ لى بواديها إذا سطعت رائحة شجر الرند فيه ، ومن لى بمراعيها حين تنبت نباتها الأخضر الجميل ، ومن لى بروضات بهيجة الزهر بها وإن ضياءها ليفوق ضياء الشمس بهاء وحسنا ، وهل نفحة منها كالمسك فائحا وهل شربة فيها كالشهد أستطيع أن أنعم بها ؟ . لقد أصبحت طلولا ، ويتمنى وقفة بطلولها حيث كان إخوان ، حديثهم كأنه الخمر فى لذتها ونشوتها ، ولقد بعدنا عنهم سريعا كأب فارق صبيته عجلا قاصدا قبره ، ويقول إن أرواحهم بها هامت قبل خلقهم وبعده ، وسيظلون يهيمون بها إلى يوم الحشر . ويفضى إلى حشود من الحكم يبدؤها بأن الدهر لا يبقى على أحد ، وكم من عظيم كان يعتلى حصنا شامخا هوى به وكم من مليك أصابه بالأرزاء وقهره وأذلّه . وقديما دارت صروفه على دارا ملك الفرس وأذلّ بنى ساسان بعد عزّ لا يماثله عز ، وجرّ ذيله على الغساسنة وملوك الحيرة وخلفاء بنى أمية وبنى العباس والمعتمد بن عباد المنفى إلى أغمات بمراكش ، فهل يشكّ أحد فى صَوْلات الدهر ؟ . إنه دائما يصول حتى على المحبين إذ يحيل الوصل بينهما هجرًا . ويقول :

فلا تَرْكَنَنْ للدَّهر إن نعيمَه ... ظلالُ سحابٍ يَمْسح السَّهْلَ والوَعْرَا
ملولٌ فما باقٍ على عهد خُلَّةٍ ... ولا مستديمٌ فيك يُسْرا ولا عُسْرَا
ولا تأمَنَنْ أبناءه إن تحبَّبوا ... إليك فمن يشبهْ أباه فقد بَرَّا
متى ما ارتجَوْا رغباءَ منك تقرَّبوا ... إليك وأبدوا خالصَ الودِّ والبِرَّا[4]

(١) الشحر : إقليم على المحيط بجانب عمان .
(٢) المشر : النبات الأخضر .
(٣) مُسْتمرا : مريئا سائغا .
(٤) رغباء : أمنية .

وأخفوا ذميمًا كان فيك وأظهروا جميلا وقالوا ذو محاسنَ لا تُمْرَى[1]
وإن لم يرجُّوا منك خيرا رأيتهم جفاءً وإعراضا يولّونك الظَّهرا
إذا ما رأوا ذا الوفر لاذوا بذيلهِ وإن لم ينالوا من سحائبه قَطْرا
وإن بَصُروا بالمملق اهتزأوا بهِ ومدُّوا إليه طَرْفهم نَظرا شَزْرا[2]

وهو ينصح من يقرؤه أن لا يعوِّل على الدهر ويركن إليه . فإن نعيمه كظل سحاب لا يلبث أن يزول ويمحى ، وهو ملول الطبع لا يبقى على شيمة ، ولا يستديم فيك ما يمنحك من يسر ، وحتى العسر أيضا لا يديمه ، فكم من معسر فتح عليه أبواب اليسر . ويقول إن أبناءه من الناس لا يُؤْمَنُون حتى لو تحبَّبوا إليك وأظهروا المودة ، فهم جميعا غادرون ، ويذكر أنهم إذا رجوا منك جميلا تقربوا إليك وتظاهروا لك بالود والبر الصافى ، ونفوا عيوبك وأظهروا محامدك وقالوا إن محاسنك لا تجحد ، وإن لم يرجوا منك صنع جميل رأيت منهم جفاء وإعراضا عريضا ، أما الغنىّ ذو الوفر فإنهم يلوذون به حتى لو لم يصيبوا منه قطرة من خير ، وأما المملق الفقير فإنهم يهزءون به ويعرضون عنه مغاضبين . ويستمر ناصحا قائلا :

وإن الفتى بالنفسِ لا اللُّبْسِ مجدُه فما شان دُرًّا كَوْنُ أصدافه كُدْرا
وإن الغِنىَ ما أورثَ المرءَ فى الْوَرى محامدَ فى الدنيا وعَلْياء فى الأخرى
وإن تُعوِزِ النُّعْمى فجُدْ ببشاشةٍ فخيرُ القِرَى أن تبذل الرَّحْبَ والبِشْرا
ومَنْ للهوى أَلْقَى القيادَ فقد هَوَى ولو أنه فى المجد قد وَطِىءَ النَّسْرَا[3]
ومَنْ يصطنعْ عُرْفًا إلى غير أهلهِ فليس بلاقٍ من جزاءٍ ولا شكرا
ومَنْ لا يُجَنِّبْ قولَه دَنَسَ الخَنَا فلا يمتعضْ يوما إذا سمع الهُجْرا[4]
ومَنْ يَدَّخِرْ تقوى الإلهِ وذكرَه على كل حالٍ يحمد السَّعْىَ والذُّخْرَا
ومَنْ يَغْنَ بالمولى فلن يَعْدم الغنى إذا لم يَجِدْ يوما لُجَيْنا ولا نَضْرا[5]

وهو يقول إن مجد الشخص بنفسه لا بلبسه وزيه ، ويضرب مثلا بأن الدر أو اللؤلؤ لا تشينه كدورَةُ أصدافه ويذكر أن الغنى الحقيقى للمرءهو الذى يكسبه المحامد فى الدنيا والعلياء فى الآخرة ، وينصح قارئه إن لم يجد ما يبذل لضيوفه من القِرى ، فخير منه أن يلقى ضيوفه بالبشر والبشاشة والترحيب وحسن اللقاء ، كما ينصحه أن لا يلقى قياده للحب ويخضع له فإنه يهوى به مهما بلغ من المجد والسؤدد ، ويقول إن من يقدم صنيعا أو جميلا إلى غير أهله فلن يقدموا له جزاء ولا شكورا ، ويذكر أن من لا يخلو كلامه من الألفاظ السيئة الذميمة لا يمتعض

---

(١) لا تمرى : لا تجحد .
(٢) النظر الشزر : النظر بمؤخر العين كناية عن الازدراء والغضب .
(٣) النسر : كوكب . وطىء النسر : كناية عن بلوغ الغاية .
(٤) الهجر : الكلام البذىء الذميم .
(٥) اللجين : الفضة . النضر : يريد الذهب .

ولا يضق صدره بما يسمع من الألفاظ القبيحة . وأعظم ما يدخره الإنسان لنفسه تقوى الله ، إذ يحمد الناس تقواه ويؤجر عليها خير أجر ، ويقول إن الغنى الحقيقى هو الغنى بحمد الله لا الغنى بالفضة والذهب . وإنما سقنا بعض أبيات من هذه القصيدة ، وهى تشهد لصاحبها ببراعة فائقة فى الشعر ونظمه .

٤

شعراء الزهد والتصوف

(أ) شعراء الزهد

الزهد أساس كبير فى الدين الحنيف ، وزاهد الأمة الأول الرسول ﷺ ، إذ عاش عيشة تقشف وزهد فى متاع الحياة الدنيا ، وتبعه فى هذه المعيشة كثيرون من الصحابة ، وهم مع ذلك يكسبون ما يعولهم هم وأسرهم ، حتى لا يكونوا عالة وعبئا على المجتمع . وأخذ كثيرون من التابعين يؤثرون هذا الزهد وما يتبعه من التقشف . وكان – ولا يزال – مما أضرم جذوته وَعْظُ الوعاظ الكثيرين الذين لم يخل منهم بلد إسلامى ، فهم ينذرون ويخوِّفون من عذاب الجحيم ، ويبشرون الأتقياء والصالحين بأن لهم عند ربهم الفردوس جزاء لرفضهم المتاع الدنيوى وإقبالهم على العبادة والنسك ابتغاء لما عند الله من الثواب والرضوان الأكبر .

والمغرب الأقصى مثله مثل البلاد الإسلامية كثر فيه الزهاد والعبَّاد ، وكان مما عمل على كثرة الزهاد فيه والنساك الجبال الكثيرة التى كانت تتيح لهم العزلة عن الناس للعبادة كما تتيح لهم كثيرا من الثمار التى يقتاتون بها ، ويحدثنا الحسن الوزان عن كثيرين منهم ، رآهم منهمكين فى العبادة لربهم على رءوس الجبال كالجبل[1] الأخضر قرب آزمور ، ورأى فى قلعة أغمات ناسكا ومعه مائة من تلاميذه ، ويقول إنه نزل بضيافته ثمانية أيام . وأيضا مما ساعد على كثرة الزهاد هناك كثرة الملاجىء للعبادة ، تبنيها لهم الدول المختلفة ، مع كثرة ما كانت تبنى لهم من الزوايا ، ومع كثرة ما كانت تبنى من مؤسسات المدارس مُلْحِقة بها مبانى للشيوخ والطلاب وتكفيهم مئونتهم ، فكان كثيرون منهم يتحولون زهاد ونساكا .

وذكرنا فى حديثنا عن الزهد فى فصل المجتمع المغربى أسماء طائفة من الزهاد الأولين قبل عصر المرابطين ، وفيه وبعده . ويهمنا الآن أن نعرض لشعرائهم ، وربما كان أهمهم فى عصر المرابطين السلالجى عبد الله بن عثمان المتوفى – كما فى روض القرطاس – سنة ٥٦٤ للهجرة وهو إمام أهل المغرب فى علوم الاعتقاد ، وأنشد له صاحب الوافى هذه الأبيات[2] :

---

(١) وصف إفريقيا للوزان ص ١٦٩ .

(٢) الوافى ١/ ٣١٥ .

إذا العلمُ لا تَغْشَى غرائبُه قلبى ... ولا شاقنى منه إلى المنهل العذبِ
ولا أنا ممن جاوز الدَّرْبَ ناهضا ... إليه ، ولا أرضى مقامىَ من رَبِىٍّ
ولا كان حظىٌ منـه إلا حكايةٌ ... على الناس أتلوها فحسبى إذن حسبى
ولا تَرْضَ بالحظِّ الخسيسِ سفاهة ... فمثلُك مَنْ قد حلَّ فى المنزل الرَّحْب
تجافوا عن الدار التى أصبحوا بها ... على غُرْبةٍ واستوطنوا حضرة القرب
وإن كـان لا ينجيك إلا ركوبُهـا ... فماذا التجـافى عن مجـاورة الـرَّبِّ

وهو يقول إن العلم الذى يلوكه لطلابه من الفقه وغير الفقه لا يتغلغل فى قلبه ولا يدفعه إلى منهل النسك العذب ، ويقول إننى بعيد عن درب النساك وإنه لا يرضى مقامه من ربه وما العلم الذى يلقيه الشيوخ على الطلاب إلا روايات عن الأسلاف ، فلا ترض بهذا العلم وحده واطلب العلم – أو بعبارة أدق – النسك الذى يحياه العباد النساك الذين انصرفوا عن الدار الأولى : الدنيا إلى حضرة القرب من الرب . ولعل فى هذه الأبيات ما يدل على أن حركة الزهد فى المغرب الأقصى كانت إرهاصا لما سيشيع فيه من الحركة الصوفية . وممن كان ينزع إلى الزهد فى عصر المرابطين القاضى عياض ، وله يقول مبتهلا إلى ربه[1] :

إليك بَـوُتُ بذنبى ... فاغفرْ خطاياىَ ربِّى
وامْنُنْ علىَّ بلطـفٍ ... تَجبُرْ بهِ صَدْعَ قلبى
فقد ركبتُ ذنـوبًا ... سوَّدْتُ منهنَّ كُتْبى
وجئتُ أطلبُ تَوْبًا ... إذْ ضَاق بالذنب رَحْبى
فاقْبَلْ بفضلك تَوْبى ... واغفرْ برُحْماك ذنبى
وعافِنى واعـفُ عنِّى ... فأنتَ يـاربِّ حسبى

وهو يعترف لربه بأنه يرجع إليه مذنبا آملا فى أن يغفر له خطاياه ، إنه غفار الذنوب ، ويدعو أن يمنّ عليه بلطفه المعهود حتى يجبر به ما حدث فى قلبه من صدع ، فقد ارتكب ذنوبا كثيرة ، سوَّدت كتبه التى سيتلقاها يوم القيامة . ويقول إنه جاء ضارعا إلى ربه يطلب منه أن يقبل توبته ، ويغفر ذنبه برحماه ، فهو أرحم الراحمين . ويسأله العافية والعفو عنه ، فإنه ربه قابل التوب وغافر الذنب . ونمضى إلى عصر الموحدين ، ونقر أعند القاضى عمر الفاسى المار ذكره فى الغزلين[2] :

أيُّهـا المغـتر بالزمـنِ ... فى هواه خالعَ الرَّسَنِ
حبُّك الدنيـا وزينتَها ... فتنةٌ عمَّتْك بالفِتَنِ
ظَلْتَ والحـالة شاهدةٌ ... عاكفا منهـا على وَثَنِ

(١) التعريف بالقاضى عياض ص ٩٧ .
(٢) الوافى ١ / ١٧٩ .

فاهْجُرَنْها إن زينتهـا زينةٌ شانتْ ولـم تَزِنِ
خدعتْنا إنهـا قبحتْ باطنا فى ظاهرٍ حسَنِ
ولتقدِّم ما تُسَرُّ بـهِ قبل طول البَثِّ والحزَنِ
فكأنْ أخراك مابرِحَتْ وكأنْ دنياك لم تكن

وهو يخاطب الذى غره الزمن وغرته الأيام ، فأكبَّ – غير مُرْعوٍ ولا مزدجر – على اللهو والمجون خالعَ الرسن ، والكلمة كناية عن إكبابه عليهما ، ويقول له إن حبك الدنيا ومتاعها وزينتها وكل ما يعجبك فيها فتنة أصابتك بما لا يحصى من فتن الدنيا ، ويذكر له أنه ظل عاكفا على الدنيا عكوف عابد الوثن عليه ، وينصحه أن يهجرها وأن لا تغرّه زينتها ، فهى زينة قبيحة تشين صاحبها ، وقد خدعنا ظاهرها البرَّاق ، وهى فى غاية القبح ، وإن واجبك أن تقدم إلى ربك ما تُسَرُّ به فى المستقبل لا ما يحزنك ويملؤك هما فى آخرتك ، فتلاف شأنك قبل مبارحتك دنياك إلى الدار الآخرة . ويقول أبو الربيع الموحدى المترجم له بين العُزلين يخاطب نفسه[1] :

يا نفسُ حسْبكِ ما فرَّطتِ فازْدَجِرى عن الذنوب فإن القَبْرَ مَثْواكِ
خافى الإلهَ لما قدَّمتِ من زَلَلٍ واعْصى هواكِ فإن الله يرعاكِ
إنّ الهوى قلما تُجْدِى هوادته وهْو الذى عن سبيل الرشد أقصاكِ
لشدَّ ما تعلمين الفـرق بينهما مـا كان أخْـراكِ بالأجْـدى وأولاكِ
إلى مَ تلهين عن قولى مغالطةً وتوقنـين بأنـى غيرُ أفَّـاكِ[2]
أصْغى إلىّ فما فى الأرض من أحدٍ أُلقى إليـه صريحَ النُّصْح إلاَّكَ
تـوبى إلى الله إن الله يقبلهـا واسْعَىْ بجهـدك فى تحسـين عُقْباكِ

وهو يقول لنفسه : يكفيك ما فرَّطت من الذنوب ، وينبغى أن تقلعى عنها فإن مثواك الأخير القبر ، وخافى ربك لما قدمت من عثرات ، واعصى هواك فإن الله يراقبك ويعلم ما ارتكبت من الخطيئات ، وإياك وطاعة هواك لما يقدم لك من متاع ، فإنه هو الذى أضلك وأبعدك عن طريق الرشاد ، وما أعظم الفرق بين الضلال والهدى ، وما أحراك أن تتمسكى بالهدى ، وحتى متى لا تسمعين لنصحى وأنى لا أكذبك ، إنه جدير بك أن تصغى إلىَّ وإلى نصحى ، فإنك أقرب شىء إلىّ وليس فى الأرض من أسدى إليه النصح سواك ، فتوبى إلى الله توبة حقة حتى يقبلها منك ، واعملى بجهدك على أن تحسنى عُقْباك وترضى ربك . ومن كبار الزهاد عمر بن محمد القيسى المراكشى الفاسى الأصل المتوفى سنة ٦٢٦ للهجرة وكان أديبا

(١) الوافى ١/ ٢٤٩ .
(٢) أفاك : كذّاب .

بارع الكتابة طيب النفس نفاعا بجاهه وذات يده ، وكان شاعرا مجيدا ، وجمع دفترا فيما نظم فى التهجد وقيام الليل أجاد فيه الاختيار ، ومن نظمه فيه قوله[1] :

ذهب الظلامُ وأنت جِذْعٌ راقدُ ... وأتى الصباحُ وأنتَ صَخْرٌ جامدُ
وخَلتْ على الإظلام منك مناسكٌ ... وخلتْ على الإصباح منك مساجد
وأُولوا التهجُّدِ ليلهم ما منهمُ ... لله إلا راكعٌ أو ساجد
وهجعتَ - يا مغرورُ - ليلَك كلَّه ... وعليك من عين الإله شواهدُ
فانظرْ لنفسك قبلَ حين مماتها ... إن المماتَ على البريَّة وافِدُ
وتذكَّر السَّفَرَ البعيدَ وطوله ... من غير زادٍ والمجالُ فَدافِدُ[2]
واذكرْ نُشورك بعد موتك فجأةً ... وصحائفُ الأعمال منك تشاهد[3]

وهو يُهيب بالغافل عن نسك التهجد أن يقوم شطرا من الليل مصليا لربه مسبحا له ذاكرا ، ويقول له إنك تنام طوال الليل كجذع راقد ممدود حتى الصباح ، وكأنك صخر جامد لا حس ولا حركة ، وتلك المناسك : مناسك التهجد خالية منك مساء ، وتلك المساجد خالية منك صباحا ، وأصحاب التهجد يُحْيون ليلهم بالركوع والسجود لربهم بينما أنت هاجع فى فراشك أيها المغرور المذموم ، وإنه لحرىٌّ بك أن تنظر لنفسك وتتعهدها بالتقوى قبل مماتك ، إذ كل من عليها فانٍ ، وتذكر سفرك البعيد إلى يوم القيامة ورحلتك فيه دون زاد ، فى مجال مقفر : واذكر بعثك بعد موتك وعرض صحائف أعمالك على ربك العلى القدير . وكان يعاصره وتوفى بعده بعام واحد عام ٦٢٧ للهجرة ابن الزيات يوسف بن يحيى التادلى صاحب أول كتاب تحدث عن زهاد المغرب الأقصى ومتصوفته وهو كتاب « التشوف لمعرفة أهل التصوف » وقد اتسع فى تصوره لأهل التصوف ، إذ جعل كتابه - كما يقول فى مقدمته « يشتمل على أضراب من أفاضل العلماء والفقهاء والعباد والزهاد والورعين وغير ذلك من ضروب أهل الفضل » مما جعل تراجم الكتاب تتسع لتشمل الزهاد والمتصوفة وأهل الصلاح من العلماء والفقهاء ، وبذلك نفهم كثرة التراجم فيه ، إذ بلغوا كما يقول مائتين وسبعة وسبعين شخصا ، ويقول إنه سيخصه بمراكش وأعمالها ، غير أنه حين مضى فيه رأى أن يضم فيه كثيرين من بلدان المغرب المختلفة . والكتاب مهم لأنه يعطى صورة واضحة عن أوائل زهاد المغرب ومتصوفته حتى نهاية القرن السادس الهجرى مثل من سميناهم فى حديثنا عن الزهد فى المجتمع المغربى ، مثل أبى الحسن بن حرزهم وأبى يعزى بلنور بن ميمون ، ويذكر بعض أشعارهم كهذه الأبيات التى ذكرها لابن تاخميست المتوفى سنة ٦٠٨ للهجرة .

---

(١) الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ٢٣٦/١/٨ .
(٢) فدافد جمع فدفد : الفلاة .
(٣) نشورك : بعثك .

ولما ركبت البحرَ نحوك قاصدا ولم أر غير الله مالاً ولا أهلا
دعوتك بالإخلاص والموجُ طامحٌ بصدقِ ودادٍ لم يكن قبل معتلاً
أيا منقذ الغَرْقى ويا مُلْهِمَ التُّقَى ويا صَمَدًا يبقى إذا أذهب الكُلاَّ
لوجهك ذلَّ البَرّ والبحرُ خاضعٌ وحقَّ لهذا الخلق أن يألف الذلاّ

وهو يبتهل لربه ذاكرًا أنه حين ركب البحر أسلم نفسه له ولم يعد يذكر أهلا ولا مالاً سواه ، وحين هاج البحر وهاجت أمواجه دعا ربه مخلصا صادق الوداد أن ينجيه ضارعا إليه قائلا : يا منقذ الغرقى ليس سواك ينجى يا ملهم المتقين تقواهم ، ويا مقصودًا يبقى بعد أن يفنى كل من على الأرض ، لوجهك يا ذا الجلال ذلت الأرض وخضع البحر ، وحق للناس أن يتذللوا لك تذللا ما بعده تذلل فأنت المنجى والمنقذ ومغيث المستغيثين .

ونلتقى فى أواخر القرن السابع بعبد الحق بن إسماعيل وكتابه عن صلحاء منطقة الريف المحاذية للبحر المتوسط شمالى المغرب الأقصى ، وكأن كتابه عنهم يكمل كتاب التشوف لمعرفة أهل التصوف الذى عُنى – فى الأعم الأغلب – بمنطقة مراكش كما أسلفنا ، وقد جعله فى ثلاثة أقسام قسم عن المقامات الصوفية ، وقسم عن الخضر عليه السلام ، وقسم عرَّف فيه بصلحاء الريف ، وهم عنده ستة وأربعون ترجم لهم ، وأتبع كل شيخ بأبيات يصف فيها زهده أو تصوفه ، ومن قوله فى ترجمة سعيد المسطاسى يصف زهده وزهد أمثاله[1] :

زهدوا يريدون النجاةَ وأصبحوا وطعامُهم فى الأرض نبتٌ يابسُ
مالوا عن الشهوات فى الدنيا فما لهمُ سوى التوفيق شيءٌ حابِسُ
فجَنانُهم من كلِّ سَهْوٍ سالمٌ ولسانهم عن كل عيبٍ نابِسُ

فهم قد زهدوا فى الدنيا ومتاعها يريدون النجاة فى الآخرة من عذاب النار ، وطعامهم مما تنبت الأرض من النباتات ، لا يفكرون فى لحوم ولا فى طعام مطبوخ ، فحسبهم ما يجدونه على وجه الأرض من النَّبات ، وقد رفضوا الشهوات جميعا فى دنياهم ، ولا شيء يحبسهم سوى عبادة ربهم ، وأذهانهم بريئة من كل سهو ولسانهم لا ينبس بعيب . وبجانب هذه المقطوعة من نظم عبد الحق بن إسماعيل مقطوعات تبدو فيها الروح الصوفية سنعود إليها فى حديثنا عن التصوف ويلقانا أبو العباس الشريف السبتى المتوفى سنة ٧٧٦ للهجرة وقوله فى ثقته بربه[2] :

وثقتُ بالله ربِّـــى وحَسْبِىَ الله حَسْبى
والله كـــافٍ وواقٍ دافـــعٌ كـــلَّ خَطْبِ
ولستُ أخشى إذا ما وثقت بالله ربـــى
بلغتُ فيهـــا مُرَادى مهنَّـــأً مـعَ صَحْبى

(١) الوافى ٢/٥٠٦ .
(٢) الوافى ٢/٤٨٤ .

وهو يقول إنه وثق بالله ربه ، وحسبه هذه الثقة فليس فوقها ولا بعدها ثقة والله كافيني وحاميني وواقيني ودافع عني كل خطب وكل بلاء أتعرض له ، ولذا لا أخشى أحدا ولا أخشى شيئا ، فقد وثقت بالله ثقة لا حدَّ لها ، ثقة بلغتُ فيها كل مرادي وكل ما أؤمله في حياتي ، مما يحق لي أن أهنَّأ بها مع صحبي الذين يثقون في ربهم . ونلتقي بأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن يجيش المتوفى سنة ٩٢٠ للهجرة ، وله في معارضة قصيدة ابن النحوي المذكور في تونس[1] :

اشتدِّي أزمـــةُ تنفَرجي ... قد أُبدل ضيقُك بالفرجِ
مهما اشتدتْ بكَ نازلةٌ ... فاصبرْ فعَسَى التفريج يجي
مولاك ارغبْ فإجابتـهُ ... للمضطريـن على درج
وألحَّ عليـــه بمسألـةٍ ... فهو الجواد فسَلْ وهِج
أخلصْ فيما تدعوه وقُلْ ... يسِّرْ عُسْرِي وأزلْ حرَجي
لا حيلةَ لي لا قـــوَّةَ لي ... إلا بك يـا محيي المُهَـج

وهو مؤمل في رأيه ولا ييأس أبدا ، ولذلك يقول أيتها الأزمة المارة بي اشتدي ومهما اشتددت فلابد من الفرج وانحسارك عني ، ويتجه إلى قارئه ، فمهما اشتد بك خطب أو حادثة فادحة فلتصبر فعسى الفرج يأتيك سريعا . واقصد مولاك بالسؤال أن يلطف بك فإجابته للمضطرين قريبة المنال ، ولتدعه ولتلح عليه في الدعاء ، إذ هو الكريم الذي لا حد لكرمه ، فسَلْه وكرر السؤال ، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه ، وأخلص في دعائك والزلفى إليه ، وقل رب يسِّر عسرى وأزل ما أنا فيه من حرج وضيق واكشف غمتي ، إنه لا حيلة لي ولا قدرة إلا بك يا محيي المهج والأرواح ومغيث المضطرين المكروبين . ويقول أحمد دادوش مناجيا ربه[2] :

تسترُ العَيْبَ تغفرُ الذنبَ تعطي ... تمنع العبدَ ، كلُّ حكمك عَدْلُ
تَجْبر الكسرَ تبدل العُسْرَ يُسْرًا ... تكشف الضرَّ كلَّ ذلك بَذْلُ
لم تزل محسنًا غنيًّا كريما ... أنت هُوْ الخالق المعزُّ المذلُّ
فقـــراءٌ وأغنيـــاءٌ على البـــا ... ب وقـوفٌ لهـم خضـوعٌ وذلُّ

وهو يذكر لله صفاته الربانية ، فهو يستر العيب ويغفر الذنب ويعطي من غير حساب ويمنع لا رادّ له ، وكل أفعاله عدل مطلق ، إنه يجبر الكسر الذي لا يمكن جبره ، ويبدل العسر يسرا ويكشف الضر ، وكل ذلك كرم ليس وراءه كرم ، وسبحانك ما أعظم شأنك لم

(١) الوافي ٦٠٥/٢ .
(٢) الوافي ٨٣٥/٣ .

تزل محسنا لعبادك غنيا جوادا ، فأنت الخالق المعز المذل ، وقد عم امتنانك وعمت عطاياك كل الخلق ، وها هم فقراء وأغنياء يقفون ببابك خاضعين . ولأحمد بن عبد العزيز الهلالى فى العصر العلوى المتوفى سنة ١١٧٥ هـ/١٧٦١ م هذا الدعاء[1] :

لك الحمدُ كلَّ الحمد يا راحمَ الضُّعْفِ ... ويا دائمَ الإحسان والرفق واللُّطْفِ
لك الحمد ثم الشكرُ دون نهايةٍ ... على نعمٍ جلَّتْ عن العَدِّ والوصفِ
إليك مَدَدْنا الكفَّ كيما تُمِدَّنا ... بما نرتجى يا مالك البَسْط والكفِّ
فعافِ ودافعْ واحْمِ يارِبُّ واكْفِنا ... بحفظك ما نخشى فغيرُك لا يكفى
وأبقِ علينا السِّتْرَ فى كلِّ حالةٍ ... بفضلك فى الدنيا والاخْرَى بلا كَشْفِ
وأعظمْ وأعززْ – يا عزيزُ – جَنابنا ... وحُطْنا من الخذلان والضَّيْمْ والخَسْفِ
وزِدْنا من الخَيْرات فوق مَرامنا . ... بفضلك – يامولَى – تعالَى عن الكَيْف

وهو يضرع إلى ربه قائلا لك الحمد يا راحم الضعفاء ويا دائم الإحسان وما يطوى فيه من الرفق واللطف ، لك الحمد والشكر الذى لا نهاية له على نعم أسبغتها علىَّ ، وهى تجلُّ عن أن تعدّ أو توصف ، وإليك مددنا الكف داعين كى تعطينا ما نأمل يا مالك الإعطاء والمنع فامنحنا العافية وادفع عنا كل بلاء واحمنا منه يارب واحفظنا من كل ما نخشى وأدمْ علينا الستر فى الدنيا والآخرة ، وأعظم وأعزز حمانا وحطنا برعايتك من الخذلان والضيم والخسف وزدنا من طيبات الرزق فوق ما نريد بفضلك يا مولانا يا من تعاليت عن كل كيف وكل شبه بالمخلوقات . وأشعار الزهاد فى المغرب الأقصى طوال عصوره لا تكاد تحصى .

(ب) شعراء التصوف

التصوف – فى حقيقته – مبالغة فى الزهد والنسك وعبادة الله ، ولذلك يعدُّ كل ما ذكرناه من شعر الزهد مقدمة للتصوف ، فالمتصوف مَنْ بالغ فى زهده وأخذ بركنين أساسيين من أركان التصوف وهما التوكل على الله والثقة فيه توكلا وثقة لا حد لهما حتى ليهمل أمر معاشه وكسب قوته . ومن قديم أو بعبارة أدق منذ القرن الرابع أخذت تشيع فيه طريقتان : طريقة فلسفية يتعمق الصوفى بها فى الحب الإلهى حتى ليفنى فيه شاعرا بضرب من الاتحاد مع سيد المخلوقات على نحو ما هو معروف عن الحلاج فى القرن الرابع الهجرى ثم من تابعوه أمثال ابن عربى . ومن حين إلى حين يلقانا بعض هؤلاء الصوفية المتفلسفين على نحو ما أوضحنا ذلك فى الجزء الخاص بالأندلس ، وكان كثيرون من أصحاب هذا المنزع الأندلسيين ينزلون فى المغرب ، وهو ما هيأ لظهور أمثال أبى مدين . غير أن هؤلاء فى رأيى كانوا شذوذا على الطريقة السنية

(١) النبوغ المغربى ٣٠٨/٣ .

التى اعتنقها صوفية المغرب الأقصى ، إذ شاعت فيه منذ القرن السابع الهجرى الطريقة السنية الصوفية المعروفة لأبى الحسن الشاذلى . ونحن نجد مقدمات هذا التصوف السنى القائم على محبة الله دون فناء فيها مع التوكل والثقة فيه المفرطين على ألسنة كثيرين من الشعراء . ولعل ذلك ما جعل ابن الزيات يتوسَّع فى كتابه « التشوف لمعرفة أهل التصوف » فيسلك فيه صلحاء المغرب وزهاده من العلماء والفقهاء الورعين ناظما لهم بين من سماهم أهل التصوف . وكانت كثرة الوعظ فى المساجد لأيام الجمع وغير أيام الجمع من أهم العوامل – كما أسلفنا – فى ازدهار الزهد ونزعة التصوف السنى فى المغرب ، ولذلك كثر فى كتب التراجم نعت كثيرين بأنهم صوفية ونضرب مثلا للوعاظ بابن الحجام محمد بن أحمد اللخمى المكناسى وفيه يقول ابن عبد الملك المراكشى : « كان فاضلا صالحا زاهدا ذاحظ من الأدب وقرض الشعر مال إلى طريقة الوعظ والتذكير فرأس فيه أهل عصره بحسن الصوت وغزارة الحفظ وإتقان الإيراد والصدق والإخلاص فى وصاياه وتذكيره ، فنفع الله به خلقا كثيرا فى بلاد شتى .. وله كتاب حفيل فى الوعظ سماه حجة الحافظين ومحجة الواعظين فى مجلدين ضخمين ، وله يصف نفسه ومحبته لربه التى تعد أس التصوف وجوهره[1] :

غريبُ الوصف ذو علمٍ غريبِ ... عليلُ القلب من حبِّ الحبيبِ
إذا ما الليلُ أظلم قام يبكى ... ويشكو ما يُكِنُّ من الوَجيبِ
يقطِّع ليلــه فكرا وذكرًا ... وينطق فيه بالعجب العجيبِ
به من حبِّ سيِّده غرامٌ ... يجــلُّ عن التطبُّب والطبيب
ومن يك هكذا عبـدا محبًّـا ... يطيب ترابــه من غير طِيب[2]

وهو يقول إن وصفه وعلمه فى حبه لربه غريب ، ويشكو فى حبه من علة قلبه كما يشكو المحبون ، ويقول إنه يظل طوال الليل قائما يبكى ويشكو من شدة حبه ولهيبه ، وإنه لا يزال طوال ليله يفكر ويذكر ربه ، ويقول إن غرامه بربه لا ينفع فيه تطبب ولا طبيب ، كما يقول إن من يحب ربه هذا الحب المفرط يطيب مكانه فى حياته وفى قبره من غير طيب . ووعظ بإشبيلية فى الأندلس ، ويذكر بعض مستمعيه هناك أنه كان من استحكام تأثيره فى الناس وانفعال القلوب لتذكيره بمقام تكلُّ العبارة عن وصفه ، ويقول : شاهدته فى إشبيلية ، وقد ندبَ الناس إلى افتكاك أسارى لدى النصارى ، فتسارع الناس إلى بذل ما حضرهم ، وخلع كثيرون بعض ما كان عليهم من الثياب ، فعهدى بها قد تراكمت أمام منبره حتى كادت تحجبه عن الأبصار ، سوى ما وُعد به من الحاضرين ، وتجمَّع من أثمان تلك الثياب مال جسيم .

(١) الذيل والتكملة ٢٦٧/١/٨ وما بعدها .

(٢) لاحظ ابن عبد الملك أن فعل الشرط فى البيت « يك » مجزوما وجوابه « يطيب » مرفوعا ولو قال ، « تطب أثوابه » أو ما هو على وزنه لتفادى هذا الخطأ .

ويعقوب المنصور الموحدى المتوفى سنة ٥٩٥ للهجرة هو الذى جلبه إلى أهل حاضرته مراكش ليستمعوا إلى وعظه ، وظل هو وخلفاؤه يوالونه بعطاياهم الجزيلة ، ولم يكن يدخر منها شيئا إذ كان ينفقها على الفقراء والمحتاجين وفى تجهيز الفقيرات إلى أزواجهن حتى وفاته بمراكش سنة ٦١٤ للهجرة . وإنما استطردت فى الحديث عنه لأوضح سيرة واعظ زاهد بل صوفى مبكر من صوفية المغرب الأقصى ومدى إخلاصه فى وعظه وزهده وتصوفه . وكان الوعاظ من حوله كثيرين فى كل بلد مغربى . ونلتقى فى أواخر عصر الموحدين بصوفى كبير هو ابن المجلى وسنخصه بترجمة مفردة . ومر بنا فى الزهد حديث عن عبد الحق بن إسماعيل فى العصر المرينى وكتابه – المارّ ذكره – عن صلحاء الريف الشمالى وترجمته فيه لستة وأربعين من صلحائهم ويصفهم بأنهم أولياء وكأنه يعدهم جميعا من المتصوفة ، وعادة يتبع الترجمة بأبيات من إنشائه وقد استشهدنا فى الزهد بمثال منها ، وكثرتها تعمها الروح الصوفية على نحو ما يبدو من المقطوعات التى اقتبسها منه الأستاذ محمد بن تاويت فى كتابه الوافى[1] ، من ذلك قوله من قصيدة فى ترجمة أبى القاسم بن الصيان الفاسى :

الأُنسُ بالله العظيـم وذكرُهُ ... مما يزيد أولى التُّقى إيمانا
من كان نورُ الحق أيَّده غَدَا ... ولهانَ من شغفٍ به هَيْمانا
سرُّ الحقيقة لا يفوز بنيلهِ ... غير امـرىءٍ مستنزلٍ كتمانا
لا يحرز الفضلَ المبين سوى الذى ... ملَك العلـومَ مطهَّـرًا جثمـانا

وهو يقول إن الأنس بالله والخلوة به وتسبيحه وذكره مما يزيد المتقين إيمانا بربهم ، ويصف الصوفى الذى يؤيده نور الحق جلَّ جلاله فإنه يصبح به شغوفا ولهان هائما ، غير أن ذلك إنما يفوز به وبسر الحقيقة فيه مَنْ يكتمه مخافة أن يعلن حبه لربه للناس ، وما شأنهم ؟ فيضيع منه ما حباه به . ويقول إنه لا يحرز هذا الفضل الصوفى إلا العالم الطاهر النقى الورع . وينعت المتصوفة ويعرِّف بهم فى قوله بترجمة محمد اليستتنى البطيوى :

علمُ اليقين أنالهم ما أمَّلوا ... فدَرَوْا به عينَ اليقين وحَقَّهُ
سُلبوا فغابوا عن وجود نفوسهم ... فوجودهم محـوٌ يلازم مَحْقَه
لم يعرفوا هَجْرا ولا وَصْلاً ولا ... معنىً يبيِّن قربه أو سُحْقه
وكأنمـا أسرارهـم بقلوبهـم ... درٌّ مصـونٌ لا يفـارق حُقَّه

ويقول إن الصوفيه هم الصفوة التى منحها الله علم اليقين ، فعرفته حق المعرفة ، ويذكر أنهم سُلبوا الشعور بالمحسوسات من حولهم ، فغابوا حتى عن الشعور بوجودهم ، وكأنما

(١) انظر فى أشعار عبد الحق بكتابه صلحاء الريف ٢/٥٠٥-٥١٢ . كتاب الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى

وجودهم انمحى انمحاء تاما ، فلم يعودوا يشعرون بشيء سوى ربهم الذى استغرقهم وفنوا فى جلاله ، وهم بذلك محبون حبًّا من نوع خاص حبا إلهيا ، لا هجر فيه ولا وصل ولا شيء سوى النعيم بالفناء فى الذات العلية ، وهم لا يذيعون أسرار هذا الفناء ولا ذلك الحب إذ يكتمونها فى حِقاق صدورهم وقلوبهم . ويصفهم مرة أخرى فى ترجمة إبراهيم بن صالح من وجوه المزمة منشدا :

أهلَ الحقيقة إن نظرتَ وجدتهم ... متسربلين بكلِّ فَضْلٍ باهرِ
قهروا نفوسهمُ ففازوا بالمنى ... من جود ربٍّ ذى جلالٍ قاهرِ
وتجوهـروا بلطـائفٍ فتكلَّلتْ ... تيجانُهـم بزبرجـدٍ وجواهـرِ

فهم أهل الحقيقة الربانية إن تأملتهم وعرفتهم حق المعرفة وجدتهم مزدانين بحلل من كل فضل باهر ، وقد استطاعوا أن يقهروا نفوسهم ويردعوها عن كلِ متاع دنيوى ففازوا بأمانيهم من عطايا رب جواد ذى جلال وإكرام لا حد له ، وكأنما بثَّ فيهم ما جعلهم يستحيلون جواهر متألقة ، بل كأنما نظم على تيجانهم الصوفية الإلهية روائع الزبرجد والدرر النفيسة . وينعت أحدهم بحسن توكله على ربه ، وهو مبدأ أساسى فى التصوف قائلا :

حسنُ التوكّل فى القفار أناله ... حالاً بها قد سرَّه ما نالهُ
جعل الالهَ لـه سبيلا فى الفَلا ... سَبَبا فحقَّق فى الخلاص منالَهُ

فهو قد أحسن التوكل على ربه ، فرزقه فى القفر بما سدَّ رمقه وسرَّه فى حياته الإلهية ، وحقق له الخلاص من الدنيا وترهاتها . ويدور الزمن دورات ونلتقى بابن جابر محمد بن يحيى المتوفى سنة ٨٢٧ للهجرة وكان له نزوع نحو الزهد والتصوف ، ومن قوله[1] :

نظرت إلى الوجود بعين قلبى ... فلم أرَ فيه غيرَ الله وَحْدَهْ
فَثِقْ بالله وارجُ الله واعمـلْ ... للقيا الله تأمَـنْ كلَّ شِـدَّه

وقد يظن من البيت الأول أنه ممن يؤمنون بالحلول وأن الذات الإلهية تحلّ فى كل مظاهر الوجود ، لذلك لا يرى فيه سواه ، ويطلب إلى مخاطبه أن يكون دائما واثقا فى الله لا يرجو ولا يأمل فى أحد سواه ، ويعمل لآخرته حتى يأمن عذابه ويدخل جناته ، وله فى التوكل على الله حق التوكل :

على قَدْرِ نِيَّةِ أهلِ التوكُّـ ... ـلِ يعطيهم اللهُ منه المعونه
فإن صَحَّح العـبدُ إيقـانَهُ ... كفاه المهيمنُ همَّ المئـونه

وهو يقول : بمقدار توكل العبد على ربه يمنحه العون والرعاية ، وإن صحح يقينه وأخلص

(١) انظر فى هذه المقطوعة وتاليتها كتاب المنتقى لابن القاضى ١/٤٠٥ .

فى توكله عليه كفاه هم العيش ، إذ هو المهيمن على كل عيش وكل شيء . ويقول عمر الفاسى المتوفى سنة ١١٨٨ للهجرة[١] .

الْجَأْ إلى الله فى أمرٍ تحاولُهُ ... وابْرَأْ إلى الله من حَوْلٍ ومن حِيَلِ
وكِلْ إلى الله كلَّ الأمـر واغْنَ بهِ ... عَمَّن سـواه فإنَّ الله خَـيْرُ وَلِى

وهو يدعو قارئه إلى اللجوء لله فى كل أمر يحاوله ويبرأ إليه من كل قوة وكل حيلة ، ويتكل عليه اتكالا صادقا مخلصا فى كل أمر ، وليكتف به عمن سواه ، فإنه خير المعينين على تحقيق الآمال ، وهو فى ذلك يصدر عن مبدأ التوكل الصوفى . ونرى محمد بن عبد السلام بن ناصر الرحالة يصدر عن مبدأ الثقة فى الله الصوفى بمقطوعة فى أحد عشر بيتا ختمها جميعا بلفظ الجلالة ، وفيها يقول[٢] :

لله فى الخَلْق مـا اختارتْ مشيئتهُ ... مـا الخير إلا الذى يختـاره اللهُ
إذا قَضَى اللَّهُ فاستسلمْ لقدرتـهِ ... ما لامرىءٍ حيلةٌ فيمـا قضى الله
تجرى الأمورُ بأسبابٍ لهـا عِلَلٌ ... تجرى الأمور على ما قدَّر اللَّهُ
إذا ابتُليتَ فثِقْ بالله وارضَ بـهِ ... إن الذى يَكْشف البلـوى هو الله
إن الأمور إذا ضاقتْ لهـا فرجٌ ... كم من أمورٍ شدادٍ فرَّجَ الله
الله لى عُـدَّةٌ فى كلِّ نائبـةٍ ... أقـول فى كل حـالٍ حَسْبِىَ الله

فهو يسلم أمره لربه مؤمنا بأن الخير ما اختارته المشيئة الإلهية له ، ويقول إنه ينبغى الاستسلام لقضاء الله ، فليس لشخص حيلة فيما قضى الله وقدَّره على عبده ، ويذكر أن الأمور تجرى بأسباب ولها علل قد تغيب معرفتها عن الإنسان فيما قُدِّر له ، وينصح المرء إذا نزل به بلاء أن يثق فى الله ويرضى به ، فإنه هو الذى يكشف غُمَّة البلوى عنه ، ولا ييأس أبدا فإن الأمور مهما ضاقت ومهما اشتدت لابد أن يزيحها من لدن الله فرج ، ويقول إنه يتخذ الله عدة له فى كل نائبة وكل كارثة معلنا دائما فى صدق وإخلاص أن الله حسبه . ونقف قليلا لنتحدث عن صوفى مبكر فى عصر الموحدين هو ابن المحلى .

ابن[٣] المحلى

هو محمد بن حسن بن عمر الفهرى ، من أهل سبتة ، كان أبوه قوّالاً يغنى فى المحافل والأسواق – والملبِّس بذلك يعرف فى المغرب بالمحلى – وقد ولد له محمد سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م ونشأ نشأة ادبية وعلمية ممتازة أصبح بها من كبار أساتذة سبتة ، وكان أديبا بليغا ناظما وناثرا ، فقيها عاقدا للشروط نحويا ماهرا برع فى الأدب ودرَّسه للطلاب عمره مع الفقه ومسائل

(١) الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية للدكتور محمد الأخضر ص ٣١٠ .
(٢) انظر د . محمد الأخضر ص ٣٧١ .
(٣) راجع فى ترجمة ابن المحلى وشعره الصوفى كتاب صلة الصلة لابن الزبير ، كتاب الذيل والتكملة ٢٨٩/١/٨ والوافى ٣٤٩/١ .

الشريعة ، وكان حسن القيام على تفسير القرآن مذكرا ، وعقد له حلقات مدة فانتفع به خلق كثير ، وكان واعظا ولوعظه تأثير كبير فى سامعيه . وظل يعظ الناس طويلا بمسجد مقبرة زقلو فى سبتة ، وولى القضاء بها سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٧م وظل يليه محمود السيرة مشهورا بالعدل إلى نهاية عمره سنة ٦٦١ هـ/١٢٦٣ م . وكان شاعرا ، وتعمقته النزعة الصوفية ، وله فيها غير قصيدة ، من ذلك قوله فى إحدى قصائده :

[هل يبرح] العشقُ قلبـا أنت مطلَبُـه ... أو يُذهب الشوقُ روحا أنت مذهبهُ
وكيف يرجو وصـالاً من تبعُّدهُ ... أو كيف يخشى بِعادًا من تقرُّبه
يا مَنْ أناجيهِ والأشـواقُ توهمنى ... نَيْلَ الوصال كأنَّ الشوق يوجبه
كـم طيّبَةٍ لك بالألطـاف توجدهـا ... عند اللقـا وفنـائى فيك أطيبـه
ومِنـةُ الجـود تُدنيـه فتُؤنسه ... وخَشْية الـردِّ تُقصيه فتَحْجُبه
منای أنت وحسبى أن تكون مُنًى ... يـا واهبـا رغَباتى قبلَ أرغبه
كُنْ كيف شئت فمـا لى عنك منصَرفٌ ... فالعبـد ليس سـوى مـولاه مَطْلبـه

وهو يقول إن حبه للذات العلية لن يبرح فؤاده لأنه مطلب قلبه وأمنيته . ولن يذهب الشوق روحا ، الله مذهبه وعقيدته . فحبه لربه لن يفارقه أبدا ، ويتجه إليه مخاطبا كيف يرجو الوصل من تبعُّده ، بل كيف يخشى البعد من تقرُّبه . ويقول إنه يناجيه ، وتوهمه أشواقه أنه سينيله الوصل كأن مجرد الشوق يوجبه ، ويعترف بأنه ينثر عليه كثيرا من الأشياء الطيبة ، ويقول إن أطيب ما تفضل به ربه عليه فناؤه فيه ، فهو يفنى بحبه فى الذات الإلهية ، ودائما تقرُّبه من ربه منحة الجود ، فيشعر بأنس لا حد له ، وفى الوقت نَفْسه يخشى الرد وأن يقصيه فيحجبه عنه ، ويقول إن ربه مُناه وحسبه أن يكون أمنيته أو مطلبه . ويذكر أن الله دائما يحقق له رغباته حتى قبل أن يفكر فيها ، ويقول سواء قبله أو رفضه فليس له منصرف عنه ، إذ هو عبده الذى يطلب القرب من مولاه دائما أبدا . ويقول فى قصيدة أخرى :

فـؤادىَ منقـادٌ إليكـم مذلَّلٌ ... ومالى – إذا لجَّ العذول – جِماحُ
وهـل من سبيـلٍ أن أطيرَ إليكُمُ ... وقد حُصَّ بى ريشٌ وقُصَّ جَناح[1]
وأوحشتمُ فالكلُّ فى الأذْن نائـحٌ ... لدىَّ وآفـاق الوجـود فِسـاح
خَرِسْتُ عن الشكوى إليكم مهابةً ... وألْسنُ حـالى بالغـرام فِصاح
ويـا عجبـًا أنـى أسيرٌ وأننـى ... أناشدكـم أن لا يُتَـاح سَـرَاح
إذا هزَّ أربـابَ السماع تواجـدٌ ... فحظىَ منـه زَفْـرةٌ وصيـاح
وها أنا عند البـاب مُنُّوا أو اطـردوا ... فما لىَ عنـه – كيف كان – بَراحُ

(١) حُصَّ : حُلق ونُتف .

وهو يقول إن فؤاده منقاد إلى ربه مذلّل لحبه ، وليس له – إذا لجَّ العذول اللائم – جماح عنه ولا انفكاك منه ، بل إنه ليتمنى أن يطير طيرانا إلى الذات العلية غير أن ريشه حُصَّ وجناحه قُصَّ ، يكنى بذلك عن أنه مقصر فى نسكه ، ويقول إنه طال نأىُ الله عنه وينوح ويسمع نواح الكون وصياحه من كل جانب مشاركة له فى وجده وما يجد فى غرامه بربه . ويذكر أنه خرس عن الشكوى لمحبوبه مهابة وحياء ، وهو يذوب حبا وغراما ، ويعجب أنه أسير ، ويناشد ربه أن لا يسرِّحه ولا يرد إليه حريته ، بل يظل فى أسره . ويذكر أنه حين يهز أرباب السماع للشعر الصوفى تواجد ، فإنه يظل من بينهم يرسل الزفرات والصيحات هائما بحب ربه ، ويقول إننى سأظل واقفا بعتبة الباب سواء منَّ الله عليه بالقبول أو حرمه وطرده ، ولن يبرحها أبدا . ومن قوله فى إحدى قصائده :

غرامى دَعانى والعَذُولُ نهانى ... فوَجْدٌ وعَذْلٌ كيف يجتمعانِ
أما عَلما أنى على الشَّحْط والنَّوَى ... مقيمٌ وأنى والهوى أخوانِ
يقولان لى : مَنْ ذا دعاك لما نرى ؟ ... فقلت دعانى حبُّه فدَعانى
أعلِّل نفسى بالسلوِّ تعلُّلاً ... وتلك أمانٍ ما بهنَّ أمانى
إذا خَفق البَرْقُ اليمانى بأفْقكم ... أقابل ذاك الخَفْقَ بالخفقانِ
رَعَى الله جيران العُذَيْب وأهله ... وإن أتْرعونى من هَوًى وهوانِ
لئن حُجِبوا عن ناظرى فكأنهم ... لقلبى يراهم فيه رأىَ عِيان

وهو يقول إن غرامه بحب الذات العلية يدعوه للاستغراق فيه ، بينما يلومنى عذول ، والعذول والوجد أو الهيام لا يجتمعان ، ويقول إنه ملازم للحب فى النأى والبعد ، وإنه والهوى أخوان فكيف يظن أحد أنهما سيفترقان ، ويقول له صاحباه : ما الذى دعاك لما نرى ؟ فأجابهم دعانى حبه ودعانى أو اتركانى ، ويذكر أنه يعلل نفسه أحيانا بالسلو ، ولكن أنَّى له . ويتحدث كشاعر عذرى فيقول إنى إذا خفق البرق اليمانى بأفقكم خفق قلبى معه ، ويدعو لجيران العُذَيْب فى نجد وأهله أن يرعاهم الله وإن ملأوه من شراب الهوى والهوان ما ملأوه ،ويقول إنهم إن غابوا عن ناظرى فإن قلبى يراهم متجسدين فيه رأى عِيان . ويستمر منشدا :

أورِّى بسَلْع والعُذَيْبِ وحاجرٍ ... وتلك مغانٍ ما لهن معانى
وأذكر سكان العُذَيْب تَستُّرًا ... وما ذكرُ سكانِ العذيب بشانى
ولكنْ بقلبى من هو الحبُّ كله ... ومَنْ ذكره فى خاطرى ولسانى
حبيبٌ إذا لاحظتُ لم أر غيره ... على أنه إذ لا أراه يرانى
ومِنْ فضله وجدى به وتولُّهى ... ومن جوده ما أشتكى وأعانى
وطرْتُ على حُبِّى له وكأنما ... بَرانى لمعنى الحب حين برانى

وهو يقول إن مثله مثل شعراء الصوفية يذكر أماكن المحبوبات التى يذكرها أصحاب الغزل العذرى ، وهى فى واقع الأمر منازل وأماكن ليس لها معنى عند الصوفية إلا معنى التواجد والشوق للمحبوب ، ويقول إنه إنما يذكر سكان العذيب تسترا وتواجدا وليس ذكرهم من شأنه ، وإنما هو إعلان لحبه وهيامه بربه ، وإنه ليحل هواه فى قلبه حتى ليصبح هو الحب كله ، وإنه ليذكره دائما فى خاطره وعلى لسانه ، وإنه لحبيب لا أرى غيره فى الوجود إذا نظرت من حولى ، ومع أنى لا أراه يرانى ، ومن فضله علىَّ هيامى به وتولهى ، ومن كرمه ما أشتكى منه فى حبه وأعانى . ويشعر فى هيامه كأنما يطير إلى ربه طيرانا ، وكأنه براه أو خلقه ربه لحبه ، وهو حب صوفى سنى وليس فيه أى أثر للنزعة الفلسفية عند المتصوفة .

٥

شعراء المدائح النبوية

يشغف المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها بسيرة رسول الله ﷺ ، ومنذ أرسل وبُعث وهو مهوى أفئدتهم ، يمدحونه ويتغنون بمحبته ومناقبه ومعجزاته، ويتوسلون به إلى ربهم ويتشفعون مؤمنين بأنه المثل الكامل فى الورع والنسك والعمل بتعاليم رسالته. وإذا كان قد تغنى بمديحه أفراد فى حياته، فإن الأقاليم الإسلامية تغنت به وبسيرته وبشمائله فى كل بلد وكل عصر. والمغرب الأقصى مثله مثل الأقاليم العربية جميعا أكثرَ من التغنى بمديحه ورسالته منذ عصر المرابطين الذى أخذ فيه الشعر المغربى يزدهر ويتكاثر ويشترك فيه كثيرون، على نحو ما يلقانا فى أرجوزة تشتمل على نحو سبعة آلاف بيت لمحمدبن عيسى بن المناصف القرطبى الأصل المتوفىَّ بمراكش سنة ٦٢٠ . ومن أوائل من نجده شغوفا بالسيرة النبوية الكريمة وبفضائل رسول الله القاضى عياض وكتابه «الشفا» فى السيرة النبوية العطرة مشهور. وله فى زيارة الرسول ﷺ[1]:

قِفْ بالرُّكاب فهذا الرَّبْعُ والدارُ ... لاحتْ علينا من الأحباب أنوارُ
بُشْراك بشراك قد لاحتْ قِبابُهمُ ... فانزلْ فقد نلتَ ما تَهْوَى وتختارُ
هذا النبىُّ الحجازىَّ الذى شهدتْ ... له بتقديمه رُسْلٌ وأخْبارُ
هذا الشفيعُ الذى تُرْجى شفاعتُه ... للمذنبين إذا ما اسودَّت النارُ
بادرْ وسلِّم على أنوار روضتِه ... قبل الممات ولا تشغلْك أعذارُ
يا خِيرةَ الرسْل يا أعلى الورى شرفًا ... قد أثْقَلَتْنِىَ آثامٌ وأوزارُ
فكن شفيعى لما قدمتُ من زَلَلٍ ... ومن خطايا فإن الربَّ غفَّارُ

وهو يستوقف الرَّكب أو القافلة فقد وصلوا إلى دار المصطفى ﷺ ولاحت أنوار من قبله

(١) الوافى ٥٦/١ .

عليهم ، ويقول لنفسه بشراك فقد لاحت قباب الضريح النبوى ومسجده ، وينبغى أن أنزل من فوق بعيرى ، فقد نلت ما أهوى وأوثر ، فهذا النبى الحجازى الذى تهفو إليه القلوب والذى بشرت به الرسل وأخبار الكتب السماوية ، وهو الشفيع للمذنبين من أمته حين تتأجج نار الجحيم وتقول هل من مزيد . ويقول لكل مسلم : بادر وسلم على أنوار روضته التى قال فيها النبى ﷺ : ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة ، وينبغى أن يزورها ويكتحل بأنوارها قبل مماته ، ولا تشغله عن الزيارة القدسية أعذار . ويتجه بالخطاب إلى الرسول : يا خيرة الرسل وصفوتهم وأسمى الورى شرفا أثقلتنىَ آثام وأوزار كثيرة ، فكن شفيعى لما قدمت من عثرات وخطيئات عند ربى ، وإنه للغفار العظيم . ومن توسلات القاضى عياض الطريفة قوله متوسلا بالرسول الكريم[1] :

إليك مددتُ الكفَّ أستمطرُ الفَضْلا ... وأستكشف البَلْوَى وأستعطف الطَّوْلا
دعـوتك مضطـرًّا فعجِّـلْ إجـابتى ... بتفريج كَرْبٍ طالمـا واصـل الهَوْلا
وأنت مَلاذى يـا مرادى وسيِّدى ... فسامحْ مسيئا قد جَنَى الجِدَّ والهزلا
نداءٌ من الأعمـاق يـا فالقَ النَّوَى ... ويا سامع النَّجْوَى ويا مَنْ هو الأَعْلَى
يتيـمٌ من الطـاعـات عفـوَك يرتجى ... قِهِ الفقرَ والإفـلاسَ والفقـدَ والذُّلاَّ
بجـاهِ رسولِ اللَّهِ فارحَمْ تضرُّعى ... ونَفِّسْ همومى كلَّها الفَرْعَ والأصْلا
لجـأتُ إلى بـاب الكريـم لفاقتى ... فليس لنا مُغْنٍ سواه ولا مَوْلَى
وصَـلِّ على قُطْب الوجـود محمَّـدٍ ... صلاةً تعمُّ الرُّسْلَ والصَّحْبَ والأهلا

وهو يتوسل ضارعا إلى الرسول الكريم قائلا : إليك مددت كفى أستمطر وأستنزل الفضل طالبا كشف ما نزل بى من البلوى مستعطفا التفضلَ الكريم ، ويقول قد دعوتك مضطرا فأجب دعائى عاجلا بتفريج كرب طالما شقيت به وبلغ بى هولا ما مثله هول ، وأنت يا سيدى رسول الله ملاذى وملجئى ومقصدى ، فسامحنى : سامح مسيئا طالما تجنَّى فى جده وهزله . ويستغيث بربه قائلا : إنه نداء من أعمق الأعماق فى نفسى يا فالق الحب عن النبات والنوى عن النخيل وسامع النجوى الخفية يا ربى الأعلى إننى يتيم من الطاعات ، والذنوب تثقل ظهرى ، فارحم تضرعى تجاه رسول الله ، وفَرِّجْ همومى جميعا الفرع منها والأصل وقد لجأت إلى بابك أيها الكريم لفاقتى وإنك وحدك المغنى وليس لنا مولى سواك . ربِّى صَلِّ على قطب الوجود ومداره وسيده صلاة تعم الرسل وصحبه وآله .

---

(١) الوافى ١/٥٧ .

ونمضى إلى عصر الموحدين ونلتقى بميمون بن على الصنهاجى الفاسى المشهور باسم ميمون بن خبازة نسبة إلى خاله الشاعر الشهير بابن خبازة ، لملازمته إياه وله مدحة نبوية طويلة . وسنترجم له عما قليل . وندخل فى عصر المرينيين ويلقانا فى أوائله مالك بن المرحل ومدائحه النبوية وسنخصه بترجمة ، ونلتقى بأبى العباس العَزَفى المتوفى سنة ٦٣٣ من أهل سَبْتة الذى أنشأ فى بلدته – وبالتالى فى المغرب الأقصى – الاحتفال بالمولد النبوى وكان قد سبقه إلى ذلك أبو سعيد كوكبورى صاحب مدينة إربل . وأكبر الظن أن الذى ألهمهما ذلك احتفال المسيحيين بميلاد عيسى فى الحروب الصليبية بالمشرق واحتفال المسيحيين به فى الأندلس . واستنّ أبو العباس العَزَفِىّ أن ينشد الشعراء فيه مدائحهم النبوية وتسمى الميلاديات ، وكان لمالك بن المرحل غير ميلادية أنشدها فى احتفال أبى العباس العزفى . وتعنى الدولة المرينية – طوال القرن الثامن – بهذا الاحتفال ، إذ يقول الحسن الوزان فى كتابه : وصف إفريقيا : « كان من عادة الحاكم فى أزهى أيام الدولة المرينية أن يحتفل بالمولد النبوى فيدعو إلى قصره العلماء وأهل الأدب فى مدينته : فاس ، وكان الشعراء المجلّون يُلْقون فى هذه المناسبة قصائدهم بحضور الحاكم ، وكان المنشدون يقفون فوق مصطبة عالية . وفى نهاية الحفل استنادا إلى حكم أشخاص من ذوى الخبرة كان الملك المرينى يمنح لأكثر الشعراء نبوغا وتفوقا مائة دينار وحصانا وجارية وكسوة ، ويعطى كل شاعر من الشعراء الآخرين خمسين دينارا فينصرف الجميع وقد حصل كل منهم على جائزته أو مكافأته » .ويقول الوزان تتمة لذلك إنه كان ينادى فى أيامه أوائل القرن العاشر الهجرى على الشاعر الذى ترى لجنة التحكيم أنه الأفضل شعرا بأنه أمير الشعراء لذلك العام[1] . ولا ريب فى أن هذا الصنيع كان يحدث تنافسا حميدا بين شعراء فاس عاصمة المرينيين . ويشير الأستاذ ابن تاويت إلى مدحة نبوية للرحالة العبدرى فى أواخر القرن السابع الهجرى وميلادية لمحمد بن يحيى العزفى أنشدها فى احتفال لأبى سالم المرينى ، ويذكر لعبد الرحمن المكودى المتوفى سنة ٨٠٧ للهجرة مقصورة ويأخذ فى تحليلها . وفن المقصورات قديم بدأه ابن دريد بمقصورة فى مديح أمير سامانى ملأها باللفظ الغريب واختار لها وزن الرجز . ونظم حازم القرطاجنى مقصورة فى مديح أبى زكريا الحفصى .. غير أن المكودى أول مغربى نظم مقصورة من الرجز فى مديح المصطفى وضمنها طائفة من الألفاظ الغريبة ، ووصف فى مطالعها الرحلة إلى الحجاز وألمّ بذكريات شبابه فى موطنه وضمنها كثيرا من الحكم ومن الحديث عن غزوات الرسول وعن مصير بعض الدول الإسلامية والدول التى أدال الله منها للإسلام مثل دولتى الأكاسرة والقياصرة وعرّج على بعض الدول العربية البائدة القديمة ، ومن قوله فى مديح الرسول ﷺ :

---

(١) وصف إفريقيا (طبع السعودية) ص ٢٦٣ .

وليس ذُخْرى غير مدح أحمدٍ سيّدِ أهل الأرض طُرًّا والسَّما
وأصبح الديـن القويـم قَيِّمًا سما على الأديان طُرًّا وعلا
وكم لـــه من آيـــةٍ بَيِّنَةٍ ومعجزاتٍ مثل إشراق الضحى

ويغلب على المقصورة السرد مما يفقدها فى كثير من جوانبها الجمال الشعرى . وكما مُدح الرسول فى العصر المرينى بالمدائح الشعرية مُدح بالموشحات ، ومن أطرفها موشحة ابن سعيد المكناسى المذكورة فى الحديث عن الموشحات ص ٣٨٣ .

وتعنى الدولة السعدية باحتفالات المولد النبوى وخاصة حاكمها المنصور الذهبى ، وتكثر فيها المدائح النبوية المسماة بالميلاديات ، وعادة يستطرد الشاعر فيها إلى مديح الحاكم ، ويقول المقرى فى كتابه : « روضة الآس » : « ما قيل فى الموالد النبوية التى احتفل لها هذا الخليفة المنصور لا يمكن حصره » ثم يذكر أنه كانت تصنع شموع أعظم من الأسطوانات يطاف بها فى فاس ،حتى إذا وصلوا إلى قصر الخليفة أدخلوها فى ساحة كبيرة متخذين لها آلات عظيمة من النحاس المحكم الصنعة فتوضع فوقها وترى صاعدة فى السماء كالمنارة ، ويحشر الناس إلى ذلك ، ويُدْعَى المنشدون للأشعار وتنثر عليهم الفضة ، ويأمر لكل شخص منهم بكُسوة وجوائز قد تبلغ الآلاف[1] . ويضيف عبد العزيز الفشتالى فى كتابه مناهل الصفا إضافات كثيرة فى هذا الاحتفال الذى كان أشبه بعيد ضخم يمتد طوال الليل ، وكان المنصور يبدأ الاحتفال الرسمى به بعد صلاة الفجر وقد اصطفت جذوع الشموع أمام قبة قصره منافسة للنخيل والمآذن فى الضخامة مختلفة الألوان من بيض لؤلؤية وحمر أرجوانية وخضر سندسية ، ويغصّ السرادق المنصوب للناس بالشرفاء والقضاة والفقهاء والكتاب والشعراء والقراء وبعد فراغ الواعظ من فضائل الرسول ﷺ وسرد معجزاته يقدّم أهل الذكر والإنشاد ، ثم تتعالى الأصوات بمدائح الرسول المسماة بالمولديات أو الميلاديات نسبة إلى مولده أو ميلاده الشريف ، ثم يتبعهم أهل الذكر بالرقيق من كلام الشيخ الصوفى الأندلسى أبى الحسن الششترى ، ثم يُنْشَدُ الشعر . والمتبع فى الإنشاد أن يقف بإزاء الشاعر مسمع ينبيه الشاعر عنه فى إنشاد قصيدته ، ويعود الشاعر إلى مكانه . ويذكر الفشتالى الوليمة المهيأة للعيد ، ويقول بعد أيامها توزع صلات الشعراءوعليها توقيعات الخليفة المنصور . ويسوق عبد العزيز الفشتالى بعض ما كان ينشد فى هذا العيد لعهد هذا الخليفة[2] . وبكتاب روضة الآس للمقرى نحو عشرين ميلادية لشعراء مختلفين أُنشدت فى هذا العيد أيام المنصور منها خمس لعبد العزيز الفشتالى شاعره وكاتبه ،

(١) روضة الآس ص ١٣ .
(٢) انظر مناهل الصفا تحقيق الأستاذ كنون ص ٢٢١ وما بعدها .

وأهم ميلادياته نونية ، يستهلها باستيقاف ركب متجه إلى الأرض الطيبة : أرض الحجاز ، ويتمنى زورة للرسول الكريم تشفى جفونه القريحة بنظرة يغمرها النور النبوى ويحيّى ربوع مكة والمدينة القدسية التى تلت بها الملائكة أفانين ذكر وقرآن ، ثم يقول[1] :

مَحْمَّدُ خَيْرُ العالمين بأسرها ... وسيدُ أهل الأرض مِ الإنس والجانِ
ومَنْ بَشَّرَتْ ببعثه قبل كونه ... نواميسُ كهَّانٍ وأخبارُ رُهْبانِ
وإن كتابَ الله أعظمُ آيةٍ ... بها افتضَح المَيَّانُ وابتأسَ الشانى[2]
نبيُّ الهدى مَنْ أطلعَ الحقَّ أنجمًا ... محا نورُها أسدافَ إفكٍ وبهتان[3]
لعزّتِهِ ذلَّ الأكاسرة الألى ... همُ سَلبوا تيجانهم آلَ ساسانِ
وأحرزَ للدِّين الحنيفىِّ بالظُّبا ... تراثَ الملوك الصِّيدِ من عهد يونانِ[4]

وهو يقول محمد خير العالمين وسيد أهل الأرض من الإنس والجن ، إنه صفوة خلق الله ومن بشرتْ بأنه مبعوثٌ شرائع الكهان وأخبار الرهبان ، فقد كان العالم ينتظره لينقذه مما يعانيه من هوان وظلم وضلال . فأرسله الله رحمة وهداية للعالمين ، وللإنس والجن يحمل فى يده وصدره معجزته الكبرى : القرآن الكريم الذى لا تماثله معجزة سابقة ولا لاحقة ، وبها افتضح الكذابون المفترون والحاقدون الشانئون . نبى الهدى الهادى الذى أطلع الله به نور الحق ليمحو به كل كذب وبهتان . ولعزته ذل الأكاسرة الساسانيون وألقوا عن يد وهم صاغرون ، وتملّك الدين الحنيف بالظبا والسيوف تراث سادة الملوك القياصرة من عهد يونان والزمن القديم . وللتاستاوتى المتوفى سنة ١١٢٧ للهجرة مدحة نبوية فى أربعمائة بيت ، يجعل مقدماتها لمديح موطنه وتاريخ الإسلام وبعض دوله ، ويخص المديح النبوى بثلاثمائة بيت من ذلك قوله[5] :

أيخاطِبُ العبدُ الذى لعبتْ به ... شهواتُه صَدْرَ الصدورِ الأوحدِ
نكن تحقَّق بالأدلَّة عندنا ... لا شخصَ أحلمَ فى الوَرى من أحمدِ
أنت المؤمَّل فى الشدائد كلها ... أنت الجواد الغيثُ للمُسْتَرفدِ
أنت الذى من أمِّ بيتك راغبًا ... ولو اقتضى أمرا عظيما يَسْعد
أنت الذى سعدتْ بك الأشياء قا ... طبةً ومن يقصد سعيدا يَسْعَدِ

وهو يعجب – لكثرة ذنوبه – من جراءته على مخاطبة أعظم مخلوق بشرى ، ويعود إلى نفسه فيقول إنه تحقق لديه بالأدلة أن رسول الله أحلم مَنْ على وجه الأرض ، ولذلك قصده وهو يعلم أنه حليم كريم آملا فى ذرة من حلمه وكرمه ، ويتجه له بالخطاب قائلا : إنك

---

(١) شعر عبد العزيز الفشتالى تحقيق نجاة المرينى ص ٤٢٠ وما بعدها .
(٢) المَيَّان : الكاذب . الشانىء : المبغض .
(٣) إفك : كذب .
(٤) الصيد : ذوى السلطان .
(٥) الوافى ٣/٧٧٢ .

المؤمل المرجو فى الشدائد والكوارث كلها ، وإنك الغيث المدرار الذى يجزل العطاء لمسترفده وطالب البر منه . ويقول له إن من قصد بيتك تنيله ما طلب مهما كان جسيما ، وأنت مصدر السعادة البشرية فليس غريبا أن من يقصدك يسعد فى الدنيا والآخرة . وتتكاثر المدائح النبوية والتوسلات بالرسول ﷺ فى العصر العلوى . ومن أجمل التوسلات توسل أنشده الأستاذ ابن تاويت للشاعر محمد البوعصامى ، وفيه يقول[1] :

سُحّى بدمعٍ كالعقيق مَحاجرى ... شـوقا لطيبةَ والعَقيـق وحاجـرِ[2]
تلك المعـاهدُ حين أظهرَ دينه ... ربُّ البريَّة بالرسول الطاهرِ
سرُّ الوجـود محمدٌ خيرُ الورى ... والمنتقَى من كلِّ أصلٍ طـاهرِ
مَنْ قد تجلَّت طَيْبَةُ الزَّهْرا بهِ ... وزهتْ ففاقت كلَّ روضٍ زاهرِ
وسمتْ على الفردوس حقًّا واكتستْ ... حُلَل السَّنا من شأنه المتواتر
وتواضعتْ لمعالم الهـادى بهـا الـ ... آفـاقُ كالفلك المحيـطِ الدائـرِ

وهو يقول لعينيه اذرفا دمعا أحمر كالعقيق شوقا لطيبة ومنازلها مثل العقيق وحاجر التى كانت قائمة حين بعثه الله برسالته الكبرى ، وإنه لسر الوجود خير الورَى المختار من كل أصل شريف طاهر ، وقد تجلّت به طيبة : المدينة وسبقت جميع المدن ، وزهت حتى فاقت كل روض ناضر ، وحقّ لها ، بل لقد سمت على الفردوس ، واكتست حلل الشرف بفضائله المتواترة ، وتواضعت لها الآفاق كالفلك المحيط بقطب الدائرة . وحرى بنا أن نتوقف قليلا لنترجم لميمون بن خبازة ومالك بن المرحل .

ميمون[3] بن خبازة

هو ميمون بن على الصنهاجى الفاسى الساكن بأخرة فى مراكش ، ويسمى ابن خبازة نسبة إلى خاله الشاعر المشهور بابن خبازة لملازمته إياه . من شعراء عصر الموحدين ، ويقول ابن عبد الملك المراكشى فى كتابه « الذيل والتكملة » : كان أديبا شاعرا مفلقا من أكبر أعاجيب الدهر فى سرعة البديهة ، ناظما أو ناثرا ، مع الإجادة التى لا يجارَى فيها والتفنن فى أساليب الكلام معربه وهزله .. ذا مشاركة حسنة فى علم الكلام وأصول الفقه ، وتنسك وتصوف وقتا ، ووعظ .. وعارض ابن الجوزى فى بعض فصوله فأجاد » . وعبر إلى الأندلس وظل فى رعاية والى إشبيلية أبى العلاء بن المنصور زمنا ، وله فيه مدائح كثيرة وله فى غيره مدائح مختلفة

---

(١) الوافى ٨٢٣/٣ .
(٢) طيبة : المدينة . العقيق : موضع فى المدينة . والحاجر : منزل فى طريق مكة .
(٣) انظر فى ترجمة ابن خبازة وشعره كتاب الذيل والتكملة ٣٨٨/٢/٨ وما بعدها وأزهار الرياض ٣٧٨/٢ وتحفة القادم ١٥٤ ودرة الحجال رقم ٣٧٢ والنبوغ المغربى ١٨٠/١ ، ٢٠٢/٣ والوافى ٣٢٢/١ .

وكان يأتى فى مدائحه بما لم يسمع قبله ولا يُطْمع فى لحاقه ، سرعةَ ارتجال وحسنَ افتنان وبراعة إنشاء ، وتولى حسبة السوق فى مراكش لعهد الخليفة المأمون الموحدى ووقف معه فى ثورته على دعوة ابن تومرت كما أسلفنا وله يهجو ابن تومرت :

وجد النبوَّة حُلَّةً مطويَّةً ... لا يستطيع الخلقُ نَسْجَ مثالها
فأسرَّ حَسْوًا فى ارتغاءٍ يبتغى ... بمحاله نَسْجًا على مِنوالهـــا

وأسرَّ حَسْوًا فى ارتغاء مثل يضرب للشخص يظهر أنه يشرب الرغوة ، وهو ينال من اللبن . وتوفى ابن خبازة فى أوائل سنة ٦٣٧ هـ/١٢٤٠ م ، وله مدحة نبويةرائعة دوَّت شهرتها فى عصره وبعد عصره ، يقول فى مطلعها :

حقيقٌ علينا أن نُجيبَ المعاليا ... لنُفْنِىَ فى مَدْحِ الحبيبِ المعـــانيا
ونجمعَ أشتاتَ الأعاريضِ حِسْبةً ... ونحشُدَ فى ذات الإلـه القوافيـــا[1]
ونقتـــادَ للأشعـــار كلَّ كتيبةٍ ... لنَصْر الهدى والدين تُرْدِى الأعاديا[2]
لِنُطْلِع من أمـــداح أحمـــدَ أنجمًا ... تلـــوح فتجلو من سَنـــاهُ الدَّياجيا
سهوتُ بمدح الخلـق دهرا فهذه ... سجودى لجَبْرى كلَّ ما قُلْتُ ساهيا
رسولٌ بَراه الله من صَفْوِ نورِهِ ... وألْبَسَهُ بُرْدًا من النـــور ضافيـــا[3]
وما زال ذاك النـــورُ من عهد آدمٍ ... ينيرُ بـــه اللّهُ العصـــورَ الخواليـــا

وهو يقول إنه ينبغى أن أستجيب للمعالى فأفنى فى مديح الرسول الكريم سيد الوجود المعانىَ وأجمع أشتات الأشعار احتسابا لله وأحشد القوافى إخلاصا له ، وأقتاد كتائب الشعر لنصرة الدين وتدمير أعاديه ، ولنبدى من أمداحه نجوما تجلو من نوره الدياجى المظلمة . ويعتذر عن تمضية عمره فى مديح الحكام والأمراء ساهيا عن مديح الرسول الكريم ، وهو يقدم تلك المدحة بأخرة من حياته جبرا لما سها عنه قديما . ويقول إنه رسول عظيم خلقه الله من صَفْو نوره وألبسه من النور حلة سابغة ، وظل هذا النور المحمدى الباهر ينير العصور الخوالى . وتُطِلُّ من الأبيات التالية فكرة الحقيقة المحمدية التى تغنَّى بها الحلاج والمتصوفة بعده ، وهى حقيقة تؤذن بأن الرسول أقدم فى خلقه المعنوى أو الروحى من خلق الأنبياء . ويقول ميمون فى قصيدته : بفضله تاب الله على آدم وأنقذ نوحا وخلصه من الموج العاتى وحمى إبراهيم الخليل من النار حين ألقاه أعداؤه فيها ، ومن أجله افتُدى إسماعيل الذبيح . وحين وضع أمُّه له حفَّت به الأملاك وأعول إبليس اللعين وتنبَّئت به الأحبار والكهان وتداعى إيوان كسرى . ثم يمضى فى الحديث عن سيرته منذ كان فى المهد ، وحملتهُ السيدة حليمة لترضعه ويذكر

(١) حسبة : احتسابًا لله .
(٢) تردى : تهلك .
(٣) ضافيا : غامرا .

ما رُوِىَ من شق جبريل وميكائيل لصدره وإيداعهما فيه النور الهادى ، ويتحدث عن رحلته إلى الشام ولقائه لبَحِيرا الراهب ونسطور راهب بُصْرَى الذى بشره ببعثته ، وما كان من تحنثه فى حِراء واختيار الله له كى يبلِّغ رسالته ، ويذكر إسراءه ومعراجه إلى السموات ومناجاته لربه . ويأخذ فى سرد معجزاته منذ بدء هجرته ونسج العنكبوت لبيوته على غار حراء حتى لا تظن قريش أن به الرسول وصاحبه الصديق ، ويستطرد إلى بعض ما تذكره كتب السيرة النبوية من الآيات والمعجزات ، ويعرض فى نهاية مدحته معجزة الرسول الكبرى : القرآن الكريم ، منشدا :

وآياتُـــه جلَّتْ عن العَدِّ كثرةً ... فما تبلغ الأقوالُ منها تناهيا
وأعظمُها الوَحْىُ الذى خَصَّه بهِ ... فبلِّغ عنه آمـرا فيهِ ناهيا
تحدَّى به أهلَ البيان بأسرهم ... فكلُّهمُ ألفـــاه بالعجز وانيـــا
وجاء به وَحْيًا صريحًا يَزِيدُهُ ... مرورُ اللياليـــالى جِدَّةً وتعاليـــا
تضمَّنَ أحكامَ الوجـودِ بأسرها ... وحُكْمَ القضاءِ مثبتا فيه نافيا
وأخبر عما كان أوهو كائنٌ ... يُرَى ماضيًا أو ما يُرَى بعدُ آتيا
وما كتبتْ يُمناه قطُّ صحيفةً ... ولارِىءَ يوما للصحائف تاليا[1]
عليه سلامُ الله لازال رائحـــًا ... عليه مدى الأيـــام حقًّا وغاديا

وهو يقول إن معجزات الرسول ﷺ أكثر من أن تُعَدَّ وتحصى ، وإن الأقوال مهما تكاثرت لا تستطيع أن تحيط بها ، وأعظمها القرآن المعجزة الكبرى التى ليس لها مثال سابق ولا مثال لا حق وإنه ليحمل أوامر الله ونواهيه وقد تحدى الرسول به أهل البيان من العرب فكلهم أعلن عجزه عن الإتيان بما يماثله ، بلاغة تأخذ بالألباب . وقد تضمن أحكام الوجود جميعها ، وشمل حكم القضاء نفيا وإثباتا ، وأخبر الله فيه عن الأحداث الماضية والمستقبلة . وكل هذا البيان المعجز حمله الرسول ، وهو لم يخطّ صحيفة بيمينه ، ولا شوهد يوما تاليا للصحف أو الصحائف ، إنه النبى الأمى العظيم ، سلام الله عليه سلاما دائما من أمته ومحبيه .

مالك[2] بن المرحِّل

سَبْتِىّ النشأة والمربى ولد سنة ٦٠٤ هـ/١٢٠٧ م وتوفى سنة ٦٩٩ هـ/١٣٠٠ م ، وقال ابن عبد الملك المراكشى فى الجزء الأول من الذيل والتكملة إنه مالقى ، ولعله يريد أنه ولد

(١) رىءَ : رُئِىَ .

(٢) انظر فى مالك بن المرحل وحياته وأشعاره الجزء الأول من الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى والصلة لابن الزبير والإحاطة لابن الخطيب ٣٠٣/٣ والجذوة لابن القاضى ٣٢٧/١ ونفح الطيب (انظر الفهرس) والنبوغ المغربى لكنون ٢٢٥/١ والجزء الثالث فى مواضع مختلفة والوافى ٣٣٨/١ وما بعدها .

بمالقة . وكان مثقفا ثقافة واسعة بمختلف العلوم مما جعله ينظم غزوات السيرة النبوية وفصيح ثعلب ، وله نظم فى الفرائض والقراءات وغير ذلك ، ومدح أمراء الأندلس والمغرب الأقصى واشتغل فى بلدته سبتة مدة بالتوثيق وولى القضاء لبنى مرين مرات فى غرناطة وغيرها ، ومُدَّ له فى حياته إذ توفى سنة ٦٩٩ للهجرة ، ويقول ابن عبد الملك : « إنه كان مكثرا من النظم مجيدا سريع البديهة مستغرق الفكرة فى قرضه ، لا يفتر عنه حينا من ليل أو نهار ، شاهدت ذلك معه ، ويقول إنه لا يقدر على صرفه عن خاطره وإخلاء باله من الخوض فيه ، واشتهر نظمه وذاع شعره ، فكلفت به ألسنة الخاصة والعامة وصار رأس مال المسمعين (المنشدين) والمغنين وهِجِّيرا (ملازم) الصادرين والواردين ووسيلة المُكْدين (السائلين) وطراز أوراد المؤذنين » . وذكر له ابن عبد الملك فى الجزء الأول من كتابه « الذيل والتكملة » قصيدتين فى مثال النَّعْل النبوى . وله فى مديح الرسول ﷺ غير قصيدة ، وتتخذ أنماطا ثلاثة : النمط المعروف فى القصائد العربية ، ونمط يسمى العشرى لأن وحداته تتألف من عشرة أبيات ، ونمط ثالث يسمى العشرينى لأن وحداته تتألف من عشرين بيتا ، والأبيات فى النمطين الأخيرين تنتهى بقافية واحدة وتبتدىء بحرف القافية . ومن أهم مدائحه النبوية : « الوسيلة الكبرى المرجوّ نفعها فى الدنيا والأخرى » وقد رتبها على حروف المعجم ، ولكل حرف عشرون بيتا ، وهى بذلك مكونة من عشرينيات ، ويقول فى العشرينية الهمزية الأولى :

إلى المصطفى أهديتُ غُرَّ ثنائى ... فيا طِيبَ إهدائى وحُسْنَ هِدائى[1]
أضفتُ إلى ميلاده غزواتهِ ... وما عَنَّ لى من آيـــةٍ وأيـــائى[2]
أردتُ رضا ربِّى بها فهْو أرتجى ... وربِّى كريمٌ لا يُضيع رجائى
إمامُ هُدًى صَلَّى النبيُّون خلْفه ... وصلَّى عليهِ أهلُ كلِّ سماء
أضاءتْ به الدنيا فمن وَجْهِهِ سَرَى ... إلى الشمس والأقمار كلَّ ضياء
أتانا بقــرآنٍ كريـــمٍ مفصَّلٍ ... جَلا صَدَأ الأذهان أىَّ جلاء
أترجون فى يـــوم القيامـــة غيرَه ... إذا قيـــل هل للنـــاس من شُفَعاءِ
إليـــه يشير ابنُ البَتُـــولِ إذا رأى ... ضجيجَ السورَى فى حيرةٍ وعناء[3]

وهو يقول أهديت إلى النبى الذى اصطفاه الله أجمل ثناء فياطِيبه ويا طيب هداى وطريقتى ، وقد أضفت إلى ميلاده غزواته وما عرض لى وألهمته من معجزاته ، وأردت بذلك رضا ربِّى راجيا أن يتقبل منى هذه المدحة لرسوله ، وهو كريم لا يخيب رجاء راج من عباده . ويقول إن الرسول إمام هداية كبرى للبشرية وقد صلى الأنبياء خلفه ليلة الإسراء ،

(١) هدائى : هداى وطريقتى .
(٢) أيائى : جمع آية أى معجزة .
(٣) البتول : السيدة مريم أم عيسى الرسول .

والملائكة فى كل سماء يرددون الصلاة عليه مشيرا إلى الآية الكريمة : ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صَلُّوا عليه وسلِّموا تسليما﴾ ويقول إن الدنيا أضاءت بنوره ، ومنه نور الشمس والقمر وكل نور ، والبيت يشير إلى فكرة الحقيقة المحمدية المعروفة ، وهى أن كل نور فى الكون يستمد من نوره ، وكل وجود يستمد من وجوده ، إذ هو سابق فى خلقه المعنوى أو الروحى لكل وجود وكل نور . ويذكر معجزته الكبرى التى جاء بها معجزة القرآن الكريم وما يحمل من أروع صور البيان والبلاغة التى تجلو – بحق – صدأ الأذهان ، ويذكر يوم القيامة وموقف الناس فيه وقد طال بهم انتظار الحساب ، وكلما سألوا رسولا أن يشفع لهم عند الله فى بدء الحساب اعتذر ، واعتذر معهم المسيح ابن مريم البتول مع إشارته لهم أن يسألوا الرسول الشفاعة عند ربهم ، ويتقبل الله شفاعته . ويقول فى عشرية همزية :

أمـــا لى إلـــى قَـبْر النبـــىِّ مبلِّـــغٌ ثنـاءً فقد أفنى الزمـــان ذَمـــائى[1]
أمـــانىُّ كانتْ لى زيـــارةُ قبرِه وأرْضِـىَ روضٌ يانـعٌ وسمـــائى
إمـــامُ جميـــع المسلمـــين محمدٌ وأكـــرمُ مبعـــوثٍ مـــن الكرمـــاءِ
أمـــانُ الوَرَى مـــا يخافون حبُّه فيـــا حـــبُّ شَعْشِعْ أدمعى بدمـــائى
أمـــاهَ الأسى عينى وسعِّـــر أضْلُعِى فخذ بيدى يـا راحـــمَ الرُّحمـــاءِ[2]

وهو يقول : أمالى من مبلغ ثنائى إلى الرسول ، وقد فنى عمرى حتى الذماء الأخير ، وقد كان من أمانى فى شبابى أن تكتحل عيناى بزيارة القبر الذكى ، إنه إمام المسلمين وهاديهم إلى رضوان الله وجناته ، وأكرم رسولٍ بعثه الله للخلق رحمة بهم، وإن حبه لأمان للمسلمين من كل ما يخافون ، فيا أيها الحب المقدس امزج أدمعى بدمائى شوقا إليه وشغفا به ، فقد ملأ الحزن عينىَّ بالدموع واتقدت نيران الحب النبوى فى أضلعى ، فخذ بيدى وأعِنِّى يا أرحم الرحماء . ومالك – مثل ابن خبازة – فى الذروة من شعراء عصره .

---

(١) الذماء : قوة القلب وبقية الروح . أضلعى : أوقدها نارا .
(٢) أماه الأسى عينى : ملأها دموعا كالسيل . سعِّر

الفصل السادس
النثر وكتّابه

١

الخطب والمواعظ

طبيعى أن تكثر الخطب والمواعظ فى المغرب الأقصى كثرتها فى بلدان العالم الإسلامى جميعا ، إذ كانت تكرَّر فى كل مسجد أسبوعيا فى صلاة الجمعة وبالمثل فى صلاة العيدين ، وربما كانت كثرة تكرارها هى السبب فى أنه لم يتجرد أحد من القدماء لتدوينها تدوينا عاما ، ومع ذلك فقد أثرت بعض خطب قالها بعض الحكام أو بعض كبار الوعّاظ . ومن أوائل ما نلتقى به منها خطبة إدريس الثانى فى دولة الأدارسة سنة ١٩٣ هـ/٨٠٨ م حين فرغ من بناء مدينة فاس وحضر صلاة الجمعة فقد صعد المنبر وخطب الناس الخطبة الأولى قائلاً[١] :

« اللهم إنك تعلم أنى ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا سُمْعة ولا مكابرة ، وإنما أردت أن تُعْبَد فيها ، ويُتْلَى كتابك ، وتقام حدودك وشرائع دينك وسنَّة نبيِّك محمد ﷺ ما بقيت الدنيا . اللهم وفِّق سُكّانها وقُطّانها للخير وأعنهم عليه ، واكْفهم مئونة أعدائهم ، وأدِرَّ عليهم الرِّزْق ، وأغْمد عنهم سيف الفتنة والشقاق ، إنك على كل شىء قدير » .

وهذه الخطبة المأثورة عن إدريس الثانى إنما هى قطعة من خطبته ، وفيها يعلن أنه لم يبن فاسا مباهاة ولا ابتغاءًا لشهرة ، إنما بناها ابتغاء لوجه الله وثوابه حتى يعبد فيها ويتلى كتابه وتقام حدوده وسنة رسوله الكريم ، وتحققت سريعا نيَّته ، فقد أقامها مدينتين متقابلتين : مدينة القرويين من أهل المغرب ومدينة الأندلسيين الذين لجئوا إليه زمن الحكم الربضى فى الأندلس وثورة الفقهاء عليه ونفيه لطائفة كبيرة منهم ، فنزلت كثرتهم المدينة الغربية ولم يلبث أن شُيِّد فى مدينة القرويين الجامع المشهور باسمها : جامع القرويين وأصبح أقدم جامع فى إفريقيا للدراسات الدينية إذ بُنى الجامع الأزهر بعده بنحو مائة عام . وازدهرت فى جامع فاس هذه الدراسات حتى العصر الحديث . ودعا إدريس لسكان فاس دعوات كريمة . أن يوفق الله أهلها للخير ويمدهم بعونه ويكفيهم مئونة أعدائهم ، ويوفِّر الرزق لهم ويقيهم الفتنة والشقاق .

---

(١) النبوغ المغربى ٣٣/٢ .

وكان حكمه حكما عادلا رشيدا . وهدم يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ما كان بين مدينتى فاس من أسوار وجعلهما مدينة واحدة ، وأقام على النهر الفاصل بينهما جسورا يمكن الانتقال من إحداها إلى الأخرى بسهولة .

ومرَّ بنا فى نشأة دولة المرابطين أن أصلهم من قبيلة صنهاجة التى كانت تشغل الصحراء جنوبى المغرب وبعض بقاع إفريقيا المدارية السوداء حتى السنغال ، وكانوا يعيشون معيشة بدوية واتخذوا اللثام على وجوههم شعارًا لهم ، ولذلك يسمون الملثَّمين ، ولم يكونوا يعرفون تعاليم الإسلام معرفة قويمة ، فجلب لهم رئيسهم يحيى بن إبراهيم الكدالى – كما مرَّ بنا – الشيخ عبد الله بن ياسين ليقفهم بدقة على تعاليم الإسلام وسرعان ما أصبح زعيمَهم الدينى بجانب يحيى الكدالى الزعيم الحربى ، ودفعهم الشيخ ابن ياسين جنوبا لنشر الإسلام وشمالا لجمع كلمة المسلمين فى تلك الأراضى النائية . واستولت صنهاجة بزعامته الدينية على إقليمى سجلماسة والسوس ، ودفعها شمالا على المحيط لقتال برغواطة وكانت قد ظلت – منذ الأيام الأولى لدولة الأدارسة – خارجة على الإسلام ، وتنبأ فيها متنبئون وآمنوا بهم ، واتجهت إليهم جيوش صنهاجة .. وتوفى يحيى الكدالى فخلفه فى القيادة الحربية لصنهاجة أخوه أبو بكر واستطاع استئصال شأفة البرغواطيين سنة ٥٥٣ غير أن عبد الله بن ياسين طُعن طعنة قاتلة فى إحدى المعارك سنة ٥٥١ فخطب فى صنهاجة وهو مشرف على الموت ، ومما قال فى خطبته ، وكان قد سماهم المرابطين أى للجهاد فى سبيل الله ونصرة دينه[1] :

« يا معشر المرابطين ! إنكم فى بلاد أعدائكم ، وإنى ميِّت فى يومى هذا لا محالة ، فإياكم أن تجبنوا أو تفشلوا فتذهب ريحكم ، وكونوا أُلْفَةً وأعوانا على الحق وإخوانا فى ذات الله تعالى . وإياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرياسة فإن الله يُؤْتى ملكه مَنْ يشاء ويَسْتخلف فى أرضه مَنْ أحبَّ من عباده . ولقد ذهبتُ عنكم فانظروا من تقدِّمونه منكم يقوم بأمركم : يقود جيوشكم ويغزو عدوكم ويقسم بينكم فَيْئكم ، ويأخذ زكاتكم وأعشاركم » .

وهو يناديهم باسم المرابطين حثا على جهاد برغواطة المارقة ، ويقول لهم إنكم تواجهون أعداءكم فاحذروا أن تجبنوا فى حربهم ، فيقضوا عليكم القضاء المبرم ، وينصحهم أن يتعاونوا على نصرة الحق وأن يكونوا إخوانا فى ذات الله ينشرون دينه الحنيف ، كما ينصحهم أن يبتعدوا عن هذا المرض الخبيث : مرض التحاسد على طلب الرياسة ، فإنه لم يهلك الدول العربية مرض مثله ، ويقول إن الله يؤتى ملكه من يشاء فلا داعى للتحاسد والتباغض . ويقول : لقد انتهيت وذهبت عنكم فاختاروا لكم زعيما عادلا ذا بأسٍ وقوة يقود جيوشكم ويغزو عدوكم ويقسم

---

(١) النبوغ المغربى ٣٤/٢ .

قسمة عادلة ما تغنمون من عدوكم وتؤدون إليه زكاتكم . وهكذا ظل الشيخ عبد الله بن ياسين ينصح للمرابطين حتى الأنفاس الأخيرة من حياته .

ومر بنا أن محمد بن تومرت المصمودى مؤسس دعوة الموحدين قد افترض لنفسه من دعوة الشيعة الإمامية التى تعرَّف على مبادئها أثناء مقامه بالعراق ثلاثة مبادىء هى أنه إمام ومهدى ومعصوم ، واقترض من مبادىء المعتزلة التى تعرف عليها هناك مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومبدأ التوحيد ، وهو عند المعتزلة يعنى نفىَ التشبيه بالمخلوقات عن الذات العلية نفيا باتًّا معارضين بذلك أهل السنة الذين يرون عدم تأويل الآيات القرآنية التى يفهم منها التشبيه مع الإيمان بترك ذلك لله جلَّ شأنه . ومن خطبة لابن تومرت قوله[1] :

« إن الله – سبحانه وله الحمد – مَنَّ عليكم أيتها الطائفة بتأييده ، وخصَّكم من بين أهل العصر بحقيقة توحيده ، وقيَّض لكم مَنْ ألفاكم ضُلاَّلا لا تهتدون ، وعُمْيًا لا تبصرون ، لا تعرفون معروفا ولا تُنكرون منكرا ، قد فشتْ فيكم البِدع ، واستهوتكم الأباطيل وزيَّن لكم الشيطان أضاليل ، وتُرَّهاتٍ ، أنزه لسانى عن النطق بها ، وأربأ بلفظى عن ذكرها ، فهداكم الله بعد الضلالة ، وبصَّركم بعد العمى ، وجمعكم بعد الفرقة ، وأعزَّكم بعد الذلَّة ، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين ، وسيورثكم أرضهم وديارهم . ذلك بما كسبته أيديكم وأضمرته قلوبهم ، وما ربُّك بظلام للعبيد » .

وابن تومرت فى هذه القطعة من خطبته يشير إلى مبدأين تعتنقهما جماعته هما المبدآن الاعتزاليان اللذان أشرنا إليهما : مبدأ التوحيد ، ويقول إن الله خصَّهم من بين أهل العصر بحقيقة توحيده ، ويقصد – كما قلنا آنفا – أنه منزَّه عن التشبيه بالمخلوقات ، ويقول إن الله خصَّهم بذلك من بين أهل العصر ويريد المرابطين وفقهاءهم من أهل السنة الذين لا يتأولون آيات التشبيه المذكور فى القرآن الكريم من مثل (يد الله فوق أيديهم) ويقولون علم ذلك عند الله بينما يتأول المعتزلة اليد بمعنى القدرة . والمبدأ الاعتزالى الثانى الذى أشار إليه ابن تومرت هو ما يزعمه دائما من أن خصوم جماعته من المرابطين لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا ، أما أتباعه الموحدون فهم – فى رأيه دائما – يأمرون بالمعروف وينكرون المنكر ، ولا يلبث أن يسميهم – لعدم أخذهم بهذين المبدأين – مارقين عن الدين خارجين عليه ، ينبغى حربهم ومحو سلطانهم ، وَيعِدُ أصحابه بأنهم سيزيلون هذا السلطان ويرثون أرضهم وديارهم .

وكان الموحدون يدعون للأخذ فى الفقه بمذهب داود الظاهرى القائل بإلغاء الإجماع

---

(١) النبوغ المغربى ٣٦/٢ .

والقياس أو الاجتهاد العقلى فى الأحكام الفقهية والاكتفاء بالكتاب أى القرآن والسنة أى الحديث النبوى . وأخذ بهذا المذهب فى كتبه ابن حزم الفقيه الأندلسى وأخذ به الموحدون كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، وانتصر للموحدين كثيرون من الشعراء والكتاب والفقهاء والخطباء . وللقاضى أبى حفص عمر السلمى خطبة ينتصر فيها للمذهب الظاهرى ضد المذاهب الأخرى ، وفيها يقول[1] :

« إياكم والقدماء وما أحدثوا فإنهم عن عقولهم حدَّثوا ، أتَوْا من الافتراء بكل أعجوبة ، وقلوبهم عن الأسرار محجوبة . الأنبياء ونورهم – لا الأغبياء وغرورهم – عنهم يُتَلَقَّى ، وبهم يُدْرَك السؤل : (عالم الغيب فلا يُظْهِر على غَيْبه أحدًا إلا مَن ارتضى من رسول) الدين عند الله الإسلام ، والعلم كتابُ الله وسنة محمد ﷺ ، ما ضَرَّ مَنْ وقف عندهما ما جهل بعدهما » .

وظن بعض من قرأ فى هذه الخطبة كلمة القدماء أنه يريد الفلاسفة وهو إنما يريد الأسلاف من الفقهاء الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة ، فهو يدعو دعوة الموحدين من إهمال فقههم وفتاويهم جميعا ، والرجوع إلى الكتاب والسنة كما يقول الموحدون وأهل الظاهر فى عصره ، وهو لا يخفى ذلك بل يعلنه إعلانا ، إذ يقول « العلم كتاب الله وسنة محمد ﷺ » ويقول فى موعظة له[2] : « لا علم إلا علم الكتاب والسنة ، هما أفضل العطايا والمنة » .

ونلتقى بالمنصورالمرينى يعقوب بن عبد الحق ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م –٦٨٥ هـ/ ١٢٨٧ م وكان بطلا مغوارا وكأنما نذر نفسه لحرب نصارى الإسبان مساعدة للمسلمين وبنى الأحمر فى إقليم غرناطة . وكان لا يزال يعد العدة من الخيل والسلاح ويعبر الزقاق مع جنوده الأشداء لغزو حصون النصارى بإسبانيا ومدنهم ، وكان ما يأخذه منهم يعطيه لبنى الأحمر ، أمراء غرناطة فهو لا يحاربهم طلبا لمغنم ، وإنما لما عند الله من ثواب المجاهدين فى سبيل دينه ونصرته . وأول سنة عبر فيها الزقاق بجنوده سنة ٦٦٤ هـ/١٢٦٦ م وعاد إلى عبوره بجيش كثيف سنة ٦٧٧ وأبلى فى الحرب حينئذ بلاء عظيما ، وبالمثل فى سنة ٦٨١ هـ/١٢٨٢ م واستولى على بعض حصونهم وتركها لبنى الأحمر ، وفى سنة ٦٨٥ هـ/١٢٨٦ م عبر الزقاق لجهاد النصارى وهزم نونيو جونذالث دى لارا جنوبى قرطبة هزيمة ساحقة . وفى أوبته أدركته المنية بالجزيرة الخضراء ، وله من خطبة يحث فيها جيشه على الجهاد[3] :

« يا معشرَ المسلمين وعصابةَ المجاهدين : إن هذا يوم عظيم ، ومشهد جسيم ، ألا إن الجنة قد فُتحت لكم أبوابها ، فخذوا فى طلابها ، فإن الله (اشترى من المؤمنين أنفسهم

(١) النبوغ المغربى ٣٧/٢ .
(٢) أزهار الرياض للمقرى ٣٥٩/٢ .
(٣) النبوغ المغربى ٣٨/٢ .

وأموالهم بأن لهم الجنة) فشمّروا عن ساعد الجدِّ ، معاشر المسلمين ، فى جهاد المشركين . فمن مات منكم مات شريدا ، ومَنْ عاش عاش غانما مأجورا حميدا ﴿اصْبِروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ .

وهى كلمة فَصلتْ من قلب مجاهد صادق أبلى فى سبيل دينه ونصرته بلاء عظيما ، ويبشر جيشه بأن الجنة قد فتحت أبوابها لاستقبال الشهداء المبرورين ، كما وعد الله عباده المجاهدين المؤمنين ، ويدعوهم إلى الجهاد بكل ما يملكون من قوة ، فإن من قُتل منهم شهيدا فاز برضوان ربه ، ومن عاش غنم من العدو غنما كبيرًا ، وأثابه الله ثوابا عظيما . ويذكرهم بآية كريمة تدعو إلى الصبر فى الحرب والمرابطة للعدو حتى النصر العظيم .

ومما أثر من خطب يوم الجمعة ومواعظها لأبى عبد الله محمد الرُّهونى الفقيه المالكى الكبير المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ/١٨١٥ م وكان قد اشتغل بالخطابة الدينية والموعظة ، وله مجموعة فى خطب الجمعة ، ومن خطبة له فى التذكير والترغيب[1] :

« أيها الناس : حَصْحص[2] لكم الحق فتبصَّروا ، وتبين لكم الرشد من الغَىِّ فالزموا الطاعة وتذكروا ، وحُمِلْتم على سلوك الطريق المستقيم فاستقدموا ولا تتأخَّروا ، وحُذِّرْتم من العدول عنه فخافوا الله واحذروا ، وأُسبغت عليكم النعم ظاهرة وباطنة فاعرفوا حقَّها واشكروا ، واعلموا أن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ، وإياكم والتقصير فى العمل فلن تَسْعَدُوا مع التقصير أو تُعْذَروا ، وكونوا من قوم أشرقت لهم أنوار الهداية فأبصروا ، وتُليت عليهم آيات الله فتدبَّروا ، ولا تكونوا ممن استعبدتهم الدنيا فشَرِبوا من كئوس حبِّها حتى سَكِروا ، وقطعوا أعمارهم فى اتباع شهواتها فخابوا وخسروا ، وانْهَجُوا سبيل الذين استعدوا لمواطن القيامة كأنهم شاهدوا أهوالها وحضروا ، ورأوا عذاب النار فكفّوا أنفسهم عن السوء وانزجروا ، وسمعوا ما أعدّ الله لأوليائه فى الجنة فاجتهدوا بالطاعة وبادروا » .

وواضح أن الرهونى يحسن رَصْفَ السجع فى خطبه ، ويحاول أن يستتم جرسها بما التزم فى نهاية عباراتها من حرف الراء المضمومة ، فهو يريد أن يخلب الأسماع بحسن بيانه وإحكام التقابل فى نهايات الأسجاع ، وليس ذلك فحسب ، فهو يعنى بلغته فيختار لها ألفاظا رصينة جزلة تحسِّن وقعها فى آذان المستمعين . وهو بجانب عنايته باختيار ألفاظه وانتخابها يوفر فيها ألوانا من الطباق المستحسن مثل : « بيَّن لكم الرشد من الغى » وقوله : « فاستقدموا ولا تتأخروا » وقوله : « وأسبغت عليكم النعم ظاهرة وباطنة » . ولا ريب فى أن الرهونى كان خطيبا فذا

(١) النبوغ المغربى ٤١/٢ .

(٢) حصحص الحق : ظهر .

وكان يؤثّر بخطابته ووعظه فى سامعيه تأثيرا بعيدا ، وهو خطيب مغربى من خطباء كثيرين كانت لهم نفس هذه الروعة فى الخطابة والوعظ .

٢

الرسائل الديوانية

أخذت الرسائل الديوانية تزدهر فى المغرب الأقصى منذ عهد يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين واستدعائه أبا بكر بن القصيرة رئيس ديوان المعتمد بن عباد وتكليفه برياسة ديوانه فى مراكش عاصمته ، وكان آية فى البيان والبلاغة ، فأرسى فى الديوان المراكشى تقاليد الكتابة الديوانية الأندلسية ، وظل رئيسا لهذا الديوان حتى وفاة يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ للهجرة ، وظلت له رياسته فى عهد ابنه على حتى وفاته سنة ٥٠٨ للهجرة . واحتفظت الذخيرة لابن بسام برسالتين[1] له كتبهما على لسان يوسف بن تاشفين ، أولاهما موجهة إلى صاحب قلعة بنى حماد فى الجزائر ، والثانية موجهة إلى ابن حمدين محمد بن على حين وَلِىَ القضاء بقرطبة سنة ٤٩٠ هـ/١٠٩٦ م ، وله يقول فيها :

« استَهْدِ الله يَهْدِك ، واستعنْ بالله يُعِنْك فى صدَرِك وورْدك[2] وتولَّ القضاء الذى ولاّكه الله بجِدٍّ وحَزْم ، وجَلَدٍ وعزم ، وأمْضِ القضايا على ما أمضاها الله تعالى فى كتابه وسنَّة نبيِّه ، ولا تُبالِ بَرغْم راغم ، ولا تشفق من ملامة لائم ، وآسِ[3] بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع قوىٌّ فى حَيْفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . ولا يكنْ عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له ، ولا أضعف من القوى حتى تأخذ الحق منه ، وانصحْ لله تعالى ولرسوله عليه السلام ولنا ولجماعة المسلمين . وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يُسلِّموا لك فى كل حق تُمْضيه ، ولا يعترضوا عليك فى قضاء تَقْضيه . ونحن أولا وكلهم آخرا مذ صرت قاضيا سامعون منك غير معترضين عليك فى حق . والعمال والرعية كافة سواء فى الحق » .

وواضح أن ابن القصيرة يتأثر فى رسالته إلى القاضى ابن حمدين برسالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى حين يدعوه إلى المساواة بين الناس فى وجهه وعدله ومجلسه حتى لا يطمع قوى فى حيفه ولا ييأس ضعيف من عدله ، وحين يقول له : « لا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له ، ولا أضعف من القوى حتى تأخذ الحق منه » . ومن الطريف فى الرسالة أن يوسف بن تاشفين يجعل القاضى فوقه وفوق الجنود والولاة المرابطين

(١) الذخيرة ، القسم الثانى ص ٢٥٧ وما بعدها .
(٢) صدرك : ما تصدر عنه . وردك : ما ترد إليه .
(٣) آسِ : سَوِّ .

وفوق الرعية ، فليس لأحد من كل هؤلاء الحق فى أى اعتراض على القاضى فى حكم من الأحكام ، فمنذ صار ابن حمدين قاضى الجماعة فى قرطبة أصبحوا جميعا خاضعين له . وهو جانب مشرق فى القضاء الإسلامى ، نجده فى كل بلد وكل دولة ، إذ كانت مكانة القاضى فوق مكانة الحاكم مهما بلغ من النفوذ والسلطان . وعُنى الدكتور محمود مكى فى المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد بتحقيق مجموعة من رسائل كتاب الديوان المرابطى فى عهد على بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ – ٥٣٧ هـ) بينها تسع رسائل لابن القصيرة من الرسالة الخامسة فى المجموعة إلى الرسالة الثالثة عشرة . والرسالة السابعة فى المجموعة أشبه بمنشور وجهّه على بن يوسف إلى أهل الأندلس بطاعة الوالى وأن لا يخالفوا عليه أو يعصوه فى أمر ، إذ يقول فيها[1] :

« إن الوالى النائبُ عنا فى تدبيركم وإقامة أموركم ، وسياسة صغيركم وكبيركم ، وقد فوَّضْنا إليه ذلك وأفردناه بالنظر فى دِقّه وجُلّه ، وقُلّه[2] وكُثره ، وما فعل من ذلك كله فنحن فعلناه ، وما قال فيه فكأننا نحن قلناه ، ولا نوقف ما أمضاه ، ولا نُمْضى ما وقّعه وأباه ، ولا نرى فى أحد منكم إلا ما يراه ، ولا نتولاّه كائنا ما كان إلا أن يتولاّه ، ولا نَرْضَى من أحواله ما لا يرضاه : بلساننا يتكلم ، وعمّا فى جَنانِنا يترجم ، وعلى ما يوافقنا يُسْدِى ويُلْحِم »[3] .

وهذا التفويض للوالى فى الأحكام من حسن السياسة ، فالحاكم الكبير – مثل على بن يوسف – يتضامن مع ولاته فى كل ما يفعلونه ويقولونه ، حتى تنتظم أمور الرعية ، ولا يتخذ الشذاذ الفرصة للخلاف مع الوالى مما قد يؤدى إلى الثورة . غير أنه كان ينبغى أن ينصح الولاة – مع ذلك – بالعدل مع الرعية ونصفة المظلوم والضعيف ، وأن يفتحوا أبوابهم للرعية حتى يسمعوا شكوى كل مظلوم أو متظلم . ويقول عبد الواحد المراكشى فى حديثه عن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إنه اجتمع له ولابنه على من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار[4] ، وفى حديثه عن أمير المسلمين على بن يوسف يقول : « لم يزل من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصَرَف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك كأبى القاسم بن الجد المعروف بالأحدب أحد رجال البلاغة وأبى بكر محمد بن محمد المعروف بابن القَبْطُرْنة وأبى عبد الله بن أبى الخصال وأخيه أبى مروان وأبى محمد عبد المجيد بن عبدون فى جماعة يكثر ذكرهم ، وكان من أنبههم عنده وأكبرهم مكانة لديه أبو عبد الله محمد بن أبى الخصال ، وحقّ له ذلك إذ هو أحد من انتهى إليه علم

(١) المجلد السابع من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد .

(٢) الدق والقل : القليل . الجل : الكثير .

(٣) يُسْدى ويلحم : ينسج .

(٤) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٢٧ .

الآداب ، وله مع ذلك فى علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الأرحب واليد الطولى[1] ، وله ديوان رسائل يدور بأيدى أدباء أهل الأندلس قد جعلوه مثالا يحتذونه ونصبوه إماما يقتفونه . وبمعهد المخطوطات بالقاهرة التابع للجامعة العربية نسخة من هذا الديوان ، وله أربع رسائل ديوانية فى مقال د . محمود مكى فى المجلدين السابع والثامن من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد بعنوان : « وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين » ونذكر قطعة من إحدى هذه الرسائل كتبها سنة ٥٠٧ للهجرة على لسان على بن يوسف بن تاشفين ، وهى موجهة إلى أهل الأندلس لحثهم على جهاد النصارى الإسبان وتعريفهم بأنه عَزَم على خوض معركة حامية الوطيس معهم ، وفى أولها يقول :

« كتابنا – أعزَّكم الله بتقواه ، وكَنَفكم بظل ذُراه ، ووفرَّ حظوظكم من حُسْناه – من حضرة مراكش – حرسها الله – يوم الاثنين من منتصف شوال من سنة سبع وخمسمائة بين يَدَىْ حركتنا يمَّنَ اللّهُ فاتحتها وعقباها . وقد قرعنا الظنابيب[2] ، وأشرعنا الأنابيب[3] ، وضمَّرنَا اليعاسيب[4] ، واستنفرنا البعيد والقريب ، مستشعرين إخلاص نيَّة ، وصِدْقَ حَمِيَّة ، فى نَصْر دين الإسلام ، ومنع جانبه أن يُضام ، أو يناله من عدوه اهتضام[5] . ونحن – وإن كنا قد بالغنا فى الاحتشاد والاستعداد ، واستنهضنا من الأجناد ، ما يُرْبِى على الحصر والتعداد ، فإنا نعتقد اعتقاد يقين بقول ربِّ العالمين ، فى كتابه المبين : ﴿قُلْ ما يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم﴾ : إن استنفار الدعاء ، واستفتاح أبواب السماء ، بخالص الثناء ، من أنفع الأشياء ، وأنجح الدعاء ، فيما أعضل[6] من الأدواء » .

ولعل فيما سبق من قيام كبار الكتاب فى الأندلس على الكتابة فى ديوان المرابطين بمراكش عشرات السنين ما يدل على أنهم وضعوا تقاليد الكتابة فى هذا الديوان وأرسوها فيه وظلت راسخة بعد عهدهم فى عهد الموحدين ومن جاء بعدهم ، ويتوقف القلقشندى فى كتابه : « صبح الأعشى » ليذكر التقاليد المتبعة فى الكتب الصادرة عن الخلفاء الموحدين ، ولا ريب فى أنها موروثة عن العهد السابق لهم عهد المرابطين ، ويقول القلقشندى إنها كانت تتخذ أحد أسلوبين[7] : إما أن تفتتح بلفظ من فلان إلى فلان ، وكان الرسم فيها أن يقال : « من أمير المؤمنين فلان » ويُدْعَى له بما يليق به ، ثم يؤتى بالسلام ، ثم يؤتى بالبعدية والتحميد والصلاة على النبى ﷺ والترضية عن الصحابة ثم عن إمامهم المهدىّ ، ثم يؤتى على المقصود ، ويختم

---

(١) المعجب ص ٢٣٧ .
(٢) قرع الظنابيب كناية عن الإسراع إلى الحرب .
(٣) أشرعنا الأنابيب : سددنا الرماح .
(٤) ضمَّرنا اليعاسيب : ذللنا الخيل للحرب .
(٥) اهتضام : ظلم .
(٦) أعضل : أعجز . الأدواء : الأمراض .
(٧) صبح الأعشى ٤٤٣/٦ .

بالسلام . والخطاب فيه بنون الجمع عن الخليفة وميم الجمع عن المكتوب إليه » . ويمثّل القلقشندى لهذا الأسلوب برسالة عن عبد المؤمن بقلم أبى جعفر بن عطية إلى محمد بن سعد المشهور باسم ابن مردنيش ، وسنعود إليها عما قليل . والأسلوب الثانى فى المكاتبة لعهد الموحدين – كما يقول القلقشندى – أن تفتتح المكاتبة بلفظ أما بعد ، والأمر فيه على نحو ما تقدم فى الأسلوب قبله بعد البعدية . ويمثل لهذا الأسلوب الثانى برسالة عن المستنصر بالله (٦٠٩ – ٦٢٠هـ) إلى بعض نوابه ، ومثلها رسالة عن يوسف ابن عبد المؤمن بقلم أبى الحسن بن عياض ، وسنعرض لها عما قليل .

ويذكر عبد الواحد المراكشى فى كتابه : « المعجب » كتّاب الإنشاء لعبد المؤمن المؤسس الحقيقى لدولة الموحدين ، وهم : أبو جعفر أحمد بن عطية ، وسنخصه بترجمة ، وكتب له بعده – كما يقول – أبو القاسم عبد الرحمن القالمى من أهل مدينة بجاية من ضيعة من أعمالها تعرف بقالم ، وكتب له معه أبو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش من أهل مدينة قرطبة[1] . وكتاب الإنشاء فى عهد ابنه يوسف – كما يقول المراكشى – هم أبو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش كاتب أبيه وأبو القاسم المعروف بالقالمى كاتب أبيه أيضا وأبو الفضل جعفر بن أحمد المعروف بابن محشرة ، من أهل مدينة بجاية كان يخدم أبا القاسم القالمى إلى أن مات فكتب مكانه[2] . وواضح أن ابن محشرة والقالمى من بجاية ، ولذلك ترجمنا لهما فى الجزء الخاص بالجزائر . وكتّاب ابنه يعقوب – كما يقول المراكشى – أبو الفضل جعفر بن محشرة ، وكتب له بعده أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش من أهل بُرْشانة من أعمال مدينة المرية ، ولم يزل كاتبا له ولابنه محمد (الناصر) ولابن ابنه يوسف[3] (المستنصر) إلى أن توفى سنة ٦١٨ هـ/١٢٢٠ م . وهؤلاء هم كتاب الدولة المهمين حتى العقد الثالث من القرن السابع قبل نشوب الخلاف والفتن والحروب بين أبناء أسرة عبد المؤمن وقبل خروج الأندلس من طاعتهم .

ونشر المستشرق بروفنصال مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية ، وهو مملوء بالتصحيف ويحتاج إلى تحقيق ويشتمل على سبع وثلاثين رسالة ، منها ست عشرة لأبى جعفر أحمد بن عطية على لسان عبد المؤمن ، وسنفرد له ترجمة ، ومنها ثلاث لأخيه أبى عقيل عن عبد المؤمن ، ولم يذكره المراكشى بين كتابه ، وثلاث أخرى لأبى الحسن بن عياش أولاها عن عبد المؤمن والاثنتان الأخريان عن ابنه يوسف ، ورسالة لأبى الحكم بن المرخى عن عبد المؤمن ولم يذكره المراكشى أيضا بين كتاب عبد المؤمن ، وثمان رسائل لابن محشرة عن يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب ، وثلاث رسائل لأبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن

(١) المعجب للمراكشى ص ٢٦٧ وما بعدها .
(٢) المعجب للمراكشى ص ٣١٦ وما بعدها .
(٣) المعجب ص ٣٣٨ .

عياش من أهل بُرْشانة كما أسلفنا : رسالة عن يعقوب واثنتان عن ابنه الناصر ، ويقول ابن الأبار فى ترجمته له بكتابة التكملة إن السلطان (يعقوب) بالمغرب استكتبه فى سنة ٥٨٦ فنال دنيا عريضة[١] إذ كان صاحب القلم الأعلى – كما يقول ابن الخطيب فى الإحاطة – على عهد المنصور وابنه الناصر ونضيف أيضا على عهد المستنصر حتى سنة ٦١٨ كما مرَّ بنا ، ويقول ابن الخطيب إنه كان لا يكلم أحدا من الناس إلا بكلام معرب . ويقول المراكشى فى المعجب : جرى الكتاب بعده على أسلوبه ، وسلكوا مسلكه لما رأوا من استحسان خلفاء الموحدين لطريقته[٢] : وفى رأينا أنهم اتبعوا طريقته فى الكتابة هو وكبار الكتاب الأندلسيين المذكورين منذ عصر المرابطين كما قلنا آنفا . وذكرنا أن أبا الحسن بن عياش له فى مجموع الرسائل الموحدية ثلاث إحداها على لسان عبد المؤمن وهى تتبع الأسلوب الثانى الذى ذكره القلقشندى مبتدئة بالبعدية على هذا النحو[٣] :

« أما بعد حمد الله الذى عَمَّ بنواله ، وخصَّ أهل ولايته بقبوله وإقباله ، والصلاة على محمد عبده ورسوله ، وعلى صحبه الأكرمين وآله ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، القائم بإتمام أمر الله وإكماله ، المؤيد بالآيات العصمية ، والبيِّنات الحكمية ، فى كافَّة أقواله وأعماله ، فإنا كتبناه إليكم – كتب الله لكم أعمالا زاكية نامية ، وآمالا فى بلوغ مرضاته مساعفة مؤاتية – من حضرة مراكش – حرسها الله – وكوافل العصمة لهذا الأمر العزيز تضرب بقدحها الأعلى[٤] ، وتوجب على [أهل] [٥] الاتصال حظوة الامتثال[٦] لأهل كلمة الله العليا ، وتجمع لهم [وعدا[٧]] حتما مقضيا ، ووعدا [حتما [٧]]مأتيًّا بين خير الآخرة وخير الدنيا . وبثبوت هذه القاعدة تستوثق[٨] أحوال هذا الأمر الكريم على مقتضى الأقدار المساعدة ، وتستنُّ اطرادا واتساقا على طريقة واحدة » .

وفى جميع الرسائل فى هذه المجموعة الموَّحدية نجد الصلاة على ابن تومرت والإشادة به وأنه الإمام المهدى المعصوم مستعيرة هذه الألقاب كما مرَّ بنا من الشيعة الإمامية ، ويضيف أبو الحسن عبد الملك (بن عياش أنه قام بإتمام أمر الله وإكماله) يشير بذلك إلى المبدأين المتممين لدعوته : مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومبدأ التوحيد بمعنى تنزيه الله عن التشبيه بالمخلوقات . ويجعل أبو الحسن كوافل العصمة شاملة لعهد عبد المؤمن ، ويسميه مع شيوخ الموحدين أهل كلمة الله العليا ، وكلمته – فى رأيه – إنما هى دعوة الموحدين بمبادئها التى ذكرناها . والرسالة

---

(١) التكملة لابن الأبار (طبع مدريد) رقم ٩٥٢ .
(٢) المعجب ص ٣٣٩ .
(٣) مجموع رسائل موحدية (طبع الرباط) ص ٩٣ .
(٤) القدح الأعلى : الحظ الأوفر ، وأصله أحد قداح الميسر .
(٥) زيادة للسياق .
(٦) فى الأصل : الاحتصال .
(٧) زيادة بدلالة السياق .
(٨) فى الأصل : تستوسق .

موجهة من عبد المؤمن إلى طلبة (دعاة) بعض مدن الأندلس يخبرهم بوصول رسالتهم فى غزواتهم للروم ويحرضهم على حربهم واستئصال شأفتهم وجذورهم . ولأبى الحسن عبد الملك بن عياش رسالة[1] عن يوسف بن عبد المؤمن إلى محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش الثائر فى شرقى الأندلس يدعوه سنة ٦٦٤ هـ/١٢٦٤ م إلى الدخول فى طاعة الموحدين ، وهى فى فاتحتها تتبع الأسلوب الأول الذى ذكره القلقشندى ، وتستهل بهذه الصورة :

« من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين – أيَّده الله بنصره ، وأمدَّه بمعونته – إلى أمير شرق الأندلس أبى عبد الله محمد بن سعد – أمدَّه الله بتوفيقه ، وأعزَّه بطاعته وتقواه – سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد فإنا نحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، ونشكره على آلائه ونعمه ، ونصلِّى على سيدنا محمد نبيِّه ورسوله ، والحمد لله الذى أقام لأمره الذى هو سفينة النجاة ، وعصمة المحيا والممات ، دعاةً يأخذون بالحجز عن النار ، ويقيمون لمن ضَلَّ السبيل ، وعدم الدليل ، من معالم الهداية إلى صراطه الواضح ، ومنهجه اللائح ، أهدى علم وأرفع منار ، ويتقدمون فى إبلاغ حجته ، وإيضاح محجَّته[2] ، ببوالغ الإنذار والإعذار ، ويصرِّفون بما أودعوا من سرِّه المكنون ، لبثِّه فى الظهور والبطون ، والسهول والحزون ، وجوه العناية الآخذة بمجامع الأقطار ، الموجهة بالإعراض عن الأعراض إلى ما يقضى بهذه الخليقة ، من ركوب هذه الطريقة ، إلى سعادة هذه الدار ، وسعادة تلك الدار (الآخرة) وصلَّى الله على محمد عبده ورسوله مشكاة الأضواء والأنوار ، ولباب الاجتباء والاختيار ، المحبوّ[3] بمعدن بيته الأشرف ، ونسبه الأشهر الأعرف ، سرُّ هذا النبأ السيار وارث ذلك المقام الذى هبَّتْ تباشيره بأسماع ذوى الإصاخة[4] لمواقع الاستبشار ، ورضى الله عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، القائم بأمر الله على أوفى الاعتقاد بتأييد الله وأتم الاستظهار ، الماضى قُدُمًا فى التصميم وإنفاذ العزيم[5] على أمر طلق وأبعد مضمار ، المعان فيما دعا إليه ، ونبَّه عليه ، بالعصمة التى لا تضرُّه معها إباءة أباة[6] ولا كفر كفار . وعن خليفته وصاحبه الإمام أمير المؤمنين ، ممشِّى أمره العزيز على ما له[7] من المراسم المحفوظة والآثار ، ومقيمه على حدوده المكلوءة الملحوظة دون ونية ولا إقصار ، والناصر له بكل معنى تتوجَّه إليه داعية الاستبصار » .

وهو يحمد الله فى فاتحة الرسالة لإسناده الأمر إلى يوسف بن عبد المؤمن وشيوخ الموحدين ، ويسميهم دعاة ، ويقول إنهم يحجزون بدعوتهم الناس عن النار ويقيمون لهم أهدى علم وأرفع

(١) تنظر مجموع رسائل موحدية ص١٤١ ومابعدها .
(٢) فى الأصل : نجحته .
(٣) فى الأصل : المخبوء .
(٤) فى الأصل : الإضاحة .
(٥) فى الأصل : العريم .
(٦) فى الأصل : آباء .
(٧) فى الأصل مآله .

منار حتى لا يضلُّوا الطريق السوى المستقيم عن الهداية الراشدة الصحيحة ، وسرها المكنون ، لنشرها فى السهول والحزون وكل مكان حتى يسعد الناس فى الدنيا والآخرة ، ويشيد بالرسول الكريم ثم يدعو لابن تومرت الله ليرضى عنه ، ويسميه الإمام المعصوم المهدى المعلوم . والرسائل الموحدية جميعا تذكره فى فاتحتها وتضفى عليه هذه الصفات التى أضفاها على نفسه مقترضا لها من بيئة الشيعة الإمامية ، ويقول إنه قام بدعوته ونشرها فى الناس بتأييد الله ، وإن عبد المؤمن خليفته سار على هداه وما وضع للدعوة من المبادىء والمراسم المحفوظة . ونراه يقول فى وصف ابن تومرت فى الرسالة : « إن رسول الله ﷺ بَشَّر بعلامات المهدى وأخبر عن أماراته الشاهدة له الدالة عليه من الاسم والنسب والزمان والمكان والفعل » وكان ابن تومرت لفَّق له نسبا – كما يقول المؤرخون – يصله بالرسول ﷺ ويقول أيضا عنه : « القائم فى آخر الزمان بعد شمول الضلالة وتلدد (تلبث) الحيرة وتموُّج الفتنة وارتفاع العلم وفشوُّ الظلم . فظهر لما خصَّه الله به من الهداية ، وعلَّمه من الحكمة ، وأحلَّه مقام العصمة ونوَّله[1] من معقل الإمامة ، وخرق له من العادات ، وأجرى على يديه من الآيات ، ما صدَّق ما نطقت به الآثار ، وتضمنته الأخبار ، واحتوت عليه الصحف وتداولته النقلة ، مما أعطى القلوب العارفة الطمأنينة » . ويشيد بدعوته وأنها ستظل قائمة إلى قيام الساعة ، كما يشيد بيوسف خليفة أبيه عبد المؤمن الناشر لدعوة ابن تومرت والحامل العباد على طريقته المنصور المظفر دائما .

وتظل الرسائل الموحدية تبدىء وتعيد فى فواتحها بالإشادة بابن تومرت وأنه الإمام المهدى المعصوم إلى أن تولَّى المأمون إدريس الخلافة سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م ، فأعلن إلغاء هذه الألقاب لابن تومرت وأزال اسمه من السكة وخطبة الجمعة ، وأذاع فى الدولة رسالةً بذلك من إنشائه ، يقول فيها[2] :

« من عبد الله إدريس أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين إلى الطلبة (دعاة الموحدين) والأعيان والكافَّة ومَنْ معهم من المؤمنين والمسلمين ، أوزعهم[3] الله شكر نعمه الجسام ، ولا أعدمهم طلاقة أوجه الأيام الوِسام[4] ، وإنا كتبناه إليكم – كتب الله لكم عملا منقادا ، وسعدا وقَّادا – وللحقِّ لسان ساطع وحكم قاطع ، وقضاء لا يُرَدّ ، وباب لا يُسَدّ ، وظلال على الآفاق ، تمحو النفاق ، والذى نوصيكم به تقوى الله والاستعانةَ به ، والتوكُّل عليه ، ولتعلموا أننا نبذنا الباطل وأظهرنا الحق ، وأن لا مهدى إلا عيسى بن مريم (يقصد أنه تكلم فى المهد) الناطق بالصدق ، وتلك بدعة قد أزلناها .. كما أزلنا لفظ العصمة عمن لا تثبت له عصمة ، وأسقطنا عنه وصفه ورسمه .. وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة ،

---

(١) فى الأصل : نواه .
(٢) النبوغ المغربى ٢/١١١ .
(٣) أوزعهم : ألهمهم .
(٤) الوسام : الحسان .

فما الظن بمن لا يدرى بأى يد يأخذ كتابه ، أُفٌّ لهم قد ضلوا وأضلّوا ، وسقطوا فى ذلك وزلّوا ، اللهم اشهد أننا تبرّأنا منهم تبرؤ أهل الجنة من أهل النار » .

غير أن عهد المأمون سرعان ما انقضى وعاد الخلفاء وشيوخ الموحدين إلى أن ابن تومرت هو الإمام المهدى المعصوم ، وظلت دعوته حية إلى أن قضت عليها الدولة المرينية . ويقول القلقشندى بعد عرضه لأسلوبى الرسائل المستخدمين أيام الموحدين : « ثم طرأ بعد ذلك الإكثار من الألقاب لخلفائهم فى المكاتبات الصادرة عنهم والمبالغة فى مدحهم وإطرائهم[1] » وفات القلقشندى أن يذكر أيضا الإكثار من ألقاب المرسل إليه إذا كان حاكما كبيرا ، ويوضح ذلك فى عصر الدولة المرينية رسالة للسلطان أبى الحسن المرينى كتبها إلى السلطان المصرى الناصر محمد بن قلاوون خادم الحرمين حينذاك فى شأن رَكْب الحجاج المغاربة ومصحفٍ خطّه بيده ووقفه على الحرم النبوى الشريف ، والرسالة تستهل على هذه الصورة[2] :

« من عبد الله على أمير المسلمين ناصر الدين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البَرَّين ، مالك العُدْوتين (المغرب والأندلس) ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البَرَّين ، وسلطان العُدْوَتين أبى سعيد بن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين ، ملك البَرَّين وسلطان العُدْوَتين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، منح الله التأييد مقامه ، وفسح – لفتح معاقل الكفر ، وكسر جحَافل الصُّفْر – أيامه . إلى السلطان الجليل الكبير الشهير العادل الفاضل الكامل الكافل الملك الناصر المجاهد المرابط المؤيَّد المنصور الأسعد الأصعد الأرقى الأوفى الأمجد الأنجد الأفخم الأضخم الأوحد ناصر الدين عاضد كلمة المسلمين ، محيى العدل فى العالمين ، فاتح الأمصار ، حائز ملك الأقطار ، مفيد الأوطار ، مبيد الكفار ، هازم جيوش الأرمن والفَرَنج والكُرْج والتتار » .

ويستمر طويلا فى إضفاء مثل هذه الألقاب عليه مع ما يطوى فيها من مبالغات ، ويذكر أن أباه قلاوون العظيم ويكيل له هو الآخر الألقاب . ويدعو له ويسلم عليه قائلا : « أبقى الله ملكه موصول الصولة والاقتدار ، محميَّ الحَوْزة حاميا للديار ، حميد المآثر المأثورة والآثار ، عزيز الأولياء فى كل موطن والأنصار ، سلام كريم ، زاك عميم ، تُشْرق إشراق النهار صفحاته ، وتعبَق عن شذا الروض المعطار نفحاته ، يَخُصُّ إخاءكم العلىَّ ، ورحمة الله وبركاته » . وتمضى الرسالة بعد ذلك مسجوعة من أولها إلى نهايتها ، والسجع فى الرسائل بالمغرب قديم منذ عصر الموحدين .

ويظل فن الرسائل مزدهرا فى عصر السعديين ، ويجمع الأستاذ عبد الله كنون طائفة كبيرة

(١) صبح الأعشى ٤٤٦/٦ .

(٢) النبوغ المغربى ١١٥/٢ .

منها وينشرها باسم رسائل سعدية ، ومنها رسالة بقلم عبد العزيز الفشتالى صاحب القلم الأعلى ورئيس ديوان الإنشاء فى عهد المنصور الذهبى وهى موجَّهة على لسانه إلى « سكية » أمير كاغو عاصمة السودان الغربى الذى تولى الحكم هناك سنة ٩٩٦ هـ/ ١٥٨٨ م قبل غزو المنصور لبلاده واستيلائه عليها وخلعه سنة ٩٩٩ للهجرة ، وفيها يقول[١] :

« إلى كبير كاغو وأميرها ، ومالك زمام أمورها وتدبيرها ، والمرجوع إليه – عند خاصتها وجمهورها ، الأمير الأجل ، الأثيل[٢] الأحفل – الأمر – سكيَّة ، وصل الله كرامته ، وجعل التقى سمته وعلامته ، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ، أما بعد حمد الله مسهِّل المرام ، وميسِّر أسباب الكمال والتمام ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد شفيع الأنام ، المبعوث بالحنيفية السمحاء إلى الخاص والعام ، والرضا عن آله الأئمة الأعلام ، وخلفاء الإسلام ، وعن أصحابه الذَّابِّين عن كلمته بالسنان والحسام ، ومواصلة الدعاء لهذا الجناب الكريم (جناب المنصور الذهبى) بالعزِّ السامى المقام ، والنصر المنشور الرايات والأعلام ، فإنا كتبناه إليكم من حضرة فاس المحروسة بالله ، وعناية الله وارفة الظلال ، ونواسم النصر والإقبال دائمة الهبوب بالبُكَرِ والآصال ، ولله المنَّة » .

ويذكر الفشتالى بعد ذلك الغرض من رسالته ، وهو أن معدن الملح فى بتغازى (بين تمبوكتو ودرعة فى جنوبى المغرب الأقصى من إيالة المنصور الذهبى وفى حكم إمامته وأنه يختص ببيت مال المسلمين ، ولذلك رأى المنصور أن يضع عليه خراجا ينفع المسلمين ويضر أعداء الله الكافرين ، ويذكر له أنه جعل الخراج مثقالا على كل جمل من سائر الإبل التى تحمل هذا المعدن ، ويقول له إن ما سنحصل عليه من الأموال سيصرف فى سبيل الغزو والجهاد وفى أرزاق العساكر الأجناد ، التى جعلناها لنكاية عدو الدين بالمرصاد ، واعتددناها لحياطة البلاد والعباد . ثم يقول محببا له فى الرضا عن دفع بتغازى لهذا الخراج : إن هؤلاء الجنود الذين سيأخذون أرزاقهم أو بعبارة أخرى رواتبهم من هذا الخراج هم « جنود الله التى لولاها – وما حجزت بينكم وبين طواغيت الشرك سيوفُها القاصمة ، وضربت فى وجه الكفر دونكم بأسوارها العاصمة ، وخضدت من شوكة الشرك باستئصال حماته وأنصاره ، ومنازلته على الدوام فى عُقْر داره – لفاض عليكم طوفانه السائل ، وسال على أرضكم منه شؤبوب[٣] هاطل ، وكبحت عنكم عنان الكفر حتى نمتم فى كفالتها آمنين ، وفى حياطتها وادعين ومطمئنين » . ويطلب إلى سكيّة الإسعاف والإسعاد وأن لا يسعى فيما يبطل هذه الفريضة من الخراج التى تعود بالنفع على الإسلام وتؤيد حزب الله فى مواصلته لقتال عبدة الأصنام .

(١) راجع الرسالة فى كتاب رسائل سعدية لكنون ص١٣٢ .

(٢) الأثيل : الأصيل .

(٣) الشؤبوب : الدفعة من المطر .

والرسالة مسجوعة فى لغة رصينة امتاز بها الفشتالى – فى شعره كما مرَّ بنا – وفى رسائله ونثره .

وتظل فى العصر العلوى الرسالة الديوانية محبَّرة يسجع فيها الكتاب ويتأنقون صورا مختلفة من التأنق . ويشير من كتبوا عن التاريخ الأدبى لأيام العلويين إلى رسائل دينية كتبها السلاطين العلويون ، وقلما استشهدوا بشىء منها ، وينوهون برسالة كتبها محمد بن إدريس العمراوى المتوفى سنة ١٢٦٤ هـ/١٨٤٧ م بلسان السلطان العلوى عبد الرحمن بن هشام إلى ابنه الأمير محمد بشأن الحملة التأديبية الموجهة إلى قبيلة زمور وفيها يقول[1] :

« كنا أردنا الإبقاء على قبيلة زمور رحمة وإشفاقا ، وحَمْلَهم على الاستقامة بالإرهاب بالشدة فى بعض الأمور هداية وإرفاقا ، فلم يرد الله بهم خيرا لفساد نيتهم ، وخبث طوِيّتهم ، واتكالهم على حَوْلهم وقوتهم ، وما رأوا منا ليِّنا وسدادًا ، إلا ازدادوا شدة وفسادا ، ولا أظهرنا لهم عظة وإرشادا ، إلا أظهروا تطاولا وعنادا ، وما أخَّرنا الفئة المنصورة عن الركوب إليهم إبقاء وإلفا ، إلا ظنوا ذلك عجزا وضعفا ، قد طَمَسَ الإعجاب منهم بصرا وسمعا ، ولم يروا أن الله قد أهلك قبلهم من القرون من هو أشد منهم قوة وأكثر جمعا » .

٣

الرسائل الشخصية

طبيعى أن تكثر الرسائل الشخصية فى المغرب الأقصى منذ القرن السادس الهجرى لاكتظاظه بالكتَّاب منذ ذلك الحين ، ومن طريف ما نلتقى به فى القرن السادس رسالة للقاضى أبى موسى بن عمران المتوفى سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م كتب بها إلى ابن له بفاس فى طلب العلم ، وهى تمضى على هذه الصورة[2] :

« إلى ولدى .. هداه الله وصانه ، وجمَّله بالعلم والتَّقْوى وزانه . كتبته إليكم عن اشتياق كثير ، وبمشيئة الله – تعالى – تتيسَّر الأمور ، ويتكاتف السرور ، وإذا وجدتكم – على ما أحبه من أدوات الحفظ والأداء ، ولزام آداب العقلاء – جازيتكم بما يُرْضيكم ، وبما يزيد على أقصى تمنِّيكم ، وقد أجمعت الأئمة على أن الراحة لا تُنال بالراحة ، وأن العلم ، لا يُنال براحة الجسم ، فادرُسْ تَرْوُس ، واحفظ تُحْفظ ، واقرأ تَرْقَ . ومهما ركنتَ إلى الدَّعة كنت فى

(١) الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية للدكتور الأخضر ص ٤١٢ .

(٢) النبوغ المغربى ١٦٥/٢ .

أهل الضَّعَة . وما رأيت الناس مجتمعين على حَمْده فاجتلبْه ، وما رأيتهم مجتمعين على ذَمِّه فاجْتَنِبْهُ ، والأعدل الأقسط ، أن تسلك السبيل الأوسط :

وما المـــرءُ إلا حيث يجعل نفسَه ففى صالح الأعمال نفسَك فاجعلِ »

والرسالة من والد فقيه قاض يأمل لابنه مستقبلا علميا يرفعه بين العلماء ، وهو يدعو له أن يتجمَّل بالعلم والتقوى ويزدان بهما ، فهما الزينة الحقيقية للإنسان ، ويقول له إنه سيكافئه مكافأة ترضيه ، إذا وجده على ما يتمناه له من حسن الحفظ والأداء اللغوى للكلام ، ويذكر له أن ما يتمناه الشاب فى المستقبل من الراحة والطمأنينة لا ينال براحة الجسم والكسل ، ويقول له : ادرس وتعمق فى الدرس حتى يأتى يوم ترؤس فيه أقرانك واحفظ المتون والعلوم تُحْقَظِ ، وأكبَّ على القراءة يرقَ فكرك وترق بين الناس ،أماإذا ركنت إلى الكسل والدعة كنت من أهل الضَّعة والانحطاط والخسَّة . وإذا رأيت الناس يجمعون على مدح شىء وحمده فاجتلبه واكتسبه ، وإذا رأيتهم يجمعون على ذم شىء فاجتنبه وابتعد عنه . ويقول له إنه ينبغى لك دائما أن تتخذ لنفسك فى الحياة السبيل الأوسط ، حتى لا يلوِّمك أحد على الإفراط والمبالغة فى شىء ولا على التفريط والتقصير فى شىء ، فخير الأمور الوسط . ويذكر له أن كل شخص يضع نفسه فى المنزلة التى يختارها لنفسه ، وينبغى أن تضع نفسك دائما فى خدمة الأعمال الطيبة الصالحة . ويرسل أبو القاسم الحسنى الشريف فى العهد المرينى قصيدة مع رسالة فى شبابه إلى ابن هانىء السبتى الذى مر بنا أنه توفى شهيدا فى جبل طارق سنة ٧٣٧ هـ/١٧٣٧ م ويرد عليه ابن هانىء برسالة طويلة جاء فيها[١] :

« هذا – بُنَىَّ – واصل الله لى ولك علوَّ المقدار ، وأجرى – وَفْقَ أو – فوق إرادتك وإرادتى لك جارياتِ الأقدار ، ما سنح به الذهن الكليل ، واللسان الفليل ، فى مراجعة قصيدتك الغَرَّاء ، الجالبة السرَّاء ، الآخذة بمجامع القلوب ، الموفِّية بجوامع المطلوب ، الحسنة المهيع[٢] والأسلوب ، المتحلية بالحلى السنيَّة ، العريقة المنتسب فى العُلا الحسنية .. وإنك واحد حلبةِ البيان ، والسابق فى ذلك الميدان يوم الرهان ، فكان لك القِدَم ، وأقرَّ لك مع التأخر السابق الأقدم ، فوَحَقِّ فصاحة ألفاظٍ أجدتها حين أوردتها ، وأسلتها حين أرسلتها ، وزِنْتها حين وزنتها ، وبراعة معانٍ سلكتها حين ملكتها ، وأصَّلْتها[٣] حين فصَّلتها ، ونظامٍ جعلته بجسد البيان قلبا ولِمعصمه قُلْبا[٤] ، وهَصَرْتَ حدائقه غُلْبا[٥] ، وارتكبت رويَّه صَعْبًا .. بُنَىَّ ! كيف رأيت للبيان هذا الطَّوْع ، والخروج فيه من نوع إلى نوع ، أين صفوان بن إدريس ، ومحلّ

(١) النبوغ المغربى ١٥١/٢ .
(٢) المهيع : الطريق البين .
(٣) أصلت : أبرز .
(٤) القلب : السوار يكون نظما واحدا .
(٥) هصر : جذب وأمال . غلبا : كثيرة الأشجار .

دعواه بين رحلة وتعريس[1] ، كم بين ثُغاء بقر الفلاة وزئير ليث الفَريس[2] ، كما أنى أعلم قطعا وأقطع علما ، وأحكم قضاء وأقضى حكما ، أنه لو نظر إلى قصيدتك الرائعة ، وفريدتك الحالية الفائقة ، المعارَضة بها قصيدته ، المنتسخة بها فريدتُه لذهب عرضا وطولا ، ثم اعتقدلك اليَدَ الطُّولى ، وأقرَّ فارتفع النزاع ، وذهبت له تلك الغايات والأطماع ، ونَسيَ كلمته اللؤلؤية ، ورجع عن دعواه الأدبية ، واستغفر ربَّه من الأُلْهِية » .

ويبدو أن أبا القاسم الحسنى الشريف نظم قصيدته معارضة لقصيدة بديعة لصفوان بن إدريس الذى شهد له أقرانه ومعاصروه الأندلسيون بالبراعة الشعرية الفائقة ، وسموا قصيدته القصيدة اللؤلؤية ، ولعله أرسل بها مع قصيدته المعارضة إلى ابن هانىء السبتى ليشهد له بتفوقه . وهو يستهل رسالته لأبى القاسم بأن قصيدته تأخذ بمجامع القلوب ، ويشيد ببلاغته وأنه واحد حلبة البيان ، والسابق يوم الرهان ، إذ هو الأرسخ قدما مما يجعل صفوان بن إدريس السابق الأقدم يشهد له بروعة بلاغته . وينوه ابن هانىء بفصاحة ألفاظه وبراعة معانيه ، ويقول أين بيان صفوان بن إدريس من بيانك ، ويبالغ فى ذلك قائلا إن بيانه كثغاء أو صياح بقر الفلاة بينما بيانك كزئير الأسد وهو ينهش فريسته . وزعم له أن صفوان لو استمع إلى قصيدته البارعة وفريدته التى عارضه بها لنسخت قصيدته كما تنسخ الريح آثار الديار ولأقرَّ لك بالبراعة الشعرية وأن قصيدتك تفوق قصيدته اللؤلؤية ، واستغفر ربه من دعواه .

وكان ابن الخطيب أديب غرناطة المشهور فى القرن الثامن الهجرى يكاتب أدباء المغرب الأقصى المشهورين ويساجلهم بالشعر تارة ، وبالرسائل تارة أخرى ، وممن أرسل إليهم إحدى رسائله ليساجله أبو جعفر الجنَّان المكناسى محاولا أن يحرِّك قريحته الأدبية ، فرد عليه برسالة استهلها بثلاثة أبيات مشيدا فيها ببيانه ، وفيها يقول منوِّها برسالته إليه[3] :

« جلوتَ علىَّ من بنات فكرك عقائلَ نواهد ، وأقمتَ بها على معارفك الجمَّة دلائلَ وشواهد ، واقتنصتَ بشوارد بديهتك من المعالى أوابد شوارد ، وفجَّرت من بلاغتك وبراعتك حياضا عذبة الموارد ، ثم كلفتنى من إجراء ظالعى فى ميدان ضليعها[4] ، مقابلةَ الشمس النيرَّة بالسِّراج عند طلوعها ، فأخلدتُ[5] إخلاد مهيض الجناح ، وفررت فرارَ الأعزل عن شاكى[6] السلاح ، وعلمت أننى إن أخذت نفسى بالمقابلة ، وأدليت دَلْوَ قريحتى للمساجلة ، كنت كمن كلَّف الأيام رجوع أمسها ، أو طلب ممن علته السماء محاولة لمسها .. ثم إن أمرك – يا سيدى –

---

(١) تعريس : إقامة .
(٢) الفريس : ما يفترس من الحيوانات .
(٣) النبوغ المغربى ٢/١٥٥ .
(٤) الظالع : الأعرج . الضليع : القوى المتين .
(٥) أخلد : سكن وفكر .
(٦) شاكى السلاح : كامل السلاح .

لا يُحَلّ وثيقُ مُبْرمه ، ولا يَحلُّ نَسْخُ محكمه ، فامتثلت امتثال من لم يجد فى نفسه حرجا من قضائك ، ورجوت حُسْنَ تجاوزك وإغضائك ، أبقاك الله قطبا لفلك المكارم والمآثر ، وفَصًّا لخاتم المحامد والمفاخر » .

وهو يشيد ببيان ابن الخطيب فى رسالته ، ومعروف أنه أحد بلغاء الأندلس بل العرب قاطبة ، وأبو جعفر يحكم اختيار ألفاظه وسجعاته ، ويضيف إلى ذلك تشبيهات واستعارات بارعة ، من ذلك تشبيهه فى جذبه له لمساجلته بمن يحاول أن يجرى فرسا ظالعا أعرج مع فرس ضليع قوى متين أو بمن يحاول مقابلة الشمس المنيرة عند طلوعها بسراج لا يكاد ضوءه فى نورها يبين ، وسكن محسًّا كأنه مهيض الجناح ، بل لقد جمع نفسه وقرر الفرار من المساجلة فرار الأعزل من حامل السلاح وشاهره ، ويخال نفسه إن أدلى دلو قريحته عازما على المساجلة كان كمن يكلف الأيام أن ترد أمسها عليه ، بل كمن يطلب من شخص لمس السماء بيديه . ثم يعود إلى نفسه فيرى أن ليس من حقه أن ينقض أمرا لابن الخطيب أو ينسخ حكما له ، فامتثل راجيا منه تجاوزه وإغضاءه عن ضعفه فى البيان ، ويدعو الله أن يبقى ابن الخطيب قطبا للمحامد والمآثر وفَصًّا نفيسا لخاتم المكارم والمفاخر . وكان ابن الخطيب فى عصره يُعَدّ زعيم الأدب والأدباء ، وأهدى إليه أبو القاسم الشريف الحسنى ديوانا له سماه جهد المقل ، ومعه الرسالة التالية[1] :

« الحمد لله الكبير المتعال المسئول أن يعصمنا من خطل القول وزَلل الأعمال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأرسال . هذه أوراق ضمَّنتها جملة من بنات فكرى ، وقطَعًا مما يجيش به بعض الأحيان صدرى ، ولو حزمت لأضربتُ عن كَتْبها كلَّ الإضراب ، ولزمت فى دَفْنها وإخفائها دِينَ الأعراب ، ولكنى آثرت على المَحْوِ الإثبات ، وتمثّلت بقولهم : « إن أحسن ما أُوتيته العرب الأبيات . وإذا هى عُرِضتْ على ذلك المجد ، وسألها كيف نجتْ من الوَأْدِ ، فقد آويتها من حرمكم إلى ظل ظليل ، وأحللتها من فِنائكم إلى معرَّسٍ ومَقِيل[2] ، وأهديتها علما بأن كرمكم بالإغضاء عن عيوبها كفيل ، فاغتنمْ قليل الهدية منى إن جهد المقلِّ غير قليل ، فحسبها شرفًا أن تبوَّأتْ فى جنابك كنفا ودارًا ، وكفاها فخرا ومجدا أن عقدتْ بينها وبين فكرك عقدا وجِوارا » .

وهو يقول إن أوراق الديوان تضمنت طائفة من بنات فكره ، ولو أخذ نفسه بالحزم لا متنع عن كتابتها كل الامتناع ، بل لمحاها محوا ، غير أنه عاد فآثر على المحو الإثبات وتمثل بقولهم إن أحسن ما أوتيته العرب أبيات يقدمها الشاعر بين يديه . ثم يذكر أنها إن عُرضت

---

(١) النبوغ المغربى ١٧٦/٢ .

(٢) معرس : مبيت . مقيل : مكان فى القيلولة بنصف النهار .

عليه ، وسألها كيف نجت من الوأد عرف أنها آوت من حرمه إلى ظل ظليل ، وحلّت من فِناءِ داره وساحتها إلى خير معرَّس ومقيل ، ويقول إن كرمه سيجعله يغضى عن عيوبها ، وحسبها شرفا أنها نزلت من جنابه دارا ، وكفاها مجد وفخرا أن انعقد بينها وبين فكرك جوار حميد وعقد وثيق . ولابن شبرين المتوفى سنة ٧٤٧ هـ/١٣٤٧ م رسالة فكهة كتب بها إلى أبى الحكم بن مسعود الشاهد بالمواريث ، ويفتتحها بقوله[١] :

« أطال الله بقاء أخى وسيدى لأهل الفرائض يحسن الاحتيال فى مُداراتهم ، وللمنتقلين إلى الدار الآخرة يأمر بالاحتياط فى أمواتهم ، ودامت أقلامه مُشْرعَة[٢] لصرم[٣] الأجل المُنْسأ[٤] ، معَدة لتحليل هذا الصنف المنشأ ، من الصَّلْصال والحَمأ ، فمن ميِّت يُغْسَل وآخر يُقْبَر ، ومن أجل يُطْوَى وكفَنٍ يُنْشر .. وكلما خربتْ ساحة ، نشأت فى الحانوت راحة ، وكلما قامتْ فى شِعْبٍ[٥] مناحة ، اتسعت للرزق مساحة » .

وتمضى الرسالة فى مثل هذه الفكاهة وشاهد المواريث يسأل عن العقار والأملاك ، ويقول عن المتوفَّى إنه ذكر فى الأسماء الخمسة مع ذو فقيل ذو مال ، وأرْجُل أعوانه تَدِبّ إلى الأسفاط دبيب الصَّفر إلى الحجل[٦] ، وحضر الموروث والمكسوب ، ووُزن بالأرطال ، وكيل بالأقداح ، والشاهد يصيح فتعلو صيحته ، والمشرف يشرف فتسقط سُبْحته ، وتقسَّم التركة ويحضر الورثة . وكل ذلك فى أسلوب فكه بديع .

وتظل الرسائل الشخصية فى العهدين السعدى والعلوى تكتب بهذا الأسلوب المسجع البديع ، والكتاب يتبارون فى انتخاب ألفاظهم وصياغاتهم انتخابا يروق ويروع .

٤

المقامات والرحلات

(أ) المقامات

المقامات جمع مقامة ، وهى من أهم فنون النثر العربى ، ابتكرها بديع الزمان الهمذانى فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، عارضا أقاصيص على لسان أديب سيار ممن كانوا يسمون فى

(١) النبوغ المغربى ١٧٧/٢ .
(٢) مشرعة : مصوَّبة .
(٣) صرم : قطع .
(٤) المنسأ : المؤجل .
(٥) شعب : طريق .
(٦) الحجل : جمع حجلة : طائر فى حجم الحمام .

عصره بالساسانيين الذين كانوا يحترفون الكُدْية أو الشحاذة الأدبية فى الحصول على أموال الناس بفصاحتهم وحِيلهم فى أسلوب قصصى يشيع فيه الحوار ، واتخذ بديع الزمان لمقـاماته أديبا متسولا كبيرا ، هو أبو الفتح الإسكندرى وراوية يروى أقاصيصه وحيله يسمى عيسى بن هشام ، وشاعت مقاماته فى العالم العربى . وأوفى بهذا الفن على الغاية الحريرى التى تداولت مقاماته المغرب والبلدان العربية . وكان كثير من العلماء والأدباء يعقدون لإملائها وشرحها للطلاب مجالس متعاقبة ، وحاولت كل بلدة أن تُدْلى بدلوها فى هذا الفن ، غير أن كثيرين من البلدان العربية رأوا أن يعدلوا بها عن صورتها الأصلية إلى موضوعات أدبية فيها قصص وحوار . وأول ما يلقانا من ذلك فى المغرب الأقصى مقامة لعبد المهيمن الحضرمى الوزير وصاحب القلم الأعلى فى عهد أبى سعيد المرينى ثم فى عهد ابنه أبى الحسن المتوفى سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٩ م ، وقد سماها « مقامة الافتخار بين العشر الجوار » وهن بيضاء وسمراء ، وطويلة وقصيرة ، وسمينة ونحيفة ، وعربية بدوية وحضرية ، وعجوز وصبية . وكل واحدة منهن تناظر نقيضتها فى حسنها . وقد لقيهن — كما يقول فى مفتتح مقامته بوادى الجوهر فى إحدى المدن ، وأجرى على ألسنتهن هذه المناظرة الطريفة . وكانت أول جارية تكلمت وطلبت المناظرة جارية يفوق ضياءُ وجهها ضياء الشمس فقد وقفت بين الصفوف وتقدمت وقالت[1] :

« الحمد لله الذى جعل البياض طرازَ كلِّ جمال ، وشرَّف أهله بالحياء والكمال ، وأعطاهم عزَّة لا تبيد ، وصيَّر السُّمْر لهم عبيد ، ألا وإن على قلبى جمرة ، من معاتبتك يا ذات السُّمْرة ، أعندك يا سَمْراء ما عندى ، وليس قدُّكِ كقدِّى ، ولا خدُّك كخدِّى ، جبينى ذو ابتهاج ، وذوائبى[2] كقطع الزَّاج[3] ، ورَشْح عَرَقى كمسكٍ أذْفرَ ، يرشح من تحت البرد والمِغْفر ، وثغرى أقحوان[4] ، ودِيباج وجهى أُرْجوان[5] ، وإن أسبلت[6] شعرى المضفور ، فظلام ليل على بياض كافور ، ثم أنشدت :

قَلْ للذى أزْرَى بأهل البياض ... ما أنت إلا باطلُ الإعتراضْ
فـوردُ خدِّى أبـدا زاهِـرٌ ... فى كل فصلٍ فـوق خدِّى ريـاضْ
يـا حـاسـدى مُتْ كمـدا إنمـا ... تُجْنَى المُنَى من الخدود الغِضاضْ[7]

وتقدَّمت السمراء ، وحطت اللِّثام ، عن وجهٍ شهىٍّ الالتثام[8] ، وأبلغت فى السلام ، وأفصحت فى الكلام ، وقالت :

---

(١) النبوغ المغربى ١٩٥/٢ والوافى ٤٤٩/٢ .
(٢) ذوائبى : ضفائرى .
(٣) الزاج : عقار أسود يصنع منه المداد .
(٤) يشبه الشعراء الثغر بالأقحوان ، وكأن تلك الزهرة تشبهه .
(٥) أرجوان : شجر له زهر شديد الحمرة .
(٦) أسبلت : أسدلت .
(٧) الغضاض : الناضرة .
(٨) الالتثام : يريد التُّبل .

الحمد لله الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم وجعله أفضل الحيوان ، وفرّق بين الصور والألسنة والألوان ، وزيّن الأبيض بشعرٍ كالغسق[1] ، وباسوداد الحاجبين وسواد الحَدق . وأجلّ ما يقف له العاشقون إجلالا ، ويرتجلون فيه الأشعار ارتجالا : مِسْكة الخال ، وعقرب الدلال .ثم التفتت إلى البيضاء وقالت : يا أشبه شيء بجبن الروم .. ما زال طعامك قليل المِلْح ، وجَفْنك كثير الرَّشْح ، ولبنُك أذى ، وعسلى أتا غِذا ، ولونى لون الخمر ، وطعمى طعم التمر ، ثم أنشدت :

الحمد لله ليس التِّبْر كالوَرِقِ ... قد أحسن الله فى خَلْقى وفى خُلُقى[2]
فالجسم منى نُضارٌ صيغ منظره ... بمسكةٍ فغدا طِيبًا لمنتشِقِ
يا من يعيرُنا باللون إن لكم ... جهلا يقود إلى الطُّغْيانِ والحُمقِ
كم أسمرٍ قلبه كافورةٌ ولـه ... من السَّعادة نجمٌ لاح فى الأفق

فلما فرغت من كلامها ، وما أبدعته من حسن نظامها تبرقعت بنقابها ، وسلّمت على الصفّين ، وقبّلتْ أساريرَ الكفّين » .

وواضح أن عبد المهيمن الحضرمى أجرى على لسان الجارية البيضاء النعوت التى تزينها فى الخلق والأخلاق مثل الحياء والكمال ، وتوسع فى وصف جمالها بذكر جمال القَدّ والخدّ والجيين والضفائر المغرقة فى السواد ، وذكر أن ثغرها أقحوان ووجهها أرجوان ، وأشاد بورد خدها وأنه يحيل خدودها رياضا ناضرة . ويُظَنّ كأنها ضيقت طرق الكلام على صاحبتها السمراء . غير أن عبد المهيمن ما يلبث أن يفتح لها الأبواب على مصاريعها ، لتجد مجموعة من الأدلة البينة والبراهين الواضحة على روعة السواد وجماله بشهادة قولهم : شعر كنسق الليل وإعجابهم بسواد الحاجبين وحدق العينين ، وبدليل إشادة الشعراء بالخال المشبه للمسك ، والشعر المتدلى إلى الخدود كأنه العقرب ، وتقول صاحبتها إن اللبن الأبيض المشبه لك كثير ، أماالعسل الأسمر المشبه لى فكثير الغذا ، وتفخر عليها بأن لونها لون الخمر التى طالما تغنى بها الشعراء ، ثم أنشدتها شعرا يرفع التبر أو الذهب الذى يشبه لونها على الورق أو الفضة البيضاء التى تشبه لون صاحبتها ، فجسمها هى نضار ، وصيغ – كالمسك – سوادا وعطرا ، وتقول لها ما أكثر السُّمْر الذين تشبه قلوبهم ما يتخذ من شجر الكافور من مادة بيضاء بلورية ، بينما نجمه نجم سعيد كل السعادة . وتليهما جاريتان طويلة كاملة وقصيرة ، ومما تقوله الطويلة للقصيرة : « يا زريعة يأجوج ومأجوج ، إن الحلىّ على القصار كالدر فى نحور القرود ، وتقول لها القصيرة : « يا شقيقة الزرافة ، يا ناقة العشير (الزوج) وقصبة النشير (حبل الغسيل) .

---

(١) الغسق : ظلمة الليل .
(٢) الورق : الفضة .

ويلى ذلك مشهد السمينة والنحيفة أو بعبارة أدق مناظرتهما ، وتقول السمينة لصاحبتها إنك منقوضة اللحم إذ حُرِّم عليك كما حرِّم على بنى إسرائيل الشحم ، وتقول لها النحيفة إن قلبها بالعلف هائم ، كما تفعل البهائم . ونقرأ مناظرة العربية البدوية والجارية الحضرية ومما تقوله الجارية العربية : نحن ربَّات القلوب ، ومنتهى غاية كل مطلوب ، جمالنا أبدع جمال ، ولساننا أفصح لسان . ومما تقوله الحضرية : إن رُعْيان الجِمال لا يفتخرون بحسن ولا جمال .

إلا إنما الحسنُ حسنُ الحَضَرْ علينـــا ومنـــا وفينـــا ظَهرْ

وتناظرت العجوز والصبية ، وكانت العجوز مخضوبة البنان ، وليس لها أسنان ، وبدأت كلامها بقولها : « الحمد لله راحم الشيب ، وساتر العيب » ومما قالته الصبية للعجوز : « أما رأيت شعرى الفاحم ، وثغرى الباسم ، وغصنى الناعم » . وقالت لها العجوز : « بورك فيك من صبية ، وفى ألفاظك الزكية » . واستدار الجوارى حول العجوز ، فقالت لهن : « سأقول بينكن مقالة إنصاف ، يقتضيها الحق وجميل الأوصاف » وقالت لكل منهنّ كلمة أرضتْها ، وبذلك ارتفع بينهن العتاب واللوم . وإذا كان عبد المهيمن الحضرمى لم يحاول أن يحاكى بديع الزمان ولا الحريرى فى مقاماتهما فإن مقامته تُعَدّ طرفة أدبية بديعة .

ونلتقى فى العصر السعدى بمحمد بن عيسى المتوفى سنة ٩٩٩ هـ/١٥٩١ م ، وله مقامة نقدية عرض فيها طائفة من أدباء زمنه ، وعادة يسأل أين الأديب فلان ؟ ويجيب بسطور مسجوعة منوها بأدبه ، وقد يكون السؤال عن مفتٍ أو فقيه ويجيب ، ونذكر لذلك مثلا إذ يقول[1] :

« قلت : وأين الكاتب الأديب أبو العباس الغرديس ، فقال : الدر النفيس .. ووارث المجد الذى له التهويم[2] والتعريس ، فعلٌ سؤدده غير مَقيس ، فهو والسيادة سليمان وبلقيس ، وإنه اليوم بفاس دار قراره ، ومشرق أنواره ، ومنبت رَنْده وعَراره[3] ، فلا تسل عن النبيه والنباهة . والفضل هناك الحب الوضَّاح ، والمجد الصُّراح ، والأدب المزرى بالراح ، ممزوجا بالماء القراح ، ينظم وينثر ، وعلى كل ما يشاء الخاطر عنده يعثر » .

وعلى هذا النمط نعوت دائما مسجوعة تضاف للشخص تنويها به وثناء عليه ، وهى بذلك لا تعد مقامة إنما هى مقال عن بعض أدباء عصره وعلمائه . وأسلوب عبد المهيمن الحضرمى السابق فى مقامته القائم على المناظرة والمفاخرة شاع بين الكتاب المصريين فى زمن المماليك وشاع معه المفاخرة والمناظرة بين الأزهار فى ضروب من السفسطة والمغالطة وقلب المحاسن

(١) انظر فى هذه المقامة كتاب الوافى بالأدب العربى فى المغرب الأقصى ٣/٦٩٩ .

(٢) التهويم : النوم الخفيف ولعله يريد الارتحال . التعريس : الإقامة .

(٣) الرند والعرار : من أزهار البوادى .

مساوىء لغرض الإفحام والغلبة . ويمكن أن نعد من هذا النوع مقامة محمد بن أحمد المِكْلاتى التى كتبها فى أواخر العصر السعدى تحية لمحمد بن أبى بكر صاحب الزاوية الدلائية ، وسماها : « المقامة[1] الزهرية فى مدح المكارم البكرية » ويجعلها على لسان شخص يسمى « بَسَّام » يقول إنهم نزلوا روضا بهيا وأمطرتهم السماء مطرا باتوا فيه ، واستيقظ فى السحر بين الضياء والغبش ، وخال كأن وجوه الروض تسيل دما ، وتوهَّمه من بقايا الشفق أسفر عنه ضوء الصباح ، وناداه أنا أخو الرياض الشقيق كم كسوته جمالا . يقصد أن ما يراه ويظنه دما إنما هو زهر شقائق النعمان . ويأخذ فى الافتخار بحسنه ، ويجاذبه الفخر زهر النمام فعود البان الذى طالما وصف الشعراء بقَدِّه قدود محبوباتهن الحسان ، والنرجس يقول لغصن البان مفاخرا وواصفا نفسه :

« أما راقك الياقوت الأصفر ، وسَط الدر الأبيض ، على الزمرد الأخضر .. شموا النرجس ، ولو يوما فى السنة ، فأنا غذاء الروح ، لمن يغدو عنى ويروح ، لطيف المزاج ، أصلح للعلاج ، وأزيل من الدماغ مضرَّة دخان السراج ، وأخِفُّ على العشَّاق ، يوم التلاق ، وينشد قول بعض الشعراء :

وإذا قضيت لنـــا بعَيْنٍ مراقبٍ ... يـاربَّ فَلْتكُ من عيـون النرجسِ

ويعترض زهر البنفسج ثائرا مفاخرا ، وقائلا له : لا يسلم لك فخر إلا على الورد فما لأمرك عليه من ردّ ، وينشد قول ابن الرومى فى تفضيل النرجس على الورد :

خجلتْ خدودُ الورد من تفضيلهِ ... خجلاً تورُّدُها عليـــه شاهـدُ
للنَّرجِس الفضـــل المبينُ وإنْ أبى ... آبٍ وحـــاد عن الحقيقـة جاحدُ

وما يلبث أن يدخل الورد فى المعركة للرد على ابن الرومى ومن فضلوا عليه النرجس ، يقول المكلاتى :

وتدخَّل البنفسج « فأقبل الورد فى جنوده ، ناشرا لراياته وبنوده ، محمرَّ الوجنات ، منكرا على البنفسج ما جاء به من الترهات :

ولقد رأيت الوردَ يلطم خدَّه ... ويقول وهْوَ على البَنَفْسَج يَحْنَقُ
لا تقربـوه وإن تضوَّع نَشْرُه ... من بينكم فهو العدوُّ الأزرق[2]

وكيف يفخر النَّرْجِسُ من بين الرياحين ، على نخبة الملوك والسلاطين :

إن كنت تنكر ما ذكرنا بعدما ... وضَحَتْ عليه دلائلٌ وشواهدُ
فانظـــر إلى المصفرِّ لونا منهما ... وافهم فمـــا يصفرُّ إلا الحـاسد

(١) انظر فى هذه المقامة النبوغ المغربى ٢٠٨/٢ .
(٢) تضوَّع نشره : فاحت رائحته .

ألم تسمع ما قيل ، مما سيلقى عليك القول الثقيل :

من فضَّل النرجسَ فَهْو الذى ... يرضى بحكم الورد إذْ يَرْأَسُ
أما ترى الـــورد غدا قاعدًا ... وقـــام فى خدمتـه النَّرْجِسُ

أنا مشرِّف الربيع . ومُظهر ما له من البديع ، أُنْعِشُ الأرواح ، وأنا عروس الأفراح ، نوافح ذكية[1] ، وروائح شذية[2] ، أبديتُ ألوانا لأهل الأدب ، يقضون لها بالعجب ، فمنىٌ الأبيض والأسود الحالك ، ومنى وراء ذلك : أصفر فاقع ، وما نصفه قانٍ[3] ونصفه ناصع ، وبالجند منى شجر يُخْرِج وردا عليه مكتوب : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فأنا للرياحين ملك ملوكها ، ووسطَ عقودها وسلوكها :

فمن ذا يضاهينى بوصف فضيلةٍ ... وفضلى على كل الرياحين ظاهرُ
زمانى على الأزمـان بى متشرِّفٌ ... وفخرى لمـن يبغى التفاخر قادِرُ

وفخر الورد بديع ، وقد أنشد فيه المكلاتى مأأثر من الأشعار التى تثنى على الورد وتفضله على النرجس بل على جميع الأزهار . ونثر الفخر بل نثر المقامة جميعها بديع إذ كان يعرف المكلاتى كيف ينتخب ألفاظه وكيف يقابل بين سجعاته بألفاظ مألوفة ليس فيها غريب ولا شاذ نادر . وكانت تستمع إلى هذا الحوار حمامة مطوَّقة ، فأقبلت على الأزهار مفاخرة بدورها ، تقول :

« فناحت بشجنها ، وتكلمت على فَنَنِها ، وقالتْ : كلٌّ يحاول جهده ، ويقول بما عنده ، إلىَّ لا لكم الفخار ، وأنتم لنا أعشاش وأوكار ، وفروعكم لخطبائنا منابر ، ولقياننا ستائر ، أليس رءوسكم لأقدامنا خاضعة ، ولنا كلما نزلنا ساجدة وراكعة ، وإنا على ما زعمتم بنا من الجَوَى[4] وتباريحه ، آخذون فى ذكر الله وتسبيحه ، شُغْلنا بذلك فى الأسحار ، والعشىّ والإبكار ... ونشأت غمامة تصافح أهدابها الأرض ، وتسد الآفاق على الطول والعرض ، يَحْدوها الرعد ، ويستنجز منها الوعد (وينشد) :

وكأن صوت الرعد خلف سحابةٍ ... حادٍ إذا وَنَت الركائبُ صاحا
أخفى مسالكَها الظلامُ فأوقدتْ ... من برْقِهـا كى تهتدى مصبـــاحا
جـادتْ على التِّلعات فاكتست الرُّبَى ... حُللا أقـــام لهـا الربيـعُ وشاحا[5]

فنثرتْ بالأرض جواهرَ تغار منها البحور ، وتزدان بها من أجياد الأزهار اللبَّات والنحور ،

---

(١) ذكية : ساطعة .
(٢) شذية : عطرة نسبة إلى الشذى .
(٣) قانٍ : شديد الاحمرار .
(٤) الجوى : الوجد .
(٥) التلعات جمع تلعة : ما ارتفع من الأرض . الوشاح : شريط عريض مرصع بالجوهر .

واختفت بعدما تجلَّتْ ، وألْقت على البطاح ما فيها وتخلَّت ، ثم قالت : يا ذوات الأطواق ، البائحات بالأشواق ، المفتخرات على الأدواح ، بالغدو والرواح ، بكاؤكن كذب ، ونوحكن لعب .. ما الفضل إلا لمن أحْيا الأرض بعد أن كاد زرعها يهيج فـ(اهتزت وربت وأنبتت من كل زوجٍ بهيج) فقلائدها مدبَّجة ، ورءوس أشجارها متوَّجة ، ولولاى لم يكن لكن مَرْعى ، ولا مسرحَ فى الأرض ولا مسعَى .. وطلعت الغزالة ، وهى فى مشيها مختالة . وقالتْ : أعمال كسراب ، وعارض منجاب ، إذا طلعت عليه الشمس ذاب ، ألم تعلموا أنى يوح[1] ، أغدو فى مصالح العالم وأروح ، ولولاى ما جرت الأنهار ، ولا تفتَّقت الأزهار » . ويقول الراوى : إن جامع هذه الفضائل وإمامها عالم المسلمين .. محمد بن أبى بكر صاحب الدلاء الكريم الجواد ، ويقول بعد التنويه بفضائله إنه وقع التسليم بمناقبه ومناقب أبيه البكرية ، فطاف بالروض طواف الوداع عازما على أن يخدم جنابه بهذه الفكاهة .

وإنما أكثرت الاقتباس من هذه المقامة لأدل بوضوحٍ على روعة ما جلبه فيها المكلاتى من أشعار وإبداعه فى نثرها المسجوع سجعا يحتظ بالعذوبة مع مابثه فيه من ألفاظ قرآنية بديعة من مثل آية آل عمران : ﴿واذكر ربك كثيرا وسبِّح بالعشىِّ والإبكار﴾ وآية سورة الانشقاق فى وصف الأرض : ﴿وألقتْ ما فيها وتخلَّت﴾ وآية سورة الحج : ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزتْ وربَتْ وأنبتتْ من كل زوجٍ بهيج﴾ .

ونمضى إلى عصر الدولة العلوية وعهد سلطانها إسماعيل وما كان فيه من نهضة أدبية واشتهر بين الأدباء حينئذ محمد بن الطيب العلمى المتوفى سنة ١١٣٤ للهجرة وسنفرد له ترجمة بين كبار الكتاب ، وكان يعاصره محمد المسناوى الدلائى المتوفى بعده بعامين سنة ١١٣٦ هـ/ ١٧٢٤ م وله مقامة سماها المقامة الفكرية يبكى فيها زاوية الدلاء حين هاجمها وخرَّبها السلطان إسماعيل العلوى ، وهو يطيل الحديث عن متنزهاتها ورياضها وأنهارها التى كانت تملأ بطاحها وتلالها ، ويشعر بحزن عميق حين يراها تحولت أطلالا عافية ، يقول[2] :

« منازلها خاوية ، والذئاب فى أرجائها عاوية ، وليس بها إلا الغربان واليوم ، والحمائم تنوح فى أطلالها وتحوم ، فخرجت منها ودموعى نهر غزير ، بقلب كسير » .

ونلتقى أخيرا بمحمد بن إدريس وزير السلطان عبد الرحمن العلوى المتوفى سنة ١٢٦٤هـ/١٨٤٧ م وله مقامة يصف فيها حملة لتأديب إحدى القبائل ، ويصور مسيرتها بين الزروع والرياض ، وينسب الحديث فيها إلى نصر بن كرامة ، وفيها يقول[3] :

---

(١) يوح : اسم للشمس .

(٢) انظر الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية للدكتور محمد الأخضر ص ١٩٩ .

(٣) انظر المقامة فى النبوغ المغربى ٢٤٣/٢ .

« مطارف السندس بالآفاق قد نَشِرتْ ، وجيوش النَّوْر (الزهر) حُشِدت ألوانها وحُشرت :

والأرض تُجْلَى عروسًا فى ملابسها وشَّتْ حُلاها يَدُ الأنواء بالزَّهَرِ[1]

والنسيم قد عَطّر بنشره الأندية ، وغازل الأغصان فنازعها المطارف والأردية ، وجرَّ ذيل دلاله فى الآكام والأودية :

والريح تَلطِمُ فيه أُردافَ الرُّبى مرحًا وتلثمُ أوجُهَ الأزهارِ
ومنابرُ الأغصان قد قامتْ بها خطباءُ مفصحةٌ من الأطيار

.. والناظر الأديب المتأمل ، ينشد قول المجنِّس الممثِّل .

إن هذا الربيع شىء عجيبٌ تضحك الأرض من بكاء السماءِ
ذهبٌ حيثما ذهبنا ودرٌّ حيث دُرْنا وفضّةٌ فى الفضاءِ

والجيش المنصور بحر متلاطم الأمواج ، يسير فيملأ الفضاء ويُغِصُّ الفِجاج ، ويقيم فيكون هالةً على بدر سعودٍ وشرف ، وسُورَ حفظٍ لا يُعْرَف له طرف ، قد رُصَّتْ صفوفه ، وتعدَّدت ألوفه ، وتنوعت أجناسه وصفوفه » .

والألفاظ والأسجاع والأبيات مختارة ، بحيث تغمرها السلاسة ورونق العذوبة ، مع حسن البيان ، مما يكسب العبارات بهاء . وبدون ريب تدل مقامات ابن إدريس والمكلاتى والحضرمى – كما دلت الرسائل والخطب السابقة – على نهضة النثر فى المغرب الأقصى .

(ب) الرحلات

أعدت فريضة الحج وزيارة القبر النبوى – من قديم – لمسيرة القوافل سنويا من المغرب الأقصى إلى مكة والمدينة ، مما جعل كثيرين هناك يشغفون بتلك الرحلة والكتابة عنها ، وأيضا فإن مراكز الثقافة تعددت ، فكان كثير من شباب المغاربة يودون لو تزودوا من هذه المراكز بما يأملون فيها من لقاء شيوخها بتنوع ثقافاتهم ، وكانوا يشعرون أن من واجبهم التحدث عن هذه المراكز ومن التقوا بهم من شيوخها واستمعوا إليه وإلى ما دار أحيانا فى بعض المجالس من حوار علمى أو أسئلة علمية . وبهذين الدافعين أخذ كثير يرحلون فى هذه القوافل عبر البلاد المغربية ومصر والشام من أهل المغرب الأقصى ، وعُنى بعضهم بوصف رحلته ووصف البلدان التى نزلها وحلقات الشيوخ الذين استمع إليهم .

---

(١) الأنواء : الأمطار .

رحلة[1] ابن رُشيد

من أقدم الرحلات المغربية وأهمها رحلة ابن رشيد محمد بن عمر الفهرى ، وحدثنا عنها وعن مؤلفها الأستاذ محمد بن تاويت فى الجزء الثانى من كتابه « الوافى » ونقل عن ابن خلدون أنه كبير مشيخة المغرب وسيد أهله كما نقل عن أبى البركات البلفيقى أنه من أهل المعرفة يعلم القراءات السبع وصناعة العربية وعلم البيان والآداب والعروض والقوافى مشاركا فى غير ذلك من الفنون أديبًا خطيبًا بليغًا ، ينظم الشعر على تكلفه ويجوِّد النثر ، ولد سنة ٦٥٧ هـ/١٢٥٩ م وتوفى حوالى سنة ٧٢١ هـ/١٣٢٢ م بدأ رحلته فى الخامسة والعشرين من عمره ، سنة ٦٨٣ وسجل فيها كل ما شاهده من البلدان والشيوخ ومجالسهم وأخذِه عنهم ، وسماها : « ملء العَيْبة (الحقيبة) فيما جُمع بطول الغيبة ، فى الوجهة الوجيهة إلى الحرمين : مكة والمدينة » . وتعد مرجعا مهما لعلماء مصر والبلدان المغربية فى أواخر القرن السابع الهجرى ، إذ امتدت رحلته أربع سنوات ، وهى فى خمس مجلدات ولا تزال مخطوطة وربما كان طولها هو الذى منع حتى الآن من طبعها ، وأسلوبه فيها – كما يقول الأستاذ ابن تاويت – مرسل إلا فى وصفه لبعض الشخصيات العلمية أو لبقعة طيبة فإنه يصوغها سجعا خالصا كقوله عن حازم القرطاجنى :

« حبر البلغاء ، وبحر الأدباء ، ذو اختيارات فائقة ، واختراعات رائقة ، لا نعلم أحدا ممن لقيناهم جمع ، من علم اللسان ما جمع ، ولا أحكم من معاقل البيان ما أحكم من منقول ومبتدَع ، وأما البلاغة فهو بحرها العذب ، والمنفرد بحمل رايتها أميرا فى الشرق والغرب ، وأما حفظ لغات العرب وأشعارها وأخبارها ، فهو حمَّاد[2] راويتها وحمَّال أوقارها »[3] .

ويخص مصر بالجزء الثالث من رحلته ، ونسوق منه وصفه لمجلس لعالم مصر فى العربية لزمنه : بهاء الدين بن النحاس الحلبى الأصل تلميذ ابن مالك وأستاذ أبى حيان ، يقول :

إنه « حضر درسا له ، فسأله ابن النحاس بعد تدخله فى مسألة نحوية : من أين قدومك ، قال ابن رشيد : قلت : من المغرب . قال : من الإسكندرية ؟ قلت : من أبعد ؟ قال : من تونس ؟ قلت : من أبعد ، قال : إذن من جُوًّا (من داخل) المغرب ؟ قلت : نعم ، فقال من أى بلاده ؟ قلت : من « سَبْتة » فكان أول ما فاتحنى به أن قال : أيعيش سيدنا أبو الحسين بن أبى الربيع قلت : نعم ، فقال : ذاك شيخنا ، إفادة بوصول كتابه اليتيم إلىّ ، يريد شرحه

(١) انظرها فى الوافى ٣٨٥/٢ وما بعدها . وتوسع المقرى فى الحديث عنه وعن رحلته وشمائله وشيوخه غربا وشرقا وتآليفه ويقول إنه كان ظاهريا ثم يعلق على ذلك بأن المعروف أنه كان مالكيا ويذكر عنايته بالحديث النبوى . انظر أزهار الرياض ٣٤٧/٢ .

(٢) حماد هو حماد راوية الكوفة المشهور .

(٣) أوقار جمع وقر : حمل .

لكتاب الإيضاح للفارسى .. ثم قال لى : أقرأت عليه ، قلت نعم قرأت : الجُمَل (للزجاجى) والإيضاح والكتاب (لسيبويه) فلما ذكرت الكتاب قال : فاعبر (أى الحلقة يريد انتقاله إلى جواره) وتلكأت فى هذا العبور واستحييتُ منه ، ولكنه أصرَّ على أن أعبر إليه ، وعبرت ، فأقعدنى إلى جانبه ، فجلست مُغْضيا (منكمشا) حياء منه ، فقال : اجلس متسعا ، فجلست وتمادى فى الإقراء ، فاختلست الكلام – أثناء إقباله على من بين يديه من التلاميذ للإلقاء عليهم – مع الذى كان عن يمينى اختلاسا ، وسألته من الشيخ ؟ فقال : بهاء الدين بن النحاس ، والتفت الشيخ إذ رآنى وثبت بين يديه ، فقال : لم ؟ ارجع إلى موضعك ، فقلت : يا مولانا لم يعرف المملوك مَنْ أنت ؟ ولو علم ما جلس هذا المجلس (أى بجوارك) وما تكلم ، فعزم علىَّ فى العَود إلى مجلسى ، فعُدْت ، وأشار بالاطمئنان فاطمأننت » .

ولوصف ابن رشيد لهذا المجلس دلالات ، فقد كان شابا فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وابن النحاس شيخ كبير ، بل عَلَم النحاة فى عصره ، وحين عرف فيه بعض الفضل العلمى فى العلم الذى يلقيه : علم العربية ، طلب إليه أن يعبر الحلقة ويجلس بجواره رغم صغر سنه . وكان علماء القاهرة والإسكندرية دائما يكرمون من يفد على مجالسهم من المغرب الأقصى شبانا أو شيوخا ، وكانوا يتتلمذون لهم ، ويطلبون منهم إجازات فى قراءة بعض مؤلفاتهم . ومن يرجع إلى ما كان يقرأ هناك من هذه المؤلفات سيجد كثرة غامرة من كتابات العلماء المصريين ومؤلفاتهم تقرأ هناك وقد تشرح مرارا ، وممن يتردد اسمه هناك فى الفقه المالكى والأصول ابن الحاجب وابن دقيق العيد والشيخ خليل والقرافى وغيرهم من جلة العلماء المصريين فى كل علم وفن . وبالمثل كانت مصر تتداول بعض المتون والمؤلفات المغربية . وهذا بهاء الدين بن النحاس يقرأ لمعاصره ابن أبى الربيع عبيد الله بن أحمد العالم النحوى الكبير الذى هاجر من إشبيلية حين استولى عليها الإسبان سنة ٦٤٦ للهجرة إلى سبتة وأقرأ بها العربية طوال حياته إلى أن توفى سنة ٦٨٨ للهجرة . ونرى ابن النحاس وقد قرأ له شرحه على كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى يتلطف فى السؤال عنه فيقول : « أيعيش سيدنا » ثم يعود فيقول لابن رشيد : ذلك شيخنا ، وقد جعله شيخه ، لا لأنه تتلمذ عليه مثل ابن رشيد ، ولكن لأنه قرأ له شرحه للإيضاح ، وفى ذلك ما يدل على مقدار إجلال أسلافنا من العلماء لمن يقرءون لهم بعض مؤلفاتهم فينعتونهم بأنهم شيوخهم ، وإن لم يلقوهم ، ولا حضروا لهم درسا فى مجالسهم العلمية . ويذكر الأستاذ ابن تاويت لابن رشيد نادرة حدثت له فى مدينة رابغ بالحجاز ، يقول :

« غريبة عنَّت لنا فى رابغ ، بل أغنت فى معنى قوله تعالى وأتنت : ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونَّكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾ وذلك أنه

صحبنى فى الطريق من المدينة ، على ساكنها الصلاة والسلام ، إلى البيت الحرام ، أحد الشيوخ من شرفاء المدينة ، فلما وافينا رابغ ، رأيت عجبا من تخلل الوحوش والغزال والأرانب ، بين الجمال والرحال ، بحيث ينالها الناس بأيديهم ، والناس ينادون : حرام ، حرام ، والجوارح قد سلست .. فقال لى ذلك الشيخ تأمل تر عجبا ! هكذا جرت عادتنا فى هذا الطريق ، إذا مررنا به ونحن محرمون نجد به من الوحش ما ترى ، فإذا عُدْنا محلّين لم نجد شيئا . فلما عدنا كان كما قال ، فبان لى من معنى الآية ما لم يكن عندى بالمشاهدة .

وينثر ابن رشيد فى رحلته ، بعض أبيات له ، تدل على أنه كان ينظم الشعر ، وهو شعر متوسط ، أما نثره سواء سجع أو استرسل طليقا من السجع نثر جيد . والرحلة تكتظ بمعارف كثيرة عن الحركة العلمية فى البلدان العربية وشيوخها لزمنه .

(ب) رحلة[1] العَبْدرى

هو أبو عبد الله بن محمد العبدرى ، أصله من منطقة حاحة إحدى مناطق إقليم مراكش ، وهى منطقة وعرة تمتلىء – كما يقول الحسن الوزان – بالجبال العالية الصخرية وبالغابات والأودية المائية الصغيرة . ويبدو أنه نشأ فى حاحة وأكمل تعلمه على شيوخ مراكش ، وكان أديبا يحسن نظم الشعر وصوغ النثر ، ولم يلتزم السجع دائما فى رحلته ، وقد بدأها – كما يظن – فى العقد الثالث من حياته سنة ٦٨٨ هـ/ ١٢٩٠ م وقد استغرقت منه عامين طويلين ، وبدأها من حاحة موليا وجهه نحو شمالى الجزائر حتى مدينة مليانة ، ومرَّ منها بالمدن فى الشمال حتى تونس ، ومنها إلى طرابلس فالقطر المصرى بادئا منه بالإسكندرية وأعجبته فأقام بها فترة ، ثم تركها إلى القاهرة وحمل عليها ، كما حمل على طرابلس من قبل ، واتجه منها إلى العقبة فإقليم الحجاز حيث أدَّى فريضة الحج ، وزار قبر الرسول العطر ، وعاد من طريق فلسطين إلى مصر فالبلدان الإفريقية حتى بلدته ، ونراه أحيانا فى وصفه للبلدان يبالغ فى الثناء تارة ، وتارة ثانية يبالغ فى الذم والقدح ، وقد أضفى ثناءه على مدينة مليانة فى الجزائر ، وفيها يقول :

« مدينة مجموعة مختصرة ، وليست بذلك عن أمهات المدن مقصِّرة ، أشرفت من كتب على وادى (نهر) شلف ، واستشرفت نسيم طرفها من شرف ، فى روضة جمة الأزهار والطُّرف . فَرعت (امتدت) فى سفح جبل حمى حِماها أن يرام ، وشُرعت فى أصل نهر يشفى المقيم من الهيام ، شاق منظرا ، وراق مخبرا ، وشفى الظمأ موردا ومصدرا ، يشتهى الناظر إليه وهو ريان الشروع ، ويقول : لورُشَّ به – لأفاق – المصروع ، وكأن حصباءه

(١) انظر فى رحلة العبدرى كتاب الوافى ٣٩٣/٢ وقد نشر الرحلة وحققها الأستاذ محمد الفاسى وهى مطبوعة فى الرباط .

جُمان والماء من فوقه دموع » . ومليانة من المدن التى بناها الرومان قديما ، وهى على قمة جبل ، وبينها وبين شرشال على البحر المتوسط أربعون ميلا ، والجبل المشيدة عليه ملىء بالينابيع ومغطى بأشجار الجوز » . ويقول الحسن الوزان إن بيوتها متقنة وبداخلها فسقيات جميلة ، وسكانها فى زمنه من الصناع والحاكة والخراطين ، وتشتهر بصنع أوان لطيفة من الخشب ، وكثيرون من أهلها يزرعون الأرض . وإذا كانت القاهرة لم تعجب العبدرى فإن الإسكندرية أعجبته وفيها يقول :

« مدينة الحصانة والوثاقة ، وبلد الإشراق اللامع والطلاقة ، وطلاوة النظر وحلاوة المذاقة ، كلَّ عنها ظُفْر الزمان ونابه ، وفُلَّ منها جيش الحِدْثان وأحزابه ، فلم تبد عليها للزمان ضراعة ، ولا وُكست لها فى معاملاته سلعة ولا بضاعة ، ولا وقفت له موقف ذل يوما ولا ساعة ، بل ثبتت لحزبه ثبوت البطل ، وصابرتْ كيده حتى اضمحلَّ سحره وبطل ، فلم تصغ أذنا إلى ما يوعد به من الخنا والخطل ، فهى واقفة وقوف الأطواد سامية بطرف غير كليل وجيد غير منآد[1] ، آخذة من الكفر وأهله بالمخنَّق[2] ، حتى أبدلتهم من الصافى المروَّق الكدر المرنّق[3] ، فسامروا الأسف مسامرة الندى للمحلِّق[4] ، ودجا عليهم ليل هم ادلهمَّ بعد نهار سرور تألق ، واضطرم عليهم الأسى واحتدم ، فحالفوا الندم .. مدينة فسيحة الميدان ، صحيحة الأركان ، مليحة البنيان ، تُسْفر عن مُحَيًّا جميل المنظر ، وترنو بطرف ساج[5] أحور ، تبسم عن ثغر كالأقحوان إذا نوَّر ، كأنه لم يغب عنها شخص الإسكندر[6] ، بما ساس فيها من عجائب مبانيها ودبَّر ، ناهيك بمدينة كلها عجب ، قد ستر حسنها حسن غيرها وحجب ، ووفَّى فيها الإتقان حقه كما وجب ، وقد أغنى عن تسطير وصفها ما سطَّره الأعلام ، وصرَّت[7] به على المهرق الأقلام » .

وكان العبدرى يتخفف أحيانا من السجع ويرسل الكلام إرسالا ، ويمثل الأستاذ ابن تاويت لذلك بقوله فى عمود السوارى بالإسكندرية :

« هو حجر واحد مستدير عال جدا ، على قدر الصومعة (المأذنة) المرتفعة ، وهو يبدو من بعيد بارزا فى غابة النخيل مرتفعا عنها ، وقد أقيم على حجارة منحوتة مرتفعة ، على قدر الدكاكين العظام ، علوها أزيد من قامتين ، ولا يعلم كيف أقيم عليها ، ولا كيف ثبت هنالك مع الرياح والعواصف ، وهو مما لا يمكن تحريكه البتة ، فضلا عن إقامته هنالك » .

---

(١) غير منآد : مستقيم .
(٢) المخنق : موضع الحبل فى العنق للخنق .
(٣) المرنق : المزداد الكدر .
(٤) كريم جاهلى مدحه الأعشى بأن الكرم يبيت معه .
(٥) ساج : ساكن .
(٦) الإسكندر هو الإسكند المقدونى مؤسس الإسكندرية .
(٧) صرَّت : صوتت . المهرق : الصحيفة يكتب فيها .

ولعله لم يظلم بلدا كما ظلم طرابلس ، فقد ذمها ذما بالغ فيه : ذم موقعها وبيئتها وذم أهلها ، وربما كان ذمه لطرابلس وغيرها مثل القاهرة يرجع إلى أنه لم يكن يخالط ذوى المروءة فيهما ومن يحمله على المدح لا على القدح ، أو كان يتعرف على أشخاص مذمومين فذم – دون ريث وتأن – البلد التى تأوى أمثالهم ، وقد نالت تونس منه الحظ الأوفر فى الثناء ، ومن قوله على لسانها :

أنا الغـادةُ الحسنـاءُ فـاق جمالُهـا ... فقـالتْ يمينـا لا خُطبتُ على زَوْجِ
إذا الغانيات ارْتَدْنَ وصفَ بعولـةٍ ... فما بى ولا فخرٌ- إلى الزَّوْج – من حَوْج
وفىَّ لمكـدودى الحجيجِ اسـتراحةٌ ... فهم يَرِدونى الدَّهر فوجًا على فَوْج
وإنـى – إلى البيت العتيـق – كسُلَّمٍ ... بـه يرتقى مَنْ فى الحضـيضِ إلى الأوْج

رحلة[1] العياشى

هو أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبى بكر العياشى المولود سنة ١٠٣٧/١٦٢٨ م ، كان أبوه من شيوخ الزاوية الناصرية ، وعنى به فحَّفظه القرآن الكريم وثقَّفه بما يعرف من العلوم الدينية واللغوية ، وأرسل به إلى مدينة فاس ليتزود من حلقات علمائها ، وأخذ يبرع فى بعض العلوم ، وألف فى كثير من المسائل النحوية والفقهية وفى الحديث النبوى وفى التصوف ، وكان شاعرًا وله مدائح نبوية كثيرة ، توفى سنة ١٠٩٠ هـ/١٦٧٩ م واشتهر برحلته إلى أداء فريضة الحج ، وهى رحلة موسوعية يعطينا فيها معلومات كثيرة عن البلدان التى نزل فيها والحركات العلمية بها ، ومن قوله فى حديثه عن إقامته بالمدينة المنوّرة :

« كانت مدة إقامتنا بالمدينة سبعة أشهر ونصف لأنا دخلناها – كما تقدم – فى الليلة الثانية من محرم ، وكان خروجنا منها إلى مكة فى السابع عشر من شعبان ، وكنا نسكن أولا فى محل نزولنا بجوار مشهد سيدنا إسماعيل ، كما تقدم ، وكان أفسح الأمكنة وأوسعها وأبعدها عن زحام الناس ، به أخلية للوضوء ، وبئران – كما تقدم – وكان قيِّم المشهد أحد أصحابنا المغاربة المجاورين ، وهو الذى أنزلنا به ، وكان يتولَّى إصباحه وكنسه وإغلاق أبوابه ، ويقبض ما يؤتى به من الصدقة إليه ، ولأَّه ذلك مفتى المالكية بالمدينة صاحبنا الخطيب أحمد وأخوه الخطيب عبد الرحمن لأن ولاية المشهد لهما . فإذا اجتمع من الصدقات ما له بال دفع لهما حصة منه ، وانتفع بالباقى ، كما هو شأن سائر المشاهد بالمدينة وبغيرها » .

وهكذا يجرى الأسلوب مرسلا حرا طليقا فى أكثر جوانب الرحلة ، وكأنما أخذ العياشى

(١) انظر فى رحلة العياشى الوافى ٧٦٣/٣ والحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية ص ٩٠ . وطبعت الرحلة قديما بفاس ، وعنى بطبعها وتحقيقها الدكتور محمد حجى وألحق بها فهارس مهمة .

فى القرن الحادى عشر يردّ على ما كتبه العبدرى عن طرابلس فى القرن السابع وذمه لها وقدحه فيها فقد زارها فى رحلته سنة ١٠٥٩ هـ/١٦٥٠ م ويصفها قائلا :

« كان دخولنا لمدينة طرابلس قرب الظهر يوم الأربعاء سابع عشر رجب الفرد ، وهى مدينة مساحتها صغيرة ، وخيراتها كثيرة . ونكايتها للعدو شهيرة ، ومآثرها جليلة ، ومعايبها قليلة ، أنيقة البناء ، فسيحة الفِناء ، عالية الأسوار ، متناسبة الأدوار ، واسعة طرقها ، سهل طروقها ، إلى ما جُمع لأهلها من زكاء الأوصاف ، وجميل الإنصاف ، وسماحة على المعتاد زائدة ، وعلى المتعافين بأنواع الميرة عائدة ، لا تكاد تسمع من واحد من أهلها لغوا إلا سلاما ، ولو لمن استحقّ ملاما ، سيما مع الحجاج الواردين ، ومن انتسب إلى الخير من الفقراء العابدين ، فإنهم يبالغون فى إكرامهم ، ولا يألون جهدا فى إفضالهم عليهم . ولهذه المدينة بابان : باب إلى البر ، وباب إلى البحر ، لأن البحر يحيط بكثير من جهاتها ، والحصن الذى فيه الأمير متصل بالمدينة من ناحية البر بينه وبين البحر . ولأمير هذه المدينة نكاية فى العدو – دمَّرهم الله – وله مراكب قلَّ نظيرها معدَّة للجهاد فى البحر ، قلما تسافر وترجع بغير غنيمة . وقلما أُسرت لهم سفينة إلا أن تكون من سفن التجارة ، لا من سفن الجهاد ، فجزاهم الله خيرا ، وأعانهم على ما أولاهم من ذلك وسائر بلاد المسلمين » .

رحلة[1] ابن ناصر

هو أحمد بن محمد بن ناصر رئيس الطريقة الناصرية بتمكروت (قرية بوادى درعة جنوبى مراكش) وقد ولد بها لأبيه شيخ الطريقة سنة ١٠٥٧ هـ/١٦٤٧ م وعنى بتربيته وتثقيفه ، واختلف إلى حلقات العلماء بفاس ، وحج مرارا وكانت آخر حجة له سنة ١١٢١ هـ/١٧٠٩ م وبعد هذه الحجة كتب رحلته ، وفيها سجل كثيرا عن الحركات العلمية فى البلدان العربية ، ولذلك ، تعد مصدرا مهما للتعرف على النشاط العلمى بها وشيوخها حينذاك . ومن قوله فى وصف موجة للحرارة عاناها مع رفاقه فى أحد شعاب الحجاز :

« نزلنا غربى الأكرة بين العشاءين ، وفى هذه المسافة لما توجهنا عام تسعة (١١٠٩ هـ) هبَّت على الناس ريح السموم ، من نضيج اليَحْموم ، واشتد الحر وتوالى الكرب على الناس ، وضاعت الحيل والإيناس ، واشتد العطش على الرجال والجمال ، يشرب كلٌ ، ولا يُغْنى شربه ، بل يتزايد بتناول الماء كربه ، لا يبين القدح والماء عن فيه إلا وتزايدت حرارة العطش له . فبركت الإبل وفرَّت لظلال الأشجار ، وتدخل رأسها فى أدنى ظل يبدو لها وإذا بركت لا تكاد

(١) انظر فى رحلة ابن ناصر والنص المقتبس منها كتاب الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية ص١٧٢ وما بعدها .

تقوم ولو قُطِّعت إربا إربا . واشتدت الحال وبلغت القلوب الحناجر ، وكلحت الوجوه ، واغبرَّت الغرر وتغيرت ، واسودَّ أبيضها وتنكرت ، فترى الرجل لا باس به (سليما) فإذا به يُخْشَى عليه الفوت ، فإذا أوتى بالماء سبقه إليه الموت . وهلك من الناس كثيرون ومن الإبل أكثر ، وترك الناس بضائعهم وأحمالهم مشحونة بأزوادهم وما به قوامهم ، فتاهت فى الفلوات ، وذهبوا بأنفسهم فى طلب النجاة . يومٌ يذكّر بالموقف والعرض ، (فى يوم القيامة) وضاقت الدنيا على سعتها فى الطول والعرض ، يود الإنسان لو يجد السبيل إلى باطن الأرض ، الناس فيه حيارى ، وتراهم سكارى وما هم بسكارى . مات من المغاربة زهاء الستين بالعطش من نساء وصبيان ورجال وولدان » .

وهذا اليوم الشديد الحرارة لم يحدث له فى حجته الأخيرة إنما حدث له فى حجته الثالثة سنة ١١٠٩ ورحلته بذلك تتضمن أهم المشاهد التى رآها أو صادفها فى رحلاته المختلفة إلى الحج . والرحلة بأسلوب مرسل غير أنه يسجع فيها أحيانا على نحو سجعه فى مشهد هذا اليوم الحار وهى طرفة من طرف الرحلات المغربية . وتوفى سنة ١١٢٩هـ/١٧١٧م .

رحلة[1] الوزير الغسانى

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب الملقب بالوزير الغسانى وزير السلطان إسماعيل العلوى المتوفى سنة ١١١٩ هـ/١٧٠٨ م وقد أرسله السلطان فى سفارة إلى ملك إسبانيا للتفاوض فى افتداء الأسرى المسلمين ولمحاولة استرجاع الكتب العربية الباقية عندهم فى المساجد الأندلسية القديمة ، ولما عاد إلى وطنه فى المغرب الأقصى كتب رحلة وصف فيها إسبانيا سماها : « رحلة الوزير فى افتكاك الأسير » وكان دقيق الملاحظة ، فحملت رحلته ملاحظات مهمة عن إسبانيا فى الفترة التى زارها فيها ، وهى مكتوبة بأسلوب مرسل طليق لا أثر للصنعة فيه ، ومن قوله فى استقبال الملك الإسبانى له :

« حين قربنا من باب القصر لقينا وكيل الميوردوم .. فسلَّم ورحَّب ودخل بنا الدار .. فجعلنا نمرّ بجماعات من الأعيان والأكابر ، فيسلمون ويقف كلٌّ عند حدِّه ، إلى أن دخلنا قبة كبيرة ببابها كاتب الديوان الكبير ، وهو رجل كبير السن بلغ منه الكبر إلى أن انحنى فلقينا أحسن الملاقاة .. ودخل بناقبة أخرى لها باب ، وفى هذه القبة وجدنا الطاغية واقفا على قدميه ، وقد جعل فى عنقه سلسلة من ذهب ، وتلك هى عوائد ملوك العجم ، إذ هى عندهم بمثابة

(١) انظر فى هذه الرحلة الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية ص ١٥٦ وما بعدها . وهى مطبوعة بطنجة .

التاج ، وعن يمينه طبلة من ذهب مرصّعه أعدّها – وصنعها – أيام مقامنا بعد وصولنا ، ليجعل عليها البراءة السلطانية إجلالا وتعظيما لمرسلها أعزه الله تعالى » .

رحلة[1] محمد بن عثمان المكناسي

ولد محمد بن عثمان بمكناس فى أواسط القرن الثانى عشر الهجرى وتوفى سنة ١٢١٣ هـ/ ١٧٩٩ م وكان أديبا ، فعينه السلطان محمد بن عبد الله العلوى كاتبا فى دواوينه ، ثم اختاره حاكما لتطوان ، ثم عينه وزيرا ، وله رحلات متعددة ، طبعت جامعة الرباط منها رحلته إلى كارلوس الثالث ملك إسبانيا بدعوة من حكومة الجزائر سنة ١١٩٣ هـ/١٧٧٩ م لافتكاك الأسرى الجزائريين ورد حريتهم إليهم ، وقد سماها : « الإكسير فى فكاك الأسير » ونشرتها أخيرا جامعة محمد الخامس بالرباط ، وكان أديبا شاعرا وكاتبا ومن قوله فى وصف مَدْريد :

« هذه المدينة كبيرة غاية فى الكبر وضخامة البناء حاضرة الحواضر ببلاد إسبانيا ، بنيت على ربوة ببابها وادى (نهر) مانسنارس زادها حسنا وبهاء ، وبهجة وسناء ، وقد غرسوا على جانب الوادى الذى من ناحية المدينة أشجارا كثيرة مثل النشم وما أشبهه فى غاية العلو بصفوف معتدلة يتفيئون ظلالها عشية وقت خروجهم ، يترددون على حاشية الوادى المذكور على أكداشهم (دوابهم) ومن لم يكن عنده كدش يخرج على رجليه . ولما دخلنا المدينة المذكورة وجدنا بها من الخلائق أضعاف من تلقّانا بخارجها ، فسرنا فى سكك متسعة وديار مرتفعة ، فجلُّ ديارها لها ست طبقات وخمس طبقات ، لكل دارٍ شراجيب مفتحة للأزقة ، مغلقة بالزاج عليها شبابيك الحديد ، وأسواقها عامرة ، مشحونة بأهل الحرف والصنائع ، والتجارة والبضائع ، وجلُّ باعتها من النساء » . وحسبنا ما تقدم عن الرحلات الحجازية والأوربية .

٥

كبار الكتّاب

(أ) القاضى عياض[2]

هو أبو الفضل عياض بن موسى اليحصُبى السَّبتى علاَّمة عصره ، استقرّ أجداده قديما فى مدينة بَسْطة من أعمال غرناطة ، وانتقلوا إلى فاس أيام الأدارسة ، وبارحوها إلى مدينة سبتة بعد دخول بنى عبيد الفاطميين المغرب فى القرن الرابع الهجرى ، وكان أول من نزلها من أجداد

(١) انظر الحياة الأدبية فى المغرب على عهد الدولة العلوية ص ٣٣٤ وما بعدها .

(٢) انظر فى سيرة عياض وأعماله كتاب ابنه محمد : التعريف بالقاضى عياض تحقيق الدكتور محمد بن شريفة (طبع الرباط) وكتاب أزهار الرياض فى أخبار عياض للمقرى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ، والنبوغ المغربى ١١/٢ وفى مواضع متعددة والوافى ٥٢/١ .

القاضى عياض جده عمرون ، وكان موسرا ، فاشترى بها أرضا وهى المعروفة باسم المنارة وبنى بها مسجدا وديارا وقفها على المسجد ، ووقف بقيتها مقبرة للدفن ، ووُلد له ابنه عياض ، وولد لعياض ابنه موسى وولد لموسى ابنه عياض سنة ٤٧٦ هـ/١٠٨٣ م ونشأ طالبا للعلم حريصا عليه مجتهدا فيه – كما يقول ابنه – معظما عند شيوخه لما لاحظوا من ذكائه وإكبابه على الدرس إلى أن برع فى زمانه ، وتفوق على أقرانه ، وكان من حفاظ القرآن الكريم ، لا يترك تلاوته والقيام على معانيه وإعرابه وشواهده وأحكامه كما يقول ابنه ، وكان – كما يقول – من أئمة زمنه فى الحديث وفقهه وغريبه ومشكله ومختلفه حاذقا بتخريجه ، كما كان فقيها حافظا لمسائل مدَّونة سحنون ومختصر ابن أبى زيد القيروانى ، وكان نحويا ريَّانا من الأدب شاعرا مجيدا من أكتب أهل زمانه خطيبا مفوَّها ، مقداما على الأمراء فى استقضاء حوائج الرعية عندهم ، محبَّبا فى قلوب العامة والخاصة . ويضيف ابنه أنه أخذ عن أشياخ بلده ، ثم رحل إلى قرطبة بالأندلس سنة ٥٠٧ للهجرة ، وأخذ عن شيوخها ، وخرج إلى مُرْسية فى أوائل سنة ٥٠٨ ولزم الحافظ الحسين بن محمد الصدفى فترة ، وأجازته جماعة كثيرة من أعلام[1] الأندلس وتونس ومصر والحجاز . وولى القضاء فى بلدته سبتة سنة ٥١٥ للهجرة ونُقل إلى غرناطة قاضيا بها سنة ٥٣١ هـ/١١٣٦ م وصُرف عنها سنة ٥٣٢ وعاد إلى قضاء سبتة سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٤ م . وفى بدء دولة الموحدين غزا عبد المؤمن سبتة فردَّ جيشه أهل سبتة ومعهم القاضى عياض ، ولما قُتل تاشفين وقضى الموحدون على دولة المرابطين وفتحوا مدينتى فاس وتلمسان بايع أهل سبتة عبد المؤمن ، ولقيه القاضى عياض فى مدينة سَلا وهو يستعد لفتح مراكش فأجزل صلته ، ولما انتفضت الأندلس على عبد المؤمن بسبب ثورة محمد ابن هود ثارت سبتة – برأى القاضى عياض كما قيل – وحاربها عبد المؤمن وعادت إلى الطاعة ، واستدعى عبد المؤمن القاضى عياضا ، فأخذ من سبتة إلى مراكش مغلولا سنة ٥٤٢ للهجرة حتى إذا اجتمع بعبد المؤمن فى مراكش واستعطفه ببعض منظومه ومنثوره عفا عنه على أبرِّ وجه وأكمله ، وأمره بلزوم مجلسه ، كما يقول ابنه ، ومنزلته عنده تزداد كل يوم سموا ورفعة إلى أن توفى بمراكش سنة ٥٤٤ هـ/١١٤٩ م . وكتب ابنه محمد فصلا عن مؤلفاته وأهمها : كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ ودوت شهرة هذا الكتاب فى العالم الإسلامى إلى اليوم ، وكتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك فى خمسة أسفار ، وكتاب إكمال المعلم على صحيح مسلم ، وهو زيادة فى الشرح على شرح المعلم بفوائد مسلم للإمام المالكى الصقلى محمد المازرى دفين المنستير بتونس إلى غير ذلك من كتب نفيسة من أهمها كتاب له فى النقد والبلاغة سماه « بغية الرائد » كتب عنه الأستاذ محمد بن تاويت فصلا فى ترجمته

(١) راجع فى هؤلاء الشيوخ كتاب ابنه السابق ص١١٩ متعددة .
وما بعدها والجزء الثانى من أزهار الرياض فى مواضع

بالجزء الأول من كتابه الوافى بالأدب فى المغرب الأقصى وهو يعرض فيه بعض صور النقد والمحسنات البديعية من مثل الجناس والطباق والترصيع . وكان له كتاب خطب ومواعظ دينية ، وهو مفقود ، وفى أزهار الرياض عن ابن خاتمة أن هذا الكتاب يشتمل على خمسين خطبة من خطب الجمعات ، وروى له ابنه فى التعريف به خطبتين ، يقول فى إحداهما حاضا على التقوى :

« أيها السامع قد أيقظك صَرْف[1] القدر من سِنة[2] الهوى وسكراته ، ووعظك كتاب الله بزواجره وعظاته ، فتأمَّلْ حدوده وتدبر محكم آياته ﴿واتْلُ ما أُوحِىَ إليك من كتاب ربك لا مبدِّل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا[3]﴾ أين الذين عَتَوْا على الله وتعظموا ، واستطالو[4] على عباده وتحكموا ، وظنوا أن لن يُقْدَرَ عليهم حتى اصطُلِمُوا[5] ، ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا﴾ غرَّهم الأمل وكواذب الظنون ، وذَهِلوا عن طوارق الغِيَر[6] ورَيْب المَنون ﴿وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون – حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعفُ ناصرًا وأقل عددا﴾ فهذِّبوا – رحمكم الله – سرائركم بتقوى الله وأخلصوا واشكروا نعمته ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تُحْصُوها﴾ واحذروا نقمته ولا تَعْصوا واعتبروا بوعيده ﴿قُلْ كلٌّ متربِّصٌ فتربَّصوا ، فستعلمون من أصحابُ الصِّراط السَّوِىِّ ومن اهتدى﴾ وانْهضوا لطاعته هذه الهمم العاجزة ، وارْكُضوا فى ميدان التقوى تحوزوا قصب خَصْله[7] الفائزة ، وادَّخِروا ما يخلِّصكم يوم المحاسبة والمناجزة ، وانتظروا قوله : ﴿ويوم نُسَيِّر الجبالِ وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا﴾ ذلك يوم تذهل فيه الألباب وتَرْجُفُ القلوب رَجْفا ، وتبدَّل الأرض وتُنسَفُ الجبال نِسْفا ولا يقبل الله فيه من الظالمين عدلا ولا حرفا وحُشِر المجرمون يومئذ زُرْقًا ﴿وعُرِضوا على ربِّك صَفًّا لقد جئتمونا﴾ فُرادى﴿كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا﴾ إن أحسن الهَدْى هَدْىُ محمدٍ نبيِّنا وأصحابه ، وأفضل الذكر ذكر الله وتلاوة كتابه ، جعلنا الله وإياكم ممن اهتدى بهدْيه ، وتأدَّب بآدابه ومن الذين قالوا : ﴿سَمِعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرُّشد فآمنَّا به ولن نُشْرك بربِّنا أحدا﴾ اللهم انفعنا بالكتاب والحكمة ، وارحمنا بالهداية والعصمة وأوزعْنا[8] شكر ما أوليتَ من نعمة ﴿ربَّنا آتنا من لدنك رحمةً وهيِّئْ لنا من أمرنا رشدا﴾ » .

والعظة رائعة بما فيها من دعوة للتقوى وتحذير من وعيد الله ونقمته ، ومن غرور بالأمانى

---

(١) صرف : أحداث .
(٢) سنة : غفلة .
(٣) ملتحدا : ملجأ .
(٤) استطالوا : تطاولوا واعتدوا .
(٥) اصطلموا : استأصلوا .
(٦) الغير : الأحداث .
(٧) خَصله : فضله .
(٨) أوزعنا : ألهمنا .

والظنون الكاذبة والذهول عن يوم القيامة مع ما فى ذلك من كفران بنعمة الله ونعمه لا تحصى . وتتخلل العظة أو الخطبة الآيات القرآنية مؤكدة معانى عظته . ولغة العظة لغة جزلة مصقولة تشيع فيها مع الآيات ألفاظ قرآنية كثيرة . ويأسى من يقرأ هذه الخطبة وأختها الموجودتين فى كتاب التعريف بالقاضى عياض لضياع كتاب خطبه . والخطبة مسجوعة وكان يؤثر السجع فى خطبه وأيضا فى رسائله على نحو ما نرى فيما أثبته وسجَّله منها ابنه محمد ، من ذلك رسالة يعاتب فيها صديقين له :

« ليت شعرى أأَعْتِبُ أم أُعتِب ، وأعترف بالذنب أم أُذْنب ، لا جرم لو علمت لنفسى جُرْمًا لجعلتُ عليها بَرْدَ الشراب حراما ، ولسلبتها لذيذ المنام غراما[1] ، حتى يَفِيء إليها من وجدَ عليها[2] ، ويرضى عنها المتظلِّم منها ، بعلائكما ما هذا الجفاء ؟ وأين ما تدَّعيانه من الوفاء ؟ أحين جدَّت بنا الحال وشُدَّتْ للنَّوَى الرِّحال ، ودعا بنا داعى الزِّماع ، ومَجَلت[3] عين ويَدٌ للوداع ، اتخذتمانى ظِهْرِيًّا ، وصرت عندكما نَسْيًا منسيًّا ، لا أعلم لكما علما ، ولا ألقاكم إلا حُلْمًا ، كأن شَمْلنا لم يزل مُتَصَدِّعا ، وكأنا لطول افتراق لم نَبِتْ ليلةً معا ، ماذا يُريب الغريب فى إغباب[4] الأحباب أمجالسة السلطان أو مؤانسة الأوطان ، أنى المجد من ذلك وأبيت ، ولنا يا بَيْتُ بالعلياء بيت ، أم صدودٌ وملالٌ ينافيه ذلك الجلال ،أم قلة احتمال ، لما تشاهدانه من غلظ تلك الخلال ، وقيتما ! من الذى يُعْطَى الكمال ؟ أم ثَمَّ ذَنب يوجب الصدود ، ويُودِى بودٌ الوَدود ، أسمعاه ، لأرجع إلى المتاب ، عن العتاب ، وأبادر بنفسى عِوضَ الكتاب ، فأعْذِر ولا أعذل[5] وأنصف من نفسى وأعدل والسلام » .

ونسيج الرسالة نسيج جيد من الألفاظ والأسجاع مع ما يزينها من الجناسات والاستعارات والكنايات ، مما يدل – بوضوح – على أن القاضى عياضا كان يحبِّر أعماله الأدبية من رسائل وغير رسائل . والرسالة تحمل بجانب ذلك حسًّا مرهفًا ، لا بما يورد فيها من سجع قصير يطير عن الأفواه بخفة ، بل بما يصور من حسه الدقيق ، بمثل تعقيبه على ما يظن صاحباه به من غلظ الخلال بقوله وقيتما ، ويستمر هذا الحس الدقيق فى بناء الكلم ببقية الرسالة ، وبدون ريب كان القاضى عياض أديبا كبيرا . ومن طريف ما نقرأ له فى مقدمة كتاب الشفاء تحميده لربه وتمجيده لرسوله إذ يقول :

« الحمد لله المنفرد باسمه الأسمى ، المختص بالملك الأعز الأحمى[6] ، الذى ليس دونه منتهى

---

(١) غراما : عذابا وفى الأصل : عزما .
(٢) وجد عليها : غضب منها .
(٣) الزماع : المضىّ فى الأمر . مجلت : كلَّت كناية عن الشيخوخة وفى الأصل : خجلت .
(٤) الإغباب : البعد فى الزيارة .
(٥) أعذل :ألوم .
(٦) الأحمى : الأمنع .

ولا وراءه مَرْمَى ، الظاهر لا تخيُّلا ولا وهما ، الباطن تقدُّسًا لا عُدْما وَسِعَ كل شيءٍ رحمةً وعلما وأسبغ على أوليائه نعما عُمًّا[1] ، وبعث فيهم رسولا من أنفسهم أَنْفَسَهم عربا وعُجْما ، وأزكاهم محتدًا ومَنْمى ، وأرجحهم عقلا وحلما ، وأوفرهم علما وفهما ، وأقواهم يقينا وعزما ، وأشدهم بهم رأفة وَرُحْمَى ، زكَّاه روحا وجسما ، وحاشاه عيبا ووصَمًا ، وآتاه حكمة وحُكْما ، وفتح به أَعْيُنا عُمْيا وقلوبًا غُلْفا[2] وآذانا صُمًّا ، فآمن به وعزَّره ونصره من جعل الله له فى مغنم السعادة قسما ، وكذَّب به وصدف[3] عن آياته مَنْ كتب الله عليه الشقاء حَتْما ، ﴿ومَنْ كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى﴾ صلَّى الله عليه صلاة تَنْمو وتُنْمى ، وعلى آله وسلَّم تسليما » .

والتحميد والتمجيد فى لغة عذبة سلسة ، سواء فى الألفاظ أو فى الأسْجاع القصار مع ما يزينها من الألفاظ والآيات القرآنية ، وقد افتتح بهما كما أسلفنا كتابه الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ .

(ب) أبو جعفر[4] أحمد بن عطية

أول كتَّاب المغرب الأقصى النابهين فى ديوان على بن يوسف بن تاشفين وابنه تاشفين ، ويقال إنه ولد سنة ٥١٧ هـ/١١٢٣ م وكأنه كتب فى هذا الديوان قبل العشرين من عمره ، وفيه تعرَّف على تقاليد الكتابة الديوانية التى أرساها فى الديوان المغربى كتَّاب الأندلس أبو بكر بن القصيرة وابن أبى الخصال وعبد المجيد بن عبدون وأضرابهم ، ولما قضى الموحدون على دولة المرابطين فَرَّ وغيَّر هيئته ، وكان محسنا لرمى السهام ، فانتظم فى الجيش الموحدىّ الذى خرج إلى مدينة سوس فى الجنوب لقتال ثائر هناك ، وانتصر الجيش الموحدى وقُتل الثائر وانهزم أنصاره ، فطلب القائد أبو حفص عمر إينتى كاتبا يحسن عرض المعركة ليخبر بها رئيس الدولة عبد المؤمن ومن معه من الموحدين ، فدُلَّ على أبى جعفر ، وكتب له رسالة طويلة أعجبت عبد المؤمن ، فاستدعاه ، واستكتبه وزاده الوزارة إلى الكتابة ، لما رأى عنده من شجاعة قلبه وحصافة رأيه ، كما يقول المراكشى . ولم يزل وزيره إلى أن أغضبه فقتله ، وفى كتاب المعجب أن سبب قتله أنه كان قد تزوج بنت أبى بكر بن يوسف بن ناشفين ، وكان أخوها يحيى فارسا وأبلى بلاء شديدًا فى مقاومة الموحدين ، وانقاد لهم حين تمَّ نصرهم وانضوى تحت لوائهم ،

---

(١) نعما عما : نعما كثيرة .

(٢) غلفا : جمع أغلف : كأن على القلب غلافا .

(٣) صدف : أعرض .

(٤) انظر فى ترجمة أبى جعفر أحمد بن عطية كتاب المعجب لعبد الواحد المراكشى ص ٢٦٦ - ٢٦٩ والإحاطة لابن الخطيب ١/١٣٢ - ١٣٩ والنبوغ المغربى ٢/١٦٦ والوافى ١/٢٥١ - وانظر فى رسائله مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية (طبع الرباط) .

فجعله عبد المؤمن قائدا على من دخل فى عقيدة الموحدين من لمتونة قومه ، ولم يزل مكرَّما عند عبد المؤمن إلى أن بلغته عنه أفعال وأقوال أحنقته عليه . وتحدث عبد المؤمن بذلك فى مجلسه فخشى أبو جعفر أحمد بن عطية على صهره يحيى من فتك عبد المؤمن به ، فقال لزوجته قولى لأخيك يتحفَّظ ، وإذا دعاه غدا فليظهر المرض ، وإذا استطاع الفرار واللحاق بجزيرة ميورقة فليفعل (وكان صاحبها مرجا على الموحدين) . وتمارض يحيى وزاره بعض أصحابه فأسرَّ إليه ما بلغه عن صهره أبى جعفر ، فنقل الرجل ذلك إلى شخص من أبناء عبد المؤمن ، فأمر بالقبض على أبى جعفر وأخيه أبى عقيل الكاتب ولم يلبث أن أمر بقتلهما سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨ م ، واعتُقل يحيى وظل فى سجنه إلى أن مات ، ولم تأخذ عبد المؤمن فى أبى جعفر وصاحبيه رأفة ولا شفقة ولا رحمة .

وأبو جعفر أحمد بن عطية يُعَدّ فى الذروة من كتَّاب عبد المؤمن ، ويشهد لذلك أن « مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية » يشتمل على سبع وثلاثين رسالة ، له فيها سبع عشرة رسالة ، ولو أنه ظل حتى نهاية عبد المؤمن لتكاثرت رسائله فى تلك المجموعة ، ومن رسائله خمس موجهة إلى طلبة سبتة من دعاة الموحدين بها ، وهو دائما يبلغ أهلها فى تلك الرسائل انتصارات عبد المؤمن تلويحا لها بعد أن قامت بثورتها سنة ٥٤٣ أن تلتزم بطاعة عبد المؤمن وعقيدة الموحدين وإلا أنزل بها عقابا أليما . وتبدأ هذه المجموعة للرسائل برسالة بقلم أبى جعفر بن عطية موجهة على لسان عبد المؤمن إلى طلبة سبتة كى يبلغوها أهلها ، وفاتحتها على هذه الصورة :

« من أمير المؤمنين – أيَّده الله بنصره وأمدَّه بمعونته – إلى الطلبة (الدعاة) الذين بسبتة وجميع مَنْ فيها من الموحدين خاصة وعامَّة – وفَّقهم الله وسدَّدهم – سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فالحمد لله مُولى الرَّغائب ، ومُسَنِّى[1] الآمال والمطالب ، وقابل توبة التائب ، نحمده بما يتعيَّن من حمده الواجب ، ونصلِّى على محمد نبيِّه العاقب[2] ، وعلى آله وصحبه أُولى المفاخر السنيَّة والمناقب . ونصل [بذلك] الرضا عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، المحرز شرفَ المبادىء والعواقب ، المجلِّى بنوره الثاقب حُجُبَ الظلام الواقب[3] .. وقد وصلنا بحمد الله إلى مرَّاكش على أتمِّ أحوال الظفر واليمن ، وعُدْنا إليها تحت ظل السلامة التامة والأمن ، بعد كمال الغزوة المباركة وتمامها ، وإطفاء نار الفتنة ببَرْد الهدنة وسلامها ، وإلصاق أنوف الكفرة المرتدين برَغامها وقُطع دابر القوم المجرمين .. وإن النعمة – وفقكم الله – بهذه الفتوح العميمة العامة شاملة على من أخذ بهذا الأمر العزيز (يريد دعوة الموحدين) ودان ، وتزيىَّ بحلته البهية

(١) مسنى : ميسر .
(٢) العاقب : خاتم الرسل .
(٣) الواقب : الشامل .

فازدان ، فهى الفتوح التى ظهر بها من آيات المهدىّ – رضى الله عنه – العجب العُجاب ،وفاض فيها من بركاته الفيض المنساب ، ودرَّت بها الأرزاق وانتشر الأمن وكرم المآب ، وكان أمرها مخصوصا بالمرتدين الخاسرين ، فمحقهم وطيسُها الشديد الغلاَّب ، وليس لله على ذلك إلا الحمد والشكر والمتاب » . ويقول عبد المؤمن فى الرسالة لأهل سبتة : حافظوا على القرآن والتوحيد .

وواضح أن عبدالمؤمن ينعت الخارجين عليه بأنهم كفرة مرتدون ، إذ ارتدوا عن دعوة الموحدين ، وكأنما أصبحت هى الإسلام ، فمن ارتد عنها ارتد عن الدين الحنيف . والرسالة فى أوائلها تدعو بالرضا عن الإمام المعصوم المهدى ابن تومرت الذى أخرج بدعوته الناس من الظلمات . وما تلبث الرسالة أن تذكر أن هذا الفتح وغيره من الفتوح إنما هو من بركاته .

وفى الرسالة الرابعة المكتوبة بقلم ابن عطية والموجهة إلى يحيى بن غانيَّة صاحب جزر منورقة الرافض لدعوة الموحدين قطعة يصوِّر عبد المؤمن له فيها ابن تومرت داعية الموحدين بهذه الصورة التالية :

« هذا الأمر (يريد دعوة الموحدين) – وفّقكم الله – هو أمر المهدى – رضى الله عنه – حقٌّ فتأمَّل ، ومع معالمه الجلاء فلاظنٌّ ولا تخيل . والمهدى – رضى الله عنه – قد بشَّر به النبى – صلى الله عليه وسلم – فى غير ما حديث ، وظهرت علاماته وآياته فى قديم من أمره وحديث ، ودُلَّ على اسمه وزمانه وفعله ومكانه بأدلة رفعت الإشكال والتعسف ، فأتى – رضى الله عنه – كما نعت النبى عليه السلام – ووصف ، وقال – صلى الله عليه وسلم –فيه وفى طائفته العزيزة ما قد ظهر ظهورَ الإشاعة والإذاعة ، وقضى بوجوب الائتمار والائتمام والطاعة ، وأخبر فى جملة ما أخبر به عنهم أنهم يقاتلون على الحق إلى قيام الساعة .. وقد تبيَّن الصبح لذى عينين ، وجَدع الحق أنْفَ الكذب والمَيْن ، وتجلت[1] الهداية ضد الضلال والرَّين[2] » .

وعبد المؤمن فى هذه الرسالة ينعت ابن تومرت بما كان ينعت به عنده وعند دعاة الموحدين من تبشير النبى به ووصفه ، وما أوجب للمهدى من اتباع دعوته ، ومن لم يتبعها حُكم عليه بالكفر والارتداد عن الدين الحنيف ، ويقول إنهم مأمورون بالقتال عليها إلى قيام الساعة . ورسائل ابن عطية فى « مجموع رسائل موحدية » مكتوبة بلغة مروَّقة صافية مع السهولة والسلاسة وقصر الأسجاع فى جوانب كثيرة من الرسائل ، مع تضمينها صورا من الاستعارات ومن المحسنات البلاغية . واحتفظ له ابن القطان فى كتابه نظم الجمان برسالة كتبها على لسان عبد المؤمن من تينملل حين زار قبر المهدى فيها لشهر ربيع الأول سنة ٦٤٥ وهى أشبه

(١) فى الأصل : جلت .
(٢) الرين : الدنس .

بدستور لحكم أمراء الولايات المختلفة وأنه ينبغى أن يقوم على العدل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد أرسلت نسخ منها إلى جميع الولاة . وحين زجَّ به عبد المؤمن فى السجن أرسل إليه يستعطفه برسالة مشهورة استهلها بأبيات يسترحمه فيها وتلتها الرسالة على هذه الصورة[1] :

« تالله لو أحاطت بى كلُّ خطيئة ، ولم تنفك نفسى عن الخيرات بطيئة ، حتى سخرت بمن فى الوجود ، وأنفتُ لآدم من السجود ، وقلت إن الله لم يوحِ ، فى الفُلْك إلى نوح ، وأبرمت لاحتطاب نار الخليل حَبْلا ، وبَرَيْتُ لقُدار ثمود نَبْلا ، وحططت عن يونس شجرة اليَقْطين ، وأوقدتُ مع هامان على الطين ، وقبضتُ قبضة من أثر الرسول فنبذتها ، وافتريت على العذراء البَتُول فقذفتها ، وكتبت صحيفة القطيعة بدار النَّدوة ، وظاهرت الأحزاب بالقُصْوَى من العُدْوة ، وأبغضت كل قرشى ، وأحببت لأجل وَحْشِىّ كل حبشى ، وقلت إن بيعة السقيفة لا توجب إمامة خليفة ، وشَحَذْت شَفْرة غلام المغيرة بن شُعْبة ، واعتلقتُ من حصار الدار وقَتْل أشْمَطِها بشُعْبَة ، وقلت تقاتلوا رغبة فى الأبيض والأصفر ، وسفكوا الدماء على الثَّريد الأعْفَر ، وغادرت الوجه من الهامة خَضيبا ، وناولتُ مَنْ قَرَع سَنَّ الحسين قضيبا ، ثم كنت بجُفْرةِ المعصوم لائذا ، وبقبر المهدى – رضى الله عنه عائذا ، لقد آن لمقالتى أن تُسْمَع ، وأن تُغْفَر لى هذه الخطيئات أجمع ، مع أنى مقترف ، وبالذنب معترف :

وعفوا أميرَ المؤمنين فمَنْ لنا بردِّ قلـــوبٍ هدَّها الخفقانُ

والسلام على المقام الكريم ورحمة الله وبركاته » .

وهو يقول لعبد المؤمن لو أنى سخرت بكل من فى الوجود من خلق الله ، واستنكفت لإبليس من سجوده لآدم وأنكرت أن الله أوحى إلى نوح فى فلكه ما أوحى ، وأبرمت حبلا للمحتطبين لنار إبراهيم الخليل ، وبريت لقدارِ ثمود عاقر الناقة نبلا ، وحططت عن يونس شجرة اليقطين التى أنبتها الله لتظله ، وأوقدت مع هامان لفرعون على الطين ليبنى له صرحا حتى يرى ربه كما زعم ، ولو أنى السامرى الذى قبض على شىء من دين موسى ثم كفر به ونبذه ودفع بنى إسراءيل لعبادة العجل فى غيبة موسى ، وكذبت على السيدة مريم العذراء البتول فقذفتها ، وكتبت صحيفة المقاطعة بين قريش وبين الرسول وصحبه قبل هجرته ، وظاهرت الأحزاب وعاونتهم فى حصار المدينة ، وأبغضت كل قرشى وأحببت لأجل وَحْشى

(١) انظر فى هذه الرسالة كتاب روض القرطاس لابن أبى زرع (طبع الرباط) ص ١٩٦ وكتاب النبوغ المغربى للأستاذ كنون ١٦٦/٢ وراجع ترجمة ابن عطية فى الإحاطة .

الحبشى قاتل حمزة بن عبد المطلب فى غزوة أحد كلٌّ حبشى ، وقلت إن بيعة السقيفة لا توجب إمامة أبى بكر وخلافته ، ولو أنى شحذت شفرة خنجر غلام المغيرة بن شُعْبة طاعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أو لو أنه تعلق بشُعْبة فى حصار عثمان من شعب الدار وقلت تقاتلوا على الدرهم والدينار وسفكوا الدماء وتركت الوجه الكريم لعلى بن أبى طالب خضيبا بالدماء ، وناولت يزيد بن معاوية قضيبا ليقرع السن – كما قيل – فى ثغر الحسين . لو أنه صنع شيئا من ذلك ثم لاذ بحفرة ابن تومرت وقبره لقد آن أن تسمع لقولى وتغفر لى خطيئاتى وتعفو عنى . ولم يلن له قلب عبد المؤمن بل ازداد قسوة وأمر بقتله . ولا يقلل من روعة هذه الرسالة أنه استوحاها من الرسالة الجدية لابن زيدون ، والحق أنه كان كاتبا بارعا وأن رسائله تعد فى الذروة من النثر المغربى فى مختلف عصوره .

(جـ) ابن[1] بطوطة

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللَّواتى الطنجى المشهور باسم ابن بطوطة ، وُلد فى طنجة سنة ٧٠٣ هـ/١٣٠٤ م لأسرة كانت تشتغل بالفقه والدراسات الدينية وكانت فى بسطة وسعة من العيش ، واهتم أبوه – وكان فقيها – بتربيته فحفظ القرآن ، ودفعه لدراسة الفقه المالكى واستوعب ما عند شيوخه فى نحو العشرين من عمره ، وطمحت نفسه لقضاء فريضة الحج ، فخرج من بلده فى الثانية والعشرين من سنه مع رفقة ، واتجه معها شرقا إلى الجزائر ونزل سنة ١ الشمالية ، وتنقل بين رفاق حتى تونس وفيها رأى الالتحاق بقافلة من قوافل الحجاج ، وعرض فيه فقهه فأقاموه قاضيا بينهم ، ونزلت القافلة الإسكندرية فطاف بمشاهدها وزار علماءها وعبَّادها وتعرَّف على ناسك زاهد يسمى « الشيخ خليفة » وقال له : إنى أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد فأجابه : نعمْ . فقال له : « لابد لك – إن شاء الله – من زيارة أخى فريد الدين بالهند وأخى ركن الدين زكريا بالسند وأخى برهان الدين بالصين ، فإذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام » فعجب ابن بطوطة من قوله وكأنما تنبأ له أنه سيصبح رحالة كبيرا يطوف بلدان العالم الإسلامى حتى أقصاها وأنه سيمد رحلاته إلى الهند والصين . وترك الإسكندرية ميمما وجهه نحو القاهرة ولم يذهب إليها مباشرة إذ طاف قبلها ببعض البلاد فى الوجه البحرى مثل دمنهور وفوَّة بالقرب من رشيد ودمياط والمحلة الكبرى . وفى فوة تعرف على شيخ صالح يسمى أبا عبد الله المرشدى ، وأكرمه وبات على سطح زاويته ، فرأى فى منامه حلما عجيبا : أنه على جناح طائر عظيم ، يطير به فى سَمْت القبلة يتيامن ثم

(١) انظر فى ابن بطوطة ورحلته النبوغ المغربى ٢٢٢/١ وابن بطوطة ورحلاته : تحقيق ودراسة وتحليل للدكتور حسين مؤنس (طبع دار المعارف بالقاهرة) ورحلة ابن بطوطة للدكتور شاكر خصباك (طبع بغداد) .

يشرق ثم يذهب فى ناحية الجنوب ثم يعد فى طيرانه إلى ناحية الشرق وينزل فى أرض مظلمة حضراء ويتركه بها . ويقص حلمه على الشيخ ويطلب إليه تأويله ، فقال له : سوف تحج وتزور النبى ﷺ وتجول فى بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند وتظل بها مدة طويلة .

وكان هذا التفسير لحلم ابن بطوطة وما حمله له الشيخ خليفة من السلام إلى إخوة له فى الهند والسند والصين إرهاصا ليصبح رحَّالة بل ليصبح أعظم رحالة عرفه العرب فى تاريخهم الوسيط . ونزل القاهرة والفسطاط ، ثم أخذ طريقه إلى الحج عن طريق الصعيد وعيذاب على البحر الأحمر وفيها رأى الطريق البحرى إلى جدَّة معطَّلا لخروج قبائل البجَّة على سلطان مصر محمد الناصر بن قلاوون ، فعاد إلى الفسطاط ، واتجه إلى صحراء سيناء وتجول فى بلاد الشام من بيت المقدس ومعان إلى حلب ، وخرج من الشام مع ركب من الحجاج إلى المدينة المنوَّرة فمكة ، واتجه بعد أداء فريضة الحج إلى العراق وغربى إيران ونزل فى النجف وواسط والبصرة وشيراز فى إيران وبغداد وبلدان الموصل . وحج حجته الثانية وأقام بمكة سنة ، ورأى أن يزور اليمن وطاف ببعض بلدانها وعبر البحر إلى أفريقيا الشرقية وزار الصومال وزيلع ومقدشو ، وعاد إلى الجزيرة العربية مارا بشواطئها الجنوبية وظفار وعمان ودخل الخليج العربى وبعض بلدانه . وحج حجته الثالثة واتجه بعدها إلى مصر ، ولم يلبث أن رحل إلى آسيا الصغرى حيث بلدان السلاجقة وأمراء الدولة العثمانية الأوائل ، وأبحر إلى شبه جزيرة القرم وكانت تابعة لسلطان مغول القنجاق محمد أوزبك وتجول فى بلاده وفى بلاد القوقاز والبلغار ، ورغب فى أن يدخل بلاد الظلمة (روسيا) وعدل عن ذلك . وأنس به السلطان محمد أوزبك ويعدُّه من أعاظم ملوك الدنيا ، وأرسله فى ركب مع زوجته بنت ملك الروم لزيارة أبيها فى القسطنطينية فتعرف على بلدان الدولة البيزنطية . ويرحل إلى خوارزم ، ويدخل سمرقند ، ويتجوَّل فى بلدان خراسان مثل بلخ وبخارى وبلاد أفغانستان مثل هراة ، ويدخل إلى الهند فى سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م ويكرمه سلطان السند أو البنجاب محمد شاه ويوليه قضاء دهلى ويقيم بها ثمانى سنوات . وأرسله السلطان فى وفد بهدية إلى ملك الصين ، وأبحر إلى قاليقوط إحدى ثغور الهند فى الغرب ، وهبت عاصفة أغرقت المركب وأسرته والهدية ، ولم يرجع إلى السلطان ، ورحل إلى جزائر ذيبة المهل (الملديف) جنوبى الهند ، وتولَّى القضاء بها عاما وبعض عام ، وتركها إلى الصين عن طريق جزيرة سيلان والبنغال ، ويركب البحر وينزل سومطرة وجاوة ، ثم يتجه إلى الصين ويتجول فى بلدانها ، ويعود إلى سومطرة ويمر بإيران والعراق والشام ومصر ، ويبحر من عيذاب لقضاء العمرة . ويصمم على العودة إلى موطنه ، ويصل إلى تونس ويركب منها البحر إلى الجزائر ويمر بسردانية وبتلمسان ، ويصل إلى فاس سنة ٧٥٠ ويرحب به سلطانها أبو عنان ويلحقه بحاشيته . ولا يلبث أن يزور الأندلس ويتجول فى بلدان إمارة بنى

الأحمر بغرناطة ، ويعود منها عازما على زيارة السودان الغربى ، ويدخل الصحراء إليه سنة ٧٥٣ ويتجول فى بلدان مالى ويصل إلى تمبكتو على النيجر ، ويعود فى أواخر سنة ٧٥٤ إلى المغرب . وكان السلطان أبو عنان معجبا أشد الإعجاب بما يقصه عن رحلاته فأمر كاتبه ابن جُزَىّ أن يساعده فى كتابة رحلته التى سماها : « تحفة النظّار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » . ونجد ابن جُزَىّ يقول فى آخرها : « انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبى عبد الله محمد بن بطوطة » وكان فراغه من هذا التلخيص فى شهر صفر سنة ٧٥٧ هـ/ فبراير ١٣٥٦ م . ويبدو أن ابن بطوطة كان قد قيد رحلته فى أسفار كثيرة وأن ابن جزى لخصها مما جعل بعض الباحثين يظن أنها من تحريره . وابن جزى نفسه يعترف بأن كل ماله إنما هو تلخيص واختصار لجوانب من تفاصيلها الكثيرة ، ولذلك نذهب إلى أنها مكتوبة فى جملتها بأسلوب ابن بطوطة نفسه ، ونعدُّهُ لذلك من كبار كتاب المغرب الأقصى . وهو لا يدخل بلدة إلا وصف سورها إن كان لها سور مثل الإسكندرية ودورها ومطاعم أهلها وملابسهم وأسواقها ومدارسها وعلماءها ونسّاكها وحكامها وعادات سكانها وتجاراتها وزروعها وعُمْلتها وكل ما يتصل بها ، وكيف لابن جزى بوصف ذلك وهو لم يشاهد شيئا منه . وكانت فيه نزعة دينية قوية فأطال الحديث عن الزوايا والنساك والأولياء وأصحاب الكرامات ، ونقتطف بعض ما جاء فى رحلته الضخمة ، فمن ذلك قوله عن مصر :

« أم البلاد ، وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة ، والبلاد الأريضة (ذات المزارع والرياض الجميلة) المتناهية فى كثرة العمارة ، المتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحطُّ رَحْل الضعيف والقادر ، بها ما شئت من عالم وجاهل ، وجادٌّ وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف ، وتموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة أماكنها ومكانها ، وشبابها يجدّ على طول العهد ، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد » . والسجع قليل فى الرحلة ، إذ لا يعدو المقدمة وكلمات قليلة تقال فى وصف بعض البلدان ، والأسلوب العام أسلوب مرسل طليق اختاره ليكون دقيقا وواضحا فى وصف مشاهداته .

ويقول عن أهل مصر إنهم « ذوو طرب وسرور ولهو » أما المدارس فلا يحيط أحد بها لكثرتها ، ويشيد بمارستان قلاوون وأن الواصف يعجز عن بيان محاسنه إذ أُعِدّ فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر ، ويقول إن مجباه (ما يجبى إليه وينفق عليه) ألف دينار كل يوم . ويقول إن الزوايا الخاصة بالزهاد والمتصوفة تكثر فى مصر كثرة مفرطة . وينزل آسيا الصغرى ويتجول فى بلدانها ويصف مشاهدها ومساجدها ومدارسها وحماماتها ويتحدث عن حكامها من السلاجقة والعثمانيين ، ويعجب فيها بنظام للفتوة يقوم به فتيان على حسن الضيافة وإيواء

الغريب . ووجدهم فى كل بلدة يتخذون لهم رئيسا كما يتخذون مقرًّا يتعاونون فيه على البر بالضيف وإكرامه ، وكان هذا النظام للفتوة هناك يسمَّى « الأُخيَّة » ويصفه قائلاً :

ذكرُ الأُخيَّة الفتيان : واحد الأخيَّة أخى على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه ، وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية ، فى كل بلد ومدينة وقرية ، ولا يوجد فى الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس وأسرع إلى إطعام الطعام وقضاء الحوائج والأخذ على أيدى الظَّلمة . والأخى عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجرِّدين ويقدمونه على أنفسهم ، وتلك هى الفتوة . ويبنى زاوية ويجعل فيها الفرش والسُّرُج وما يحتاج إليه من الآلات ، ويخدم أصحابه بالنهار فى طلب معايشهم ، ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشترون به الفواكه والطعام إلى غير ذلك مما ينفق فى الزاوية ، فإن ورد فى ذلك اليوم مسافرٌ على البلد أنزلوه عندهم . وكان ذلك ضيافته لديهم ، ولا يزال عندهم حتى ينصرف . وإن لم يرد وارد اجتمعوا على طعامهم ، فأكلوا وغنّوا ورقصوا ، وانصرفوا إلى صناعتهم بالغدوِّ (صباحا) وأتوا بعد العصر إلى مقدَّمهم بما اجتمع لهم ، ويسمَّون الفتيان ، ويسمى مقدمهم – كما ذكرنا – الأخى . ولم أر فى الدنيا أجمل أفعالا منهم ، ويشبههم فى أفعالهم أهل شيراز وأصفهان (فى غربى إيران) إلا أن هؤلاء أحبّ فى الوارد والصادر ، وأعظم إكراما وشفقة . وفى اليوم الثانى من يوم وصولنا .. أتى أحد هؤلاء الفتيان إلى الشيخ شهاب الدين الحموى (رفيق لابن بطوطة) وتكلم معه باللسان التركى ، ولم أكن يومئذ أفهمه (إذ تعلّمه فيما بعد) وكان عليه أثواب خَلَقة ، وعلى رأسه قلنسوة لِبْد (صوف) فقال لى الشيخ أتعلم ما يقول الرجل فقلت : لا أعلم ما قال ، فقال لى : إنه يدعوك إلى ضيافته أنت وأصحابك فعجبت منه وقلت له : نعم . فلما انصرف قلت للشيخ : هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفنا ولا نريد أن نكلفه ، فضحك الشيخ ، وقال لى هذا أحد شيوخ الفتيان الأخيَّة ، وهو من الخزَّازين (إسكافى) وفيه كرم نفس وأصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدَّموه على أنفسهم ، وبنوا زاوية للضيافة ، وما يجتمع لهم بالنهار ينفقونه بالليل . فلما صلَّيتُ المغرب عاد إلينا ذلك الرجل وذهبنا معه إلى زاويته ، فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالبُسط الرومية الحسان ، وبها الكثير من ثُرَيَّات الزجاج العراقى ، وفى المجلس خمسة من البياسيس ، والبيسوس شبه المنارة من النحاس ، وله أرجل ثلاث ، وفى وسطه أنبوبٌ للفتيلة ، ويُملأ من الشَّحْم المذاب ، وإلى جانبه آنية نحاس ملأى بالشحم وفيها مقراضٌ لإصلاح الفتيل ، وأحدهم موكَّل بها ، ويسمَّى عندهم الجراغجى . وقد اصطفَّ فى المجلس جماعة من الشبان ، لباسهم الأقبية وفى أرجلهم الأخفاف (جمع خفّ) وكل واحد منهم متحزم ، وعلى وسطه سكين فى طول ذراعين ، وعلى رءوسهم قلانس بيض من الصوف ، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها فى

طول ذراع وعرض إصبعين ، فإذا استقرّ بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ووضعها بين يديه ، وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردخانى (ضرب من الحرير) وسواه حسنة المنظر ، وفى وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين . ولما استقرَّ بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ، ثم أخذوا فى الغناء والرقص فراقنا حالهم ، وطال عجبنا من سماحتهم وكرم أنفسهم ، وانصرفنا عنهم آخر الليل » .

وبهذا الأسلوب المرسل فى حبكة السرد ودقة الوصف تتميز كتابة ابن بطوطة فى رحلته ، ويقول إنه كان بعد ضيافته فى هذه الزاوية كلما نزل من بلاد الأناضول سأل عن الأخيَّة ، وأحيانا كانوا لا ينتظرون حتى يسأل عنهم ، بل يسرعون إليه ، وتتعارك جماعاتهم عليه . ويذكر صناعاتهم وحاكم كل بلدة ومن حوله من الفقهاء والعلماء وما منحه من الهدايا والصلات ، ودائما – كعادته فى كل بلدة نزلها – يذكر حكايات النسَّاك ومن فيها من أصحاب الكرامات المسمون بالأولياء . وينتقل إلى شبه جزيرة القرم وبلدان مغول القفجاق وسلطانها : محمد أوزبك وذهابه لزيارته فى عاصمته « السرا » شمالى بحر خوارزم وكان معسكرا بجيشه قريبا منها ، وركب إليه مع حاكم شبه جزيرة القرم عربة تجرها الجياد « وعلى العربة شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق ، وهى خفيفة الحمل وتُكسَى باللبد (الصوف) أو الملف (الجوخ) ، وفيها طيقان مشبكة ويرى الذى بداخلها الناس ولا يرونه ، ويتقلب فيها كما يحب ، وينام ، ويأكل ، ويقرأ ، ويكتب وهو فى حال سيره » .

ووصل إلى معسكر السلطان وقال إنه يشبه مدينة عظيمة تسير بأهلها ، ففيه المساجد والأسواق والمطابخ ، وكل ذلك تحمله وتجره العربات . ودخل على السلطان محمد أوزبك فأكرمه . ويعده من أعاظم ملوك الدنيا ، ويصف مجلسه الذى كان يتخذه فى كل يوم جمعة بعد الصلاة يقول : « إنه يجلس فى قبة تسمى قبة الذهب ، مزينة بديعة ، وهى من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب ، وفى وسطها سرير من خشب مكسو بصفائح الفضة المذهبة وقوائمه فضة خالصة ورءوسها مرصعة بالجواهر ، ويقعد السلطان على السرير ، وعلى يمينه زوجتان وكذلك على يساره ، وكلما جاءت إحداهن قام لها السلطان وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير ، وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب » . ويفيض فى الحديث عن كل زوجة وجواريها ، ومماليكها وما أهدينه . ويعرف السلطان رغبته فى زيارة بلدان البلغار فيرسل معه من يهديه الطريق ، وحاول أن يدخل فى إقليمى ويسوا ويورا (روسيا) فى شمال البلغار حتى المحيط المتجمد الشمالى ويسميها أرض الظُّلمة . ويعدل عن ذلك لعظم المئونة . ومن طريف ما قاله عنها مما سمعه من الناس : أن السفر إليها لا يكون إلا فى عجلات صغار تجرُّها كلاب كبار ، فإن تلك المفازة ثيبا الجليد فلا يثبت فيها قدم الآدمى ولا حافر الدابة ، والكلاب

لها الأظفار فتثبت أقدامها فى الجليد » . ويصف العجلات التى تجرها الكلاب ومسيرتها . فحتى ما يسمعه عن بعض الأقاليم يعرف كيف يقصُّه بدقائقه . وتزور إحدى زوجات محمد أوزبك أباها ملك القسطنطينية فيرسله فى رفقتها يتجول فى بلدان تلك الدولة ، ويعود إلى حاضرة السلطان ، وينوه بفقيه يسمى نعمان الدين الخوارزمى كان السلطان يزوره كل يوم جمعة فلا يقوم إليه ويقعد السلطان بين يديه ويتواضع إليه والشيخ يترفَّع عليه حتى إذا حضره المساكين والفقراء تواضع لهم وكلمهم بألطف كلام .

ويطوف ابن بطوطة ببلدان سلاطين المغول فى التركستان ويمر ببلدان خراسان وأفغانستان إلى الهند ، وعيناه الواسعتان ترصد وتسجل كل ما بها من أنهار وغروس وأشجار وحبوب وفواكه . ويعرض سكانها بعاداتهم وحكامها وضيافتهم له . ويعجب لحرق الهندوس لموتاهم بالنار وتحريق النساء مع أزواجهنَّ حين يموتون وتقربهم إلى إلههم بالغرق فى نهر الكنج المقدس ، ولا يكتفى برواية ذلك بل يعرض فى تفصيل مشاهد من ذلك عرضا بديعا . ويحتفى به الأمراء والقضاة والفقهاء فى بلاد الهند حتى يصل إلى دهلى (دلهى) ويصف سورها ومزاراتها وجامعها ويذكر أن به ثلاث عشرة قبة وأربعة من الصحون ، وفى صحنه الشمالى صومعة (مئذنة) لا نظير لها فى بلاد الإسلام ورأسها من الرخام الخالص وتفاحاتها (رءوس أعمدتها) من الذهب الخالص وسلمها واسع بحيث تصعد فيه الفيلة . ويتحدث عن علماء دهلى ونسَّاكها وتاريخها منذ فتحها المسلمون وسلاطينها حتى سلطانها الأخير لأيامه محمد شاه ، كما يتحدث عن هذا السلطان وقصره ومجلسه وكثرة ما بخزائنه من الحلى والذهب ، ويقول إن سريره أو عرشه من الذهب الخالص وأن قوائمه مرصعة بالجواهر ، وأن طوله ثلاثة وعشرون شبرا ، وعرضه نصف ذلك ، ويطيل وصفه . ويخلع عليه الخلع السنيَّة وينعم عليه بوظيفة القضاء فى عاصمته ، ويظل يتولاها ثمانى سنوات كما مرَّ بنا . ويتحدث عن انتشار السحر فى الهند ويذكر ما رآه من عجائب فيها . وينزل جزائر ذيبة المهل (الملديف) ويفصل القول عن سكانها وملابسهم وعاداتهم فى الزواج وغير الزواج . ويتجه إلى الصين وينزل سومطرة أو بلاد الجاوة ويصف بعض أشجارها مثل اللبان والكافور والعود الهندى والقرنفل ، وفيها جميعا يقول :

« شجرة اللُّبان صغيرة تكون بقدر قامة الإنسان إلى ما دون ذلك وأغصانها كأغصان الخرشف (الخرشوف) وأوراقها صغار رقاق ، واللبان صمغية تكون فى أغصانها . وأما شجرة الكافور فهى قصب كقصب بلادنا ، إلا أن الأنابيب منها أطول وأغلظ ، ويكون الكافور فى داخل الأنابيب . وأما العود الهندى فشجره يشبه شجر البلوط إلا أن قشره رقيق ، وأوراقه كأوراق البلوط سواء ولا ثمر له . وأما أشجار القرنفل فهى ضخمة ، والمجلوب منها إلى بلادنا هو العيدان ، والذى يسميه أهل بلادنا نَوْر القرنفل فهو الذى يسقط من زهره وهو شبيه بزهر النارنج ، وثمر القرنفل هو المعروف فى بلادنا بجوز الطيب ، رأيت ذلك كله وشاهدته » .

وينزل الصين ويقول : في كل مدينة منها حي للمسلمين ينفردون فيه بسكناهم ومساجدهم ، ويقول إن لكل شخص من أهل الصين عكازاً يعتمد عليه في المشي ، ويذكر أن الحرير عندهم كثير جدا وأنهم لا يتبايعون بالدينار والدرهم إنما بيعهم وشراؤهم بورق كل قطعة منه بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان (وهم بذلك أول من تعامل بأوراق نقدية) وينوّه ببراعتهم في التصوير ويطيل الحديث في ذلك ، وقال إنهم يتخذون بيوتا لذوى العاهات . ويقص ما شاهده من عجائب هناك . ويعود من الصين إلى موطنه بعد أن أدّى فريضة الحج ، ويرحل رحلته الثانية إلى الأندلس ثم رحلته الثالثة إلى السودان الغربي على المحيط الأطلسي .

والرحلة تصور العالم الإسلامي في النصف الأول من القرن الثامن الهجرى أروع تصوير لا بقلم كاتب كبير فحسب بل بريشة فنان بارع وقد اهتم بها المستشرقون فنشروها مع ترجمتها للغاتهم كما نشروا منها قطعا أو أقساما مع ترجمتها والتعليق عليها .

(د) محمد[1] بن على الفَشْتالى

من قبيلة فَشْتالة التى كانت تنزل فى الشمال الغربى لمدينة فاس ، وهى قبيلة صنهاجية وقد ولد بها سنة ٩٥٦ هـ/١٥٤٩ م وتركها مبكرا للتزود من حلقات العلماء فى فاس ، وتفتحت موهبته الأدبية سريعا ، فكان شاعرا كاتبا وعمل فى دواوين الدولة السعدية ، وعرف المنصور الذهبى فضله ، فما زال يرقى به حتى أسند إليه رياسة القلم بديوانه ، واستعان فيها ببلديه ومواطنه عبد العزيز الفشتالى ، وهو يثنى عليه كثيرا فى كتابه : « مناهل الصفا » وكان المنصور الذهبى يأنس إليه ، ففسح له فى مجالسه الأدبية والعلمية وشارك فيما كان بها من مساجلات ، وكان ما يزال ينظم فيه مدائح بديعة فى مقدمتها مولدياته التى كان يلقيها فى احتفال المنصور بالمولد النبوى الشريف ، وفيه يقول أحمد بن القاضى فى كتابه : درة الحجال : « وزير القلم الأعلى الأديب البليغ الشهير الذكر بالمغرب ، وهو علم فى الفضيلة والسراوة[2] ومكارم الأخلاق وكرم النفس ، واسع الإيثار ، متين الحرمة ، عالى الهمة ، كاتب بليغ أديب شاعر ، حسن الخط ، فصيح اللسان ، مؤثر لأهل العلم والأدب » . ويذكره فى كتابه المنتقى مرارا بمثل قوله : « وزير القلم الأعلى ، وحائز القدح[3] ، المعلى ، الكاتب الأعظم ، والخِضَمّ المفخَّم ، الناظم الناثر ، وحائز قصبات السبق فى الدفاتر » . وكلفه المنصور الذهبى بسفارة إلى الخليفة العثمانى مراد بن السلطان سليم فأداها على خير وجه ، وتعرف فى أثناء ذلك على الخفاجى

(١) انظر فى ترجمة محمد بن على الفشتالى كتاب درة الحجال ١٩٠/٢ والمنتقى ٣٢٩/١ وريحانة الألبا للخفاجى ص ١٤٨ – ١٦١ والنبوغ المغربى ٢٧٥/١ لكنون وكتابه رسائل سعدية والوافى ٦٩٢/٣ .

(٢) السراوة : الشرف .

(٣) القدح المعلى : أكثر أقداح القمار نصيبا ويكنى به المكانة الرفيعة .

صاحب كتاب الريحانة وانعقدت بينهما صداقة مما جعل الخفاجي – وقد أعجب به – يترجم له في كتابه ، وفيه يقول : « وزير مولاى أحمد (المنصور) أديب فاس ، وريحانة فضلائها الأكياس[1] ، تقدم فيها متقلدا قلادة إنشائها ، فائقا برسائله على سائر أدبائها .. وله ماء شعر تشربه أفواه الأسماع ، ورياض منثور تغرِّد حمائم قوافيه بمطرب الأسجاع . ويحتفظ كتاب « رسائل سعدية » بكثير من رسائله إلى البلدان المغربية وباشوات الدولة العثمانية ووزرائها والجيش الجزائرى . ويقول الأستاذ كنون فى تقديمه لتلك الرسائل إن لمحمد بن على الفشتالى منها ١٨ فصلا ومكتوبا ، من ذلك رسالة إلى أهل فاس أهل الحضرة السعدية يخبرهم فيها بفتوح السودان سنة ٦٩٨ للهجرة قائلا[2] :

« أما بعد حمد الله الواسع الجود والعطاء ، المصرِّف الأقدار على حكم السرعة من إرادته والإبطاء ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذى سنَّ تجهيز البعوث لتدويخ الأقطار ، بتوالى تكائف القبائل والقِطار[3] ، والرِّضا عن آله وصحبه الذين اقتفوا من ذلك أوضح سبيل ، واغتنموا نَشْر نسيمه البليل ، والدعاء لهذا الأمر الكريم (الفتح) بما يزيده عزاً وظهورا ، ويجعله فى عين الوجود نورا ، فإنا كتبناه إليكم من حضرتنا العليَّة ، ومجمع المفاخر القريبة والقصيَّة : حمراء مُرَّاكُش ، حرسها الله . هذا وإنَّا ننهى إليكم – عرَّفكم الله عوارفَ آلائه الجِسام ، وأطلع عليكم أوجه البشائر واضحةَ القَسَام – بأنه لما انصبَّ عزمنا الميمَّن فى سالف التاريخ ، وتاقت هِمَمُنا العلية لتدويخ بلاد السودان بأتمِّ وجوه التدويخ ، وجَّهنا من عساكرنا الكثيفة ، ذات الأنفس الأبية المنيفة[4] ، جملةً يتكفَّل معها الإسعاد ، بكمال المراد ، ونُبذة نُشرت عليها من ألوتينا الظافرة كلَّ فَتْخاء[5] قاهرة ، أطارها اليُمْنُ كلَّ مطار ، ولجَّج بها الإقبال لُججَ القِفار ، تخوض آلاً[6] تتراكم أمواجه ، وتفتح بابًا طالما طُلْسيم رتاجه[7] ، فاقتحم العساكر أحياء وحِلالا[8] وارتدى من المهابة وبُعد الصيت برودًا وحُلَلا ، حتى أدخل رِبْقة[9] طاعة هذه الإيالة[10] من الشعوب الصحراوية ، والقبائل الوَبريَّة من أعاريب الكُراع[11] ، التى لم ترتض بولايته ولا طاعته ، جموعا كثيرة ينتهى التعداد بهم على حكم ما أدَّوه من الزكاة الشرعية لستة وأربعين ألف خَيْمة . وهذه الجملة بالنسبة إلى ما وراءها من القبائل العربية الوحشية بعضٌ من كلّ ، وجزء من جُلّ . وانتهى الغَوْصُ والإبعاد ، بما وجَّهناه من الأجناد ،

(١) الأكياس ، جمع كيس : الحصيف .
(٢) رسائل سعدية ص ١٩٢ .
(٣) القطار : قوافل الإبل على نسق منتظم .
(٤) المنيفة : المتسامية .
(٥) فتخاء : عقاب .
(٦) آلا : سرابا .
(٧) الرتاج : الباب العظيم .
(٨) الحلل جمع حلة : مجتمع البيوت والناس .
(٩) ربقة : حبل .
(١٠) الإيالة : إقليم من أرض الدولة .
(١١) الكراع : عدة الجيش من الخيل والسلاح .

بعد مَقْرَبَةٍ من ثمانين مرحلةً فى المفاوز الصعبة المجاز إلى بلاد السودان ، والأنحاء التى جَنَا[1] طاعتها لهذه الإيالة – إن شاء الله – دان ، فتناهضت أجناسهم للدفاع ، بحكم التأليف والاجتماع ، بما ينيف[2] على أربعين ألف مقاتل ما بين حشود الأعراب وأخلاط الأتباع ، وجيوش السودان ، فانتفخ هِرُّهم ليَصُول ، وانتفض بُومُهم يشير للعِقبان بالنزول ، فما كان إلا اجتماع الفريقين ، وتدافع الجانبين . والغرض أن أنصار هذه المثابة وحُماتها قد مسَّهم النَّصَبُ بأوجه التأثير ، وأفنى جُلّ خيلهم مواصلة المسير ، حتى إنهم لم يتوفرَّ من أعدادهم حين الالتحام ، مع الأشقياء أبناء حام ، سوى سبعمائة رام ، وقُرْب عشرين فارسا ، وكان كلهم بالمكافحة والمنازلة ممارسا ، فهبّ عليهم من رياح النصر كل صَبا ، واتخذوا الشهامة والجِلاد سبيلا ومذهبا ، فخفقت الألوية العلويّة بالنَّصر والظَّفَر ، وانْبَتَّ[3] – بحمد الله – سِلكُ انتظامهم وانتثر ، وأتى الحَيْنُ والأسرُ على جموعهم فى الحِين ﴿ فقُطِعَ دابرُ القوم الذين ظلموا والحمدُ لله ربِّ العالمين ﴾ » .

وإنما ذكرنا هذه الرسالة بتمامها لندل على أسلوب محمد بن على الفشتالى المسجّع ، وأنه كان يمتلك ناصية اللغة بما يؤلف من الألفاظ المصقولة الرصينة ، كما كان يعنى أحيانا بالجناس والاستعارات الملائمة كاستعارة العقبان لجنود جيشه ، وعبر عن سلوكهم الصحراء الجنوبية بأنهم « فتحوا بابًا طالما طُلسم رتاجه ، فاقتحم العسكر أحياء وحِللا ، وارتدى من المهابة وبُعْد الصِّيت برودا وحُلَلاً » . ويقول عن أهل السودان الغربى فى محاولتهم منازلة جند المنصور : « انتفخ هِرُّهم وانتفض بومُهم يشير للعقبان (جنود المنصور) بالنزول » . ولعل فى هذه الاستعارات وما يماثلها فى الرسالة ما يدل على أن الفشتالى كان يمتلك ذهنا خصبا . ومن رسائله رسالة بلسان المنصور يعزى فيها رئيس وزراء الدولة العثمانية سنان باشا فى وفاة السلطان مراد خان ، وهى تستهل على هذه الصورة :

« الوزارة العظمى التى تُجال بأنظارها المسدَّدة قِداح التدابير الجلائل ، والمنزلة التى لها وفور الاختصاص من أثْرة[4] الإيالة العثمانية بأوضح الدلائل ، والمكانة التى ضَعْضَعَتْ عروش عظماء المشركين وطأطأت رءوس رؤساء الكفار ، والقطب الذى عليه فى دولة بنى عثمان أعظم المدار ، الوزير الأجلّ ، الأعظم ، الأفخم ، الكبير ، الخطير ، الأشمخ ، الأرسخ ، الأطول ، الأكمل ، المعتبَر ، المشتهر ، الحظىّ ، السَّرِىّ[5] ، الأقرب ، الأنجب ، الأثير ، الشهير ، الأخصّ ، الأخلص ، الأسعد ، الأصعد ، الأرقى ، الأنْقى ، الأظهر ، الأطهر ، المثيل ، الحفيل[6] ، سنان باشا أبقى الله حوزته[7] محروسة ، وربوعه بالمسرات مأنوسة ... هذا

(١) جنا : ثمر .
(٢) ينيف : يزيد .
(٣) انبتّ : انقطع .
(٤) أثرة : خلصاء .
(٥) السرى : الشريف .
(٦) المثيل : الفاضل . الحفيل : المحتفى به .
(٧) حوزته : دياره .

وقد طنَّ بهذه الأقطار ، نبأٌ فظيع التذكار ، فتَّت الأكباد ، وأذكى[1] – على التنائى – لواعج الفؤاد . خَطْبٌ جلل ، ورُزءٌ فَلَّ ظُبا[2] الصِّفاح والأسل ، ذلكم ما نزل به القضا ، وانتهى فيه الأمد وانقضى ، وهو انتقال السلطان الجليل الضخم ذى البَسْطة فى السلطان ، والملك الموطَّد بتمهيد الأركان : الخاقان[3] الأعظم ، والشاهق الأعصم ، السلطان مراد بن السلاطين الكبار .. وليس بمستنكر كونه – رحمه الله – لأهل التوحيد يدا ، ولهمم المسلمين مددا .. وإنا لله وإنا إليه راجعون من مواراة الحفر منه بدرا طالعا ، وإغمادِها سيفا كان فى حماية الدين قاطعا ... واللجأُ فيه إلى الصبر الجميل ، والضَّراعة إلى الله فى الجزاء الجزيل ، علما أن لابقاء لمخلوق مع تهيّىء رواحل الليالى والأيام » .

وهذه الرسالة بدورها تصور مهارة محمد بن على الفشتالى فى صوغ السجع ، وقد نعت سنان باشا فى أوائلها بنعوت متوالية جعلها جميعها مسجوعة ، فكل نعت يقترن بأخيه ، فى سجعات متعاقبة تكثر فيها الجناسات كما تكثر الاستعارات . ومضى فى الرسالة بعدما اقتبسناه منها يهنىء سنان باشا بتولى السلطان محمد بن السلطان مراد كرسى السلطنة العظمى بعد أبيه ، فقد آسى[4] الدهر به » . وبين رسائله رسالة على لسان المنصور إلى بدر الدين القرافى شيخ المالكية فى مصر ، وكان كثيرون من طلاب الفقه المالكى وشيوخه فى المغرب يزورون القاهرة للاستماع إلى محاضراته ويحملون عنه مؤلفاته ، ومن قول الفشتالى فى نعوته التى جعلها مقدمة لرسالته إنه « العمدة الراسخة البناء فليس إلا فى باب نعم اشتغاله ، والفذ الذى ما جرى التنازع فى الفهوم الدقيقة من أعراف النقدة الشوامخ ، إلا جاءت آيات غَوْصه وتحصيله لشُبَه الجموع نواسخ » وقد تصنع لإدخال بعض مصطلحات نحوية فى هذه السجعات هى : باب نعم والاشتغال والتنازع والنواسخ . ونلتقى فى الرسالة بطرائف استعاراته ، ويذكر عن المنصور إقامته للرسوم الشرعية ، والشعائر المرعية ، وجميل الالتفات للمتفقهة فى الدين والحملة الرواية فى حفظ سُنَّة سيد المرسلين » . وحقا نهض المنصور بالمغرب الأقصى نهضة علمية وأدبية كبرى ، مما جعل حلقات العلماء تزخر بالدروس والطلاب . وتنتهى الرسالة بقول المنصور :

« وهؤلاء خدَّام جنابنا العلىّ واردون على تلكم الديار برسم جلب ما لعلكم تستفرغون فيه الوُسْع من الكتب لخزائننا العلمية الحافلة .. وأما التشوق لموضوعكم (لشرحكم) على مختصر خليل فشىء لا يكيَّف ، ومعهود لا يحتاج أن يعرَّف ، وبودُّنا أن يكون من خزائننا الحافلة بحيث المراجعة والمعاهدة ، والحضور والمشاهدة » .

---

(١) أذكى : أوقد .
(٢) ظبا الصفاح والأسل : حد الرماح والسيوف .
(٣) الخاقان : لقب سلاطين الترك .
(٤) آسى : عزّى وواسى .

والمنصور فى هذه الخاتمة لرسالته يقول للقرافى شيخ المالكية فى مصر أنه مرسل له ببعثة علمية لينتقى لها كتبا نفيسة ، مما ينبغى أن لا تخلو منها مكتبات فاس ، ويسأله أن يرسل إليه بمؤلفه أو بشرحه على مختصر خليل بن إسحق المصرى فى الفقه المالكى ، وكانت له شهرة مدوية فى البلاد المغربية . ولعل فى كل ما سبق ما يدل – بوضوح – على أن محمد بن على الفشتالى كان كاتبًا بارعًا ، وكانت وفاته سنة ١٠٢١ هـ/١٦١٣ م .

(هـ) محمد[1] بن الطيب العلمى

من الكتاب الشعراء فى أوائل عصر الدولة العلوية ، لا يعرف تاريخ مولده ، ولكن يعرف تاريخ وفاته إذ توجه إلى المشرق لأداء فريضة الحج ، وفى الطريق صعدت روحه إلى بارئها فى القاهرة سنة ١١٣٤ هـ/١٧٢١ م وهو تلميذ الشاعر ابن زاكور وحامل لواء الأدب المغربى بعده لا فى فاس مسقط رأسه وحدها بل فى المغرب الأقصى جميعه . ومثل لداته التحق بكتاتيب فاس لحفظ القرآن الكريم ، ثم أكبَّ على حلقات العلماء فى جامع القرويين ، وتفتحت موهبته الأدبيه مبكرا ، فنظم الشعر ، وأنشأ قصائد مديح للسلطان إسماعيل ، وطارت شهرته لا لما كان ينظم من أشعار فحسب ، فقد كان يجيد نظم المسمطات والموشحات كما كان يجيد التأليف الأدبى على نحو ما يتضح فى كتابه « الأنيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب » وقد عرض فيه اثنى عشر أديبا من معاصريه ، لعل أشهرهم أستاذه ابن زاكور ، وفيه يقول :

« وحيد البلاغة ، وفريد الصياغة ، الذى أرسخ فى أرض الفصاحة أقدامه ، وأكثر وثوبه على حل المشكلات وإقدامه ، فتصرف فى الإنشاء ، وعطف إنشاءه على الأخبار وأخباره على الإنشاء ، وقَرَع[2] الرجال ، فى ميادين الارتجال » . وله بجانب هذا الكتاب الطريف رسائل شخصية يزينها بسجعاته وما يختار لها من أشعار وبجناساته واستعاراته إذ كان أديب عصره غير منازَع ولا مزاحم ، وإحدى هذه الرسائل موجهة إلى صديقه محمد بن العربى الشرقى ، وفيها يقول :

« بعد ما تستحقه تلك السيادة ، الممنوحة بالحسنى وزيادة ، من السلام الذى طابت نفحاته ، وطالت غدواته وروحاته .. فإنه لما طال أمد الفراقِ ، وبلغت الروح التراقى وظُنّ أنه الحَيْن وقيل : مَنْ راقٍ ، فكرت فيمن يفك من يد الأشواق أسْرى ، ويجبر بين الأصحاء كسرى فقلت :

وبى منك ما لو كان بالشمس لم تَلُح ... وبالبدر لم يطلع وبالليل لم يَسْر

---

(١) انظر فى ترجمة ابن الطيب العلمى ورسائله ومقامته النبوغ المغربى ٣٢٤/١ و ٢٢١/٢ والوافى ٧٨٩/٣ والدكتور الأخضر ١٧٧ .

(٢) قرع الرجال : فاز عليهم .

فما عثرت بعد معاناة البَيْن ، ومعانقة الدهر المفرِّق بين المحبَّين ، إلا على بعض درر من كلامك ، استُخرجت من بحور مَددك بمداد أقلامك ، كنت ادَّخَرْتها عن القوم ، لمثل هذا اليوم :

تفقَّدْتها بعد السرورِ بكَوْنها وفى الليلة الظلماء يُفْتَقَدُ البدرُ

فما زالت تذكِّرنى أيام الوصال ، وتقطع من غرائب البين وتُخرسه إن صاح أوصال :

ذكرت بها بعد التفرُّق ما مضى زمان النَّقا والشيءُ بالشيء يُذْكَرُ

إلى أن استولت على يد الضَّياع ، وأعقبت لى ذلك الأمن بالارتياع ، فأصبحت من فراقك ملتاعا بلوعتين ، واحترقت بجمرتين ، والتدغت من جُحْر مرتين :

وكنت كذى رجلين رجلٍ مريضةٍ ورجلٍ رماها الدهـرُ يوما فشلَّتِ

غير أن الآمال كانت تشوِّقنى[1] ، والليالى لكتابك تشوِّقنى ، فكنت أصدِّق فيك الأوهام ، وأعدّ حديثها من الإلهام :

صدَّقتُ وهمى فى الحديث ولم أقل خبرٌ رواه الوهـمُ وَهْو ضعيفُ »

وهو فى مطلع رسالته يقتبس من سورة يونس : (الحسنى وزيادة) كما يقتبس من سورة القيامة : ﴿ إذا بلغت التراقى وقيل : من راق ﴾ ، ويتأثر بالحديث النبوى : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » ويتمثل بأبيات تتضح فيها رهافة ذوقه وبصره بالشعر العربى ودقة اختياره ، ولغة الرسالة وأساليبها تكتظ بالسلاسة والعذوبة ، مع ما يشيع فيها من الجناسات والطباقات والاستعارات . وكل ذلك يرفع من نثره وبلاغته فيه . ومن آثاره النثرية مقامة بديعة سماها « مقامة الحجام » رواها عن بعض الظرفاء وأنا أوجزها فى السطور التالية :

استهلَّها بأنه جلس يوما مع جماعة من الأحباب .. يتذاكرون ما مرَّ فى أيام الشباب ، وكان بينهم شاب حسن الصورة إلا أنَّ شعر شاربه طال ، واسترسل غاية الاسترسال ، فسألوه عن سبب طول شاربه ، فقال لهم : أنا أخبركم بخبر عجيب ، فقد صلَّيت يوما صلاة الاستخارة ، فوجدتنى مائلا إلى التجارة ، فقصدت مدينة سنجار ، وفتحت بها حانوتا بسوق التجار ، لبيع القماش ، والاستعانة به على المعاش ، وزيَّنت الدكان ، وكسوته الستائر على أربعة أركان . فحاول يوما دخول الحمام ، فوجد فى طريقه جماعة من النسوة بينهن فتاة جميلة ، فتبعتها حتى دخلت دارا أنيقة ، ورأى أمام الدار خياطا يخيط الثياب فى دكان . ويذكر الشاب أنه احتال على عقد صلة بينه وبين الخياط ، ونجح فى عقدها ، فأنبأه أن أباها خطيب البلد ، وهو كثير المال وليس له من أولاد سواها وخطبها كثيرون ، وردَّهم ولم يسمح لها بالزواج ، وتلطف

(١) تشوِّقنى : تجعلنى أتطلع وأطمح .

له الشاب حتى أنس به ، فدلَّه على عجوز مشهورة فى تزويج الفتيات ، ولقيته العجوز ، فوعدها بمال وتحف كثيرة إن هى نجحت فى وساطتها . وغابت عنه فترة وعادت إليه بعد شهر ، فأيأسته منها ، فقال لها إنى لا أريد منها سوى قُبلَتَيْنِ ، وأعطاها من الذهب ما أرضاها ، فعادت إلى الوساطة عند أم الفتاة ، وأقنعتها بلقاء الشاب المتيم لابنتها ، واتفقا على أن يزورها فى صلاة إحدى الجمع وأبوها مشغول عنها فى المسجد . وفى يوم الجمعة المضروب دخل عند حجَّام ليستتم حسن مظهره ، فوجد الحجام شاربه طويلا فقصَّ أطرافه ، وبدلا من أن يعطى الشاب الحجام درهما أعطاه لارتباكه دينارا ، فطار صوابه ، وخرج وراءه ، ولازمه ولاصقه طامعا فى دنانيره حتى إذا دخل دار الفتاة ولول الحجَّام وصاح ولم يزل يصرخ ويستغيث ، ويقول ألا منجد ألا منجد ألا مغيث والعجوز راجفة والبنت واجفة[1] ومثلها الأم ، واجتمع الناس والحجام يصيح : يا سيداه ، يا مولاه ، وخرج الناس من صلاة الجمعة وتجمع الناس عند الدارِ ، ووصل الخبر إلى خطيب البلد فحضر ، وسأل الحجام ما الخبر ؟ فقال له إن سيدى دخل إلى هذه الدار ومعه كيسٌ فيه ألف دينار فطمعوا فيه فأدخلوه وقتلوه . ووجد الشاب فى الدار بئرا فرمى نفسه فيها ليختبىء عن عيون الناس ، ودخل الخطيب الدار ومعه الحجام يبحثان عن الشاب ، وعرف الحجام مخبأه فى البئر ، فسأل الخطيب أبو الفتاة الشاب عن سبب دخوله الدار ، فأجابه مموِّها عليه : دخلت لكى أسرق ، فَحُمل إلى الوالى على أقبح حال وأسوأ شان ، وأمر بسجنه ، وبقى فى الحبس سنة . وكان المساجين يعرضون كل عام على السلطان فى شهر رمضان لينظر فى أمرهم ، وعُرض عليه الشاب فسأله عن الأمر الذى حُبس من أجله ، فقال له ، إنها قضية أذكرها بين يديك لتحكم فيها ، وذكر له حكايته على وجهها الصحيح ، فأمر برد ماله كما أمر الخطيب أن يزوجه من ابنته ، ودفع له الصداق . وسلم الحجام للشاب فصلبه على باب داره . ثم قال : وأنا من هذا الحين لا أقص شاربى أبدا .

وقارن الأستاذ محمد بن تاويت بين عناصر هذه المقامة لابن الطيب العلمى وبعض عناصر المقامة السنجارية للحريرى ، ولاحظ كثيرًا من التشابه بين عناصر المقامتين حتى فى بعض العبارات والصيغ ، ونجد ابن الطيب العلمى يذكر عن بطلها أنه قصد مدينة سنجار بقصد التجارة ، وهى المدينة التى عقد عليها الحريرى مقامته السنجارية . ومقامة العلمى لا تدور على الشحاذة الأدبية مثل مقامة الحريرى . وقد أخلاها – كما ذكر الأستاذ ابن تاويت – من الألفاظ الغريبة الكثيرة التى استظهرها الحريرى فى مقامته ، وأجرى فيها روح الفكاهة مع السلاسة والعذوبة على نحو ما يبدو فى القطعة التالية المقتطفة من أوائلها :

---

(١) واجفة : مضطربة .

« اتفق لى فى بعض الأيام ضرورةٌ إلى دخول الحمام ، فوجدت فى طريقى جماعة من النسوان ، بينهن فتاة كأنها قضيب البان ، فلمحت من تحت الإزار معصمها وقد سطع صفاؤه ، وأبصرت من تحت النقاب جسمها وقد لمع ضياؤه ، فوقفت وقد جرى من الجفون الدم ، وعجزت عن نقل القدم ، ثم تبعتها من بعيد ، ولاحظتها إلى أين تريد ، فدخلت دارا يدل إتقان بابها ، على سعادة أربابها ، ونظرت فإذا بالقرب من ذلك المكان ، خيَّاط يخيط فى دكان ، وعنده من الصناع والأعوان ، ذوو أذقان ومُرْدان[1] ، صِنْوانٌ[2] وغير صنوان ، فقلت فى نفسى : مِنْ هذا الخياط أستفهم ، عمَّا علىَّ أبهم . فرجعت إلى دكانى ، ثانيا عنانى ، وأحضرت عِدَّةً من التفاصيل ، وجئت بها إلى حانوت الخياط بقصد التفصيل ، فجالسته وحاورته وآنسته ، وفصلت ذلك القماش ، وعجَّلت له من الأجرة ما يحصل به الانتعاش ، ففرح بحضورى ، واعتنى بأمورى ، ووجدت عنده معرفة بالأدب ، وشكا إلىَّ من ضيق الحال والسَّغب[3] ، وأنشدنى لنفسه من شعره المستعذب :

أنا الخيَّاطُ لى رزقٌ ولكن أرى حالى من الإفلاس عِبْرَه
ذراعى فيه من فَقْرى مِقَصٌّ ورزقى خارجٌ من عَيْن إِبْرَه

فاستحسنت نظمه ، وحملت همَّه وسألته عن صُنَّاع دكانه ، وديار جيرانه ، فمازال يشير إلى كل دار ويشرح حالها ، ويعرِّفنى تفصيلها وإجمالها ، حتى أفضى الحديث إلى الدار التى أختارها ، وقصدى أن تتضح لى أخبارها ، فقال : هى دار خطيب البلد ، وهو رجل كثير المال قليل الولد ، مشهور بالتَّوْقرة الزائدة ، ولا له من الأولاد إلا ابنة واحدة ، وهى روحه التى بين جنبيه ، والسواد الذى فيه نور عينيه ، وقد منعها الأزواج ولم يسمح لها بالزواج » .

والمقامة تجرى بهذه الروح الفكهة التى ترسم الابتسامة على الشفاه ، وهى سجع خالص ، سجع قصير يحدث ضروبا من التلاؤم الصوتى بين العبارات ويحسِّن جرسها ووقعها فى الأسماع ، حتى لتنساب انسياب الجدول الرقراق المتدفق بالماء العَذْب القَراح .

(١) مردان : جمع أمرد : شاب .
(٢) صنوان : شقيقان أو متماثلان .
(٣) السغب : الجوع .